



تاريخ المغرب الكبير في العصور الوسطى





منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ المغرب الكبير في العصور الوسطى

تأليف الدكتور
علي أحمد
أستاذ في قسم التاريخ

١٤٣٣-١٤٣٢ هـ
٢٠١٢-٢٠١١ م

جامعة دمشق



٧	مقدمة
٩	الفصل الأول: جغرافية المغرب الطبيعية وأصل السكان فيه وحالته السياسية في العصور القديمة
٢١	الفصل الثاني: الفتح العربي للمغرب الكبير
٣٣	الفصل الثالث: مجريات عصر السيادة بالمغرب الكبير
٤٧	الفصل الرابع: تجزؤ المغرب الكبير إلى دول مستقلة
٨٣	الفصل الخامس: قيام دولة الفاطميين وسقوط الدول المستقلة
١٠٥	الفصل السادس: دخول القبائل العربية من سلجم وهلال إلى المغرب الكبير
١١١	الفصل السابع: قيام دولة المرابطين بالمغرب الكبير وانضمام الأندلس إليها
١٤٩	الفصل الثامن: سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين على أنقاضها
١٨٧	الفصل التاسع: سقوط دولة الموحدين وظهور الدول المنفصلة في المغرب الكبير
٢١٣	الفصل العاشر: هجرة المغاربة والأندلسيين إلى المشرق العربي
٢٣٥	الفصل الحادي عشر: تعاون المغاربة مع المشاركة في الحروب الفرنجية

الفصل الثاني عشر: القدس في نظر المغاربة والأندلسيين خلال
العصور الوسطى

الفصل الثالث عشر: مظاهر التعريب في المغرب الكبير

الفصل الرابع عشر: مؤثرات العرب الحضارية في الغرب الأوربي
في عصر الموحدين.

الملاحق

المصادر والمراجع

مقدمة

أحداث جمة مختلفة في حجمها وتأثيرها وزمن حدوثها، شكلت أساس ومضمون تاريخ المغرب الكبير في العصور الوسطى، وهذه الأحداث مجتمعة تساعد القارئ على فهم واستيعاب كل ما يجري في الفترة المعاصرة بالمغرب الكبير، دون أية صعوبات أو غموض . فحينما كانت الوحدة تسود جميع أجزاء المغرب الكبير، كانت المعاناة والمشاكل السلبية تختفي بصورة شبه كاملة . وحينما تنفرط هذه الوحدة ويتجزأ المغرب الكبير إلى دويلات مذهبية أو عرقية، تعود المعاناة للظهور في حياة المغاربة من جديد بكل أشكالها وألوانها، ويعم ضررها كل المغاربة على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم ومكوناتهم . وهذا ما جعل المغرب الكبير في فترات معينة في العصور الوسطى، على الرغم من إمكاناته الكبيرة طرفاً ضعيفاً غير فاعل في الأحداث الهامة والمصيرية في مجال السياسة والاقتصاد والحياة العلمية والاجتماعية فقد فشل المغاربة في صنع حياة إيجابية كريمة، حينما سمحوا أن تسود في بلادهم حياة الفرقة والانفصال والتفوق داخل حدود كاذبة ووهمية، كما فشلوا في كبح جماح المعتدين من نورمان وفرنجة وغيرهم.

لكنهم حينما توحّدوا بقيادة الفاطميين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، شكلوا قوة تمكنت من السيطرة على مصر، كخطوة أولى على طريق تحقيق وحدة العرب، التي كان الفاطميون يسعون لتحقيقها . وحصل الأمر نفسه حينما تمكن المغاربة من إنقاذ الأندلس من كارثة كانت محتمة، وقد تجسّد هذا الإنقاذ في كبح جماح حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية الشهيرة، وكذلك في إعادة توحيد الأندلس وإنهاء حالة سلبية في حياتها، هي التي تمثلت بعصر الطوائف وما سببه من أضرار وآلام.

كذلك فقد حدث الشيء نفسه في عصر الموحدين، حينما بقيت المغرب والأندلس دولة واحدة، شهدت نهضة علمية لافتة، عم تأثيرها الإيجابي معظم الأقطار الأوروبية . فهل يعود المغاربة إلى وعيهم فيصنعوا وحدة بلادهم من جديد، كي يصبحوا قوة معتبرة في شمال غرب إفريقيا المجاورة لأوروبا في الاقتصاد والعلم والحضارة، في وقت أصبح فيه الضعيف محتقراً ومنبوذاً، وأنه لا حياة إلا للأقوياء والمتحدين.



الفصل الأول

جغرافية المغرب الطبيعية وأصل السكان فيه وحالته السياسية في العصور القديمة

يشكل المغرب الكبير كمنطقة جغرافية أراضي الدول المغربية اليوم، وهي ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية وموريتانيا. ويقسم المغرب الكبير إلى ثلاث مناطق رئيسية، هي المنطقة الصحراوية في الجنوب، التي تشكل معظم المساحة العامة، ومنطقة الجبال التي تعرف بجبال الأطلس، التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى جبل نفوسة (الجبل الغربي) في جنوب غرب ليبيا. وتتفاوت ارتفاعات هذه الجبال من منطقة إلى أخرى، فتصل أعلى قمة فيها في المغرب الأقصى وهي قمة طبقال إلى (٤١٦٥م) عن سطح البحر، ثم تليها بعض قمم الأوراس في جنوب شرق الجزائر، حيث يصل ارتفاعها إلى (٢٤٠٠م) عن سطح البحر، ومنطقة السهول في الشمال بين جبال الأطلس والبحر المتوسط، وهي تتباين من حيث اتساعها ووجود الأنهار فيها، ولعل أوسعها السهل المغربي الذي يضم العديد من الأنهار ومصادر المياه.

قام الجغرافيون القدماء بتقسيم المغرب الكبير إلى أجزاء معروفة على أساس جغرافي محض لسهولة معرفته ودراسته، وهذه الأجزاء هي من الشرق إلى الغرب، إفريقية أو المغرب الأدنى وهي منطقة كانت تمتد في العصور الوسطى من طرابلس عاصمة ليبيا اليوم إلى بجاية أو تاهرت في الغرب، وكانت عاصمتها (القيروان). ثم المغرب الأوسط الذي كان يمتد من بجاية في الشرق إلى وادي ملوية في المغرب الأقصى، وقاعدته تلمسان، ويسمى بالأوسط لأنه

يتوسط بين المغربين الأدنى والأقصى. أما الجزء الثالث فهو المسمى بالمغرب الأقصى، الذي كان يمتد من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي، وسمي كذلك لأنه أبعد أجزاء المغرب الكبير عند دار الخلافة بالمشرق^(١).

وبعد المغرب الكبير من منطقة حوض البحر المتوسط، ذلك لأنه يتمتع بمناخات مناخية مشتركة مع بقية أجزاء هذا الحوض ولكن هذه السمات لا تصل إلى حد التطابق مع بقية الأجزاء الأخرى، مثال ذلك أن أمطاره لا توازي أمطار الجزء الأوربي على الإطلاق، وكذلك فهناك اختلاف في أصل السكان ولغتهم وما إلى ذلك^(٢).

أما أصل سكان المغرب الكبير فهم من أصول واحدة، فهم يسمون أنفسهم منذ القديم أمازيغ أو أمازيغ نسبة إلى جذهم مازيغ بن كنعان بن حسام، وتعني كلمة أمازيغ الرجال ذوي الأصول النقية. كما يشتهر بعضهم باسم آخر وهو البربر، وهو اسم أطلقه عليهم اليونان والرومان، وكذلك أطلقوه على كل الشعوب التي لا تتحدث اليونانية والرومانية. وقد جاء المغاربة من الشرق العربي على هجرتين، دخلت إحداهما من الشمال الشرقي، بينما دخلت الثانية من جهة الجنوب بعد أن توقفت لأمد طويل في شرق القارة الإفريقية السوداء، لهذا فإننا نرى أن قسماً من المغاربة تميل ألوانهم إلى البياض، وأن قسماً آخر تميل إلى السواد^(٣).

أما بالنسبة للغة القديمة للمغاربة، فقد كانت جزءاً من اللغات السامية الحامية، والدليل على ذلك وجود وحدة بينها وبين اللغات السامية الخاصة وبخاصة في القواعد والنحو، وكذلك وجود عدد جم من جذور الأفعال المشتركة،

(١) - المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٣٤٧ وما بعدها. ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٦-٧. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) - شارل جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ١٥.

(٣) - محمد علي بيور: المغرب الكبير، ص ١٧.

كما في لغة الطوارق، وفي بعض وجود الشواهد الأثرية والنقوش التي تعود إلى نحو قرنين قبل ميلاد السيد المسيح . فالأبجدية الطوارقية المشهورة باسم (تيفيناغ)، تدل على وجود اتصال أكيد مع الأبجدية المنقوش ما يماثلها على بعض صخور في صحارى جزيرة العرب⁽¹⁾. ومن حسن الحظ أن اللغة البربرية، لم تكن لغة مكتوبة على الرغم من انتشارها الواسع وبخاصة في المغرب الأقصى، لكن محاولات حديثة مدعومة من قوى أجنبية، تعمل على بعث هذه اللغة لأسباب سياسية معينة.

وحيثما جاء الفاتحون العرب إلى المغرب الكبير، وجدوا ثلاثة تجمعات قبلية كبيرة، تفرعت من مصدرين كبيرين، هما برنس وأتباعه برانس، ومادغيس الأيتر وأتباعه البتر. وهذه المجموعات هي :

مصمودة:

وكانت تشكل حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي المجموع الأكبر من سكان المغرب الأقصى. ومن أهم فروع هذه القبيلة الكبيرة، فرع غمارة التي توضع في جبال الريف بالمغرب الأقصى، وفرع (برغواطية) التي توضع في المنطقة السهلية الساحلية في منطقة الرباط الحالية، وفرع (دكالة) إلى الجنوب من منطقة توضع برغواطية، وهناك فرع (رقراقة) على نهر تنسيفت وقد اتسمت هذه المجموعات القبلية بالاستقرار إلى حد كبير وكذلك الغنى والبحوحة الاقتصادية . ومن هذه القبيلة تشكلت دولة الموحدين .

صنهاجة:

وتمثل المجموعة الثانية من حيث العدد بعد مصمودة، وكانت تقيم بوجه خاص بمنطقة القبائل الكبرى والصغرى . وأهم فروعها على الإطلاق هو فرع (كنامة) الذي اشتهر بالاستقرار الدائم . وهناك فرع آخر تمثل في مجموعات من

(1) r. oliver, J.D.fage. a short history, p.45 -

الجمالة المتنقلين في وأحات المغرب الأقصى بشكل خالص وبعض المناطق الأخرى مثل منطقة الأطلس الأعلى والأطلس الأوسط ومنطقة الريف . وفي العصر الإسلامي انتشر هذا الفرع في موريتانيا الحالية. ومن هذه القبيلة تكونت قيادة الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس .

زناينة:

وهي من القبائل غير المستقرة لأن معظمها من رعاة الخيل، فكانت تجوب معظم مناطق المغرب الكبير على الرغم من أنها انطلقت في الأصل من سهوب تونس وطرابلس الجنوبية. ومن أشهر فروع هذه القبيلة بنو يفرن ومكناسة ومغراوة، وهي فرع لم تعرف طوال حياتها شيئاً من الترابط أو الاتحاد . وشغلت أواراً مختلفة في تاريخ المغرب الكبير وكذلك في تاريخ الأندلس^(١).

خضع المغرب في العصور القديمة لعدد من الإمبراطوريات والشعوب، اختلف أمرها من حيث التأثير الإيجابي والسلبى فيه . وكان الفينيقيون أحد هذه الشعوب، وكانت صور الرائدة في هذا الميدان، حينما انطلقت منها مجموعة بقيادة الأميرة الصورية المشهورة (جونو)، التي هجرت المنطقة بعد وفاة زوجها اسرباس، تحت ضغوط مثلها شقيقها بيغماليون الذي كان يطمع فسي الاستئثار بثروتها وأموالها الجمة . وحينما وصلت إلى المغرب الأدنى بادرت إلى شراء قطعة أرض كبيرة، وأقامت عليها مدينة دعتها (كرت جونو) أي قرية جونو . ومع الأيام تطورت هذه المدينة من حيث تسميتها فأصبحت تدعى (قرطاجنة) . وتقول بعض الروايات أن اسم الأميرة الصورية هو (عليشة ديدو) الذي يعنى المقطع الأول منه اللاجئة.

H. terrasse.history of morocco . p. 22-23 - (١)

اتسعت قرطاجة مع مرور الزمن وأصبحت من المدن الكبرى بالمغرب الأدنى الأمر الذي جعلها عاصمة المغرب الكبير برمته، بعد أن تحققت سيطرة الفينيقيين على معظم مناطقه، وبخاصة على المنطقة الساحلية المعمورة.

عاشت دولة قرطاجة الفينيقية فترة طويلة من الزمن، دون أن تصطدم بأعداء حقيقيين، مما جعلها في نظر المغاربة قدوة حسنة في الريادة الحضارية العامة. تميز الفينيقيون بالمغرب الكبير بأعمالهم البحرية النشيطة، فتوغلوا في المحيط الأطلسي حتى اقتربوا من أمريكا، ويقال أنهم عرفوها قبل أن يعرفها الآخرون، وهم الذين دلوا الجميع عليها^(١).

ويبدو أن القرطاجيين كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية في صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها في جميع أنحاء الدولة، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عملتهم المعدنية من عملة غيرهم من الأمم^(٢).

وقد مال الفينيقيون إلى النظر والتدقيق في الطبيعة وما اشتملت عليه من أسرار، وأقبلوا على التفكير والاجتهاد في إدراك ومعرفة غوامض الدين الروحية، وأدى بهم ذلك إلى الخضوع للشمس تحت اسم (بعل). وكانت القرابين تقدم من قرطاجة إلى آلهة صيدا (عشتروت) المعروفة عند الآشوريين والبابليين باسم (عشتر) وهو كوكب الزهرة. وكان القرطاجيون بصورة عامة يعدون أعمالهم الدعارة والفجور أعمال تيمن، يتقربون من خلالها إلى آلهتهم.

فقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف، التي كانت تجري فيها مثل هذه المخازي في بلاد الفينيقيين^(٣).

(١) - قصة الحضارة ج ٩ ص ٨٦ .

(٢) - قصة الحضارة ج ٩ ص ٨٦ .

(٣) - جعفر الحسني، محاضرات المجمع العلمي العربي، ج ٣، ص ٥٧٦، طبعة دمشق ١٩٥٤.

عرفت قرطاجة بأنها دولة محبة وسلام تستهويها الفلاحة والأسفار التجارية والنشاطات الحضارية، ومع ذلك فقد أُجبرت مرغمة على خوض حروب دفاعية مريرة، كان في طبيعتها تلك الحروب التي أطلق عليها المؤرخون الحروب البونيقية أو البونية^(١) كان بعض هذه الحروب ضد اليونان من (٥٣٦ - ٣٠٦ ق.م) وكان سببها اقتصادياً تجسد بمزاحمة اليونانيين لقرطاجة في منتوجات البلاد الخاضعة لهم في صقلية، وكان النصر فيها لقرطاجة، وفيها برز نجم البطل القرطاجي هملكار.

ثم كانت الحرب مع الرومان، الذين اعتكوا على سيادة قرطاجة، وحاولوا التدخل في شؤونها العامة، فهبت قرطاجة مدافعة عن مصالحها، ووصل القرطاجيون إلى جبال الألب وألقوا الحصار على روما. لكن روما تمكنت من دحرهم عبر حروب طويلة الأمد، امتدت من ٢٩٤-١٤٦ ق.م وكانت نتيجتها زوال دولة قرطاجة من كل المغرب الكبير.

وقد بقيت آثار قرطاجة واضحة في كل معالم الحياة المغربية، لأنها كانت دولة صناعية بارزة، فقد صنعت الزجاج والعطور، واهتمت بالدباغة والنجارة وعمل الفخار والخزف، والنقش على الخشب والصخر، كما صنعت بشكل خاص السفن، الأمر الذي مكنها من عبو البحار والمحيطات من أجل التجارة. وبصورة عامة فإن تأثير قرطاجة في المغرب على الصعيد الحضاري، جعل المغرب قليل التأثر في الحضارة الرومانية وبخاصة عدم انتشار اللغة اللاتينية، حيث ظلت اللغة البونية هي السائدة حتى في صفوف المسيحيين الذين شاركوا في الحياة السياسية، مثال ذلك الإمبراطور سيثيموس سيفيروس، الذي أُجبر على إرسال أخته إلى المغرب لعدم تمكنها من التحدث باللاتينية.

(١) - أي البونيقين في لغة الرومان واللاتين.

وكذلك القديس أغسطين، الذي عاش أواخر العصر الروماني، نعته أعداؤه بأنه بوني، لأنه اعتمد على اللغة البونية في كل المسائل الكنسية لأن هذه اللغة كانت لا تزال مكتوبة وسائدة في عصره. وقد مهدت هذه اللغة على سيادة العربية وانتشارها بسرعة وسهولة في كل المغرب الكبير بعد إتمام عملية الفتح العربي للمغرب لكون اللغتين من أسرة واحدة. مثال ذلك أن الموقع الذي أُقيمت عليه مدينة قرطاجة كان اسمه (UTICA) ويكاد يكون هو اللفظ العربي (عتيقة).

تلا عصر السيادة القرطاجية فترة، امتدت قرابة ستة قرون سادت فيها روما المغرب الكبير بالتدريج، وبلغ سلطانها قمته في القرن الثالث الميلادي. وبشكل عام فقد امتدت السيادة الرومانية في المغرب العربي الكبير على كل الجزء الساحلي المعمور، الذي سادته قرطاجة من قبل.

ويبلغ عدد سكان المغرب في العصر الروماني ما يقارب من سبعة ملايين نسمة، وشكل الرومان منهم مقدار الثلث، الأمر الذي يدل على أهمية المغرب الكبير في نظر الرومان من الناحية الاقتصادية.

وقد عومل المغاربة في هذا العصر معاملة سيئة، فكان عليهم أن يعملوا لصالح الرومان، الذين عدوا أنفسهم سادة البلاد. واستخدموا جميع الوسائل، وبذلوا أقصى جهودهم من أجل بسط نفوذهم المادي والأدبي على سكان المغرب الكبير، فقد جعلوا التعليم أمراً إجبارياً باللغة اللاتينية، لكن الشعب المغربي، بقي محافظاً على لغته البونية، إلى جانب لغة الدولة المستعمرة.

اهتم الرومان في أثناء وجودهم بالمغرب بالتركيز على مختلف فروع الصناعة، مثل صناعة الأقمشة، وصناعة المصابيح الزيتية. كما اهتموا بالفنون الجميلة التي تميزت بمظاهر العظمة والفخامة والتزيين بالفسيفساء. كما اهتموا بإقامة السدود والصهاريج والقنوات، وحفرت الآبار بكثرة في المناطق المغربية المختلفة. هذا إلى جانب إقامة بعض المدن مثل سكيكدة وميلة والقل وغيرها،

وإقامة المسارح والساحات في وسط المدن وكذلك الملاعب والمسارح
والحمامات وما إلى ذلك^(١) كما عبدت الكثير من الطرق الواصلة بين شرق
المغرب الكبير وغربه. كما أقاموا بعض الجسور التي ما زال بعضها حتى الآن
في الطريق ما بين مدينتي القنطرة وبسكرة.

وقد نبغ عدد من العلماء في هذا العصر على الرغم من الضغوط
المختلفة، مثل أبوليوس المغربي، الذي كان من أعظم رجال عصره، وقد ألف
كتاباً اسمه المسوخ أو التطورات، كتبه في اللاتينية، وبلغ عدد أجزائه أحد عشر
جزءاً، صور فيه الحياة المغربية تصويراً دقيقاً.

لكن أكبر الآثار للدولة الرومانية بالمغرب الكبير، قد تجسد في انتشار
المسيحية، التي كان لها شهادتها في المغرب الأقصى. مثل القديس أغسطين
الذي عاش بين سنتي (٣٥٤-٤٣٠ م) في بلدة تاجيسته جنوب مينة بونة (عنابة)
اليوم من أم مسيحية وأب وثني. اعتنق المسيحية في أواخر عمره على المذهب
الأرثوذكسي، وصار يعمل بالتدريس والعبادة، وكان من أخطب خطباء عصره،
وأكثرهم تأثيراً في مستمعيه. وقد حارب الوثنية التي كانت تقف عقبة في وجه
تقدم الديانة المسيحية. وظلت آثاره الخالدة المرجع الوحيد للتدريس في جامعات
أوربا خلال العصور الوسطى إلى ما بعد النهضة^(٢).

ولإذا القديس موقف سياسي رائع، يدل على وفائه لقومه ووطنه، تجلى
بوقوفه ضد الهجوم الفاندالي البربري على المغرب الكبير، فأخلص في الدفاع
حتى النهاية، مع أن الفرصة أتحت ليهرب وينجو لكنه أبى ووقف في صفوف
المحاربين لمدة أربعة أشهر صابراً لحوادث التدمير والتخريب، إلى أن أدركه
الموت، فنال الشهادة مقاتلاً في سبيل وطنه وعقيدته،

(١) - قصة الحضارة، ج ١١، طبعة القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٥.

(٢) - قصة الحضارة، ج ١، ص ١٣٧.

فاستحق بذلك أن يصنف في عداد زعماء الفكر وعباقره الوطنيين والأحرار في المغرب العربي الكبير.

وفي سنة ٣٩٥م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين بسبب الفساد الإداري والاجتماعي، شرقي من نصيب أركاديوس، وغربي من نصيب هيريوس. وتوالت عليها منذ ذلك الحين الأمراض، التي استعصت على الشفاء، من انقسامات دينية وفتن داخلية، وغارات جرمانية متواصلة.

وتجرت الشعوب المتذبذبة عليها، ففي سنة ٤٠٩م تمكن الفاندال من التوطن في إسبانيا، مما جعل المغرب الكبير في نظرهم فريسة سهلة، يشتهونها لوفرة إنتاجها الزراعي، ويتحينون الفرصة المناسبة لاحتلاله^(١) وقد حاولوا احتلاله عدة مرات، ولم ينجحوا إلا في سنة ٤٢٩م، حينما ساعدهم القائد الروماني بونيفاس على إدخالهم إلى المغرب، الذي ترافق بممارسات وحشية من أعمال قتل وتدمير شملت معظم المعمور، حتى وصلوا إلى قرطاجة فسي سنة ٤٣٩م.

على الرغم من وحشية الفاندال وهمجيتهم، حيث لم يكونوا أصحاب حضارة راقية، فإنهم احترمو الحضارة الرومانية، فاحتفظوا بنظام الإدارة الرومانية القديم. وكان ملكهم هو الذي يترأس الحكومة، وله سلطات في الحكم مطلقة. وفي حال موته كان الذي يتولى العرش أكبر أعقاب الملك المتوفى من الذكور، بصرف النظر عن نسبة قرابته من الملك، وذلك تجنباً لنظام الوصاية في دولة تقوم أساساً على النظام الحربي.

وكان الجيش في دولة الفاندال من شعب الفاندال نفسه، وكان يتراوح ما بين خمسين ألفاً وثمانين ألفاً. وكان باستطاعتهم أن يتحولوا إلى عسكر عند الضرورة.

(١) - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، طبعة الإسكندرية، ١٩٦٦، ص ١-٢.

وبصورة عامة فقد تعصبوا لمذهبهم الأريوسي ضد الكاثوليك، ووقفوا ضد مصالح المغاربة العامة، فأنقلبوا بهم بالضرائب المختلفة، وقاموا بتخريب التحصينات والمنشآت في المدن المغربية، وكذلك عملوا على تخريب الكنائس الكاثوليكية، هذه الأعمال مجتمعة دفعت المغاربة جميعاً للوقوف ضد الوجود الفاندالي، الأمر الذي شجع البيزنطيين للتحرك باتجاه المغرب الكبير وتخليصه نهائياً من الفاندال، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ المغرب، الذي تخلص من غاصب، ليقع في يد غاصب جديد.

فقد كان من أعظم أمانى جستنيان، أن يسترجع أملاك الدولة الرومانية في كل المغرب الكبير. لكن استرداد المغرب، كان يحتاج لجيش قوي يمكن نقله بسهولة إلى المغرب، ذلك لأن الفرس كانوا يشكلون خطراً كبيراً على بيزنطة. لذلك قرر عقد معاهدة صلح مع الفرس سنة ٥٣٢م بقيادة كسرى أنوشروان بشروط قاسية على بيزنطة، منها التزام بيزنطة بدفع جزية سنوية كبيرة للفرس.

وقد كُلف القائد البيزنطي بليزاريوس بتنظيم حملة كبيرة أبحرت من القسطنطينية سنة ٥٣٣م، وحطت على الشاطئ التونسي جنوب مدينة سوسة على بعد ١٠٠ كم، وتم نزول البيزنطيين بهدوء، وكانت تعليمات بليزاريوس بعدم التعرض للسكان بالأذى، وتجنب تخريب العمران، لأنه كان يريد أن يكسب إلى جانبه محبة المغاربة، الذين عانوا كثيراً من ظلم الفاندال. ونزل البيزنطيون في قرطاجة، ثم سيطروا على بقية أجزاء المغرب، وتحقق حلمهم بعودة هذا الجزء إلى حكمهم.

وكانت أول أعمال البيزنطيين، أن قاموا بتدمير جميع التحصينات المعمارية، التي دمرها الفاندال، وهي التحصينات الرومانية. وبفوا بعض القلاع في قلب البلاد. وكانت التحصينات البيزنطية تقام حول الآثار القديمة، مثل الملاعب والآثار والحمامات، كما هو الحال في سببلة، وكانت المدن الكبرى

تحاط عادة بأسوار قوية ضخمة تحميها من الغزو الخارجي، ويتراوح ارتفاع السور في العادة ما بين ثمانية أمتار وعشرة، ويبلغ سمكه عادة ٢٣٠ متراً^(١) .

لم تلبث موجة الثقة ، التي جعلت المغاربة يرحبون بالبيزنطيين أن تبخرت وانقلبت إلى ما يشبه الحقد، الذي سيطر على نفوس المغاربة، وذلك بسبب الممارسات الظالمة، التي مارسها البيزنطيون على المغاربة الذين عوملوا على أنهم عبيد، ليس عليهم سوى الطاعة والامتثال لكل الأوامر البيزنطية، مما جعل الشعب المغربي يضع البيزنطيين على قدم المساواة مع الفاندال، وهذا ما انعكس بوضوح على مستقبل الحكم البيزنطي في المغرب الكبير .

زاد من حراجة موقف البيزنطيين، أنهم نقلوا إلى المغرب تلك الخلافات الدينية، التي كان لها الأثر الأكبر في انهيارها. وقد تأثر المغاربة بهذه الخلافات ، الذين كانوا بمعظمهم على المذهب الأرثوذكسي، واتسعت شقة الخلاف بين سائر الأوساط الاجتماعية، وكثر الجدل والتناظر بين الطوائف المسيحية وأرباب المذاهب. وحدثت نتيجة ذلك انقسامات كبيرة بين الكنيسة الشرقية والغربية، وأخذت بيزنطة في اضطهاد المخالفين لها وبخاصة اليهود انتقاماً، حيث ساعدوا الفاندال على مقاومة مذهب الروم فيما سبق، وكثرت المشاغبات والمناقشات، مما عرف بالتاريخ باسم الجدل البيزنطي^(٢).

وقد أدى هذا الوضع إلى ترسيخ النقمة العارمة على الحكم البيزنطي، فتفجرت الثورة العارمة، وحدثت حروب كثيرة، أجبرت القوات البيزنطية على الخضوع للأهلبيين وحررت بعض المراكز في المغرب الأوسط على يد السزعيم المغربي (يابداس) رئيس قبائل الأوراس، وكان من أهم المناطق المحررة قسنطينة وقالة وغيرهما. لكن هذا التحرير لم يدم طويلاً، حيث تمكن

(١) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، ص ٨١ .

(٢) - جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، طبعة القاهرة، ١٩٥٨، ص ٥٥ .

البيزنطيون من قتل الزعيم المغربي يابباس، وإعادة سيطرتهم مرة أخرى على المناطق المحررة، حتى جاء الفتح العربي الإسلامي للمغرب الكبير^(١).

وقد اقتصر نشاط البيزنطيين في المغرب الكبير على صعيد الأعمار، على تشييد بعض الكنائس وإقامة الأسوار حول المدن، مثل سور تنس، وقيصرية، وشرشال، وسطيف، وميلة، وتبسة، وغيرها.

ومع ذلك فقد تأثر العرب بالفن البيزنطي، فجعلوه في مساجدهم ومعابدهم^(٢).

وهكذا بقي حال المغرب الكبير في يد البيزنطيين، حتى جاء الفاتحون العرب المسلمون سنة ٢٧هـ/٦٤٧م، وقضوا على آخر حاكم بيزنطي في المغرب (جرجير) بعد أن أمضوا فيه ١١٣ سنة.

(١) - عبد الرحمن الجواليقي، ج ١، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) - أمين فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج ١، ص ٢٤٤، طبعة القاهرة.

الفصل الثاني

الفتح العربي للمغرب الكبير

حينما بدأت عملية فتح المغرب الكبير، كان الذي يسيطر عليه قنات الدولة البيزنطية، ولكن القوة البيزنطية العسكرية المسيطرة، لم تكن من الضخامة والقوة، بما يمنع العرب أو يخيفهم من البدء في عملية الفتح، هذا إذا علمنا أن القوة البيزنطية لم تكن مؤهلة للدفاع عن الأرض التي تسيطر عليها، والدليل على ذلك أن الفاتحين العرب، لم يجدوا صعوبات كبيرة في السيطرة على مواقع المقاومة البيزنطية، التي كانت تتوضع بخاصة في المغرب الأدنى. وكانت القوة البيزنطية في هذه الفترة بالذات، تتجسد بقوتها البحرية في الدرجة الأولى، مما جعلها تحكم سيطرتها على الجزء الساحلي المجاور للبحر المتوسط.

كانت بداية عملية الفتح العربي للمغرب الكبير بتحرير ليبيا من القوى البيزنطية، وقد أُنجز ذلك في فترة قياسية، ذلك لأن ليبيا حتى شرق طرابلس كانت تتبع لمصر، وهذا ما أصر عليه عمرو بن العاص بعد الانتهاء من فتح الإسكندرية. فقد ألقى حصاراً شديداً على برقة في سنة ٢١هـ/٦٤٢م، مما جعل حاميتها البيزنطية تطلب الصلح مقابل دفع الجزية. بعد ذلك تابع الفاتحون بقيادة عمرو بن العاص مسيرتهم باتجاه طرابلس، فألقى حصاراً قاسياً عليها كما فعل ببرقة، مما جعل حاميتها هي الأخرى تطلب الصلح ودفع جزية معينة. ثم تابع الفاتحون بعد ذلك حتى وصلوا إلى صبراتة، وفيها توقفوا لأسباب مختلفة، من أهمها أن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافق على متابعة مسيرة الفتح بعد صبراته باتجاه تونس، أضف إلى ذلك أن الحدود التونسية، كانت محصنة بصورة من الصعب على الفاتحين تجاوز هذه التحصينات، كذلك فإن البيزنطيين في مصر، كانوا قد استفادوا من غياب عمرو بن العاص بقواته الضاربة خارج مصر،

فحاولوا جاهدين إعادة احتلالهم وسيطرتهم على مصر. وفي الوقت ذاته كسان عقبة بن نافع الفهري، قد أنجز فتح عدة واحات في ليبيا منها واحة فزان وواحة زويلة^(١)

تطور الأمر في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر، حينما قام بانتزاع موافقة الخليفة عثمان بن عفان على دخول إفريقية، بعد أن كان قد تردد كثيراً سيراً على خطة عمر بن الخطاب في ذلك. فبعد عمليات استطلاعية متكررة في إفريقية سار ابن أبي سرح على رأس جيش من مصر، يضم في صفوفه كبار الصحابة في عصره مثل العبدلة الثلاثة وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الرحمن ابن زيد وعاصم بن عمر وبسر بن أرطأه، وقد سميت هذه الغزوة في بعض الأحيان بغزوة العبدلة، التي استغرقت سنتين من ٢٧-٢٩ هـ/٦٧٤-٦٧٩ م^(٢).

توجه ابن أبي سرح إلى منطقة سببلة، التي كانت من أهم المواقع الدفاعية البيزنطية ضد القوات المحلية، وفيها كان يربط غريغوريوس حاكم إفريقية البيزنطي، الذي تذكره المصادر العربية باسم جرجير، وسبب إقامته في هذه المنطقة، أنه كان منفصلاً عن السلطة المركزية البيزنطية، وكان يخشى أن يبقى في قرطاجة القريبة من الساحل، حتى لا تداهمه الأساطيل البيزنطية القوية^(٣). وفي منطقة بعقوبة بالقرب من سببلة، جرت معركة كبيرة بين قوات ابن أبي سرح وقوات جرجير، كادت أن تنهزم في بدايتها قوات ابن أبي سرح، لكن تغيير خطة القتال بتقسيم القوات إلى قسمين، قسم يقاتل العدو وقسم يستريح، أمكن من إحراز الانتصار على البيزنطيين وسقوط زعيمهم جرجير قتيلاً على يد عبد الله بن الزبير كما تقول غالبية الروايات^(٤).

(١) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص، ١٧٢، وما بعدها.

(٢) - المالكي، رياض النفوس، ص، ١٠.

(٣) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص ٧٥-٧٦.

(٤) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ١٠١-١٠٤.

عاد ابن أبي سرح مع قواته إلى مصر، بعد أن اتفق مع أهالي المنطقة التي غزاها على دفع جزية كبيرة، ذلك لأن مسألة الاستقرار في الأرض المفتوحة، لم تكن بعد قد أخذت بعين الاعتبار، لكن الالتزام بدفع الجزية لم يكن صادقا بسبب غياب الفاتحين العرب عن المغرب منذ رحيل ابن أبي سرح حتى سنة ٤٥هـ/٦٦٥م.

فحينما استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان في الخلافة والحكم، قام بتكليف معاوية بن حديج بقيادة حملة عسكرية إلى المغرب الأدنى في سنة ٤٥هـ/٦٦٥م. وقد أنجز تحرير بعض المناطق في المنطقة مثل قلعة جسولاء بالقرب من القيروان. وكانت تعد هذه القلعة من أهم حصون الدفاع في المنطقة. كما أن هذه الحملة تمكنت من تحرير بعض مناطق الساحل ولا سيما بنزرت^(١). لكن الأمور اختلفت منذ سنة ٥٠هـ/٦٧١م، حينما بدأ القادة الفاتحون يميلون إلى الاستقرار بالمغرب وعدم العودة إلى مصر. وهؤلاء القادة الفاتحون كانوا على قدر كبير من الوعي في تمثل المسؤولية والواجب في قيادة الجيش الفاتح بإخلاص واندفاع وروية، فنجحوا حيناً وأخفقوا حيناً آخر، وكانت النتيجة مرضية ومفرحة، لأنها توجت بفتح جميع مناطق المغرب الكبير وتخليصه من السيطرة الأجنبية التي تمثل آخرها في البيزنطيين. وهؤلاء القادة هم:

عقبة بن نافع الفهري:

الذي كان من خيرة التابعين وأفاضلهم، شارك كما رأينا في فتح ليبيا حينما كان ابن أربعة عشر عاماً، وتمكن من فتح بعض الواحات الداخلية الليبية مثل زويلة وفزان. وحينما عاد عمرو بن العاص إلى مصر كلف عقبة بحكم ليبيا. وحينما عينه معاوية بن أبي سفيان قائداً لعملية فتح المغرب الكبير، كانت

(١) - ابن عبد الحكم، للمصدر السابق، ص ٥٨ - ابن عذاري، المصدر السابق، ص ١٧، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٢ ص ١٥٦.

خبرته قد تراكمت في شؤون الحكم وفي معرفة طبيعة البلاد وأهلها، هذا بالإضافة إلى ثباته على مبدأ الصدق والوفاء لانتمائه العربي الإسلامي^(١).

تميز عقبة بن نافع عن القادة السابقين، الذين جاؤوا فاتحين إلى المغرب، في أنه كان يرى أن تحقيق الهدف من الفتح لن يحصل بدون الاستقرار في المناطق المفتوحة، لذلك نراه يتوجه على الفور لبناء قاعدة ثابتة، يستقر فيها الفاتحون بكل أصنافهم ومعداتهم وحاجاتهم. وقد تجسدت هذه القاعدة بمدينة القيروان، التي أنشأها في مكان ملائم لظروف الفاتحين في تلك الحقبة من الزمن، فقد اختارها أن تكون بعيدة عن البحر بما يمكنها من تحاشي الهجمات البيزنطية البحرية المباشرة، كما حرص أن تكون غير متوغلة في الداخل من أجل تحاشي هجمات المعارضين المغاربة، كذلك فقد أرادها أن تكون قريبة من منطقة المراعي من أجل تربية المواشي والإبل^(٢).

استمر بناء مدينة القيروان التي تعد أول مدينة في العصر الأموي حتى ٦٧٥هـ/٢٧٥م.

وفي هذا الوقت قام والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري بعزل عقبة عن ولاية المغرب، وذلك احتجاجاً على سياسة عقبة ضد المغاربة، التي تجسدت في بعض أعمال القتل والسطب لمن يعارضون، أضف إلى ذلك أنه لم يساو في العطاء والمعاملة بين المغاربة والمشاركة. وعُين بدلاً منه مولاة أبو المهاجر دينار، الذي كان يختلف عنه في مجال المعاملة للمغاربة وفي سياسته العامة تجاههم، التي تميزت بالمرونة واللفظ والمسامحة، الأمر الذي أدى إلى دخول عدد كبير منهم في الإسلام، وكان في طليعتهم كسيلة زعيم قبيلة أوربة، كذلك فقد

(١) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٣٤، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٠١.

(٢) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص٢٠-٢١، ابن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبعة تونس، ١٩٠١، ج١، ص٩.

ساعدته هذه السياسة الطيبة على التحرك باتجاه الغرب لمتابعة أعمال الفتح فوصلت جيوشه إلى مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط.

لكن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، الذي استلم الخلافة الأموية بعد أبيه أصبر على إعادة عقبة بن نافع إلى ولاية المغرب، على الرغم من كراهية قسم من المغاربة له. وحينما تبلغ عقبة أمر إعادته بادر على الفور لتنفيذ حملة عسكرية كبيرة في المغربيين الأوسط والأقصى، فوصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي، وقيل أنه دخل المحيط حتى بلغ الماء بطن فرسه، ورفع يده إلى السماء وقال : ((يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت إلى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك))^(١).

وكان قد انطلق في هذه الحملة الكبيرة من القيروان إلى مدينة باغاية في بداية جبال الأوراس بالجزائر، ومن هناك انطلق على وجه السرعة حتى وصل إلى تاهرت، وتمكن من هزيمة الروم وجميع المتعاونين معهم في هذه المنطقة، الأمر الذي ساعده على التوجه إلى المغرب الأقصى فدخل إلى سبته ثم إلى طنجة ثم توجه إلى منطقة السوس الجنوبية، بعد أن أقنعه بذلك حاكم سبته البيزنطي، الذي هادنه وسمع نصيحته في فتح مناطق الجنوب حتى وصل إلى سجلماسة، التي عاد منها مرة أخرى إلى شمال المغرب الأقصى، ومن هناك إلى المغرب الأوسط عبر ممر تازا، ومنه تابع العودة إلى القيروان على الطريق نفسه الذي جاء منه إلى المغرب الأوسط والأقصى.

وحينما وصل إلى موقع طينة التي تبعد عن القيروان نحو ٣٠٠ كم، ترك لجنوده حرية العودة إلى ديارهم بالقيروان، ولم يبق معه سوى بضعة آلاف قيل أنهم كانوا خمسة آلاف فقط، ومع ذلك فقد أراد بواسطتهم أن يفتح بعض المناطق التي كان فيها مجموعات رومية معادية. وفي هذه الفترة الحرجة هرب

(١) - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٧٢، السالكي، رياض النفوس، ص ٢٥.

كسيلة زعيم قبيلة أوزية، الذي كان يكره عقبة ويعارضه رداً على معاملة هذا الأخير السيئة لأبناء جلدته من المغاربة كما ذكرنا، وسنحت له الفرصة للاتصال مع الروم بتهودة الذي كان عقبة قد قرر أن يفتحها، وفي الوقت نفسه جمع معظم أبناء قبيلته، واستطاع بحكمة أن يباغت عقبة بتهودة^(١). ورغم أن عقبة تأكد من عدم النكافؤ بين تلك القوات التي استبقاها معه وبين قوات كسيلة، فإنه أصر على مواجهة الواقع بشجاعة نادرة، وفضل ذلك على الهزيمة، فأمر جنوده بالنزول عن خيولهم وكسروا أعماد سيوفهم تعبيراً عن الصمود حتى النهاية، وبالفعل فقد قاتلوا حتى استشهدوا جميعاً وفي طليعتهم القائد عقبة، الذي دفن بتهودة والتي أصبحت تسمى منذ ذلك الحين بسيدي عقبة إكراماً واحتراماً وتعظيماً لعقبة. وكان ذلك سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م^(٢).

كانت حادثة مقتل عقبة من الحوادث الكارثية، التي حلت بالفاتحين بالمغرب الكبير وهم في أوج حماسهم وإتقاد شعلتهم. فقد أدت هذه الكارثة إلى سيطرة كسيلة على العاصمة القيروان، الذي كان فيها زهير بن قيس البلوسي، الذي عجز عن حماية القيروان من السقوط. وقد تراقق ذلك مع وفاة يزيد بن معاوية واضطراب الأمور بالعاصمة دمشق، كان من نتيجتها أن انتقلت الخلافة من الأسرة السفينانية الأموية إلى الأسرة المروانية، وهذا ما ساعد كسيلة على إحكام سيطرته على القيروان فترة أربع سنوات متتالية، حينما استقرت الخلافة الأموية لعبد الملك ابن مروان الذي يُعد من كبار خلفاء بني أمية، فقام بتكليف زهير بن قيس البلوي بالتصدي لكسيلة وتحرير القيروان من سيطرته. وفي سنة ٦٩هـ / ٦٨٨م، التقى البلوي مع كسيلة في معركة بممس أسفرت عن هزيمة كسيلة. لكن ما أن انتهت هذه المعركة المظفرة حتى فوجئ الناس بهجوم

(١) - تقع هذه المدينة جنوب جبال الأوراس بالقرب من مدينة بسكرة بالجزائر.

(٢) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ١٦٩.

بيزنطي على برقة، فبادر البلوي للتصدي لهذا الهجوم، فتحرك إلى برقة على وجه السرعة وخاض مع البيزنطيين معركة كانت غير متكافئة، فانهزم العرب وقتل البلوي ومن معه من المقاتلين على شاكلة ما حدث بالأمس القريب لعقبة بن نافع^(١).

حسان بن النعمان الغساني:

يعد عصر حسان بن النعمان الغساني عصر تثبيت أقدام الفاتحين العرب بأفريقية وغيرها، على الرغم من أنه لم يأت إلى المغرب مباشرة بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي، ذلك لأن الخلافة كانت مشغولة للأسف في صراعات داخلية شكلت خطورة بالغة على الدولة الأموية بصورة عامة، وبخاصة حركة عبد الله بن الزبير التي كانت تسعى للانفراد بمنصب الخلافة الأموية. فحينما انتصرت الخلافة على هذه الحركة بمقتل صاحبها عبد الله بن الزبير في سنة ٧٣هـ/٩٦٢م بادر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعيين رجل من أهل الشام هو حسان بن النعمان الغساني والياً على المغرب الكبير، وقد كان حسان بن النعمان من القادة الذين توفرت فيهم صفات الوفاء والإخلاص والاستعداد والحماس لتعزيز الوجود العربي بالمغرب الكبير. لذلك نراه حينما وصل إلى القيروان أقام على الفور الهجوم على مدينة قرطاجة، لأنه كان يؤمن بأن الروم الذين يسكنون هذه المدينة هم السبب في تعثر حركة الفتح بالمغرب الكبير، ويُعد هجومه على هذه المدينة أول هجوم عربي من نوعه. وبهذا العمل تهيأ لهذا القائد أن الأمور أصبحت في متناول يده أو أنها غدت تحت السيطرة، لكن ما جرى كان مخالفاً لذلك تماماً، فقد تعثر حسان بن النعمان أمام مجموعة قبلية معادية تجسدت على أرض الواقع بقبيلة جراوي اليهودية في منطقة الأوراس بزعامة كاهنة دُعيت أحياناً دهيا وأحياناً أخرى ديميا. وقد تمكنت هذه الكاهنة من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات حسان بن النعمان الغساني، فلم تكف بقتل العديد من جنوده، بل قامت بملاحقته حتى أخرجه من أراضي أفريقية برمتها، وبالفعل فقد ظل يتابع المسير

(١) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٣١-٣٣، المالكي المصدر السابق، ص ٣٦، وما بعدها.

شرقاً في الأراضي الليبية حتى قرر الاستقرار مؤقتاً في منطقة سرت الحالية على مسافة (٢٥٠ كم) عن الحدود التونسية، وفي هذه المنطقة قام ببناء العديد من الحصون والقصور، مازالت تسمى حتى اليوم بقصور حسان.

أمضى في هذه القصور فترة خمسة سنوات دون أي تحرك يذكر. وفي سنة ٧٩هـ/٦٩٨م، وصلت إليه إمدادات جديدة، أرسلها الخليفة عبد الملك بن مروان. وفي غضون ذلك كانت الكاهنة دهباً، قد أمرت بتخريب كل المظاهر الحضارية والعمرانية في إفريقية، ذلك لأنها كانت تعتقد أن العرب لم يأتوا إلى هذه المنطقة إلا من أجل مزيد من السلب والنهب وجمع الثروات، فانعكس ذلك سلباً عليها تجسد بخلق حالة عدا كبرى عليها من قبل أصحاب الأراضي التي تخربت وهم من الأفارقة والروم. وحينما تقدمت قسوات حسان باتجاه هذه المناطق، قوبلت بالترحاب والتأييد من الأهالي، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نجاح حسان بن النعمان بالقضاء على معارضة الكاهنة نهائياً، بعد أن واجهها في معركتين متتاليتين^(١).

بعد هذا النصر المؤزر عاد حسان بن النعمان إلى مدينة القيروان، كي يرتب أمور الدولة وعملية الفتح من جديد على أسس ثابتة. فهاجم قرطاجة وفي هذا الهجوم أتى على تكثيرها نهائياً، وأمر ببناء مدينة جديدة بالقرب منها، كي يمنع عودة الروم إليها مرة أخرى، وأطلق اسم تونس على المدينة الجديدة، التي ستصبح سنة ١١٤هـ/٧٣٣م داراً هامة لصناعة السفن، بعد أن جيء بالأقباط المصريين المتخصصين إليها ومنذ ذلك الحين أصبحت مدينة تونس مدينة بحرية هامة في

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص٣٤-٣٥ - المالكي، المصدر السابق، ص٣٥ - ابن الأثير،

المصدر السابق، ج٤، ص ١١١ .

حوض البحر المتوسط الغربي، الأمر الذي سيجعلها قوة بحرية عربية جديدة في مواجهة التفوق البيزنطي في المستقبل^(١).

كما قام حسان بن النعمان بعمل آخر كانت له أهميته البالغة، هو اهتمامه البالغ بالأمور الإدارية والمالية وتنظيم الجيش، الذي أدخل فيه القوات المغربية، وساوها مع بقية القوات المشرقية في العطاء والقيادة وما إلى ذلك، وبذلك تحولت قواهم العامة من الموقف المعارض للعرب إلى التعاون والتعاقد معهم ضد الأعداء المتربصين. وبذلك تكون ولاية إفريقية قد تحولت إلى بلد عربي إسلامي، بفضل الوعي الكبير الذي كان يتمتع به حسان بن النعمان، الأمر الذي ساعد كثيراً على إتمام عملية الفتح بسهولة ويسر لم تكن معهودة في الفترة السابقة.

موسى بن نصير وإكمال عملية فتح المغرب الكبير:

في سنة ٨٥هـ/٧٠٤م فوجئ حسان بن النعمان الغساني بأمر عزله عن ولاية المغرب الكبير، على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققها في غضون فترة وجيزة، وقام بعزله والي مصر آنذاك عبد العزيز بن مروان، الذي أحب أن يكون موسى بن نصير بدلاً منه، وهو الرجل الذي عرف بإخلاصه الكبير للأمويين وبقي هكذا حتى آخر لحظة من حياته، ولكنهم لم يقدروا إخلاصه في هذه الفترة ولا إنجازاته العظيمة بالأندلس في أواخر حياته، فنكبوه وأذلوه كما لو كان رجلاً معادياً لهم.

لم يصطدم موسى بن نصير بأية صعوبات تذكر في إكمال عملية فسطح المغرب الكبير في الفترة بين سنتي ٨٧-٩٠هـ/٧٠٦-٧٠٩م. وبذلك خضع المغرب الكبير لسلطة الأمويين في عصر موسى بن نصير بشكل نهائي، وبدأت منذ ذلك

(١) - المالكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٧-٣٨ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٠ - ابن عذاري

، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥.

الحين الاستعدادات ووضع الخطط لفتح الأندلس، التي توجت بنجاحات كبيرة قل نظيرها في تاريخ العالم في العصور الوسطى.

بقي أن نذكر أن عملية فتح المغرب الكبير، كانت متميزة عن غيرها من عمليات الفتح بعدد من السمات والميزات الخاصة، التي لم يحدث مثيل لها في أي مكان آخر وصله العرب الفاتحون. فقد امتازت هذه العملية بطول الوقت التي استغرقتها حتى أنجزت، وأيضاً في غزارة الدماء التي أريقَت بسخاء وشجاعة وطواعية، وكذلك في العثرات التي مني بها الفاتحون في أوقات كثيرة. ويبدو أن أسباباً حقيقية كانت وراء هذه الأمور يمكن أن نذكرها بشيء من الإسهاب والتفصيل غير الممل، حتى تتوضح الصورة حولها تماماً. ومنها :

أن المسافة كانت بعيدة جداً بين الموقع، الذي كانت تنطلق منه قوة الفتح وبين الموقع المراد فتحه، ففي غالب الأحيان كانت القوة الفاتحة تنطلق من مصر وفي أحيان أخرى، كانت تُدعم من أجناد الشام المختلفة. وطول هذه المسافة كان يستهلك الكثير من الجهود والوقت والاستعداد، وكلها أمور تؤخذ عادة في الحسبان في المقام الأول في مثل هذه العمليات الحربية.

السبب الثاني يتجسد في الفاتحين أنفسهم، ولاسيما في القادة منهم، ذلك أنهم كانوا يجهلون مسالك المغرب الكبير وطرقاته، وطبيعة القوى البشرية فيه، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للبلاد المفتوحة قبله، مثل الشام والعراق ومصر، حيث كان الفاتحون على احتكاك دائم ومستمر معها، لأنها البلاد التي اعتادوا على زيارتها من أجل التجارة، الأمر الذي مكنهم من معرفة أوضاعها الإنسانية والاجتماعية.

وهناك سبب على درجة كبيرة من الأهمية، يتجلى في الأحداث الداخلية التي كانت تعاني منها الخلافة بين وقت وآخر. فبعد وقت قصير من بداية الفتح العربي للمغرب الكبير، أخذت الفتن تظهر على السطح وبشكل مؤثر، مما كان

يؤدي إلى الإحجام عن مساعدة الفاتحين في المغرب بالسرعة المطلوبة وبالكمية الضرورية من الجنود والسلاح.

ولابد من ذكر سبب آخر في هذا الميدان، هو أن العرب الفاتحين كانت تنقصهم الخطة والتصور عن أبعاد فتح المغرب، كما يظهر ذلك بانقضاء مدة طويلة بين بدء العمليات ضد المغرب وإنشاء قاعدة لجنودهم فيه. فلم يقوموا بإنشاء قاعدة لانطلاق الفاتحين خارج مصر، إلا بعد مضي قرابة ثلاثين سنة.

يضاف إلى جميع هذه الأسباب، التي لا تشكل إلا وجهاً واحداً من أوجه التعليل، أن وضع المغرب الكبير، كان يختلف عن وضع سائر البلاد الأخرى المفتوحة، فقد تصدى للفاتحين جيش دولة نظامي، فلما تحطم بمعركة أو أكثر سقطت الدولة وفتح البلد. أما في المغرب الكبير فقد كانت عناصر السكان متعددة الأصل والانتماء، حيث واجه العرب قوى القبائل المتعددة والسكان المستوطنين في الحواضر من أجناس مختلفة، بالإضافة إلى القوة النظامية البيزنطية، وكان عليهم مواجهة كل هذه القوى منفردة في بعض الأحيان ومتحالفة في أحيان أخرى.

وأهم القوى التي كانت تسود المغرب في ذلك الوقت هي، الروم، التي تذكر المصادر العربية، أنهم يعنون القوة البيزنطية من إداريين وعسكريين. والفرنجة الذين يؤلفون بقايا الرومان وأكثرهم من الملاك الكبار والأقارعة، الذين يدور حولهم خلاف ظاهر، على أنها بقايا القرطاجيين القدماء على حد قول بعضهم، أو أنهم مرادفون لللاتين المسيحيين على حد قول بعضهم الآخر^(١).

(١) - البيان المغرب، ج ١، ص ٣٦. أحمد بدر، المرجع السابق، ص ٢٩، وما بعدها.

ولعل أهم الأمثلة التي تؤكد تحالف هذه العناصر ضد الفاتحين العرب، تحالف كسيلة مع الروم فكان معاونه سيكرويد الرومي.



الفصل الثالث

مجريات عصر الولاية بالمغرب الكبير

يعد عصر الولاية بالمغرب الكبير أطول زمنياً من عصر الولاية بالأندلس، فقد استمر هذا العصر منذ نهاية عمليات الفتح في المغرب الكبير حتى بداية الربع الأخير من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وشارك فيه العباسيون، وخاصةً في المغرب الأدنى منذ أن سقطت دولة الأمويين.

كانت سلطة الأمويين في هذا العصر وفي مرحلة مهمة سلطة متمكنة، أدارت المغرب الكبير بكل جدارة واقتدار، وهذا ما يتأكد من خلال قلة عدد الولاة بالقياس على كثرتهم بالأندلس المجاورة^(١)، فقد بلغ عدد ولاة الأمويين بالمغرب الكبير سبعة ولاة فقط، مارسوا حكمهم بالتركيز على محورين أساسيين، أولهما تمثل بتنفيذ عدة عمليات عسكرية في بعض المناطق الأوربية، وتمثل ثانيهما بالعمل الدؤوب على نشر الثقافة العربية والإسلامية.

ومن أهم ما نفذته الولاية بالمغرب الكبير، بعض الغزوات في جزيرة صقلية، وهي غزوات مؤقتة لم تأخذ أمر الاستمرار بالحسبان في المناطق، التي توجه إليها عرب المغرب الكبير في القارة الأوربية. وقد انطلقت القوى العربية الغازية من تونس بالمغرب الأدنى، بعد أن أصبحت قاعدة بحرية هامة، وخاصة في مدّة حكم الوالي عبيد الله بن الحبحاب، الذي جعل من مدينة تونس أهم مركز لصناعة السفن الحربية وغير الحربية. وكان من أهم الغزوات العربية باتجاه صقلية في العصر الأموي، الغزوة التي قادها الوالي بشر بن صفوان في سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م،

^(١) هؤلاء الولاة هم : محمد بن يزيد القرطبي، إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، يزيد بن أبي مسلم، محمد بن أوس الأنصاري، بشر بن صفوان الكلبي، عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، عبيد الله بن الحبحاب.

وذلك الغزوة التي نفذها الوالي عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، الذي أناب عنه لقيادتها المستنير بن الحبحاب الحرشي في سنة ١١٣هـ/٧٣٢م^(١)، وذلك التي نفذها الوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي أناب عنه في تنفيذها وقيادتها حبيب بن أبي عبدة قبل اندلاع ثورة الخوارج بالمغرب الأقصى^(٢) وجميع هذه الحملات على الرغم من استعدادها الكبير، فإنها لم تؤد إلى نتيجة إيجابية هامة، وسبق في هذا الأمر عصياً على التحقيق حتى نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حينما أنجز الأغالبة فتح جزيرة صقلية.

أما الميدان الأهم الذي أنجز الولاة فيه بعض الأشياء الإيجابية، فقد كان بمتابعة عملية نشر الإسلام وعلوم اللغة العربية، من أجل تعريب المغرب الكبير بالسرعة الممكنة. وهي عملية بدأت منذ اللحظات الأولى لبدء عملية الفتح بالمغرب الكبير، ذلك لأن عملية الفتح بحد ذاتها كانت تستهدف تحويل المغرب برمته من حياة السيطرة الأجنبية إلى حياة الحرية وحياة التعريب. فعقبه بن نافع اعتمد منذ أن انتهى من بناء مدينة القيروان بعض أصحابه فيها ليعلموا الناس شؤون دينهم. وفعل الشيء نفسه موسى بن نصير بالمغرب الأقصى، حينما عين سبعة عشر فقيهاً ليعلموا الناس القراءات ومبادئ الدين الإسلامي. وكان أعظم الفترات في هذا الشأن فترة حكم الوالي إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، الذي ركز على مسألة التعليم ونشر الثقافة العربية والإسلامية بين أكبر كمية من سكان المغرب، واشتهر في عصره عشرة من التابعين، الذين أرسلهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بنفسه^(٣). وقد بذل هؤلاء التابعون جهوداً عظيمة استنفذت كل إمكانياتهم العلمية والجسدية. وعلى الرغم من أن فترة حكم هذا

(١) - انظر تاريخ المغرب الكبير لعبد العزيز سالم.

(٢) - كان اندلاع هذه الثورة في سنة ١٢٢هـ.

(٣) - انظر تراجم هؤلاء الملوك، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٤، وما بعدها.

الوالي كانت قصيرة جداً، فإنها تركت أثراً طليئاً بالمغرب الكبير في ميدان الثقافة بعامة.

وإن الشيء اللافت للانتباه في هذه المسألة، إن انتشار الثقافة الإسلامية وعلوم اللغة العربية في كل أرجاء المغرب الكبير، الذي كان متعثراً ومكلفاً لشدة مقاومة أهله والمقيمين فيه من الغرباء، كان أسرع بكثير في البلدان الأخرى التي فتحها العرب بسهولة في المناطق الأخرى. ولا بد أن لذلك أسبابه الواقعية الواضحة. وهذه الأسباب لا تتعلق بأي واقع كما تتعلق بالواقع الذي كان سائداً في العديد من المناطق المغربية، وهو انتشار الوثنية بين الناس على نطاق واسع، الأمر الذي كان يجر عليهم ويلات ومصائب كبيرة، ذلك لأن الدين الإسلامي لا يتساهل مع الوثنيين على الإطلاق، كما يتساهل مع أصحاب الديانات التوحيدية كالمسيحية واليهودية. لذلك فقد لجأ العدد الجم من المغاربة إلى اعتناق السدين الإسلامي، حتى يفوتوا الفرصة على الفاتحين العرب من مصادرة أملاكهم وثرواتهم بحجة أنهم كفرة لا تحميهم تعاليم الشريعة الإسلامية.

لكن السرعة القياسية التي انتشر فيها الإسلام في صفوف المغاربة، أدت إلى نتيجة سلبية في ميدان استيعاب وفهم ومعرفة المبادئ التي تشكل قوام الشريعة الإسلامية، فجاء فهم معظم المغاربة للإسلام فهماً سطحياً لا يعول عليه كثيراً، حتى في ولاية المغرب الأدنى، التي كانت أول المناطق المغربية التي عرف أهلها مبادئ الدين الإسلامي^(١).

على الرغم من كل ذلك فقد كانت العلاقة غير ودية على الإطلاق بين الولاة الأمويين وبين معظم السكان بالمغرب الكبير. ولم يكن السبب فسي حالة عدم الود هذه مرتبطاً بالسكان المغاربة بقدر ما كان مرتبطاً بتصرف الولاة الأمويين، الذين فشلوا فشلاً ذريعاً في إيجاد أساليب معاملة مقبولة لدى المغاربة،

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨.

وكانت كل الأساليب التي اتبعتها غير مقبولة على الإطلاق، الأمر الذي أدى مع مرور الأيام إلى تفاقم الأمور وظهور نقمة عارمة ضد الأمويين بصورة عامة.

تأتي في طليعة هذه الأساليب الممقوتة، أن الخلافة الأموية اعتمدت في المغرب الكبير سياسة قائمة على العصبية القبلية، التي كانت من أشد أمراض الدولة الأموية المستعصية على الشفاء، وكانت أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انقسام السكان في العصر الأموي وبالتالي سقوط الدولة الأموية فسي وقست مبكر. فقد انقسم الناس إلى قيسية ويمانية ووقفت كل عصبية ضد العصبية الأخرى، ولم تتورع أي منهما عن إلحاق الأذى والضرر بالأخرى في كل الأوقات والمناسبات. وقد تأثر المغاربة كثيراً بهذه السياسة الفاشلة، فكانت العصبية الغالبة تلاحق العصبية المغلوبة بوسائل ظالمة مثل مصادرة الأملاك والاستبعاد وما إلى ذلك من أمور غير إنسانية.

أما الأسلوب الثاني الذي أدى إلى اتساع الهوة بين الأمويين والمغاربة، فهو ممارسة الخوارج المعادية للأمويين بشكل عام بالمغرب الكبير. فمنذ الوهلة الأولى لوصول الخوارج إلى المغرب الكبير قادمين من البصرة، حاولوا استقطاب المغاربة إلى جانبهم من خلال نشرهم لمبادئهم العامة وترويجها كمبادئ مقبولة في صفوف المغاربة الذين لاقوا عنقاً كبيراً من السياسة الأموية، وهي مبادئ مغرية للغاية مثل مبدأ العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص بين الجميع دون النظر إلى أجناسهم وألوانهم وأصولهم، فالخلافة في نظرهم هي للشخص الذي ترتبته المجموعة أو بالأحرى الذي يحوز رضا الغالبية العظمى من الناس.

أما السبب الثاني فقد نتج بشكل خاص عن سياسة عدم مساواة المغاربة بالفاتحين، الذين كانوا على الدوام يشعرون بأنهم أفضل وأعلى مرتبة من كل الفئات المغربية، وقد جاء ذلك الشعور من أنهم أبناء أولئك الذين صنعوا مجد الدولة الأموية ووسعوا حدودها ورقعة انتشارها، وكانوا يرون بأن أمور الحكم

والسيطرة يجب أن تبقى فيهم دون غيرهم من عامة المغاربة، الذين اعتبروا في نظر الأمويين من الموالي غير العرب، الذين لا يحق لهم أن يحكموا أو أن يمارسوا أية سلطة مؤثرة، وهو خطأ فادح وقع فيه الأمويون، فالمغاربة كانوا وما زالوا جزءاً عزيزاً من المجموعة العربية، التي يحق لها ما يحق لغيرها. ونضرب على ذلك الواقع الذي حدث على حين غفلة من الخلفاء الأمويين، ما جرى بالأندلس القريبة من المغرب الكبير. فقد مر الصميل بن حاتم زعيم القيسية بالأندلس بأحد شوارع قرطبة، وفوجئ بأحد المعلمين بأنه يدرس الآية القرآنية القائلة (تلك الأيام ندولها بين الناس) فاحتج على المعلم وقال له بأن الآية المذكورة يجب أن تدرس على الشكل التالي (وتلك الأيام ندولها بين العرب)^(١) ويفهم من هذه الحادثة أن العرب لم يكونوا في تلك الفترة يسمحون أن تشاركهم أية مجموعة لا تنحدر من أصول عربية صريحة.

ولم يقف الأمر عند هذه الأسباب والأساليب الظالمة، التي مارسها الأمويين ضد المغاربة، بل تعدوها إلى أساليب أخرى أشد مرارة وقسوة وإجحافاً، تجلّى بعضها بالسياسة المالية التي أنتهجها الأمويون كأساليب عمل في صفوف الأخوة المغربية فقد أجبروا على الاستمرار بدفع الجزية على الرغم من إعلان إسلامهم بصراحة ووضوح، بحجة أن إسلامهم لم يكن إسلاماً صحيحاً، ولم يتوقف هذا العمل المشين إلا في خلافة عمر بن عبد العزيز القصيرة، وحينما توفي عادت الأمور إلى أسوأ مما كانت فاشتد الظلم والجور والإجحاف، هذا بالإضافة إلى أن الإدارة الأموية في هذا العصر، لم تكن تحرص على الأخذ بأسباب المساواة والعدل في مسألة توزيع الغنائم بين المغاربة والمشاركة، فقد كان المشاركة يستأثرون بمعظم هذه الغنائم دون المغاربة المساكين.

كما لجأت الإدارة الأموية إلى أمر آخر، كان له دوره السيئ على نتيجة السياسة الأموية العامة بالمغرب الكبير، وهو أنها أي الإدارة الأموية كانت بين

(١) - ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص ٦٣ .

الفينة والأخرى، تلجأ إلى تنفيذ أعمال سبي وسلب واستعباد ومصادرة لأموال، الذين تسول لهم أنفسهم من المغاربة لمعارضة السياسة الأموية. ومعظم هذه العمليات المخزية كانت تحدث، على الرغم من معرفة الولاة الأمويين بظلمها وفضائلها وعدم أحقيتها من كل الوجوه، ولكنهم كانوا يريدون أن يرضوا الخلافة الأموية بالمشرك بشتى الهدايا والمغريات، التي كانت تتم على حساب المغاربة بشكل عام^(١).

يضاف إلى كل ما تقدم من أساليب غير مرضية بالنسبة للمغاربة، أن والي عبید الله بن الحبحاب قام بنقل تنظييمات إدارية جديدة من مصر إلى المغرب الكبير، زادت في نقمة المغاربة على الخلافة الأموية من جهة، ومن فقرهم وحراجتهم في الميدان الاقتصادي من جهة ثانية، وتجلت هذه التنظيمات بإجراء مسح جديد لكل الأراضي وتحديد أنواعها بدقة متناهية، من أجل تعيين ضريبة جديدة لكل نوع منها، زد على ذلك اعتماد كل وسائل التعريب في كل ميادين الحياة^(٢).

شكلت هذه الأساليب التي اتبعتها الأمويون بوصفها سياسة عامة في صفوف المغاربة دون أن ينتبهوا إلى نتائجها، شكلت مخاضاً صعباً تمخض عنه ثورة عارمة ضد الوجود الأموي بصورة عامة في عصر الولاة، اشتعلت نارها في أخرج ظروف الخلافة الأموية على الإطلاق، حينما كانت الدعوة العلوية (العباسية) في الولايات الشرقية في أوج اندفاعها وحماسها وتوقدها. ولكن هذه الثورة لم تعلن على حين غرة ولم تكن مفاجأة للخلافة الأموية، ذلك أن قادتها سلكوا في مبتدأ عملهم طرقاً دبلوماسية، تسجل في ميدان إيجابياتهم وحسن تصرفهم. فقد حرصوا على لفت نظر الخليفة الأموي، إلى تلك الممارسات الظالمة للولاة الأمويين بالمغرب الكبير. فقد وصل إلى مدينة دمشق وفد مغربي برئاسة قائد الثورة مسيرة

(١) - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ١، ص ٣٠٠.

(٢) - ديبني، الجزية والإسلام، ص ٣٥، وما بعدها.

المتغري^(١) وللأسف فإن الوفد المغربي لم يتمكن من الحصول على نتيجة إيجابية من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ذلك لأن هذا الخليفة رفض رفضاً مطلقاً مقابلة الوفد المغربي، على الرغم من أحقية مطالب المغاربة، وصحة الطريقة التي من خلالها كانوا يريدون أن تصل إلى مسامع الخليفة الأموي بالشرق.

وحين وصول الوفد المغربي إلى بلاده ، لم يكن أمامه سوى البدء بإعلان الثورة التي اشتعلت نارها في سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م، بعد أن سمع الثوار بخروج معظم جيش الأمويين للغزو بجزيرة صقلية بقيادة حبيب بن أبي عبيده، وهذا ما جعل المغرب خالياً تقريباً من القوات العسكرية، الأمر الذي ساعد الثورة المغربية على الانطلاق وتحقيق مكاسب هامة جداً.

بدأ الثوار هجومهم في أول الأمر على مدينة طنجة في شمسال غرب المملكة المغربية اليوم، وتمكنوا من قتل حاكم المدينة الأموي عمر بن عبد الله المرادي، الذي كان يعد من الجبابرة الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، وهو الذي اشتط بجوره وظلمه في فرض أنواع من الضرائب على المغاربة. بعد ذلك توسعوا جنوباً فسيطروا على المغرب الأقصى برمته، ولما ظفروا بحاكم الموس إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب قتلوه انتقاماً لحقوقهم المهدورة.

شكلت هذه الثورة العارمة خطراً كبيراً على الوجود الأموي برمته بالمغرب الكبير، وهذا ما جعل والي المغرب عبيد الله بن الحبحاب يرسل الأوامر إلى صقلية بوجوب عودة الجيش الموجود هناك على وجه السرعة. وفي الوقت نفسه أرسل قوة عسكرية بقيادة خالد بن حبيب الفهري للتصدي لجيش الثائرين المغاربة بقيادة ميسرة المتغري. وتمكن خالد بن حبيب من إحراز بعض التقدم ضد الثوار، ولكنه لم يتمكن من حسم الأمر لصالح الخلافة الأموية، أما ميسرة المتغري قائد الثورة فقد

(١) - المتغري نسبة إلى قبيلة متغرة الزناتية، الذي نعتته المؤرخون القدماء بدعوت غير لائقة مثل الفقير والحقير، ذلك لأنه كان يعمل في الأصل سقاء بالقيروان .

عاد إلى طنجة وهناك قُتل أثناءه لأسباب غامضة تتعلق ببعض تصرفاته الشخصية والعامة، التي لا تتناسب مع مبادئ الخوارج^(١)

خلف ميسرة المنغري في قيادة الثورة الخارجية المغربية خالد بن حبيب الزناتي، الذي أصر على لقاء ممثل الأمويين مستغلاً حراجه أمره، كونه كان في حالة حرب مع مجموعة من الخوارج، وفي نهاية اللقاء هُزمت قوات الأمويين بعد معركة قاسية، قُتل فيها خالد بن حبيب الفهري ومعظم من كان معه من قادة العرب وكماتهم ووجوههم، مما جعل هذه المعركة تحمل اسم معركة الأضراف^(٢).

حينما وصلت أخبار هذه الهزيمة الكارثة إلى مسامع الخليفة الأموي هشام ابن عبد الملك، تأثر كثيراً وغلبت عليه العاطفة التي عبر عنها بقوله : ((والله لأغضين لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي)). ولم يتأخر بإرسال جيش من كل أجناد الشام الخمسة، بلغ تعدادة سبعة وعشرين ألفاً، وحينما وصل هذا الجيش إلى مصر بطريقه إلى المغرب، انضم إليه ثلاثة آلاف من الجنود المصريين، فأصبح تعداده ثلاثين ألفاً من الجند النظاميين ذوي الخبرة العسكرية، هذا بالإضافة إلى مجموعة من المتطوعين الذين انضموا إليه من هنا وهناك.

كان يقود هذا الجيش كلثوم بن عياض القشيري، الذي كان يشغل منصب أمير شرطة دمشق قبل ذلك. وكانت وصية الخليفة هشام بن عبد الملك، أنه في حال موت كلثوم بن عياض وكان رجلاً مسناً، يتولى قيادة هذا الجيش ابن عمه بلج ابن بشر، وإذا مات بلج بن بشر فتكون القيادة لثعلبة بن سلامة العاملي.

وصل الجيش الشامي المصري الممثل للخلافة الأموية إلى المغرب الأدنى في سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م . وعلى الرغم من أنه يمثل الخلافة الأموية

(١) - قيل أنه أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين.

(٢) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٥١، وما بعدها.

فإنه لم يستقبل الاستقبال اللائق به كمنفذ للموضع العام، ذلك لأن السكان المغاربة كانوا بصورة عامة يخافون من أعمال العسكريين في مدنها. وكذلك الأمر حدث على صعيد القيادة، حينما ظهرت المنافسات بين القائد الإفريقي العائد من صقلية حبيب ابن أبي عبده، وبين القائد الشامي كلثوم بن عياض القشيري. وقيل أن صدامات كادت أن تقع بين الطرفين، لولا المساعي الطيبة الحثيثة التي بذلت من أجل تحقيق الوفاق والوئام.

تقدم الطرفان المشرقي والمغربي بعد هذا الوفاق نحو الثوار المغاربة، والتفوا بهم عند وادي سبو، ولم يعتمد هؤلاء على خطة معينة، بل نراهم ينفذون هجوماً عشوائياً على المغاربة، ذلك لأنهم كانوا يتخيلون أن المغاربة لن يستطيعوا الصمود كثيراً. ولكن ما حصل على أرض الواقع كان مخالفاً تماماً لتصورات القادة الأمويين، فقد صمد المغاربة صموداً لافتاً، مكنهم من إلحاق الهزيمة بالأمويين وقتل قادتهم البارزين مثل كلثوم بن عياض القشيري وحبيب بن أبي عبده.

كان للانتصار الذي حققه الخوارج على القوة الأموية أثره البالغ على اتساع رقعة ثورة الخوارج بالمغرب الكبير وكذلك الأندلس، وكانت القيروان أن تقع في قبضتهم، لولا أن الوالي الأموي حنظلة بن صفوان نجح في تحقيق الانتصار عليهم في لقائين متتاليين في الأصنام والقرن بالقرب من القيروان في سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م^(١)، لكن ذلك لم يؤثر على ما يجري في المغربين الأوسط والأقصى، الأمر الذي كان يستدعي العمل الحثيث في هذا السياق.

وما حدث لم يكن ملائماً لتلك التطورات الخارجية في المغربين الأقصى والأوسط، ذلك لأن الخلافة الأموية انشغلت منذ ذلك الحين عن المشاكل المغربية برمتها، فالخلفاء الأمويون الذين خلفوا هشام ابن عبد الملك، لم يكونوا على مستوى المسؤولية التي كانت تستدعي عظام الرجال، مما جعل الدولة الأموية

(١) - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١١٥ وما بعدها. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١،

تبدأ مرحلة النهاية والزوال، وهذه المرحلة للأسف لم تطل، فقد انتهت كما هو معروف في سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، على أيدي العباسيين^(١).

وستمضي عدة سنوات على سقوط الدولة الأموية، لم تتمكن فيها الدولة العباسية من عمل شيء هام في المغرب الكبير، ذلك لأنها كانت منشغلة في تثبيت دعائم حكمها الجديد. وفي هذه الفترة ظهر على مسرح الأحداث بالمغرب الأدنى عبد الرحمن بن أبي عبده، الذي كان قد اشترك في قمع ثورة الخوارج آنفة الذكر، وحوضر مع المحاصرين في سبتة حتى سمحت الظروف بانتقالهم إلى الأندلس. وفي الأندلس اشترك في مشاكل عصر الولاة فيها وكان يقف في صفوف البلديين ضد الشاميين. وحينما استطاع الوالي الأندلسي أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي وضع حداً للإشكال الذي كان قائماً بين الشاميين والبلديين، اعتبر عبد الرحمن بن أبي عبده رجلاً غير مرغوب فيه بالأندلس، ذلك لأنه اشترك في إثارة المشاكل والفتن، فطرد إلى المغرب الأدنى، ولم يجد صعوبة كبيرة في طرد حاكمها حنظلة بن صفوان واستلام الحكم بدلاً منه^(٢).

وقد سنحت له الفرصة أن يستقل عن الخلافة الأموية، التي كانت في حالة اضطراب لكثرة ما كانت تعاني من صعوبات ومشاكل معقدة، سببتها لها الدعوة العلوية (العباسية). وحينما جاء العباسيون إلى الحكم، حاول عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبده، أن يحصل على تأييدهم فسأعلن الالتزام بمشروعهم في الحكم وبرهن على ذلك بإعلان السواد شعارهم المميز. وفي عصر الخليفة أبي جعفر المنصور تغيرت الأحوال تماماً، فهذا الخليفة لم يكن راعياً في استمرار عبد الرحمن بن حبيب في حكم المغرب لأسباب غير واضحة تماماً، فبادره بالعداء الأمر الذي جعل عبد الرحمن بن حبيب يقدم مباشرة على

(١) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٧٨.

(٢) - ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٢٢٣، وما بعدها.

قطع الخطبة للعباسيين ويستقل بنفسه في حكم المغرب الأدنى، وكان المنصور يرغب في توجيه هجوم مباغت ضد تمرد عبد الرحمن بن حبيب، وحينما كان هذا الجيش في مرحلة الاستعداد والتجهيز، فوجئ المنصور بظهور بعض المشاكل الداخلية في بعض حواضر حكمه بالشرق، أدت إلى العزوف نهائياً عن إرسال أية قوات عسكرية إلى المغرب، وهذا ما سمح لعبد الرحمن بن حبيب أن يستمر في الحكم دون أية عراقيل خارجية حتى اغتيل في سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م من قبل أخوة له، كانوا يناقسونه ويحسدونه، ولكن الحكم انتقل إلى قبيلة ورفجومة الزناتية المعتمدة لمذهب الخوارج، وتمكنت أن تبقى في حكم القيروان مدة عشر سنوات متتالية^(١).

وهكذا فإن المغرب الكبير برمته أصبح منذ سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م خاضعاً تماماً لحكم الخوارج، وكانت قوات الخوارج المكثفة والفاعلة، تتوضع في مواقع هامة مثل تلمسان بالجزائر، وطنجة في شمال غرب المغرب الأقصى، وفي سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى، وفي مدينة طرابلس وغيرها. واشتهر في هذه الآونة عدد من القادة الخوارج، الذين شغلوا أدواراً هامة في الميدان الثقافي والعسكري من أجل خدمة القضية الخارجية، بعد أن لازمها الفشل في المشرق طوال العصر الأموي. وكان من أشهر هؤلاء القادة، سلمة بن سعيد الذي يعود إليه نشر المذهب الخارجي بليبيا بشكل خاص، وكذلك فهو الذي قام بإرسال أربعة من الخوارج إلى البصرة لدراسة الفقه الخارجي هناك لفترة أربع سنوات، وقد اشتهر من هؤلاء أبو الخطاب في ليبيا، الذي استطاع أن يسيطر فسي سنة ١٤١هـ/٧٥٨م على طرابلس والقيروان بعد ذلك، وأصبح زعيم الإباضية المطلق في هذه المنطقة على الرغم من وجود بعض الخلافات مع بعض أتباعه.

نظر العباسيون إلى ما يجري بالمغرب الكبير نظرة قلق وحذر، وفسروا ذلك على أنه خطر كبير في طريق حلمهم بالسيطرة على المغرب الكبير،

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠. الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص ١٢٢، وما بعدها.

فتحركوا على وجه السرعة بقيادة محمد بن الأشعث في سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م، الذي كان موجوداً بمصر آنذاك، ولما وصل إلى مدينة سرت تصدى له أبو الخطاب زعيم الإباضية لكنه لم يتمكن من مواجهة العباسيين إلا لفترة وجيزة قتل على أثرها، فتقدم العباسيون باتجاه الغرب، ولما سمع ممثل أبي الخطاب على القيروان وهو عبد الرحمن بن رستم رفيقه في الدراسة بالبصرة بما حدث في سرت، ترك القيروان واتجه غرباً إلى المغرب الأوسط إلى المكان الذي سيبني فيه مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية التي أنشأها هناك.

تابع بعد ذلك محمد بن الأشعث غرباً حتى وصل إلى القيروان دون أن يصطدم بأية مقاومة، ومع ذلك فقد بقي الخوارج يشكلون خطراً داهماً على وجوده بالقيروان، وذلك من خلال هجمات كانت شبه مستمرة، لم يتمكن من وضع حد لها بصورة نهائية، ذلك لأنه كان يعاني من مواجهات بعض جنسده وشغبهم عليه، حتى نجحوا في إقصائه عن القيادة في سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م، وعينوا لقيادتهم بدلاً منه الأغلب بن سالم التميمي، الذي لم يوفق هو الآخر في التمتع في الحكم على الإطلاق، فقد قتلوه بصورة بشعة بعد سنة وثمانية شهور من وصوله للحكم.

ولم يتمكن العباسيون من فرض النظام بالقيروان إلا من خلال عائلة المهالبة، التي كانت قد اشتهرت كثيراً في عصر الدولة الأموية في ميدان قتال الخوارج وكبح جماح ثوراتهم، التي شكلت عبئاً كبيراً على الحكومة الأموية بشكل عام.

وقدر لهذه العائلة الناجحة، أن تحكم بالقيروان من سنة ١٥٤-١٧٨هـ / ٧٧٢-٨٠٣م، وهي مدة طويلة إلى حد ما، نجحت هذه الأسرة خلالها في ضبط الأمور العامة وحماية المغرب الأدنى من الأخطار الخارجية، وبخاصة في عصر أحد أعضاء هذه الأسرة، وهو يزيد بن أبي حاتم^(١) الذي جعل القيروان مدينة هادئة إلى حد كبير، ذلك لأنه حذّ كثيراً من هجمات الخوارج عليها ومنعهم

(١) - شارل جوليان، المصدر السابق، ص ٣٩. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١١.

من السيطرة على مقدراتها، على الرغم من أنهم حاصروها لمدة سنة كاملة. هذا وقد اهتم إضافة لذلك بتطوير منشآتها العمرانية وأحوالها الاقتصادية العامة، زد على ذلك أنه ركز على بعث النهضة العلمية فيها من خلال استقطاب رجال العلم إليها وتشجيعهم بكل الوسائل والمغريات، وكان ذلك بمثابة أسس متينة اعتمد عليها القيروانيون في الفترات التالية.

لكن هذه المرحلة المزدهرة بكل ألوان الحياة المبهجة، بدأت في التخلخل والاضطراب منذ الوهلة الأولى لزوال حكم المهالبة في المغرب الأدنى، على الرغم من وصول القائد العباسي المشهور هرثمة بن أعين إلى القيروان في سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م، وهو رجل مجرب ومحنتك وخبير في شؤون القيادة فقد فشل في ضبط وتوطيد الأمور كما كانت بالقيروان قبل وصوله، وهذا يدل بوضوح على عمق فجوة الخلل والاضطراب هناك، الأمر الذي أجبره على أن يطلب من الخليفة العباسي آنذاك وهو هارون الرشيد، أن يعفيه من مهمة القيادة في هذه المنطقة المضطربة. لكنه قبل أن يترك المغرب الأدنى أراد أن يخلد ذكره من خلال بنائه لرباط شهير هو رباط المنستير ، الذي سيصبح في الفترات اللاحقة أهم مكان للمرابطة والجهاد في المغرب الكبير. والمنستير اليوم هي مدينة تونسية مهمة ، اشتهر منها في العصر الحديث الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة.

وبتخلي هرثمة بن أعين عن الحكم بالقيروان، بدا أن الأمور ستخرج عن إطار السيطرة العباسية، التي كان يمثلها آنذاك كما ذكرنا الخليفة هارون الرشيد، الذي بادر على الفور بتعيين قائد بديل هو محمد بن مقاتل العكي، الذي فشل في البداية في مواجهة جنده المتمردين، ونجح هذا الجند بطرده وإقصائه عن الحكم، لكن أمير منطقة الزاب التونسية إبراهيم بن الأغلب، أعاده مرة أخرى وفرضه

بالقيروان بالقوة والغلبة، فقدّر هارون الرشيد لابن الأغلب ذلك، فسأمر بتعيينه
أميراً عاماً على ولاية إفريقية في سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م^(١).



(١) - ابن خلدون ، المعبر ، ج ١، ص ١١١ وما بعدها .

الفصل الرابع

تجزؤ المغرب الكبير إلى دول مستقلة

تجدر الإشارة إلى أن الدولة العباسية، لم تتمكن من بسط سيطرتها على المغرب الكبير، الذي كان يشكل مع الأندلس الجناح الغربي للدولة العربية في العصر الأموي. ففي هذا العصر استطاع الخلفاء الأمويون، أن يمنعوا انفصال المغرب الكبير عن المشرق العربي، على الرغم من حالة عدم الوفاق، التي سيطرت على نحو عام بين أهل المغرب والخلافة الأموية، فمن أجل منع الانفصال بين جناحي الدولة الأموية، بذل الأمويون جهوداً مضنية، وأموالاً طائلة، ودماءً غزيرة بينما لم يفعل العباسيون شيئاً من هذا على الإطلاق، مما ساعد على حدوث الانفصال بين مغرب الوطن العربي الكبير وبين مشرقه، وانقسم المغرب الكبير إلى عدة دويلات هزيلة، ساهمت في إضعاف الموقف العربي العام أمام القوى المعادية المتربصة.

ومن الجدير بالذكر أننا سنقوم بدراسة جميع الدول، التي ظهرت على أرض المغرب الكبير دراسة مفصلة إلى حد ما، كي نقف على مدى الضرر التي تسببت به على كافة الصعيد في المغرب الكبير في العصور الوسطى، ذلك لأن هذه الدول كانت عاجزة عن صنع حالات إيجابية معينة، وبدلاً من ذلك أدى وجودها إلى كثير من التأخر والتقهقر، وكانت سبباً كثيرة، وذلك بسبب قيامها على أساس مذهبي بغض. وهذه الدول هي :

دولة الأغالسة:

قام بتأسيس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب التميمي بالاتفاق مع هارون الرشيد على شروط معينة، تتواءم مع أهداف الطرفين ومصالحهما. لذلك نرى

هذه الدولة طوال حياتها تسير في ركب الدولة العباسية بعكس كل الدول التي قامت بجوارها بالمغربين الأوسط والأقصى، وهي دول كانت تتأصب العدااء للدولة العباسية بصورة عامة.

وقد أراد العباسيون من موافقتهم على قيام هذه الدولة بالمغرب الأدنى، أن تكون بمثابة قاعدة عباسية متقدمة، ينطلق منها في الأوقات المناسبة باتجاه المناطق المغربية الأخرى لإعادة سيطرة العباسيين عليها، كما كان الأمر في عصر الأمويين. لكن ذلك لم يتحقق الأمر الذي يساعد على القول، أن العباسيين أنفسهم لم يكونوا مهتمين في واقع الأمر بولاية المغرب البعيدة عن مركز إقامتهم بالعاصمة بغداد.

لقد برهن الحكام الأغلبية بعامة على صدق والتزام كبيرين في تطبيق بنود وشروط هذا الاتفاق، الأمر الذي أظهرهم كمجموعة تابعة لدولة العباسيين ودليل ذلك أنهم اعتمدوا السواد شعار بني العباس شعاراً لدولتهم، والتزموا من جهة أخرى بتقديم مبلغ مالي إلى العباسيين قدر بأربعين ألف دينار^(١) في كل سنة، لكن تأخيرات عن دفعه حدثت في بعض السنوات بسبب المشاكل الاقتصادية.

وفي مقابل ذلك بادرت الخلافة العباسية لدعم شرعية الأغلبية في حكم منطقة المغرب الأدنى. وكان الحكم عندهم وراثياً تعاقب عليه أحد عشر أميراً، وجرى ذلك دون تدخل العباسيين إلا في مناسبات كانت ضئيلة للغاية، أو ضرورة ملحة للتدخل من أجل أن يستمر الحكم طبيعياً وهاذاً وكان ذلك في عصر الخليفة العباسي المعتضد، الذي قدّم النصيحة للأمير إبراهيم بن الأغلب الثاني، الذي حكم من سنة ٢٦١-٢٨٤هـ/٨٧٥-٨٩٧م أن يكف ويمتنع نهائياً

(١) - كانت قيمة الدينار تتراوح بين ١٠ إلى ١٢ درهم انظر عن ذلك ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٥٥.

عن سفك دماء الأبرياء من أقربائه ومن الآخرين بسبب حالة نفسية كانت قد سيطرت عليه^(١).

أما على الصعيد الداخلي فقد اختلف الأغلبية عن بقية حكام العصور الوسطى في مسألة توارث الحكم، الذي كان ينتقل من الأب إلى ابنه وأحياناً من الأخ إلى أخيه وفي أحيان معينة من العم لابن أخيه، مما أدى إلى حدوث نزاعات على العرش، ولكن هذه النزاعات لم تأخذ شكلاً حاداً.

تشكلت رعية الأغلبية من عناصر بشرية متعددة، نذكر منهم الروم أي بقايا البيزنطيين، ومجموعة من بقايا الفينيقيين، ومجموعة من اللاتين، هذا بالإضافة إلى الذين جاؤا إلى البلاد مع الأغلبية والفاثحين من عرب وغيرهم.

وقد كان كثير من هذه العناصر ما زال على المسيحية، ولكن ذلك لم يكن مشكلة أبداً، ذلك لأن الأغلبية تسامحوا كثيراً مع كل سكان المنطقة التي حكموها، ولم يميزوا على الإطلاق بين الناس على أساس مذهبي أو إقليمي أو طائفي، فالجميع كانوا عندهم متساوين بحق العيش والمواطنة^(٢).

أما العنصر الذي كان غالباً على كل هذه العناصر رغم كثرتها، فهو العنصر المحلي المغربي، الذي بقي هادئاً بصورة عامة باستثناء بعض التحركات التي حصلت في عصر الأمير إبراهيم بن الأغلب الثاني، التي لم تسفر عن نتائج إيجابية معينة^(٣).

لكن الذي حمل راية العصيان من كل هذه العناصر، فهو العنصر الذي تمثل بالعرب والفرس، فقد شكل هذا العنصر للحكام الأغلبية متاعب جمة، وبخاصة طبقة الجند التي حازت على العديد من الامتيازات الخاصة فقد شغل

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٩.

(٢) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٠ وما بعدها. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢.

(٣) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٧.

هذه الطبقة دوراً هاماً في مجيء إبراهيم الأغلب إلى الحكم، لكنه حينئذ تمكن الحكم تنكر لأصحاب هذه الطبقة وبدأ يعمل للحد من امتيازاتها وتسلطها.

أما العنصر الأخير من رعية الأغلبية، فقد كان من العبيد الذين اعتمد عليهم للقيام بأعمال الحراسة والخدمة العامة. وقد بدأ ذلك منذ فترة حكم إبراهيم بن الأغلب الأول، الذي أراد من خلال الاعتماد عليهم أن يتخلص من العنصر العربي المتمثل بالجند. وكان مصدر هؤلاء العبيد من بلاد السودان ومن البلدان الأوربية المجاورة مثل صقلية ومالطة وسردينيا، وهؤلاء العبيد الأوربيون كانوا يعرفون بالصقالبة، وهم الذين ساعدوا إبراهيم بن الأغلب على بناء مقر جديد خارج القيروان دعاه (العباسية) ذلك لأنهم أمنوا له الحراسة والحماية من تهديد الجند العربي، الذي كان شبه مستمر في الفترة الأولى من حياة الدولة الأغلبية بالمغرب الأدنى. فقد قام الجند بعدد من الثورات، انطلقت بشكل خاص من القيروان، وكان محرك هذه الثورات على الدوام، هو أن هؤلاء القادة كانوا يطمحون لأن يبقوا يتمتعون بهامش من الحرية خارج سلطة الإمارة الأغلبية. وكان من أهم هذه الثورات، ثورة الطنبذي التي اندلعت سنة ٢٠٩هـ/٨٢٥م، التي لم تسفر عن شيء سوى تشجيع الأغلبية على العمل الجاد لامتصاص تأثير ثورات الجند، وذلك بتوجيههم إلى الغزو بجزيرة صقلية المجاورة. ولكن هذا التوجه الجديد في حياة الأغلبية، لم يؤد إلى كبح جماح الثورات بصورة نهائية، ودليل ذلك أن ثورة انطلقت على حين غرة من حصن (بلزمة) في جنوب غرب المغرب الأدنى في الفترة المتأخرة من حياة الدولة الأغلبية، لكن الأمير إبراهيم بن الأغلب الثاني، استطاع بنجاح متميز من وضع حد لثورة حصن بلزمة، وأنزل بالنوار أفسى العقوبات التي كان أصعبها وأشنعها قتل مزيسد من أسر الثائرين ومؤيديهم على عائدته القبيحة^(١).

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠١. ابن الدباغ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠ وما بعدها.

كان من أهم الأعمال التي أنجزها الأغالية بالمغرب الأدنى، قد تحققت في المجال العسكري، حيث شكل المغرب الأدنى قاعدة رئيسية لانطلاق عدد من الحملات العسكرية باتجاه جزيرة صقلية، التي كانت في نظر البيزنطيين أهم قاعدة لهم في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد جاء التحرك العربي الأغلب تجاه هذه الجزيرة في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة، تحاول إعادة سيطرتها على المغرب الأدنى وبقية أقطار المغرب الأخرى، أضف إلى ذلك أنه كثيراً ما تأمر البيزنطيون المرابطون في هذه الجزيرة على مسيرة الفتح العربية بالمغرب الكبير وعرقلتها قدر المستطاع، وهي فوق كل هذا كانت قد أصبحت مستقراً للفارين من المغرب الأدنى^(٢).

بدأ الأغالية عملياتهم العسكرية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م خلال فترة حكم زيادة الله الأول الأغلب، حينما تبلور الأمر عنده على إرسال حملة عسكرية ضخمة للقيام بفتح جزيرة صقلية. وقد شجع على ذلك بالإضافة إلى روح الاستعداد أمران على درجة عالية من الأهمية، تجلّى أولها في محاولة امتصاص نفقة العسكريين الذين أسرفوا في تمردهم وعدم انصياعهم لسلطة الدولة، الأمر الذي أزعج السلطات الحاكمة وهددها في مستقبلها ووجودها، وتجلى ثانيها في البيزنطيين الموجودين بجزيرة صقلية نفسها، فقد قام قائد الأسطول البيزنطي هناك واسمه (فيمي) وقيل (فيموس) بإعلان تمرد عام على أسياده وأعلن نفسه حاكماً على هذه الجزيرة، لكن أعوانه والمقربين منه انقلبوا على حين غرة بصورة لم تكن متوقعة على الإطلاق، وكانت ردة فعله لصالح العرب بالمغرب الأدنى فقد ذهب بكل ما كان لديه من سفن ومعدات عسكرية وحربية إلى سلاط الأغالية، وشجعهم بحرارة وصدق للعمل مباشرة للسيطرة على جزيرة صقلية، ووعدهم بأن يقدم لهم كل ما يستطيع من المساعدات وفي طليعتها السفن التي

(٢) - ابن الأثير، المصدر السابق ج، ص ١٩٠ وما بعدها

كانت بحوزته، وأن يعمل دليلاً حربياً عندهم لتعريفهم على مواضع الضعف في البلاد أثناء العمليات العسكرية^(١).

هذان الأمران الهامان ساعدا زيادة الله الأول الأغلب، أن يتخذ قراره النهائي بالموافقة على غزو جزيرة صقلية، على الرغم أنه كان يرتبط بحالة هدنة و سلام مع الجهة البيزنطية بصقلية، لكن الفقيه أسد بن الفرات أفقّى بأن العرب المسلمين في حل من الارتباط بالهدنة هذه، ذلك لأنه احتج بأن البيزنطيين قاموا بنقض ومخالفة شروط هذه الهدنة، فقد استبقوا في حوزتهم بعض الأسرى العرب، وبعد هذه الفتوى اختير أسد بن الفرات لقيادة الحملة الأغلبية إلى صقلية، التي انطلقت من مدينة سوسة التونسية. وقيل أن عدد أفراد هذه الحملة بلغ نحواً من عشرة آلاف من المشاة وسبعمائة من الفرسان، انتقلوا إلى جزيرة صقلية على ظهر نحو من مئة سفينة عدا المراكب التي قدمها (فيموس) سابق الذكر.

وقد حرص الأمير الأغلب على أن تحاط هذه الحملة بهالة دينية معينة كي يقتنع الناس بأنها لم تكن من أجل أي شيء سوى شيء واحد هو الجهاد في سبيل الله، ودليل ذلك أن الأغلبية اختاروا لقيادتها أشهر فقيه في تلك الفترة وهو الفقيه الشهير أسد بن الفرات، الذي كان يعي هذه الأمور برمتها، لهذا نراه يفصح عنها بكل وضوح وأمانة بقوله : ((ما أوجههم إلى من يجري لهم مراكبهم بالكتاب والسنة))^(٢).

انطلقت الحملة بعد قبول أسد بن الفرات بقيادتها إلى جزيرة صقلية، وحينما وصلت إلى الجزيرة اختارت أن تكون أول محطاتها بلدة (مزارة) التي تقع في أقصى الشاطئ الجنوبي الغربي. ورغم ذلك فإن الحملة الأغلبية تعثرت في بدايتها إلى حد كبير، وكادت أن تنتهي إلى الفناء والإبادة بسبب ما واجهته

(١) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٣٤ وما بعدها.

(٢) - المالكي، المصدر السابق، ص ١٨٧ .

من صعوبات كبير من البيزنطيين، الذين حرصوا على مقاومتها بكل وسائلهم وإمكاناتهم لأهمية صقلية بالنسبة لهم كما نوهنا قبل قليل. فقد انطلق جنود هذه الحملة من مزارعة محطتهم الأولى متوجهين إلى عاصمة الجزيرة سرقوسة، دون أية مقاومة تعترض سبيلهم، وحينما وصلوا إلى سرقوسة ألقوا الحصار عليها، وفي غضون ذلك مرض قائدهم أسد بن الفرات وتدهورت أحواله الصحية بسرعة ملحوظة، وانتهى به ذلك إلى الموت في سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م^(١)، وخلفه في قيادة شؤون الحملة الأغلبية محمد بن أبي الجوارى، الذي بادر على الفور بتشديد الحصار على سرقوسة، إلا أن جميع محاولاته في هذا الصدد انتهت إلى الفشل بسبب وصول إمدادات بيزنطية جديدة، زادت في حراسة موقف الحملة، وبدأت الأمور تسير لصالح البيزنطيين، وما كان من أفراد الحملة سوى الانسحاب على وجه السرعة على تلك السفن، التي جاؤوا على متنها من المغرب الأدنى، التي كانت راسية في شمال سرقوسة، لكن أسطولاً بيزنطياً حال دون تنفيذ عملية الانسحاب، ذلك لأن جنود هذا الأسطول أقدموا على إحراق سفن الحملة الأغلبية. وهكذا فلم يجد أفراد هذه الحملة أمامهم سوى الانسحاب إلى حصنين قريبيين هما (مناو وجرجنت) فتحصنوا بهما.

لم تطل حياة محمد بن أبي الجوارى كثيراً بعد ذلك، فقد فاجأه الموت في سنة ٢١٤هـ/٨٣٠م، فخلفه شخص آخر هو زهر بن برغوث، الذي تميزت فترة قيادته للحملة الأغلبية بالتدهور والانهباء والإحباط، فقد تفاقمت أمور هذه الحملة على كل صعيد، ووصلت الأخطار إلى أقصى حدودها، وأدنت بنهاية مأساوية لهذه الحملة المتعثرة، بعد حصار شديد ومحكم فرضته عليها القوات البيزنطية المتربصة، فلجأ أفرادها إلى أكل لحوم الدواب أيضاً كانت هذه الدواب، ولم تزول كربتهم إلا حينما وصلت مجموعة من غزاة الأندلس، الذين كانوا قد اعتادوا القيام بأعمال غزو في كل السواحل الأوربية، وحين مرورهم قريباً من

(١) - يقال أنه دفن ببدة قصر يافا القريبة من سرقوسة .

المنطقة اتصل أفراد الحملة الأغلبية بهم طالبين منهم العون، فلبوا طلبهم وتمكنوا من فك حصار البيزنطيين عنهم والانطلاق إلى تنفيذ أعمال مميزة وناجحة في المناطق المجاورة.

ساعدت هذه النجدة التي جاءت في أوج الحملة الأغلبية، إلى إعطاء أفرادها زخماً جديداً قوياً، فقرروا الهجوم على (بليرم) القاعدة الرئيسية في شمال غرب جزيرة صقلية، وفرضوا عليها حصاراً شديداً استمر نحواً من سنة واحدة، وتمكنوا بعد ذلك من التقدم عبر الجبال المجاورة^(١) التي كانت تتميز بكثرة معاقلها وحصونها القوية، ونجحوا من الدخول إلى بليرم في سنة ٢١٦هـ/٨٣٢م.

توجه أفراد الحملة بعد ذلك إلى الفتح والتوسع خارج جزيرة صقلية، وقصدوا بشكل خاص القواعد البيزنطية المجاورة لصقلية، ذلك لأنها كانت تشكل على الدوام قواعد حماية حقيقية لصقلية، فقد كانت تمدّها بكل أشكال المعونات والإمدادات. وكان هذا الاختيار خطة في غاية الحكمة والتصرف، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يريدون أن يستقروا في كل منطقة يسيطرون عليها، وتخلوا عن خططهم الماضية، التي كانت تعتمد على الغزو المؤقت.

وحقاً أدت هذه السياسة الجديدة إلى نجاحات كبيرة في كل المجالات تقريباً، فقد أدت إلى إيجاد حلفاء جدد بالمنطقة مثل نابولي، التي سارعت إلى مد يد العون للأغلبية والتحالف معهم، وبادلها الأغلبية ذلك ففي سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م ساعدوها ضد دوق لومبارديا، وساعدتهم في السيطرة على مسينا في سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م.

تابع الأغلبية بعد ذلك نشاطهم العسكري في شرق إيطاليا، فسيطروا على قاعدتين بيزنطيتين هامتين هما، برنديزي وترنتو. وقد كانت سيطرة الأغلبية على هاتين القاعدتين ضربة قصمت ظهر بيزنطة، فحتى تعوض عن ذلك بذلت

(١) - الإبريسي، المكتبة الصقلية، ص ٢٨ وما بعدها.

جهوداً مضنية لعقد تحالفات مع الفرنجة في الغرب، كما حاولت أن تقترب من أموي الأندلس بإثارة حماسهم ضد الخلافة العباسية مستغلة بذلك حالة العداء بين العباسيين والأمويين. لكن جميع هذه المحاولات انتهت إلى الفشل الكامل. ولم يبق مع بيزنطة سوى البندقية، التي حاولت أن تعزز العلاقة مع بيزنطة بعد أن استشعرت بقرب الخطر العربي على مصالحها، بعد سيطرتهم على القناتين سابقتي الذكر، وهما قاعدتان كانتا تتحكمان في مدخل البحر الأدرياتيكي، الأمر الذي يهدد أمن تجارة البندقية وحرية حركتها، ومع ذلك فقد كانت الهزيمة من نصيب البنادقة والبيزنطيين^(١).

قام الأغلبية بعد ذلك بتوسيع رقعة سيطرتهم شمالاً على الشاطئ الشرقي الإيطالي، فدخلوا مدينة باري وجعلوها قاعدة ينطلقون منها لتوجيه حملات عسكرية بعيدة، قيل أن بعضها وصل إلى قريب من العاصمة الإيطالية روما. وقد أغرت هذه النجاحات مفرج بن سليمان أن يستقل بمنطقة باري عن القيادة الأغلبية منذ سنة ٢٣٨هـ/٨٥٣م، ورغم ذلك فإنه استطاع أن يدفع عن هذه المنطقة بعض الهجمات البيزنطية، وأن يضم إليها بعض المناطق المجاورة.

وعلى صعيد جزر البحر المتوسط، تمكن الأغلبية من توجيه بعض الضربات المؤلمة لبيزنطة، تمثلت بالسيطرة على جزيرة مالطة، وهي الجزيرة التي كانت بالنسبة لبيزنطة تمثل صلة وصل هامة بين ممتلكاتها بالغرب وممتلكاتها بالشرق. وقد حدثت هذه الضربة في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. لكن الأغلبية لم يستقروا في هذه الجزيرة كما فعلوا في المناطق الأخرى، باستثناء مجموعة من العاملين في مجال بناء السفن ومراكب الصيد البحري^(٢) وعلى الرغم من أن العرب لم يستقروا في هذه الجزيرة

(١) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٧، ص ٥ وما بعدها.

(٢) - أحمد المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٧٢ وما بعدها. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٢، القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

بكتافة، فما تزال لغة أهل مالطة حتى اليوم اللغة العربية باللهجة المغربية، مع بعض المفردات من اللغة الإنكليزية.

كان آخر ما وصله الأغلبية في حملتهم المديدة هذه بعض المناطق في جنوب إيطاليا، وقد حدث ذلك في الأيام المتأخرة من عمر الدولة الأغلبية، وقد قام بذلك إبراهيم بن الأغلب الثاني بنفسه، الذي ترك الحكم بالمغرب الأدنى وقاد الحملة الأغلبية في جنوب إيطاليا، حتى يكفر عن أعماله الشائنة التي تمثلت بقتل الممّنات من أقربائه وأبناء شعبه، لكنه قبل أن ينتقل إلى جنوب إيطاليا عرّج على سرقوسة فدخلها فاتحاً بعد خمسين سنة مضت على وفاة أسد بن الفرات على أسوارها، ومنها انتقل إلى جنوب إيطاليا فتوفي في قلعة كسنتة^(٢)

إلى جانب الأعمال العسكرية فقد أنجز الأغلبية بالمغرب الأدنى بعض الأمور الإيجابية في المجال الاقتصادي العام. ففي عصرهم ازدهر المغرب الأدنى ازدهاراً ملحوظاً في هذا المجال بالمقارنة مع العصور السابقة التي كان فيها اقتصاد هذه المنطقة يعاني من حالة تدهور وانحطاط عامة، سببتها أعمال مؤثرة سياسية وعسكرية متتالية، مثل ثورة كسيلة على عقبة بن نافع، وثورة الكاهنة اليهودية دهيا بالأوراس، ومعاملة ولاية الأمويين السينة للسكان طسوال الفترة الأموية في هذه المنطقة، وبخاصة في مجال جباية الضرائب والأموال والخراج وما إلى ذلك، وكذلك ثورات الخوارج ضد السلطة الأموية وغيرها من المشاكل الأخرى المؤثرة.

وفي عصر الدولة الأغلبية موضوع بحثنا، بدأت الأمور الاقتصادية تسير على طريق التحسن والانفراج، وبخاصة على صعيد الزراعة، حينما تمتع

(٢) - ابن الأثير، للمصدر السابق، ج ٦، ص ١٩ .

المزارعون بنعمة الأمن والاستقرار ورفع الظلم، وهي أمور كانت غير موجودة في الحياة المغربية^(١).

ونتيجة لنعمة الأمن والاستقرار، فقد ازدهرت أعمال الزراعة على السواحل الشمالية والشرقية بالمغرب الأدنى، وقد تجسد ذلك بمزارع الكرمة والزيتون، وفي حقول القمح والحبوب في مختلف أنواعها^(٢) وقد ازدهرت العديد من الصناعات، ساعد على ذلك وجود عدد هام من المعادن مثل الفضة والرصاص والحديد. كان من هذه الصناعات صناعة الآلات الضرورية لتطوير واستمرارية صناعة السفن والسيوف وما إلى ذلك. كما ازدهرت صناعة التحف، التي تعتمد على معدني الذهب والفضة. كذلك فقد اشتهرت صناعة الزجاج بدليل وجود سوق خاصة بالقيروان كانت تُعرف بحي الزجاجين. إلى جانب ذلك فقد اشتهرت أيضاً صناعة الخزف والسجاد وأصناف المنسوجات، إلى درجة أن هذه الصناعات اشتهرت في عدد من أقطار المشرق العربي^(٣).

أما في ميدان التجارة فقد أصبحت القيروان في عصر الأغالبة مدينة تجارية من الطراز الأول، فتعددت أسواقها وتشعبت، حتى أن التجار كانوا يزورونها ويقصدونها من كل المناطق العربية في الشرق والغرب، ساعد على ذلك حالة ثابتة وراسخة من الأمن على طرق القوافل ومحطاتها المعروفة، الأمر الذي انعكس بصورة إيجابية على عامة السكان بالمغرب الأدنى فتحسنت أوضاعهم وكثرت أموالهم من خلال ما كانوا يحققونه من مكاسب وأرباح^(٤).

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ١٥٢. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج٢، ص ٤٠٨.

(٢) - اليقوي، كتاب البلدان، طبعة لندن، ١٨٩١، ص ٢٤٩.

(٣) - معالم الإيمان، ج٢، ص ١٧. اليقوي، المصدر السابق، ص ٣٥. ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ١٨٥، وما بعدها.

(٤) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج١، ص ١٦٠. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٢، ص ٥ وما بعدها.

كذلك فقد أدى ازدهار الحالة الاقتصادية إلى الاهتمام الكبير بالعديد من المظاهر الثقافية والفكرية، ذلك لأن الأغلبية كانوا يعتبرون دويلتهم ولايتهم من ولايات الدولة العباسية، التي شهدت فقرة علمية هامة في مختلف ميادين العلم، فأراد الأغلبية أن يكونوا صورة طبق الأصل لما يجري في بقية الولايات العباسية المتقدمة، لكن الذي حدث في المغرب الأدنى لم يكن مطابقاً لما كان يجري في الولايات العباسية باستثناء العلوم الدينية وبعض علوم اللغة العربية، وبعض العلوم التطبيقية كالطب والفلك ولكن على نطاق ضيق جداً. وشكلت مدينة القيروان محور هذا النشاط العلمي بشكل خاص، وساعد على ازدهار هذا النشاط، أن الحكام الأغلبية كانوا يرون أن الثقافة هي الركن الأساسي في تقدم دولتهم وتطورها، لهذا نراهم يشجعون البعثات العلمية إلى عواصم الثقافة العربية آنذاك وهي بلاد الشام ومصر والعراق والحجاز، وجاءت حصيلة ثقافة المبعوثين جامعة لكل مناحي الثقافة العربية وتنوعاتها. وكان من نتيجة ذلك أن ظهر بالقيروان مجموعة من العلماء البارزين، الذين تمكنوا بجدارة ونجاح أن يسدوا الفراغ الكبير، الذي كان واقعاً ظاهراً في الفترات السابقة على كافة المستويات. ويمكن أن نتوقف مع سيرة بعض العلماء، الذين اشتهروا بالقيروان في الميدان الديني، الذي نال اهتماماً ملحوظاً من علماء هذه الفترة. كان من بين هؤلاء العلماء الفقيه الشهير أسد بن الفرات المتوفى سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م^(١).

وهو فقيه درس علوم الدين على المذهب المالكي والحنفي، ففني بسلاده درس الفقه المالكي ولاسيما موطأ الإمام مالك، ثم ذهب إلى العراق فدرس على مجموعة من أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ثم انتقل من العراق إلى مصر فدرس على كبار علمائها من تلامذة الإمام مالك، ومن هذه المصادر الغنية ألف

(١) - توجد ترجمة مطولة عن هذا الفقيه في كتاب رياض النفوس للمالكي، ص ١٨٣، وما بعدها، وفي كتاب

ترتيب للمدارك للقاضي عياض، ج ١ و ٢، ص ٦٥٧ وما بعدها .

كتاباً في الفقه هو (الأسدية) . وحينما عاد من رحلته المشرقية استقر به المطاف بجامع عقبة بالقيروان، فكان يدرس في هذا الجامع الذي كان جامعة حقيقية لسنين طويلة، كان يدرس علوم الفقه على المذهبين المالكي والحنفي. واشتهر عنه أنه كان يبدأ درسه بالحديث عن المسألة حسب المذهب الحنفي، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أن أسد ابن الفرات كان قد تأثر بالفقه الحنفي تأثراً بالغاً، إلى درجة أنه كان ينسى في كثير من الأوقات أن يدرس المسألة المطروحة حسب مذهبه الأصلي وهو المذهب المالكي، فكان الطلبة يذكرونه بذلك بقولهم له : ((أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله فيسرد أقوال المدنيين)) أي أقوال المالكية.

إلى جانب أسد ابن الفرات، اشتهر الفقيه عبد السلام بن سعيد التتسوشي المتوفى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٥م الملقب بسحنون. ويختلف هذا الفقيه عن أسد بن الفرات في أنه لم يدرس إلا الفقه المالكي بالقيروان وبمصر حيث أخذ عن بعض تلامذة الإمام مالك، وجمع كل علومه بكتاب سماه (المدونة)، الذي انتشر بسين الناس بالمغرب الكبير، الأمر الذي أدى إلى نسيان كتاب الأسدية لأسد بن الفرات.

وقد شغل الفقيه سحنون مكانة كبيرة في مجتمع المغرب الأدنى طوال حياته، ذلك لأن الفقهاء بشكل عام كانوا موضع احترام وتقدير، على الرغم من بعض ممارساتهم السلبية في بعض الأحيان، الذي يمكن أن نعد الفقيه سحنون مثلاً على ذلك، فقد أدت الصلاحيات التي منحت له في الجهاز الحكومي، مثل تعيين إمام لمسجد القيروان الذي كان من اختصاص الحكام، والنظر في الأسواق وهي مهمة الحكام أيضاً، أدت به هذه الصلاحيات إلى الخروج عن المألوف في دولة الأغالبة، فقد اشتط باحتقار وازدراء الخوارج والمعتزلة، فقد منعهم طوال حياته وبخاصة الخوارج من الاجتماع بمسجد القيروان الكبير، ومنعهم من أن يصبحوا أئمة أو معلمين للصبيان أو مؤدبين إلى غير ذلك. لكنه من جهة أخرى

فشل في تطبيق هذا النظام على المعتزلة، باستثناء أنه امتنع عن الصلاة خلف أمستهم، وكذلك الصلاة على المتوفين منهم، ذلك لأن المعتزلة كانوا يحظون بحماية الحكام والأمراء الأغلبية، الذين كانوا يشجعون مذهب الاعتزال تيمناً بأسادهم من الخلفاء العباسيين، الذين ساروا في هذا الطريق إلى النهاية، وبخاصة الخليفة المأمون والخليفة المعتصم والخليفة الواثق، وكان مذهب الاعتزال بالنسبة لهؤلاء الخلفاء مذهباً رسمياً يجب أن يُروج ويُحترم في كل الولايات العباسية، التي كان منها ولاية المغرب الأدنى موضوع اهتمامنا، ورغم أن سحنون لم يهاجم هؤلاء كما يجب أو بالأحرى كما كان يحب ويرغب، فإنه عوقب بقسوة وهسو يستحق ذلك لأنه امتنع عن الصلاة على موتى المعتزلة، فقد منع في فترة معينة من الفتوى والتدريس وممارسة كثير من الأنشطة، التي كان يمارسها من قبل أن يظهر نواياه المتعصبة ضد المعتزلة، الذين حملوا لواء نشر مبدأ العقلانية والجدية في مكان مبدأ الجهل والتعصب لأشياء ليست من صلب الشريعة مثل الإيمان بالغيبات والمشبطات والمعطلات^(١).

وفي مجتمع المغرب الأدنى في عصر الأغلبية سقط الفقهاء في مستنقع التعصب لمذاهبهم وآرائهم، التي لا تقدم ولا تؤخر في نهاية الأمر، فقد تعصب الأحناف ضد المالكية والعكس صحيح، الأمر الذي أدى إلى انقسام في صفوف الناس، فقد كان كل طرف من هذه الأطراف يطعن ويشهر بعلم وتصرفات الطرف الآخر، وكأنها أمور لا تمت إلى الشريعة بصلة، فعلى سبيل المثال كان المالكية يحرصون على أن يكون مركز القاضي في داخل المسجد، كي تتم عملية المقاضاة في جو هادئ ومستقل وبعيد عن مشاكل الناس، وكان القضاة الأحناف

(١) - المالكي، المصدر السابق، ص ٢٨٥ وما بعدها.

يتصرفون عكس ذلك حينما يصبح منصب القضاء في أيديهم، أي أنهم يتخذون مكاناً خاصاً بالقضاء خارج المسجد^(١).

أما في ميدان العلوم التطبيقية فقد اشتهرت ولاية المغرب الأدنى في خلال فترة حكم الأغالبة بالطب إلى حد ما، ذلك لأن بغداد كانت قد أثرت في ذلك كثيراً، فقد كانت في هذه الفترة من المدن المتطورة في معظم العلوم. وأول طبيب وصل إلى القيروان قائماً من بغداد، كان إسحق بن عمران، الذي استقدمه أحد أمراء الأغالبة على مضض، الذي لا نعرف من هو على وجه التحديد لاختلاف الروايات حول ذلك الأمر. وقد شغل إسحق بن عمران دوراً بالغ الأهمية في هذا الشأن، حينما وضع الأسس العامة لـ «مكة علم الطب بالمغرب الأدنى» من خلال المعالجة والمداواة، وكذلك من خلال التدريس ووضع الكتب الطبية التي جمعت بين الطب والفلسفة^(٢) وقد انتشر ذكره في ميدان الطب في كل أرجاء المغرب الكبير، ويقول ابن جليل أنه أساس تطور علم الطب بالمغرب والأندلس^(٣) وبالفعل فإن الذين جاؤوا بعده واشتهروا في علم الطب، كانوا من تلامذته مثل الطبيب ابن الجزار، الذي انتقل أثره العلمي إلى الأندلس، بعد أن كان قد انتشر بالمغرب الكبير برمته^(٤).

لكن الشيء الذي يحز في النفس أن انتشار العلوم اللغوية والدينية، كان أكثر من انتشار العلوم التطبيقية الرياضية، الأمر الذي انعكس سلباً على مسيرة التقدم والازدهار. فقد بقيت هذه العلوم على هامش اهتمامات العرب والمسلمين

(١) - الخشني، فضاء قرطبة وعلماء أفريقية ص ٢٤٢ وما بعدها. القاضي عياض، المصدر السابق، ج ١ - ٢ ص ٦٠٠.

(٢) - صاعد الطليطلي، طبقات الأمم، ص ٧٦ وما بعدها.

(٣) - ابن جليل، طبقات الأطباء، ص ٨٤ وما بعدها.

(٤) - القاضي عياض، المصدر السابق، ج ١ - ٢ ص ٤٧٢.

بصورة عامة، فلم تحظ هذه العلوم بأدنى اهتمام أو رعاية، مما جعلها تتراجع وتنحدر بصورة مأساوية.

وفي مجال العمران كان للأغلبة باع طويل، فجاءت فترة حكمهم غنية جداً على صعيد بناء المدن والأماكن الدينية والرباطات، وكذلك القصور الحكومية وصهاريج جمع المياه وما إلى ذلك.

ففي مجال بناء المدن قام الأغلبة ببناء مدينة العباسية في عصر ابراهيم ابن الأغلب الأول في سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م. وهي على بُعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من مدينة القيروان. وقد سميت بهذا الاسم تعبيراً عن احترام ابن الأغلب للخلفاء العباسيين. ولعل السبب الذي جعل ابراهيم بن الأغلب يقدم على بناء هذه المدينة، بتعلق بالضغط شبه المستمر الذي كان العسكريون يمارسونه ضده، فأراد أن يستقل بهذه المدينة بعيداً عنهم معتمداً في حراسته على عناصر العبيد من غير العرب، أضف إلى ذلك أنه لا يستبعد أن يكون قد أراد من بنائها تقليد الخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذهم للقصور خارج عواصمهم^(١). وبالفعل فقد وفرت هذه المدينة لابن الأغلب قسماً وافراً من الأمن والحماية.

أما المدينة الثانية التي بناها الأغلبة، فهي مدينة رقادة التي أقيمت على مسافة ثمانية أميال إلى الجنوب من مدينة القيروان، قام ببنائها الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلب في سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٧م وانتهت في السنة التالية، لتصبح منذ ذلك الحين مقراً لحكومة الأمراء الأغلبة حتى سقوط دولتهم. وقد بني في هذه المدينة العديد من القصور، مثل قصر بغداد والمختار والفتح والبحر والعروس والصحن. وحينما سقطت دولة الأغلبة قطن الفاطميون هذه المدينة حتى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢١م حتى انتقلوا إلى مدينة المهديّة. ومنذ ذلك الوقت بدأ الخراب

(١) لليقوي، كتاب البلدان، ص ٣٤٨. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٧.

والبياب يديان في أحياء هذه المدينة وقصورها، التي ما زال بعض أثارها حتى اليوم باستثناء قصر البحر^(١).

أما الميدان الآخر الذي استقطب جزءاً كبيراً من نشاط الأغلبية واهتمامهم فقد كان بناء الصهاريج والقناطر والخزانات وما يتصل بذلك، وهي أمور كان الخلفاء الأمويون قد شرعوا في إقامتها منذ أن بسطوا سيطرتهم على المغرب الأدنى وغيره من المناطق الأخرى، وبخاصة في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك .

فقام الأغلبية ببناء العديد من المنشآت للضرورة القصوى، التي تشغلها في حياة الناس العامة، وبخاصة خزانات المياه (المواجل) التي انتشرت بالقيروان وما حولها من المدن والحوضر الأخرى، ومعظم هذه الخزانات كان يملأ من مياه الأمطار في فصل الشتاء حيث الذروة في تساقط الأمطار^(٢).

كما اهتم الأغلبية بإقامة العديد من القناطر (الجسور) على مجاري الأنهار وفي الوديان من أجل تسهيل عبور الناس بسهولة ويسر، ومن أشهر هذه القناطر قنطرة أبي الربيع جنوب مدينة القيروان^(٣).

لكن أهم الآثار الأغلبية التي كتب لها أن تبقى وتخلد، فهي المساجد التي انتشرت هنا وهناك. وكان في طليعة هذه المساجد مسجد عقبة بن نافع بالقيروان، الذي كان عقبة بن نافع قد بناه أثناء بنائه لمدينة القيروان، فقد أمر زيادة الله الأول الأغلبي في سنة ٢٢١هـ/٨٣٧م بهدم أجزاء كثيرة منها وإعادة بنائها بعد أن أضاف إليها أشياء جديدة مثل التزيينات التي جلبت مسن أثار رومانية وبيزنطية كانت موجودة في المنطقة، وجلب بعضها من العراق بأسعار باهظة.

(١) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة رقادة .

(٢) - البكري، ص ٢٦.

(٣) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨ وما بعدها.

وفي السنين اللاحقة قام الأمراء الأغلبية بإضافات جديدة على مسجد عقبة، فزادت من رونقه وبهائه وعظمته^(١).

دول الخوارج:

تمكن الخوارج من إقامة بعض الدول بالمغرب الكبير، بعد أن أخفقوا في ذلك في عصر الأمويين بالمشرق، وقد ساعدهم أن المغاربة كانوا متعطشين للعدالة والمساواة والحياة الكريمة، بعد أن عانوا كثيراً خلال حكم الأمويين لهم، فقد ظلمهم الأمويون على كل الصعد إلى درجة أن الأمويين أصبحوا في نظر مجموعة كبيرة من المغاربة، لا يمثلون بصفة إلى الشريعة الإسلامية الصحيحة، التي تأمر بالمساواة بين الناس لأنها كما يعرف الجميع شريعة مبنية على العدل والمساواة. وبصورة عامة فقد نأى الأمويون بأنفسهم عن كل ما يقرب المغاربة إليهم، وسلكوا سياسة ظالمة أدت مع الأيام إلى ظهور جماعات تطالب بتطبيق مبادئ الإسلام من عدالة ومساواة وشورى بين أفراد المجتمع. وكان في طبيعة هذه الجماعات الخوارج الذين نجحوا في تأسيس دولتين لهم هما :

١- الدولة الإباضية الرستمية:

وهي دولة عرفت في العصور الوسطى وما زالت تُعرف حين ذكرها بالدولة الإباضية، نسبة إلى عبد الله بن إباض المري التميمي، الذي يُعد واضع نهج هذه الدولة العام، وهو نهج اتسم بالاعتدال والابتعاد عن التطرف في التعامل مع الناس ومع الدول المعارضة. وقد اشتهر أمر عبد الله بن إباض هذا خلال العقد السابع من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي بعد أن مات مرادس بن أدية التميمي سنة ٦١هـ / ٦٨١م، الذي يعد الداعية الممهّد لظهور هذه الدولة.

(١) - أحمد ذكري، المسجد الجامع بالقيروان، ص ٢٤ وما بعدها.

حاول عبد الله بن إياض مواجهة الأمويين انطلاقاً من سلوكه المعتدل مواجهة سلمية، فكان يخطط لإقناعهم بالحسنى بصحة مبادئه العامة ودخولهم فيها والعمل من وحيها، ويدل على ذلك بعض الرسائل التي عثر عليها، التي كان قد أرسلها إلى الخليفة الأموي، وهي رسائل ضمت العديد من النصائح للخليفة بوجوب الدخول في الدعوة الخارجية، والعمل بقوة لكبح جماح الدعوات المعادية لها. ولكن آراء عبد الله الإباضي ونصائحه، ظلت بعيدة عن حيز القبول الأموي فيها، وحينما توفي في تاريخ غير معروف على وجه الدقة، خلفه في دعوة الإباضية جابر بن زياد الأزدي العماني، الذي قيل أنه كان من أفضل علماء زمانه معرفة بالفقه ومبادئ الشريعة الإسلامية، فكان يشبه عبد الله بن عباس، كما كان ممن الذين أعجب بهم الإمام مالك. وفي بداية أمره بقيادة الدعوة الإباضية سار على سياسة سابقة عبد الله بن إياض، وهي سياسة سلم وحوار كما ذكرنا، وكان ذلك في عصر ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، الذي ناصب الخسوارج العداء بعد وفاة الخليفة عبد الملك ابن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، وكان من نتائج سياسة الحجاج العدائية للخسوارج، أن نفى جابر بن زياد الأزدي إلى عمان، ولكن مدة نفيه لم تطل كثيراً فعاد إلى العراق ليمارس نضاله في سبيل ما كان يحلم به من إقامة دولة خارجية منشودة، حتى وافته المنية سنة ٩٣هـ/٧١٢م.

خلفه في زعامة الدعوة الإباضية أحد تلامذته المشهورين، وهو أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة النميمي، الذي أطلق سراحه من السجن بعد وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ/٧١٤م، وقيل أنه كان شبيهاً بأستاذه جابر بن زياد الأزدي، في مجال المعرفة والعلم والدراسة. وقد عاش أبو عبيدة فترة ذهبية في ولاية يزيد بن المهلب على العراق، وفي عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز حتى سنة ١٠١هـ/٧٢٠م. أما في عصر الخليفة يزيد الثاني، فقد اختفت الأخبار عن نشاطات الإباضية، وظل ذلك مستمراً حتى سنة ١٢٠هـ/٧٣٩م لذلك فقد

رأى أبو عبيدة منذ بداية حكم الخليفة يزيد الثاني^(١) . أن الدعوة للمذهب الإباضي الخارجي ضرب من المستحيل في المشرق العربي بعامة، ذلك لشدة العداء والمراقبة على أصحاب هذا المذهب، وهذا ما جعله يوجه أنجسب تلامذته وأخلصهم للإباضية وأكثرهم ورعاً، وهو سلمة بن سعيد الذي توجه إلى المغرب، وكانت أول محطة له هناك مدينة سرت بلبيبا حيث باشر دعوتيه ونشاطه، وقد فوجئ بأن مذهب الإباضية انتشر بسرعة لافتة لم تكن في الحسبان على الإطلاق، ولا بد أن ذلك يرجع في المقام الأول إلى أن العباسيين، كانوا أسوأ من الأمويين في ميدان تطبيق مبادئ العدالة والمساواة، وهي من الأمور التي طالما حلم بها المغاربة.

شجعت هذه الحالة الإيجابية في المجتمع الجديد سلمة بن سعيد على إرسال عدد من المبعوثين إلى مدينة البصرة ، كي يدرسوا المبادئ الخارجية الإباضية لفترة أربع سنوات، وكانوا أربعة هم عاصم السدراتي، وعبد الرحمن بن رستم، وأبو داود القبلي النفزاوي، وإسماعيل بن ضرار الخدامسي، وحينما وصل هؤلاء إلى البصرة انضم إليهم شخص خامس هو أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافري اليمني، وقع اختيار أبو عبيدة عليه ليكون زعيم الدعوة الإباضية بالمغرب الكبير .

عاد هؤلاء إلى المغرب الكبير بعد أن أمضوا الفترة المقررة لهم بالبصرة، عادوا وكلهم أمل في أن يحققوا أشياء هامة في ميدان الدعوة الإباضية، وحين وصولهم إلى طرابلس في سنة ١٤٠هـ/٧٥٨م، اجتمعوا بموضع صياد القريب من طرابلس، وقرروا أن يكون أبو الخطاب المسؤول الأول فسي الدعوة الإباضية. ولم تمض فترة وجيزة حتى تمكن الإباضيون من السيطرة المحكمة على كل ليبيا الحالية، وهذا ما مكنهم على التوجه غرباً وسيطروا على القيروان، ووصلت بعض قواتهم إلى جبال القبائل بالجزائر اليوم.

(١) - حكم يزيد الثاني من سنة ١٠١-١٠٥ هـ .

لكن هذا الواقع الإيجابي بالنسبة للخوارج الإباضية، لم يستمر طويلاً ذلك لأن العباسيين ضاقوا ذرعاً بهذه التطورات، فتحركوا على وجه السرعة لوضع حد لها، وكان ذلك في سنة ١٤٤هـ/ ٧٦٢م حينما كلف الخليفة أبو جعفر المنصور أحد قادته بالتحرك إلى المغرب، وهذا القائد هو محمد بن الأشعث الذي كان موجوداً بمصر القريبة، وحينما وصل هذا القائد إلى شرق مدينة طرابلس اشتبك مع مجموعة من أنصار أبي الخطاب الإباضي، وقد تمكن محمد بن الأشعث بقواته الكبيرة من إلحاق الهزيمة بالإباضية، وقتل أبو الخطاب على أثر ذلك ومعه مجموعة من أصحابه الأوفياء، وأما من نجا من الإباضية في هذا اللقاء، فقد توجهوا إلى المغرب الأوسط، حيث تمكن عبد الرحمن بن رستم أن يؤسس معهم ما سمي بعد ذلك بالدولة الرستمية الإباضية^(١).

وهنا يجب أن ننوه بأن التنظيم المحكم للحركة الإباضية والروح الجادة، التي تميز بها أتباع هذه الحركة، وكذلك المبادئ السامية التي نادى بها هؤلاء الأتباع، كل ذلك ساعد على تلك النجاحات، التي ضربها العباسيون بقوة في أوج قوتها، وبوقدها. وقد تجلت مظاهر هذا التنظيم بإحداث إدارة مركزية للحركة الإباضية، تعمل على توجيه الأتباع في كل ما يعود على هذه الحركة بالنفع والفائدة.

كذلك فقد ركزت الحركة على مسألة التعليم وبخاصة في المجال الديني، الذي يركز على المبادئ الخارجية، وكان المتميزون في هذا المجال يدعون حملة العلم أو نقلة العلم، أي الذين يعملون على نشر العلم بين الناس^(٢).

(١) - سليمان الباروني، مختصر تاريخ الإباضية طبعة تونس، ١٩٣٨ ص ٢٩، وما بعدها . محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج ٣، ص ١٣٥، وما بعدها . ابن عذاري، المصدر السابق، ص ٨١، وما بعدها . ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤١١ .

(٢) - الشماخي، سير علماء جبال نفوسة، ص ١٢٣ .

نجحت الدعوة الإباضية بتأسيس دولة خارجية بالمغرب الأوسط (الجزائر)، عرفت بالدولة الرستمية الإباضية نسبة إلى والد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذي قيل أنه من أصل فارسي، ذلك لأن عبد الرحمن بن رستم كان برفقة والده الذي، قضى نحبه بمكة المكرمة أثناء تأدية فريضة الحج، فتزوجت والدته برجل مغربي، انتقل عبد الرحمن معها إلى المغرب الأدنى، وقد اشتهر أمر هذا الشاب بالقيروان بتميزه على أقرانه من حيث الإعداد للتعليم ومن حيث سلوكه العام، الذي تميز بالكياسة والأتزان، وهي صفات لفتت انتباه شيخ الدعوة الإباضية أبي خطاب عبد الأعلى سابق الذكر، فاختره مع آخرين ليكونوا مبعوثيه للدراسة بالبصرة. وكان اختيار أبي الخطاب في مكانه، ذلك لأن عبد الرحمن بن رستم تفوق في دراسته وحماسة وإخلاصه للدعوة الإباضية الخارجية، وحينما عاد من البصرة عينه ممثلاً له في المغربين الأدنى والأوسط، ولكن إقامة عبد الرحمن بالقيروان لم تكن طويلة، فقد اضطر لمغادرتها في سنة ١٤٤هـ / ٧٦٢م بعد سماعه بمقتل سيده أبي الخطاب على يد العباسيين كما ذكرنا قبل قليل، فذهب إلى طابنة ثم إلى تهودة (سيدي عقبة) ثم بعد ذلك إلى الموقع الذي ستقام عليه عاصمة الدولة الرستمية الإباضية مدينة تاهرت^(١).

تمكن عبد الرحمن بن رستم في موقعه الجديد بالجزائر، أن يستقطب الكثير من الأنصار والمؤيدين، الذين تتوفر فيهم الصفات المطلوبة والضرورية لتأسيس دولة جديدة للخوارج. ويبدو أن هؤلاء الأتباع كانوا من الكثرة والقوة إلى درجة، شجعت عبد الرحمن بن رستم على الشروع ببناء مدينة جديدة، تكون عاصمة للدولة المنشودة، وكان ذلك في سنة ١٦٠هـ / ٧٧٧م. بنيت المدينة الجديدة التي حملت اسم تاهرت في موقع منيع ومحصن إلى حد كبير، هو سفح جبل غزول الجنوبي الذي يرتفع عن سطح البحر نحواً من (١٠٠م). وهذا الموقع عبارة

(١) - التماخي، سور علماء جبل نفوسة، ص ١٢٣.

عن غيضة تتوسط ثلاثة أنهار، الأمر الذي جعل الحياة في هذا الموقع مثمرة باضطراد حتى اليوم في موقع تياريت الحديثة، التي هي استمرار لتأهت القديمة (١).

مع مرور الأيام امتدت حدود هذه الدولة إلى أماكن نائية، فوصلت في الجنوب إلى قريب من نهر النيجر، ووصلت في الغرب إلى سجلماسة بجنوب المملكة المغربية، ووصلت في الشرق حتى جبل نفوسة (الجبل الغربي) بليبيا، ووصلت في الشمال إلى تنس ومستغانم ووهران بالجزائر اليوم (٢).

وهنا يمكن أن نطرح السؤال التالي، هل نجح الإباضيون في تطبيق مبادئ دعوتهم القائمة والقاتلة بالعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، واختيار الحاكم بالاعتماد على إرادة الشعب على أساس تحقيق المصلحة العليا وبناء الدولة بناءً نافعاً، كما نجحوا في الاستقلال في رقعة من الأرض شكلت قوام دولة طالمسا حلموا بها؟ للجواب على هذا السؤال، لا بد من القول أن الخوارج الإباضية لم ينجحوا في ذلك على الإطلاق، ذلك لأنهم ساروا على الطريق نفسه الذي سار عليه أعداؤهم، فقد جعلوا الحكم متوارثاً في أبناء وأحفاد عبد الرحمن بن رستم منذ البداية حتى النهاية. والدليل على ذلك أنه حين وفاة المؤسس عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م، خلفه مباشرة ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن، على الرغم من أن الإباضية تظاهروا بحرصهم على مبدأ تطبيق الشورى والانتخاب، هذا المبدأ الذي تمثل آنذاك بسبعة من الزعماء الإباضيين البارزين. وقد انعكس هذا التصرف سلباً على مسيرة واستقرار الدولة الإباضية بتأهت، وقد تجلى ذلك بظهور مجموعة من الإباضيين أعلنت رفضها المطلق لحكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن، سموا في التاريخ الإباضي بالنكارية (٣) وقد شكل هؤلاء المعارضون تهديداً مباشراً لحكم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن، حينما لجأوا إلى الجبال القريبة

(١) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة تأهت.

(٢) - السيد عبد العزيز مالم، المرجع السابق، ص ٥٤٢.

(٣) - - سحر علماء جبل نفوسة، ص ١٨٣ وما بعدها.

من تاهرت وتمركزوا فيها، وتطور الأمر إلى حدوث اشتباك عسكري بين الطرفين، أسفر عن هزيمة النكارية ومقتل زعيمهم.

إلى جانب مبدأ وراثته الحكم، فقد ظهر مبدأ آخر يتناقى مع المبدأ العام للخوارج الإباضية، وهو التعصب للانتماء القبلي والعصبي، الذي أثر سلباً هو الآخر في مسيرة الدولة الإباضية الرسمية، فقد طلب على سبيل المثال الإباضيون في منطقة طرابلس من الحاكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن، أن يعتمد في قمة زعامتهم ابن القائد الإباضي المتوفى أبو الخطاب، فاستجاب لإرادته، وحين توفي هذا الزعيم، طالبوه باعتماد ابنه خلفاً له، لكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن رفض طلبهم هذه المرة، الأمر الذي تطور فيما بعد إل صدام عسكري بين الطرفين^(١).

وهكذا استمرت هذه المفاهيم، التي ابتعدت نهائياً عن مبدأ الإباضية الجميل والمتمثل كما ذكرنا بالاعتماد على انتخاب الرجل الأصح لحكم الناس، حتى وصل الفاطميون إلى ديارهم في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فأسقطوا دولتهم وهاجر الكثيرون من الخوارج التاهريين الإباضيين إلى منطقة الشبكة القريبة من سدراته، وبقوا في ورقلة ووادي مزاب حتى يومنا هذا، وكذلك الأمر في جبل نفوسة (محافظة الجبل الغربي بليبيا).

بقي أن نتابع مسيرة هذه الدولة المظفرة في الميدان العلمي والحضاري بشكل عام ففي الميدان الحضاري، يمكن أن نقول أن عوامل إيجابية ساعدت على تطور الدولة الإباضية وازدهارها، وقد تحدثت هذه العوامل بالأرض التي سيطر عليها الإباضية، فقد امتاز معظمها بالخصب والعطاء والصلاحية المستمرة وبخاصة في وادي شلف، الذي يساعد على قيام زراعات هامة مثل الحبوب

(١) - سير علماء جبل نفوسة، ص ١٨٣ وما بعدها.

والكتان وغيرهما^(١) وكذلك في التجارة التي ازدهرت ونشطت بشكل لافت إلى جانب الزراعة، مع الأمويين بالأندلس الذين كانت سفنهم في حركة مستمرة بين موانئ الدولة الإباضية والموانئ الأندلسية على البحر المتوسط، وفي الوقت نفسه كانت القوافل التجارية في حركة دائبة بين تاهرت وبين دولة إفريقية الغربية وسجلماسة، التي كانت تأتي من بضائع هذه الدول إلى تاهرت ومنها إلى الأندلس وغيرها من البلدان الأوربية، مثل الذهب الذي كان على رأس هذه البضائع لتوفره في البلاد الإفريقية الغربية، ثم الجلود وريش النعام وغير ذلك، هذا وكانت هذه القوافل تعود وهي محملة بالمنتجات الإباضية المغربية مثل الحرير والصوف والخزف والعمود وبعض المصنوعات المعدنية، الأمر الذي انعكس إيجابياً على اقتصاد الدولة الإباضية، فنعم أهلها بالغنى والرفاهية والبحوحة^(٢).

وكان من أهم المظاهر الحضارية الراقية في دولة الإباضية هذه، أن حكامها بنظرهم البعيدة أعلنوا حالة عامة من التسامح وعدم التدخل في شؤون الآخرين العقائدية وغيرها، على الرغم من حرصهم الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية حسب مذهبهم ومبادئهم ومفاهيمهم، فانعكس ذلك إيجابياً على سلامة المجتمع الإباضي من المشاكل الخلافية التي لا طائل منها، فكان في دولتهم المسيحيون والمعتزلة والشيعة، وساد بين هؤلاء جميعاً وبين الإباضية حالة متقدمة من النقاش والحوار الهادئ الذي يحترم فيه كل طرف الطرف الآخر^(٣) لا شك أن الهدف من سلوك هذا النهج الحضاري، هو إظهار دولة الإباضية بمظهر حضاري لائق وخلق مجتمع جديد، يحترم الناس فيه بعضهم بعضاً من خلال أن يلتزم كل منهم بواجباته والعمل من أجل تحقيق مصلحة البلاد العليا^(٤).

(١) - اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٥٨ .

(٢) - مختصر تاريخ الإباضية، ص ٤٣ .

(٣) - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرسميين، ص ١٥ .

(٤) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥ .

ويمكن أن نعتبر حكام الإباضية مظهرًا من مظاهر الحضارة في دولتهم، ذلك لأن عدداً منهم شارك في بعث وتطوير النهضة العلمية بصورة عامة، هذا بالإضافة إلى تشجيعهم لكل العلماء والمفكرين، مثال ذلك أن مؤسس هذه الدولة هو عبد الرحمن بن رستم، كان من العلماء البارزين في عصره، وبذلك أنه وضع تفسيراً للقرآن الكريم بنفسه، وألف بعض الكتب الأخرى مثل الإخوانيات وغيرها، وكذلك كان ابنه وخليفته عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي ألف كتاباً هاماً في فقه الإباضية هو (مسائل جبل نفوسة) تضمن العديد على أجوبة لأسئلة كانت ترد عليه من جبل نفوسة بجنوب غرب طرابلس^(١) الغرب هذا بالإضافة إلى أنه كان يرسل الأموال الجمة لشراء الكتب لتزويد مكتبة تاهرت الشهيرة، التي كانت من أهم المظاهر الحضارية والعلمية في الدولة الإباضية، فقد قيل عن هذه المكتبة أنها احتوت على ٣٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلم وتفرعاته. ومن المؤسف أن هذه المكتبة الكبيرة بحجمها ومحتوياتها، تخربت من قبل الفاطميين ، ولم ينج من محتوياتها سوى المؤلفات والكتب، التي تتعلق بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية، ذلك لأن الفاطميين كانوا يودون على ما يبدو تغريب الإباضية عن مبادئهم، التي تجسدت في العديد من الكتب التي كانت موجودة في هذه المكتبة الشهيرة.

كذلك فقد برهن الإباضيون أنهم لا يقلون شأنًا عن غيرهم في مجال العمارة والبناء والتشييد، فقد بنوا عدداً من القصور الجميلة والمنشآت المختلفة بتاهرت وخارجها، وتمكنوا بجدارة ونجاح من استرجار مياه الشرب إليها^(٢) لكن شيئاً من هذه المنشآت لم يبق بسبب ما تعرضت له الدولة من هجمات متفاوتة التأثير.

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥.

(٢) - أخبار الأئمة الرستميين، ص ٢٦.

كما يمكن أن نعد جزءاً من علاقات الدولة الإباضية مع جيرانها نوعاً رافقياً من التحضر والتقدم والكياسة الدبلوماسية. فعلى الرغم من أن حالة العداء بين هذه الدولة والدولة الأغلبية بالمغرب الأدنى، فإن الإشتباكات الحربية بين الدولتين كانت نادرة، حدث أهمها في سنة ٢٢٧هـ/٨٤٢م حينما انتهى الأغلبية من بناء مدينة العباسية، حيث قام الإباضيون بالهجوم على هذه المدينة ودمروها، ذلك لأنها كانت في نظرهم تشكل تهديداً مباشراً على العاصمة الإباضية تاهرت. ومع ذلك فلم يبادر الأغلبية على الرد على الحادثة المؤلمة مباشرة، وظل ذلك حتى عصر الحاكم أفلح ابن العباس حيث جرت معركة بين الطرفين هي معركة (قصر مانو)^(١) وانتصر فيها الأغلبية، لكنهم لم يستغلوا هذا النصر للقضاء على دولة تاهرت.

وكانت أهم الملامح الحضارية لهذه الدولة في ميدان العلاقات السياسية، قد تجلت في علاقتها الطيبة مع دولة الأمويين بالأندلس، ولا بد أن المستجدات في ميدان التجارة هي التي أثرت على هذه العلاقة، فقد ربطت التجارة كلا البلدين الإباضي والأموي في علاقة متينة، كانت غير متوقعة على الإطلاق، ذلك لأن تبايناً كبيراً بين الطرفين يتجسد في مجال العقيدة الدينية، كان سيحول دون اللقاء الطرفين فيما لو سُمح للمتعصبين أن يثيروا هذه القضية الإشكالية، وربما أن الجفاء كان هو الذي سيسود بدلاً من تلك العلاقة الطيبة، التي سادت في المجال الاقتصادي التجاري وغيره^(٢) أو هو. أمر سننوسع في بحثه تحت عنوان مستقل عن تأثير التجارة في تقارب دول المغرب والأندلس.

ولم يرَ الإباضيون حرجاً في استمرار علاقتهم مع مصر، على الرغم أنها كانت من أهم وأكبر الولايات العباسية، فقد ساد جو من المودة والتفاهم بين الإباضيين والمصريين، بمعنى أن المذهبية الدينية كانت عاجزة في ذلك الوقت

(١) - ابن خلدون، للعبير، ج٤، ص ٤٢٩ .

(٢) - ابن القوطية، للمصدر السابق، ص ٩١ وما بعدها. ابن خلدون، العبير ج٤، ص ٤٢٩.

وستبقى بإذن الله عاجزة عن إيقاف حركة التواصل والحب بين الشعب العربي الواحد في كل مكان. وهكذا فقد فتحت مصر أبوابها أمام القوافل الإباضية والعكس صحيح^(١).

٢- الدولة المدرازية الخارجية بسجلماسة.

هي ثاني دولة للخوارج بالمغرب الكبير، عُرِفَتْ بتشددها على صعيد العقيدة في بداية أمرها، ومع الأيام خففت من هذا التشدد خدمة لمصالحها التجارية التي قُتِرَ لها أن تكون مع جهات تختلف معها على الصعيد المذهبي. تأسست هذه الدولة في وقت مبكر من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، تأسست في واحة سجلماسة في أعالي وادي زيز على أطراف الصحراء في المغرب الأقصى في نقطة على درجة كبيرة من الأهمية في الميدان التجاري، ذلك لأنها كانت محطة لا بد من المرور بها للتجار القادمين من غرب إفريقيا وبالعكس.

أعلنت هذه الدولة رسمياً في سنة ١٢٨هـ/ ٧٥٥م، وقد تمكن حكامها في بداية أمرهم من تطبيق بعض المبادئ، التي كانوا يؤمنون بها مثل المساواة وعدم التفريق بين الناس، فحينوا لقيادته رجلاً أسوداً هو عيسى بن يزيد الأسود المكناسي^(٢) وطبقوا مبدأ خلعه في حال انحرافه عن مسيرتهم العامة، وقد حدث ذلك في سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٤م حينما قاموا بخلع إمامهم الأول بعد حكم دام أكثر من ربع قرن ولكنهم لم يكتفوا بقضية الخلع، بل أقدموا على قتله بصورة تسدعو إلى الاشمئزاز والاستنكار، وعينوا على قيادة دولتهم أحد المكناسيين منهم، وبذلك يكونون قد تخلوا عن مبادئهم في قضية الانتخاب والشورى على غرار ما حدث في كل الدول، التي عُرِفَتْ في العصور الوسطى، ثم خلفه أبناؤه وأحفاده.

وكان أولهم أبو القاسم سمعون بن واسول المكناسي الملقب بالمدرار، ويقال أنه كان يعمل حداداً، وأصله من الأندلس من حي الربيض بجنوب مدينة قرطبة،

(١) - السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ج ٢، ص ٥٧٢.

(٢) - البكري، ص ١٤٨.

هاجر إلى المغرب بعد فشل ثورة الربض في عصر الأمير الحكم الربضي الأموي، استهل حياته السياسية بإكمال بناء مدينة سجدلماسة، بأن بنى سور هذه المدينة الخارجي. وكانت فترة حكمه قصيرة، وخلفه ابنه الياس المعروف بلقب الوزير، وقد استمر في حكم دولة سجدلماسة حتى سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م، حين ثار عليه جماعته وأتباعه وأقصوه عن الحكم، وأقاموا بدلاً منه أخاه اليسع، الذي توطدت في عصره أسس الدولة المدرازية وتحصنت أحوالها، فهو يعد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، ففي عصره اتسعت رقعتها حينما استطاع أن يضم إليها منطقة درعة، التي كانت من مناطق جنوب المغرب الأقصى الهامة لموقعها على طريق القوافل التجارية ولخصب أراضيها وصلاحياتها للزراعة.

كانت هذه الدولة ضعيفة في بدايتها في الميدان الاقتصادي، ولكنها انطلقت بعد ذلك لتصبح من الدويلات الغنية بالمغرب الكبير، فقد ازدهرت زراعتها لتوفر الأراضي الزراعية الخصبة بالقرب من نهر زيز دائم الجريان. وكان من أهم زراعاتها الحبوب والنخل والكرمة والكرابيا والحناء والكمون وغير ذلك^(١). وكانت بعض منتوجاتها مثل النيلة وشجر التاكوت والقطن الذي دخل إلى هذه المنطقة، تستخدم في صناعة أشياء مختلفة مثل بعض المنسوجات ودباغة الجلود^(٢).

لكن العامل الهام الذي شغل دوراً إيجابياً رائداً في استمرار حياة هذه الدولة، هو ازدهار ورواج تجارتها بسبب موقعها الاستراتيجي على طريق القوافل التجارية، فقد كانت تشكل بوابة تجارة غرب القارة الإفريقية برمتها، التي كانت من أهم مصادر الذهب في عالم العصور الوسطى. مما جعلها محطة هامة لكل القوافل التجارية، التي كانت تنزود منها بكل احتياجاتها العامة، وبخاصة الجمال

(١) - الحميري، الروض الماطر، ص ٢٣٥ و ٣٠٥.

(٢) - الحميري، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

أداة عبور الصحراء^(١)، ولم تكن هذه الوظيفة هي الأساس فسي الغنى، الذي تميزت به هذه الدويلة، بل إن هناك سبباً هاماً تجسد في أن مجموعة كبيرة من مواطني سبلماسة كانت تشتغل بالتجارة بين الجنوب والشمال والشرق، أي أنهم كانوا في مرحلة مستمرة إلى غرب إفريقية، وكذلك إلى شمال المغرب والأندلس وإلى مصر أحياناً، الأمر الذي جعل تجار سبلماسة من أكبر تجار المنطقة وأغناهم^(٢).

وكان للازدهار الذي شهدته هذه الدويلة أثره الكبير في إثارة الأطماع بها والسيطرة عليها، كما فعل الأمويون بالأندلس والفاطميون بعد ذلك، فقد كانت سبلماسة هذه تزود الفاطميين بمقدار نصف ما تزودهم به كل مناطق المغرب الكبير برمته. كما أدى هذا الازدهار من ناحية أخرى إلى مجيء بعض الجاليات اليهودية، ذلك لأن اليهود عبر تاريخهم العام يحبون أن يعملوا في مجال تجارة الذهب وما شابه، هذا بالإضافة إلى التسامح العام الذي ميز دويلة سبلماسة. ونتيجة اتصال التجار بشعوب مختلفة في الشرق والغرب والجنوب، نقلت إلى سبلماسة معالم هامة في مجال العمالة وبخاصة من المشرق العربي^(٣).

الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى:

اشتهرت هذا الدولة منذ اللحظة الأولى لقيامها بالدولة الإدريسية نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي كان قد وصل إلى المغرب الأقصى هارباً من الحجاز على أثر فشل أقربائه العلويين في معركة فخ ضد السلطة العباسية، وفخ منطقة قريبة من مدينة مكة المكرمة، وهذه المعركة كانت في سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م. وحين وصل إدريس الأول إلى المغرب

(١) - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٢٨ .

(٢) - ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٦ وما بعدها .

(٣) - الحميري، المصدر السابق، ص ٢٠٧ . ليون الإفريقي، جزء وصف إفريقية، ج ٢، ص ٤٢٥ .

الأقصى، اختار النزول عند زعيم قبيلة أوربة^(١)، بعد أن عزف عن الاستقرار بطنجة أول محطاته في هذه البلاد. كان زعيم قبيلة أوربة مقيماً بمدينة ولبلى. ومن الأمور المثيرة للاستغراب في رحلة إدريس الأولى الناجحة إلى المغرب الأقصى، هو قبول المغاربة في أعداد كبيرة الوقوف مع إدريس وتأييده والانضواء تحت لوائه إلى النهاية. ويمكن التعرف على سر هذا الأمر من خلال المكانة السامية التي يشغلها آل بيت الرسول ﷺ في نظر المغاربة منذ ذلك الحين حتى اليوم. فكان المغاربة يُحدون آل البيت قدوة حسنة في كل مجالات الحياة، وأن احترامهم والوقوف معهم هو أمر إيجابي في كل المقاييس وهي نظرة تسجل للمغاربة في ميزان إيجابياتهم العامة، وهذا ما يمكن أن يكون رداً على الرأي القائل، بأن المغاربة أرادوا من خلال إدريس الأول، أن يؤلفوا كياناً يكون مستقلاً عن المركز، الذي كان في ذلك الحين يتمثل بالخلافة العباسية. فالخلافة العباسية في ذلك الحين لم تكن تمارس أية سلطة أو سيطرة على المغربين الأوسط والأقصى وستبقى كذلك طوال العصور الوسطى لفشلها المطلق في هذا الأمر^(٢).

بدأ إدريس الأول بالسعي لتحقيق طموحه في إقامة دولة مستقلة، حينما شرع بتنفيذ غزوات عسكرية على مناطق مغربية معينة، فقد بدأ بمنطقة ماسة بحجة تأديب بعض الجماعات الخارجة على الإسلام من يهود ووثنين، وكذلك فعل في منطقة الرباط الحالية، حيث كانت تتوضع قبائل برغواطية التي مثلت ذروة الخروج على الإسلام في ذلك العصر، كما تمكن من الوصول إلى منطقة تازا وتلمسان^(٣). وفي غضون ذلك فوجئ المغاربة بمقتل إدريس الأول بطريقة وحشية، فقد قُتل غيلة بأمر من الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٥هـ/٧٩٢م^(٤). ذلك لأن هارون الرشيد توجس خيفة من قيام دولة علوية بالمغرب الكبير، تشكل

(١) - كان هذا الزعيم آنذاك هو إسحق بن عبد الحميد.

(٢) - شارل جوليان، المرجع السابق، ص ٥٥ وما بعدها.

(٣) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) - نفذ عملية الاغتيال العاشمة شخص يدعى سليمان بن جرير.

خطراً على خلافته وحكم أسرته بصورة عامة، وما فعله في إدريس الأول لم يكن أمراً جديداً على السياسة العباسية تجاه آل البيت، فهي سياسة واضحة منذ بداية الدولة العباسية حتى نهايتها، وكان محورها على الدوام ضرب أي نشاط للعلويين في مختلف الميادين، ذلك لأنهم شكلوا قوام المعارضة للسلطة العباسية.

لم ينته أمر العلويين الأدارسة بالمغرب الأقصى بموت إدريس الأول، كما كان يحلم هارون الرشيد، بل كان موته باعثاً أكيداً على المضي قدماً لتحقيق ما كان يحلم بتحقيقه، وتجسد ذلك في أتباعه المخلصين حتى النهاية. فقد بدأ هؤلاء الأتباع بأول خطوة على هذا الطريق، بأن أطلقوا اسمه على ابن له، ولد بعد موته بقليل، وكان المشرف على هذا الأمر شخص يدعى راشد، وهو الذي تميز بشدة الوفاء والإخلاص لسيده المتوفى ويبقى راشد يرعى هذا الصبي الذي عرف بإدريس الثاني، حتى بلغ سن الحادية عشرة حينما بويع بحكم الأدارسة العلويين بالمغرب الأقصى.

ورغم صغر سنه فإنه تحرك بقوة لإكمال ما كان والده قد بدأ به، وهو السيطرة على أكبر جزء من المغرب الأقصى، فاستهل عمله على هذا الطريق بإعادة غزو منطقة تازا وتلمسان، وكذلك فعل بمنطقة السوس بالجنوب بإعادة غزو منطقة تازا وتلمسان، وكذلك فعل بمنطقة السوس بالجنوب حينما نجح بالسيطرة على نفيس، هذا في الوقت الذي استطاع فيه أن يتخلص من المشاكل التي كان العباسيون يثيرونها عليه من خلال أتباعهم الأغلبية المسيطرين على المغرب الأدنى.

وهكذا فإنه نجح في توطيد سيطرته على جزء كبير من المغرب الأقصى في الوسط والشمال وبخاصة ممر تازا الاستراتيجي، الذي حرص على إحكام سيطرته عليه لأهميته البالغة في تحقيق الاتصال السريع بين المغربين الأقصى والأوسط،

بصورة عامة فلم يبق خارج سيطرته سوى تلك المنطقة التي كانت تسيطر عليها قبائل برغواطة في المنطقة بين نهري بورقراق وأم الربيع، وبعض المناطق الأخرى في الأطلس الأعلى والصحراء والريف.

وإن الشيء الملاحظ على تحريك الأدارسة العلويين، أنهم منذ البداية اهتموا ببناء عاصمة لدولتهم المنشودة، على غرار ما حدث في المناطق المجاورة وهو أمر غدا من الأمور المألوفة في كل الدول التي ظهرت بالمغرب الكبير. تجسدت عاصمة الأدارسة العلويين بمدينة فاس، التي أُقيمت على الضفة اليمنى لواندي سبو في بداية عهدها، وهو القسم الذي حمل فيما بعد اسم عدوة الأندلسيين (١).

وهذا الجزء من مدينة فاس هو الذي كان إدريس الأول قد شرع فيه، ليكون نواة مدينته المنشودة. وحينما توفي كما ذكرنا تابع ابنه إدريس الثاني عملية بناء هذه المدينة، فبني الجزء الثاني منها سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م وهو الجزء الذي حمل اسم عدوة القرويين أو القيروانيين في البداية ثم اسم العالية تيمناً بالإمام علي بن أبي طالب (٢). وقد تطورت العالية تطوراً سريعاً أكثر من كل أحياء مدينة فاس.

وقد كتب لمدينة فاس أن تعيش حالة ازدهار شبه مستمرة حتى يومنا هذا، بعكس العديد من المدن المغربية التي بنيت في الفترات السابقة عليها أو اللاحقة. ويعود ذلك الأمر في المقام الأول، أن هذه المدينة العامرة بنيت في سهل خصيب هو سهل (سايس) ، الذي يُعد من خيرة السهول والأراضيسي في المغرب الأقصى. يضاف إلى هذه المزية الإيجابية الخالدة، أن موقع المدينة شكل موقعاً استراتيجياً على طريق القادمين من الغرب والشرق والشمال والجنوب، فهي تقع في نهاية ممر تازا الاستراتيجي، هذا بالإضافة إلى عدد من المميزات الأخرى

(١) - سميت كذلك بعد أن وصلتها مجموعة من سكان ريف قرطبة الجنوبي، هذا الريف الذي تكيه الأمير الأموي الحكم بن هشام الرضي سنة ٢٠٢هـ .

(٢) - ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١ وما بعدها .

المتفرقة. وبذلك تكون كل هذه الأمور قد تعاضدت فيما بينها لتجعل من مدينة فاس مركزاً حضارياً وعلمياً واقتصادياً كبيراً، أضيفت لها أمور أخرى بعد انتهاء عملية بنائها، وهي قدوم جاليات أندلسية وقيروانية ساعدت كثيراً في انطلاق هذه المدينة وتوثيقها الدائم.

بعد وفاة إدريس الثاني قاد مسيرة الأدارسة العلويين ابنه محمد أكبر أولاده، وقد وقع هذا الأمير منذ البداية بخطأ كبير، تجلّى بتوزيع الأرض التي يسيطر عليها الأدارسة بين إخوته الاثني عشر، ذلك لأن هذا التوزيع أدى إلى تجزئة الدولة وتقسيمها بشكل مأساوي حينما توفي هذا الأمير، الأمر الذي جعل هذه المنطقة ضعيفة التأثير في المناطق المجاورة وبخاصة في الميدان السياسي، وهذا ما ساعد الفاطميين على السيطرة على أملاك هذه الدولة المتجزئة بسهولة مشهودة.

دويلة برغواطية:

البرغواطيون مجموعة من المعارضين لكل الدول التي سادت في المنطقة السهلية المحصورة بين نهري بورقراق وأم الربيع حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهي المنطقة التي كانت تدعى منطقة تامسنا، ويمكن أن نسميها اليوم منطقة الرباط الحالية لتسهيل معرفتها على الناس.

ويقال أن هؤلاء مجموعة من المغاربة تشكلوا بشكل خاص من الزناتيين والمصموديين، وظهروا بشكل لافت كقوة لها أهميتها في الفترة التي تلت الثورة الخارجية بزعماء هذه القبائل، واسمه مختلف فيه فبعضهم يقول إنه طريف وبعضهم يقول صالح بن طريف، كذلك فإن أصله مختلف عليه، فبعضهم يذكر أنه من أصل يهودي من قرية برباط بولاية شنونة (وادي لك) التي جاءت منها تسمية برغواطية وبعضهم يقول أنه مصمودي مغربي.

مهما كان من أمر فإن دويلة البرغواطيين هذه، تميزت عن غيرها من دول المغرب الكبير بعقيدتها الدينية الخارجة على الشريعة الإسلامية إلى حد كبير، فقد جاءت هذه العقيدة خليطاً من عقائد الشيعة وغيرهم. فقد تجسد خروج هذه

العقيدة في بعض الأمور الهامة، فقام أصحابها (صالح المؤسس ربما) بتأليف قرآن خاص، وجعلوا الصيام في شهر رجب، وأضافوا خمس صلوات ليلية إضافة إلى النهارية، وجعلوا الزواج مفتوحاً بشرط أن يكون الراغب فيه قادراً على القيام بواجبات زوجاته المادية والجنسية، وحرّموا أكل البيض، وقَدَسُوا الديك إلى أبعد حدود التقديس، فكانوا يتبركون بلعابه، وربما جاءت هذه القدسية من أنهم كانوا يعتمدون على صياحه في معرفة الأوقات.

وبقيت هذه الدولة رغم ذلك الخروج عن الشريعة الإسلامية صامدة في وجه كل التحديات، التي وجهت ضدها وبخاصة من قبل الأدارسة العلويين والفاطميين، ولم تخضع إلا في عصر المرابطين، الذين تمكنوا من وضع حد لتمردها وذوبانها في الدولة العربية، التي ضمت المغرب الكبير والأندلس تحت سلطة المرابطين.

وبالجملة فإن هذه الدول التي ورد ذكرها حتى الآن، وصلت إلى أوج ازدهارها وقوتها في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ومع ذلك فإنها فشلت في تكوين قوة واحدة متعاونة، باستثناء أنها أحرزت نوعاً من الاتفاق فيما بينها لترويج التجارة التي كانت من أهم ما تميزت به هذه الدول على الإطلاق^(١)، وهي ما سنوقف عندها في بحث خاص لأهميتها في التغلب على الخلافات المذهبية المقيتة.

وقد كانت دول زراعية إلى جانب أنها دول تجارية، ساعدها في ذلك قيامها في أماكن خصيبة صالحة للزراعة المتنوعة، وكانت دول صناعية إلى حد ما، ساعدها على ذلك توفر عدد من المعادن الضرورية للصناعة.

وترفعت معظم هذه الدول عن الأخذ بتأثيرات الخلاف المذهبي، الذي ميز هذه الدول برمتها، وحل محل ذلك الحوار الهادئ والشعور الناضج بضرورة

(١) - الإنريسي، نزعة المشتاق، ص ٩ وما بعدها. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٠-١٢١.

تغليب المصالح العامة، التي تؤدي إلى تحسين أوضاع الناس في مختلف الميادين الحياتية.

هذا وقد أقبل أمراء هذه الدول وبخاصة الأوائل منهم على بناء عدد من المدن، التي اتخذوها عواصم لدولهم طوال حياة هذه الدول، وما زال بعض هذه المدن قائماً حتى اليوم، نذكر منها مدينة فاس التي شغلت في العصور الوسطى دوراً علمياً وحضارياً هاماً، وما زالت حتى اليوم.

وهناك ميزة أخرى لهذه الدول تتجلى في الارتباط الوثيق والمكثف مع الجناح الشرقي من ديار العرب، فقد بقي زعماء هذه الدول يتطلعون بشيء من التقدير والاحترام لدولة المركز، على الرغم من حالة الاختلاف مع هذه الدولة وكان بودهم جميعاً على الصعيد النظري، أن تساعد ظروفهم العامة لتحقيق السيادة المطلقة على المشرق والمغرب.

الفصل الخامس

قيام دولة الفاطميين وسقوط الدول المستقلة

تمتعت الدول المستقلة بالمغرب الكبير باستقلال شبه كامل، منذ أن ظهرت حتى وصل الفاطميون إلى هناك، من أجل إقامة دولة خاصة بهم يكون لها احترامها الكبير في المنطقة، ومن ثم يتوجهون إلى المشرق العربي للسيطرة عليه، وضم المغرب الكبير إليه لإعادة اللحمة في المنطقة العربية، كما كانت في العصر الأموي، وهو حلم راود الفاطميين طوال حياتهم السياسية. ويظهر ذلك جلياً من خلال المراحل، التي اختارها القادة الفاطميون.

قدر للمغرب الكبير أن يكون مسرحاً للدعوة الفاطمية، بعد أن تأكد الفاطميون دعم ومساندة مجموعة من المغاربة ومساندتهم هناك، أعجبت بنسب الفاطميين الذي يعود إلى الرسول الكريم ﷺ كما روّجوا وأدعوا. يضاف إلى ذلك أن الدول المستقلة، لم تكن قوية في الميدان العسكري، وهذا ما سيجعلها تنهار بسهولة أمام الفاطميين.

وقد تمثل الوجود الفاطمي قبل وصولهم إلى المغرب الكبير، في مناطق مشرقية. متفرقة مثل سورية والعراق وشرق الجزيرة العربية، في البحرين وما يجاورها من مناطق في شرق السعودية اليوم.

عُرفت الدعوة الفاطمية بعدد من التسميات مثل، الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والإمامية لأن هذه الدعوة تتمحور حول شخص الإمام، الذي يشغل مكانة كبيرة في صفوف أنصاره، فهو مظهر من مظاهر الرحمة والرضا، وهو دليل هؤلاء الأنصار إلى سبيل النجاح والاستقامة. وقد

توقف الفاطميون الإسماعيليون عند الإمام السابع، بينما استمر الشيعة الآخرون حتى الإمام الثاني عشر، فسموا لذلك بالشيعة الإثني عشرية.

كانت بداية الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في السلمية بوسط سورية اليوم، وكانت نشاطات أصحاب هذه الدعوة، تركز على تخطيط دقيق للغاية، وذلك من خلال دعاة أوفياء لمبادئهم العامة، وكان هؤلاء الدعاة على اتصال مستمر بالإمام بطريقة سرية للغاية. وكانت طريقتهم في نشر مبادئ دعوتهم، تركز على الإقناع وتبعد ابتعاداً كلياً عن استخدام القوة والقهر والإجبار^(١).

ما يهمنا في هذا الأمر تحرك الفاطميين في منطقة المغرب الكبير في العصور الوسطى. فقد كان صاحب الدعوة الفاطمية في هذه المنطقة، هو الحسين ابن أحمد بن زكريا المشهور بأبي عبد الله الشيعي، الذي جاء إلى السلمية قادماً من مدينة الكوفة العراقية، وحينما وصل إليها أرسل بمهمة تدريبية إلى اليمن على قائد الدعوة هناك. ومن اليمن توجه إلى مكة المكرمة أثناء موسم الحج، وهناك اتصل بمجموعة من الحجاج المغاربة من قبيلة كتامة، وهي التي تمثل الجزء المستقر من قبيلة صنهاجة. ولم يجد صعوبة كبيرة في التفاهم معهم، بعد أن أعجبوا بعلمه وإيمانه، وعلى أثر ذلك انتقل معهم إلى مصر، وأثناء الطريق نوّه بأنه يرغب في الإقامة بمصر، وكان ذلك مناورة حكيمة منه، وقد نجحت هذه المناورة نجاحاً باهراً، وتجلّى ذلك بأنهم أصروا على أن يصحبهم إلى بلادهم بالمغرب الأوسط، كي يمارس مهنة التعليم في صفوف أبنائهم وبسذلك نجحت خطة الفاطميين بالانتقال إلى المغرب بموافقة ورغبة المغاربة أنفسهم، وهو أمر كانوا قد خططوا له على ما يبدو بدقة وتركيز وحكمة، ذلك لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن كل الظروف منتسبة لدعوتهم هناك وبخاصة أن قبيلة كتامة هذه كانت تتوضع في جبال القبائل الصغرى بالجزائر، وهي منطقة حصينة للغاية

(١) - عارف تامر، القرامطة، ص ٩٨. الغزالي، نصائح الباطنية، ص ٢١ وما بعدها.

وبعيدة عن الخطر، الذي تمثله بالنسبة لهذه الدعوة الأغلبية أقوى دول المغرب الكبير في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

وصل أبو عبد الله الشيعي إلى منطقة القبائل في سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م وقد اختار لإقامته جبلاً منيعاً هو جبل إيكجان، الذي يقع بين بجاية وسطيف وفي هذا المكان المنيع اشتهر أمره خلال فترة قصيرة، وتقاطر عليه الأتباع والمريسون، الأمر الذي أثار مخاوف الزعامات القبلية المحلية، لأنه شكل بالنسبة لهذه الزعامات خطراً كبيراً على زعاماتها ومكانتها في نظر الناس، وقررت هذه الزعامات إنهاء أمره قبل أن يتمكن ويتجذر، فبلغت قبيلة سكتان الصغيرة، التي كانت تختصه وهي جزء من كتامة الصنهاجية، بأن ترفع عنه حصانيتها وحمايتها، وبالفعل فقد نجحت هذه الزعامات في مساعيها في هذا الصدد، وأجبر أبو عبد الله الشيعي على مغادرة إيكجان إلى تازروت، حيث تقيم مجموعة قبلية من كتامة هي مجموعة (غشمان)، التي استقبلته أحسن استقبال هو ومن معه من أتباعه، الذين سماهم (جماعة المؤمنين). وفي هذه المنطقة الجديدة عرف أبو عبد الله الشيعي بألقاب جديدة، ربما أطلقت عليه فيها، فأصبح معروفاً بالصنعاني نسبة إلى صنعاء، التي قدم منها إلى مكة المكرمة حيث التقى بالكتاميين المغاربة، كما عرف بأبي عبد الله المشرقي وعرف أتباعه المشارقة. وفي هذه المنطقة أيضاً عرفت بعض الممارسات الجديدة له ولأتباعه، فكانوا يعدون أنفسهم إخوة لا فرق بني أحد منهم، فالجميع متساوون في حقوقهم وواجباتهم^(١).

وفي مجال المنهج العام الذي فرضه على أتباعه، فقد جاء جديداً على المنطقة مثال ذلك أنه فرض على الجميع الامتناع عن الاتصال بمقترف الجريمة، كي يجعل من صاحب الجريمة رجلاً شاذاً يستحق المقاطعة والعقاب الجماعي وبخاصة من قبل المقربين منه، الذين فرض عليهم أن ينفذوا العقوبة

(١) - القاضي نعمان، رسالة افتتاح الدعوة، ص ٧٦، وما بعدها .

على قريبه وبشرقون عليها، وإذا كانت العقوبة تقضي القتل، فإنه كان يكلف أحد إخوة المجرم أو أحد أقربائه المقربين بتنفيذ عملية القتل. هذا وقد أعطى لرؤساء القبائل حرية التصرف بشؤون قبائلهم تحت إشرافه وبخاصة في مجال توزيع الخنائم وما إلى ذلك من أمور.

كانت أول أهداف أبي عبد الله الشيعي العمل لإزالة دولة الأغلبية المجاورة لمنطقة وجوده، وقد ساعدته الأحوال السائدة في هذه الدولة على تحقيق هدفه، فقد كانت تحكم من قبل الأمير الأغلب إبراهيم الثاني، الذي شكل طوال حياته السياسية مصدر خوف وقلق لرعيته وأتباعه وشمل ذلك أقرب المقربين إليه، فقد أقدم على قتل الكثيرين بدون ذنب بتأثير مرض عقلي كان يعاني منه، وختم مسيرة القتل هذه بأن نفذ عملية قتل جماعية في صفوف العسكريين، الذين كانوا موجودين في حصن بلزمة بجوار أملاك الكتاميين، حيث يوجد أبو عبد الله الشيعي، الذي كان يخشى من التواجد العسكري في هذه المنطقة لصالح الأغلبية. يضاف إلى ذلك أن الأمير إبراهيم الثاني الأغلب ترك الحكم بعد مجزرة حصن بلزمة بقليل، وسلمه لابنه أبي العباس وانتقل إلى صقلية لمتابعة مسيرة الحملة الأغلبية هناك، وهي الحملة التي كانت قد بدأت أعمالها منذ سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م كما ذكرنا. وقيل أن سبب هذا التحول في حياته، هو أنه أراد أن يكفر عن أعماله الشائنة في قتل الناس بغير حق، في عمليات جهادية بصقلية وغيرها. حاول ابنه أبو العباس تغيير الأجواء القائمة، التي تسبب بها والده فخفف من الضرائب وأعاد ما كان قد اغتصبه والده من أملاك وثروات.

وفي سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م بدأ أعماله العسكرية ضد الوجود الفاطمي المتمثل بأبي عبد الله الشيعي بتوجيه قوة عسكرية، استطاعت بسهولة أن تسيطر على قاعدته تازرويت، الأمر الذي أدى به للعودة إلى جبل إيكجان. لكن هذه الحالة لم تستمر في حياة الأغلبية، فقد قتل أبو العباس الأغلب بعد فترة وجيزة

وخلفه ابنه زيادة الله، فقام باستدعاء أخيه أبي حوال، الذي كان موجوداً بتازروت منذ أن دخلها بأمر من أبيه، وبذلك تخلص أبو عبد الله الشيعي من خطر كبير طالما ألقاه وأقضى مضجعه.

من ناحية أخرى فقد دخلت الخلافتان المذهبية البغضية إلى بيوت الحكام الأغلبية أنفسهم، فقد كان أبو العباس يؤيد الأحناف فعين منهم قاضياً، ولكن زيادة الله الذي خلفه في الحكم كان يميل إلى المالكية فقام بتغيير القاضي الحنفي وعين آخر من المالكية تقريباً منهم، لكنه لم يستفد من ذلك شيئاً فرد القاضي الحنفي مرة أخرى.

كل هذه الأخبار والإجراءات، كانت تصل في حينها إلى مسامع أبي عبد الله الشيعي من خلال بعض جواسيسه في الأرض الأغلبية. لذلك فقد استفاد منها استفادة بالغة، حينما تحرك على وجه السرعة بأن قرر الهجوم على الأغلبية، فنفذ هجومه في بداية أمره على مدينة سطيف، ثم تابع بعد ذلك إلى طنبجة ثم إلى حصن بلزمة ثم إلى باغاية، وهذه المدن جميعها تشكل غرب الدولة الأغلبية تقريباً، وهي هامة للغاية، الأمر الذي جعل الأغلبية يتحركون لدفع الخطر الفاطمي الجديد، الذين لم يصطدموا بنظير له في الماضي على الإطلاق، وفي منطقة الريبس في ضواحي مدينة الكاف الحالية، جرت معركة حاسمة بين الطرفين، أسفرت عن هزيمة الأغلبية في سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م، وكانت هذه الهزيمة كافية لانتهيار الدولة الأغلبية نهائياً، فقد دخل أبو عبد الله الشيعي على أثر ذلك مدينة القيروان ورفادة، وجاء القيروانيون فأعلنوا تأييدهم المطلق له فأعطاهم الأمان ووعدهم بالخير^(١).

قام أبو عبد الله بعد ذلك بإجراءات إدارية، كان لها تأثيرها البالغ في استقطاب التأييد العام لحركته. وقد جاءت هذه الإجراءات رداً على إجراءات كان القيروانيون وغيرهم من سكان المغرب الأدنى يعدونها إجراءات ظالمة ومجحفة،

(١) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٠ وما بعدها. المقرئ، لتعاظ الحنفاء، ص ٨٦، وما بعدها.

كان الأغلبية قد فرضوها على الناس وطبقوها بكل الوسائل المجحفة. فأعلن سياسة ضرائبية تعتمد على الشريعة، وبخاصة تحصيل العشور، وبذلك تخلص القيروانيون من عدد من الضرائب السابقة^(١).

ومما زاد في تأييد الناس بالمغرب الأدنى لأبي عبد الله الشيعي، أنه لم يكن متطرفاً ولا مسرفاً في استخدام الشعارات الدينية الشيعية، فاقصر في هذا الميدان على أشياء لا تثير القلق أو الخوف بالنسبة للآخرين، وكذلك فإنها تبقى من صلب الدين رغم معارضة بعضهم لها، فقد أضاف عبارة (حي على خير العمل) للأذان، وحذف عبارة (خير من النوم) من أذان صلاة الفجر، وجعل الدعاء في خطبة الجمعة يتضمن الصلاة على محمد وآله. وفي حال النقد أمر بكتابة عبارة (بلغت حجة الله) على الوجه الأول من العملة النقدية، وعبارة (تفرق أعداء الله) على الوجه الثاني.

على الرغم من هذه الأمور البسيطة فإنه أبقى على سرية اسم الإمام ومكان وجوده، وذلك ليتجنب وقوع كارثة تتجلى في فضح أمر الإمام، الذي كان موجوداً في هذه الفترة بسجن المدراريين بسجلماسة، فقد كان الإمام قد غادر بلدة السلمية بوسط سوريا اليوم، فمر بمصر على هيئة تاجر ومعه بعض أتباعه المقربين، الذين كان في عددهم شقيق أبي عبد الله الشيعي المعروف بسأبي العباس، الذي تركه في الطريق وتابع إلى القيروان حيث اعتقل، ومع ذلك فقد استمر الإمام متابعاً مع قافلة التجار إلى سجلماسة، وهنا اعتقل ووضع بالسجن.

في غضون ذلك كان الهاجس الأكبر لأبي عبد الله الشيعي، يتجلى في تخلص سيدة من سجن سجلماسة بأية طريقة وبأسرع وقت خشية أن تحصل تطورات لا تكون في صالح الإمام المسجون. ولم يكن أمامه سوى التوجه من القيروان إلى سجلماسة، وفي الطريق إليها استطاع أن يدخل مدينة ساهرت

(١) .. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٤٦ وما بعدها .

حاضرة دولة الإباضيين الخوارج، وبذلك قضى بدخوله هذا على أول دولة للخوارج بالمغرب الأوسط. ثم توجه بعد ذلك إلى سجلماسة، وألقى عليها حصاراً شديداً، أجبر حاكمها اليسع بن مدرار على الدخول بمفاوضات مع أبي عبد الله الشيعي، لم تسفر عن نتائج مهمة للطرفين، فأمر بالهجوم على المدينة، ولم يلق أية صعوبات في ذلك، فتوجه إلى سجن المدينة فأطلق سراح سيده مباشرة وعرف الناس به دون أي حرج بقوله: ((هذا مولاي ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره))^(١)

بقي أبو عبد الله مع سيده عبيد الله المهدي بسجلماسة نحواً من أربعين يوماً، تركاها بعد ذلك متوجهين إلى القيروان. وحين وصلا اختارا الإقامة بمدينة رقادة جنوب القيروان. وقد استقبل عبيد الله المهدي استقبالاً حافلاً بمظاهر الترحيب والاحترام من قبل أهل المغرب الأدنى، وطلبوا منه أن يمنحهم مزيداً من الأمان والطمأنينة على حياتهم وأموالهم وأولادهم، فكان لهم ذلك وتلقب منذ سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م بأمير المؤمنين.

وبذلك بدأت مسيرة هذه الدولة، التي استمرت حتى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، حينما تمكن الزنكيون والأيوبيون على حين غفلة من الفاطميين الحاكمين من إسقاط هذه الدولة، التي حكمها أربعة عشر خليفة على التوالي يمكن تقسيم حكمهم إلى فترتين رئيسيتين، المرحلة أو المدة المغربية التي شغلها أربعة خلفاء هم :

عبيد الله المهدي ٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م

القائم ٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٤-٩٤٦م

المنصور ٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٦-٩٥٣م

المعز لدين الله ٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٣-٩٧٥م

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠. رسالة افتتاح الدعوة، ص ٢٤٥.

والمرحلة المشرقية التي حكم فيها عشرة خلفاء فاطميين بمركزهم بالقاهرة وكانت أهم ما في المرحلة المغربية، مرحلة حكم الخليفة المعز لدين الله، ذلك لأن القوات الفاطمية نجحت في السيطرة على مصر بعد عدة محاولات، وانتقل إليها بعد أن سماها واعتمدها مقراً لدولة الفاطمية الجديدة.

عرفت الدولة الفاطمية بعدد من الأسماء الخاصة بها، فقد عُرِفَتْ باسم الدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت محمد ﷺ، وبالدولة العلوية ذلك لأن القائمين عليها تحذروا حسب ادعائهم من أرومة علي بن أبي طالب عبر الإمام جعفر الصادق. وكان الفاطميون يفخرون بهذه التسميات لقربها من بيت النبوة. بينما تضجروا كثيراً من تسميات أخرى، نذكر منها أن الحاقدين والموتسورين والمتعصبين، وهؤلاء كانوا كثيراً في العصور الوسطى، سموها بالدولة العبيدية وهي تسمية يراد منها الاستخفاف والاستهجان بهذه الدولة، ذلك لأنها نسبة إلى شخص عبيد الله المهدي، الذي لم يقابل من هؤلاء الحاقدين إلا بعبارات الازدراء والتشهير، لأنه حسب اعتقادهم لا يمت بصلة إلى آل بيت النبي ﷺ كما كان يدعي، ويرجعون نسبه إلى نسل ميمون القداح الفارسي، الذي هرب ابنه عبيد الله من فارس إلى البصرة، ومن البصرة إلى بلدة السلمية، التي كانت مقراً للصدوة الفاطمية الإسماعيلية. وقد أدت هذه المشكلة إلى جسد طويل في الماضي والحاضر، لم يتمكن أحد من الذين اشتركوا فيه من حسم الموضوع ولا يهمنها على الإطلاق أن نخوض في متاهات، ذلك لأنها لا تقدم ولا تؤخر في ذلك الذي حدث، ولا في الذي ما زال قائماً. فإذا كان الفاطميون يمتون بصلة إلى بيت النبوة، فهذا أمر عظيم وإذا لم يكونوا كذلك فهو أمر عظيم أيضاً، ذلك لأن إصرارهم على هذا النسب هو بجد ذاته شرف كبير لهم، لأنه أنقى وأظهر وأفضل الأنساب الإنسانية بلا منازع، ودليل ذلك أن النبي وآله، استحوذوا على العناية الربانية، التي طهرتهم ونأت بهم عن كل الشبهات والثرهات.

وما فعله الفاطميون خلال مرحلة حكمهم، لم يكن خارجاً عن إطار شريعة الإسلام، بل على العكس تماماً أن معظم أفعالهم إن لم يكن كلها تطابقت مع تعاليم هذه الشريعة، وإن لم يكن ذلك قد حصل فلا توجد فئة أو دولة إسلامية في العصور الوسطى سبقتهم على صعيد تطبيق شريعة الإسلام، فيكفي الفاطميون شرفاً وعظمة ونبلًا، أنهم كانوا يريدون توحيد الوطن العربي الكبير تحت رؤية واحدة، بغض النظر عن طبيعة مذهب وتوجه أصحاب هذه الرؤية. فنحن كأمة عربية أصبحت من الأمم المغلوبة على أمرها، يجب أن ننأى عن مسائل الخلافات المذهبية والعرقية والعصبية والقبلية والطائفية، فهي أمور سببت لنا في الماضي وما زالت تسبب كثيراً من المتاعب والتفرق والتشرذم والتفوق وهذا ما يحتم علينا أن ننظر إلى الأمر بمنظار آخر، هو ماذا كان يريده الفاطميون في أثناء حكمهم للوطن العربي من قوة ومنعة، حُجبت ومنعت من التحقيق بسبب مقاومة المتعصين للفاطميين على أساس مذهبي مقبوت.

نعود إلى ممارسات عبید الله المهدي بالقيروان منذ أن وصل إليها سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م، فقد هدف منذ هذه السنة إلى السير بالدولة الفاطمية الجديدة، نحو آفاق من التطور في الميدانين السياسي والحضاري. وبدأ ذلك بوضع نظام عام للدولة، أشرك فيه الموظفين الأغلبية الذين كانوا في السابق يعملون في الإدارات الأغلبية. وفي المجال العسكري أحدث ديواناً لتوزيع العطاء والممتلكات وديواناً للجند، اعتمد فيه العبيد السود وغيرهم، ووافق على استمرار ديوان الخراج الذي كان في عصر الأغالبة، وبعد فترة وجيزة من ذلك أحدث ديوانان آخران، أولهما ديوان الكشف وثانيهما ديوان جمع أموال الهاربين من السلطة الفاطمية، حيث قام هذا الديوان باستصفاة جميع أموالهم وثرواتهم.

لكنه من جهة أخرى استأثر بكل أسباب السلطة، وأصبح الحاكم المطلق للدولة وكأنه ملك من الملوك، فلم يعتمد على أحد من أعوانه وبخاصة على

صاحب دعوته أبي عبد الله الشيعي، الذي صنع مجد الدولة الفاطمية في فترة التأسيس والانطلاق، فاعتبره عنصراً عادياً هامشياً لا قيمة له.

أما بخصوص الزعامة القبلية المتمثلة بكتامة، التي كسان لها الفضل الأعظم في نجاح الدعوة الفاطمية بصورة نادرة الحدوث، فقد خشي أن يستغني عنها بالكلية، ذلك لأنه كان يعتمد عليها في العديد من المسائل، فقد قام تقسيم الأرض التي تسيطر عليها هذه القبيلة بين زعاماتها، ووزع عليهم الغنائم من تركة الحكام الأغلبية وخاصةً الجواري، وأمرهم بالتحول من حياة الخشونة وشطف العيش إلى البهجة والنعمه والتمتع بكل ألوان المتعة. وفي الوقت نفسه منح نفسه هالة من العظمة والمكانة العالية، ففي الخطبة أمر الخطباء بذكره على الشكل التالي - محمد ابن عبيد الله الإمام المهدي، وهو عبد الإله وخليفته القائم بأمر عباده. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يحتج عن الناس على عبادة الخلفاء في العصور الوسطى، فكان الناس على كافة مستوياتهم وطبقاتهم يدخلون عليه إما للسلام وإما لقضاء بعض حوائجهم الخاصة.

لم تمض فترة قصيرة حتى ظهرت الكراهية لعبيد الله المهدي، وقد جاءت هذه الكراهية بصورة خاصة من دعائه ومعاونيه وفي طليعتهم صاحب الدعوة الفاطمية بالمغرب أبو عبد الله الشيعي، الذي أصبح بين عشية وضحاها شخصاً هامشياً لا يحول عليه في أي أمر من الأمور. ورغم هذا الأمر فإنه بقى يظهر الطاعة والولاء لعبيد الله المهدي، حتى تمكن أخوه أبو العباس من إقناعه بالمطالبة بشيء من المكانة التي كانت له بالأمس القريب، فاستهل ذلك بالطلب إلى عبيد الله المهدي، أن لا يستمر في خطته القائمة على إعطاء الكتائب حكم الولايات وتشجيعهم على الأخذ بأسباب الرفاه غير المحدود، كما طالبه بالامتناع عن مقابلة الناس بهذه الطريقة التي لا يجوز للخليفة أن ينفذها بهذه الصورة. ويبدو أن أبا عبد الله الشيعي بدأ بالتآمر ضد عبيد الله المهدي مع أخيه ومع

الكتاميين، ولكن عبيد الله المهدي كان عارفاً بكل هذه التحركات، فقام بالرد عليها مباشرة فقتل أبا عبد الله الشيعي وكذلك أخوه في سنة ٢٩٨هـ/٩١١م^(١) وكسان ذلك من أبشع الأعمال على الإطلاق ذلك لأن القتل الآن نفذ بأقرب المقربين لعبيد الله المهدي وبأفضل من ضحوا وعملوا بصدق من أجل نجاح الدعوة الفاطمية، وهذا بلا شك مثال أكيد على مثالب الحكام العرب في العصور الوسطى، الذين لم يكونوا يفكرون إلا في مصالحهم الخاصة والاهتمام بتثبيت تسلطهم وأركان حكمهم.

يبدو أن ما حدث في هذا الوقت بالذات، كان له أثره الهام على عبيد الله المهدي لأن يتوجه إلى بناء عاصمة جديدة لدولته، فتوجه إلى بناء مدينة المهدية في المنطقة المحصورة بين صفاقس وسوسة، وبناء مثل هذه المدينة يكاد يكون سمة مشتركة لكل الدول التي قامت في المغرب الكبير في العصور الوسطى وقد استقر الفاطميون كحكومة بمدينة المهدية منذ سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م^(٢).

منذ أن استقر الفاطميون في عاصمتهم الجديدة، بدأوا يتطلعون لتحقيق نصف حلمهم المتبقي وهو الذي يتجلى بالسيطرة على المشرق العربي برمتيه، بعد أن نجحوا في السيطرة على المغرب الكبير إلى حد ما، بعد تلك الحملة الهامة التي نفذها مصالة بن حبوس المكناسي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م انطلاقاً من تاهرت التي كان يحكمها لصالح الفاطميين، وفي هذه الحملة تمت السيطرة على أملاك الدولة الصالحية، في مدينة ناكور وما حولها، وكذلك على مدينة فاس، وعادت الحملة تاركة على حكم هذه المناطق موسى بن أبي العافية، الذي جعل مقر حكمه بتازة لتحكمها في منطقة المغرب الأقصى.

وبصورة عامة فقد بقي المغرب الأوسط والأقصى في أيدي مغاربة، ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا تحت مظلة الفاطميين، إضافة لمن ذكرناهم كان

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٠.

للفاطميين ممثلوهم في حكم دولة المدرايين بسجلماسة وتاهرت، ويبدو أن الفاطميين حرصوا على استمرار الحركة التجارية، فعينوا حكاماً لهذه المناطق من أهلها. ولم يبق خارج السلطة الفاطمية سوى القبائل الزناتية، التي كانت في حالة تنقل دائمة، وقد شكلت مغراوة أحد فروع زناتة التي كانت تتوضع في شمال وهران بالمغرب الأوسط، شكلت عبئاً ثقيلاً على الوجود الفاطمي، ونجحت في سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م في هزيمة جيش تابع للفاطميين كان يقوده مصالة بن حبوس الذي قُتل في المواجهة^(١).

وكان الفاطميون يوتنون أن يسيطروا على الأندلس، ولكن الأمويين حالوا دون ذلك منذ البداية، وواجهوا المحاولات الفاطمية في هذا المجال بقوة وثبات وحذر، وتمكنوا في بعض الأوقات من التأثير على الفاطميين وخاصة في المغرب الأقصى، من خلال سيطرتهم على مناطق هامة في شماله، هذا الأمر حدا بالفاطميين للعزوف عن المشروع الأندلسي، فتوجهوا إلى المشرق كما سنرى.

لقد نظر الأمويون إلى الدولة الفاطمية نظرة ترقب وحذر وخوف، بعد أن وقفوا على حقيقة نيات هذه الدولة تجاه بلادهم، التي كانت ضمن مشروعهم السياسي العام كما ذكرنا، والدليل على ذلك أن الفاطميين كانوا قد أرسلوا إلى الأندلس عدداً من دعايتهم، نذكر منهم أبو اليسر الرياضي، الذي ذهب إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ولكنّه عاد إلى مصر واكتشف أمره وزُج بالسجن، ولم يُطلق سراحه حتى نجح الفاطميون في إعلان دولتهم هناك^(٢) وجعفر البغدادي الذي قام بمهمة استطلاعية بالأندلس، وحينما قامت دولة الفاطميين شغل فيها منصب رئيس الاستخبارات (صاحب البريد)^(٣).

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٤.

(٢) - ابن الأثير، التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٤٥٤، مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٤٦.

(٣) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٩.

وحينما استتب الأمر للفاطميين بالمغرب الكبير، دخل الجغرافي المعروف ابن حوقل إلى الأندلس على هيئة تاجر، وُعد من أكبر الجواسيس الذين عملوا لصالح الفاطميين، ويظهر ذلك من خلال كتابه (صورة الأرض) الذي خصص منه حيزاً كبيراً للحديث عن حالة الأندلس من كل الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل أحاديثه جاءت مشجعة للفاطميين على غزو الأندلس من حيث سهولة هذا الغزو. ومن حيث فوائده المتعددة الوجوه، ولعل أهم ما يؤدي إلى نجاح هذا الغزو كما ذكر، يتجسد في عدم خبرة الأندلسيين في شؤون الحرب والدفاع، وهم فوق ذلك جبناء يكرهون المواجهة والإقبال على الموت^(١).

هذه الأمور وغيرها هي التي جعلت الرد الأموي قوياً و حازماً وسريعاً، وقد بدأ هذا الرد منذ سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م، حينما سيطر الأمويون على بعض السفن، التي كانت محملة بالمؤن لصالح الناصر المولدي الأندلسي عمر بن حفصون، وقد حدث ذلك حينما كانت هذه السفن موجودة بالجزيرة الخضراء بجنوب الأندلس^(٢). كذلك فقد استقبلوا في بلادهم أمراء دويلة ناكور الصالحية، التي كانت قائمة بشمال المغرب الأقصى، حينما سقطت دويلتهم على أيدي الفاطميين، وأطلقوا لهم الحرية في التجول والإقامة بالأندلس وبخاصة بمدينة مالقة^(٣).

في فترة حكم الخليفة الأموي الأندلسي الناصر لدين الله وابنه المستنصر، انقسم المغرب الكبير على صعيد السكان إلى قسمين، قسم وقف يعاضد الدولة الفاطمية ويناصرها ضد الأمويين، وتمثل هذا القسم بقبيلة صنهاجة في مختلف فروعها، وقسم وقف يعاضد الدولة الأموية ويقف بكل قواه ضد الفاطميين، و تمثل هذا القسم بالزناتيين، وبذلك أصبح الصراع بين الفاطميين والأمويين

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٠٤ وما بعدها.

(٢) - ابن حوقل، المعقب، ج ٥

(٣) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٧٦-١٧٧.

صراعاً بين صنهاجة وزناته على أرض المغرب الكبير. وهذا ما ساعد الخليفة الأموي الناصر لدين على التدخل المباشر بشؤون المغرب، فسيطر على مدينة سبتة بشمال شرق المغرب الأقصى، وكذلك فعل في بعض مناطق المغرب الأوسط^(١).

رد الفاطميون على هذا التدخل الأموي الجريء في سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م في مستهل خلافة الخليفة الفاطمي الثاني أبي القاسم القائم بأمر الله، وتمثل هذا بحملة عسكرية كبيرة على المغربين الأوسط والأقصى، واستطاعت هذه الحملة أن تحرز نجاحات هامة في اختراق صفوف الزناتيين وتفريق كلمتهم ورغم ذلك فإن وضع الفاطميين بقي غير مستقر في هذه المناطق.

بعد سنوات من هذا الحادث نجح الأمويون في توجيه ضربة مؤلمة للفاطميين في عقر دارهم، وكان ذلك من خلال الاعتماد على إثارة المشاعر المذهبية البغيضة، وهو أسلوب قذر في كل المقاييس بغض النظر عن فوائده وعن مكانة الذين يثيرونه ويعتمدونه لتحقيق مصالحهم. فقد اعتمد الأمويون إثارة الخوارج الإباضية بتونس وما جاورها ضد الفاطميين من منطلق ديني تجلّى بنعت الفاطميين بنعوت لا تمت إلى الحقيقة بصلة وخاصة في الميدان الديني.

تزعّم الثورة الخارجية ضد الفاطميين أبو يزيد مخلد بن كيداد المشهور بصاحب الأتّان، الذي أمضى وقتاً طويلاً في العمل الدعائي ضد الفاطميين على أساس مذهبي ديني، وقد اعتمد هذا الأساس على استغلال مشاعر الناس، وهي مشاعر لم تكن ناضجة في تلك الفترة من الزمن، فلو كانت كذلك لما وجد صاحب الأتّان من يقف معه على أساس المذهب الديني، ذلك لأن المذهبية مسألة خطيرة على حياة الأمة في كل مجالات الحياة، والدليل على ذلك ما جرى عبر سنين العصور الوسطى وما يجري اليوم في بعض أجزاء العالم المتأخر، فلم

(١) - الخشني، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، ص ١٧٢-١٧٥، الغياي، المرقية، العليا، ص ٥٩ وما بعدها.

تنتج الخلافات المذهبية سوى مزيد من البغضاء والفرقة والتخريب والابتعاد عن المشاعر الإنسانية الحقة.

وكان الخطر الأكبر في ثورة صاحب الأتبان الخارجية، أنها وجدت من يعاضدها في صوف الفقهاء المالكيين، الذين كانوا قبل سيطرة الفاطميين يكفرون الخوارج وينعتونهم بنعوت غير لائقة، لكنهم عند وصول الفاطميين إلى المغرب وجدوا في الخوارج جماعة دينية عظيمة تدافع عن الإسلام ضد الفاطميين، وهذا التحول في صفوف الفقهاء المالكيين، لا يخرج عن دائرة النفاق التي تميز فيها الفقهاء عبر تاريخهم الطويل، فكانوا خلال العصور الوسطى وما زالوا على هذا الطريق، الذي لا يتجاوز أبداً دائرة النفاق، الذي كان وما زال في طليعة الأمراض الخطيرة التي تواجه الأمة العربية وبقية الشعوب الإسلامية.

ترافق هذا التعصب الديني المذهبي البغيض مع بعض الممارسات الفاطمية، التي تجسدت في الإفراط بفرض الضرائب، بعد أن ألغيت بمعظمها في عصر عبيد الله المهدي وداعيته أبي عبد الله الشيعي^(١).

وقد قام الفقهاء المالكية بإثارة الخلاف المذهبي، وفندوا عقيدة الفاطميين وأنكروا عليهم هذه العقيدة وكذلك أنكروا نسبهم إلى النبي، ورد عليهم الفاطميون بمثل ذلك، واستخدمت في ذلك كل الوسائل القبيحة التي ليست من الدين على الإطلاق، وكان من المفروض أن لا يحدث مثل هذا السقوط الفكري والإنساني، طالما أن الجميع على مبدأ واحد هو مبدأ القول بالإله الواحد وبالإسلام الواحد، الذي لا يفرق بين أحد من أتباعه.

وتفاقمت الأمور حينما انخرط الفقهاء المالكية في صفوف النصارى الخوارج، يحاربون ويقاتلون ويضحون، ونجحت ثورة صاحب الأتبان في

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨. الخشني، المصدر السابق، ص ٢٢٢ وما بعدها.

السيطرة على كل حواضر المغرب الأدنى، وضرب حصار شديد على العاصمة الفاطمية المهدية لمدة عشرة شهور، كانت قاسية إلى حد كبير.

وزاد من حراجة الموقف الفاطمي، أن الخليفة الفاطمي توفي في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م، ولم يعلن خبر وفاته حفاظاً على المعنويات العامة ضد الثورة الخارجية، وجاء إلى سدة الخلافة الفاطمية الخليفة المنصور بنصر الله، الذي حافظ على سرية موت سابقه حتى قضى على ثورة صاحب الأتاتان في سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م^(١).

استغل الخلفاء الأمويون من خلال مؤيديهم الزناتيين ثورة صاحب الأتاتان، فسيطروا على تاهرت بالمغرب الأوسط^(٢). وهذا ما أثر على انتشار التأييد للأمويين في مناطق أخرى مجاورة في المغرب الأقصى حتى شمل ذلك الأدارسة أنفسهم^(٣).

لكن نجاح الفاطميين في القضاء على هذه الثورة الخطيرة، أدى بسرعة إلى عودة النفوذ الفاطمي في معظم مناطق المغرب الكبير، وجرت تحولات هامة على صعيد الولاء والتأييد في صفوف بعض الزعامات الزناتية، فقد تحول محمد بن خزر من تأييد الأمويين إلى تأييد الفاطميين وهو زعيم أهم فرع تقريباً بزناطة وهو فرع مغراوة، وقد حدث ذلك في مستهل خلافة المعز لدين الله الفاطمي، أي في سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م، ولا بد أن سبب هذا التحول لزعيم مغراوة، يعود في المقام الأول إلى قوة زبري بن مناد الصنهاجي في المغرب الأوسط، الذي يجاور المغراويين في مدينة أشير التي شيدها لتكون مستقره الرئيس هناك^(٤).

(١) - القاضي عياض، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦.

(٢) - ابن خلدون، العبر، ج ٧، ص ٢٤ وما بعدها.

(٣) - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص ١١١ وما بعدها.

(٤) - ابن خلدون، العبر، ج ٧، ص ١٠.

وقد قام الخليفة المعز لدين الله بتعزيز موقف الفاطميين في المغرب الكبير برمته على وجه التقريب، وبقيت سبته خارج سيطرته ذلك لأن الأمويين ركزوا على حمايتها بتقوية دفاعاتها العامة، ومع ذلك فإنها لم تسلم من بعض الهجمات البحرية الفاطمية، نذكر من ذلك أن الأمويين هاجموا مركباً لفاطميين كان قادماً من جزيرة صقلية، وكان يحمل رسولاً يحمل بعض الرسائل فأسره الأمويون واستولوا على كل الرسائل التي كانت بحوزته، وكان رد الفاطميين على ذلك سريعاً على مرفأ المرية بجنوب الأندلس، وكان هجوماً مؤثراً فقد أحرقوا الكثير من سفن ومراكب هذا المرفأ وأسروا بعضها، ولم يتمكن الأمويون من مبادلة الفاطميين بمثل ما فعلوه بمرفأ المرية^(١).

إن ما حدث في المغرب الكبير بالنسبة لتعزيز وجود الفاطميين، الذي كاد أن ينهار بفعل قوة ونجاح ثورة صاحب الأتبان في بدايتها، ساعد على انتقال الفاطميين إلى مرحلة أكثر عمقاً وإيجابية في حياتهم السياسية، وهي المرحلة التي نجحوا فيها بالسيطرة على مصر، ونقل النشاط الفاطمي المباشر إليها بعد أن بنوا لأنفسهم عاصمة جديدة هي مدينة القاهرة في سنة ٣٥٨هـ/٩٧٠م.

وحينما استقر أمرهم بمصر كلفوا أتباعهم من بني زيري الصنهاجيين، أن يديروا شؤون المغرب الكبير باسمهم. لكن الزيريين لم يكونوا كما كان يأمل منهم الفاطميون، فقد فشلوا فشلاً ذريعاً في السيطرة على المغرب الأوسط والأقصى، وبقي سلطانهم قوياً إلى حد ما في المغرب الأدنى والقسم الشرقي من المغرب الأوسط. كما أنهم من جهة أخرى لم يكونوا أوفياء في مسألة الولاء للفاطميين، فقد برهنت الأحداث والوقائع أن ولاءهم كان ولاءً كاذباً ومزيفاً، فقد بدأوا بالاستقلال عنهم منذ أن استقروا بمصر كما سنرى.

(١) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٥١٢ وما بعدها.

كانت أهم التطورات التي حدثت بعد انتقال الفاطميين إلى مصر بالمغرب الأقصى، ذلك لأن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، الذي استطاع أن ينزل ضربات مؤلمة بصقوف مغراوة الزناتية في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م وما بعدها بقليل، حينما ضرب كل القواعد الزناتية بالمغرب الأوسط، لم يتابع إلى المغرب الأقصى الأمر الذي ساعد على ظهور الأدارسة من جديد في الجزء الشمالي منه، ولكنهم هذه المرة أعلنوا ولاءهم لأمويي الأندلس على غير عاداتهم، ولا بد أن ذلك حدث من أجل أن يتخلصوا من سيطرة الصنهاجيين عليهم، لكنهم أعلنوا بعد فترة وجيزة استقلالهم بمنطقة حجر النسر، وامتدت سيطرتهم على المناطق المجاورة مثل طنجة وفاس وأصيلا والبصرة.

وجد الأمويون في تصرفات الأدارسة خطراً على مصالحهم العامة بالمنطقة فتدخلوا على وجه السرعة لوضع حد لما يجري قبل أن تتفاقم الأمور، فأرسلوا حملة عسكرية إلى شال المغرب الأقصى، استطاع الأدارسة أن يوقعوا الهزيمة في صفوها في سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م. لكن الخليفة الأموي الحكم المستنصر أصر على إرسال حملة أخرى بعد سنة من هذا التاريخ^(١).

في غضون ذلك كان بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ينفذ عمليات حربية قاسية ضد أعدائه من الزناتيين قتلة والده في المغربين الأدنى والأوسط، واستطاع أن يخرجهم من المغرب الأوسط باتجاه الأقصى، حيث تابعهم في سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، فلجأوا إلى سبتة التي كانت ما زالت مركزاً أموياً حصيناً، ولكنه بدلاً من أن يتوجه إلى سبتة توجه إلى الغرب حتى وصل إلى الأطلسي، وبقي عدة سنوات بالمغرب الأقصى يحارب البرغواطيين. ولم يعد إلى المغرب

(١) - ابن حيان، المصدر السابق، ص ٨١ وما بعدها .

الأدنى إلا بعد أن وقع على اتفاق مع حاكم الأندلس الجديد الحاجب محمد بن أبي عامر على أمور معينة كانت لصالح الطرفين^(١)

بعد ذلك بقليل حاول الفاطميون خلق صعوبات جديدة للأمويين بالمغرب الأقصى، فأرسلوا أحد الأدارسة وهو الحسن بن كنون ليعيد حكم أجداده، لكنه لم يستطع أن ينفذ شيئاً من ذلك، ففي سنة ٣٧٥هـ/٩٧٥م تمكن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر من وضع حد نهائي لكل أنشطته وأمر باقتياده إلى قرطبة بعد أن أعطاه الأمان، ولكن المنصور لم يكن وفياً بالوعد، فأمر بقتله وهو بالطريق إلى قرطبة، وهو تصرف أرعن لا يمت بصلة إلى الأخلاق الإنسانية والدبلوماسية، وهو في النهاية عمل وحشي لا يمت إلى أخلاقنا العربية الأصيلة^(٢).

بقي أن نذكر أهم الوسائل والسبل، التي استخدمها الأمويون و الفاطميون في صراعهم المأساوي، الذي كان صراعاً بين إخوة على النفوذ والحكم والتسلط. ومن أهم وسائل هذا الصراع للأسف، كان إقحام المسألة المذهبية فيه على أوسع نطاق، وهي أخطر وسيلة من كل الوسائل التي استخدمت بين الطرفين، وقد تجسد ذلك كما رأينا بين المذهب الشيعي الذي يمثله الفاطميون من خلال ادعائهم بالانتماء إلى مدرسة آل النبي ﷺ ، وبين الأمويين وأنصارهم بالمغرب الكبير الذين ادعوا بأنهم يمثلون حزب السنة، وتأتي خطورة هذه الوسيلة بتفتيت العقيدة الإسلامية وتحصيلها مفاهيم لا تمت إليها بصلة، وبخاصة أن الأمويين وأنصارهم كانوا يعتبرون أن الفاطميين خارجون بصورة أو بأخرى عن السنة، وكان الفاطميون بدورهم يعتبرون الأمويين جماعة خارجة عن السنة النبوية الحقة، وهي السنة التي حملها بأمانة وإخلاص ووفاء آل بيت النبي ﷺ ، وأدى ذلك إلى

(١) - ابن خلدون ، العبر ج٦، ص ١٥٦

(٢) - كان قد استسلم للأمويين في حماء الصراع معهم أيام الحكم المستنصر ففضل الذهاب إلى مصر، وبعد مضي وقت قصير أرسله الخليفة الفاطمي إلى المغرب الأقصى بمهمة لصالح الفاطميين.

خلق حالة من الانقسام في صفوف الناس بالمغرب والأندلس وتبديد قواهم العامة، التي لو استخدمت لمواجهة الأعداء الحقيقيين لكانت قد تبدلت الأحوال، ولكننا ندرس حالة إيجابية عربية غير هذه الحالة المأساوية، التي حدثت نتيجة السقوط في مستنقع المذهبية الدينية، التي لا تأتي إلا بمزيد من الاختلاف والفرقة والتشتت.

وكانت الوسيلة الهامة الأخرى، أعمال الجاسوسية النشطة بين الطرفين، حيث كان كل طرف يحرص حرصاً شديداً على معرفة أخبار وتحركات الطرف الآخر على كل الصعد لمواجهتها بالطرق المناسبة وقد جرى ذلك من خلال عدد من الجواسيس، الذين أثينا على ذكرهم في حديثنا عن هذه المسألة فيما سبق من صفحات، وهي أمور ما زالت مستمرة في حياة الدول حتى يومنا هذا، وبخاصة بين الدول القوية التي تتنافس على السيطرة والنفوذ.

لم تسفر هذه الوسائل إلا إلى نتيجة سلبية واحدة، تجلت بزيادة التعصب المذهبي الديني، وزيادة التعصب القبلي وبخاصة بين صنهاجة التي أيدت المشروع الفاطمي وبين زناتة التي أيدت المشروع الأموي.

ومن جهة أخرى فقد سمحت للقوى المعادية، أن تنمو وتتقوى بهدوء وتخطيط، ولا سيما القوى الإسبانية المتربصة بالوجود العربي بالأندلس وهي القوى التي عرفت بالتاريخ الأندلسي بحركة الاسترداد، وهي قوى كان بإمكان الأمويين أن يقضوا عليها لتوفر الإمكانيات لديهم على كافة المستويات، وهذا ما كان يجب عليهم أن يفعلوه بدلاً من محاربة أشقائهم من الفاطميين وغيرهم من القوى المغربية الأخرى، ولكن الذي حصل أن الأمويين والفاطميين عميت أبصارهم عن رؤية الحقيقة الساطعة، وسمحوا لعواطفهم غير المروضة أن تقودهم إلى حرب مذهبية قذرة، ستبقى وصمة عار ترسم على صفحات تاريخهم إلى الأبد.

وهكذا من الممكن أن نختم الحديث عن دولة الفاطميين بالمغرب الكبير، بالقول إن الوجود الفاطمي بالمغرب الكبير بدأ بالزوال، على الرغم من أن زواله كان منذ أن غادر الخليفة المعز لدين الله المغرب في سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م ذلك لأن الفاطميين اعتمدوا على قوى الزيريين الصنهاجيين، الذين لم يستطيعوا أن يبقوا على وفائهم وصدقهم للفاطميين، فقد انقلبوا ضد أسيادهم في زمن المعز بن باديس بالتدرج بدءاً من سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٤م وتوج في سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م، حينما قام المعز بن باديس بقطع الخطبة للفاطميين وأمر الخطباء بلعنهم من أعلى المنابر بدون تحفظ أو خوف^(١) وتوجه لمواكبة المسيرة العباسية بالمشرق. وقد جاء هذا الانقلاب نتيجة لتأثير بعض المتعصبين من الفقهاء بفكر المعز بن باديس، الذي أقنعه بضرورة الانفكاك من البيعة للفاطميين. وهذا الذي حدث يُعد دليلاً على أن الغيرة الدينية المتمثلة باتباع المذاهب المختلفة، لم تكن من أجل مصلحة الدين بقدر ما كانت من أجل تحقيق مصالح سياسية معينة تحت ستار مذهبي معين، وهو أمر ما كان في يوم من الأيام إلا ضد الدين من كل الوجوه. ومنذ ذلك الحين بدأ المتعصبون بملاحقة الفاطميين بالمغرب الكبير بتحريض واضح وصريح من الفقهاء، الذين وجدوها مناسبة كبيرة للإفصاح عما كان في نفوسهم من حقد وضاغين، وأقدموا بوحشية لا مثيل لها على قتل وتصفية كل ما عثروا عليه من الفاطميين، وشمل ذلك الأطفال والرجال والنساء على مختلف أعمارهم، كما هدموا دار الإمارة الفاطمية التي اتخذت بمدينة صبرة منذ رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر.

(١) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٦٩، ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٠.



الفصل السادس

دخول القبائل العربية من سليم وهلال إلى المغرب الكبير

قدر للمغرب الكبير أن يتلقى البعثات التعريبية على التوالي من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. بدأ ذلك بحملات الفاتحين الكثيرة مثل حملات عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، وكذلك دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى ودول الخوارج والأدارسة بالمغربيين الأوسط والأقصى، ثم توج هذا الأمر بالوجود الفاطمي لفترة دامت نحواً من مئة وخمسين سنة متتالية. وحينما انتقل الفاطميون من المغرب الكبير إلى مصر، حل محلهم مباشرة مجموعة من القبائل العربية الأصيلة مثل سليم وهلال وغيرها، وهي قبائل حجازية كانت انتقلت إلى مصر بعد تنقلها من منطقة إلى أخرى، فقد كان موطن هلال في جبل غزوان بالقرب من الطائف، وكان موطن سليم بالقرب من المدينة المنورة. وما وجد من هذه القبائل بمصر غداة وصول الفاطميين إليها، كانوا قد نقلوا من البحرين وما جاورها إلى مصر، لأنهم كانوا يوالون القرامطة في هذه المنطقة من شرق الجزيرة العربية، وأنزلوا بشرق النيل، وكان الفاطميون هم الذين أمروا بنقلهم إلى هذه المنطقة أملاً منهم بإضعاف القرامطة، الذين كانوا يعتمدون على هذه القبائل إلى حد ما^(١).

كانت هذه القبائل متوزعة على عدد من الفروع مثل ربيعة وعدي ورياح وزغبة وجشم والأنجب، وكانت هذه الفروع غير مؤتلفة على الإطلاق فخشي الفاطميون من إثارة مشاكل لهم بمصر، فأرادوا أن يتخلصوا منها كخطر وفي الوقت نفسه يستفيدون منه بالانتقام لهم من الصنهاجيين بصورة خاصة، بعد أن

(١) - المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ص ٢٢٤. ابن خلدون، المعبر ج ٦، ص ٢٧ وما بعدها.

أعلنوا انفصالهم عن الفاطميين. قام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بتوجيههم إلى المغرب الأدنى، ونجح في ذلك إلى حد كبير، بعد أن أغراهم بأشياء مادية معينة. وهكذا توجهت هذه القبائل تباعاً إلى المغرب الكبير منذ سنة ٤٤٣هـ/١٠٥٢م، فنزل الهلاليون بالمغرب الأدنى، ونزل بنو سليم بمنطقة برقة بشرق ليبيا.

منذ ذلك الحين بدأت هذه القبائل تصطدم بالقوى المحلية وخاصة بالمغرب الأدنى، وكانت أول هذه الصدامات بين الهلاليين وقوات المعز بن باديس، وتمكنت القوات الهلالية من إنزال هزيمة قاسية بالقوات الصنهاجية، التي حوصرت بالقيروان، وفي النهاية خرج المعز بن باديس إلى المهديّة ودخل الهلاليون إلى القيروان، فنهبوا واصطدموا بسكانها وكانت الغلبة لهؤلاء العرب. وفي مدينة المهديّة استطاع الزيريون أن يصمدوا لمدة قرن تقريباً، على الرغم من حالة الفقر والشظف التي عانوا منها كثيراً، ذلك لأن مصدر عيشهم كان معتمداً على مسائل بسيطة مثل الصيد البحري، وأحياناً القيام ببعض الغزوات البحرية على سفن أجنبية غير عربية، وأحياناً قليلة القيام ببعض أعمال التجارة مع جزيرة صقلية. وبقوا هكذا حتى جاء النورمانديون، الذين كانوا يحلمون بموقع يتركزون فيه في هذه المنطقة، وقد ساعد على ذلك أن الزيريين كانوا ضعفاء للغاية، فلم يتمكنوا من حماية منطقتهم، فاحتل النورمانديون جزيرة جربة ثم جزر قرقنة ثم المهديّة في سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م حيث سبّقى تحت سيطرتهم إلى حين مجيء الموحنين بقيادة عبد المؤمن بن علي فخلصها منهم^(١)

وبدخول النورمانديين إلى المهديّة، تكون الدولة الزيرية الصنهاجية قد انتهت من الحياة السياسية المغربية، ذلك لأنها لم تتمكن من مواجهة النورمانديين من جهة، ولم تكن متعاونة مع القبائل العربية الهلالية من جهة أخرى في الوقت

(١) - ابن الأثير، للمصدر السابق، ج ١١، ص ١٢٥ وما بعدها .

الذي كانت فيه أعدادهم في ازدياد وسيطرتهم في توسع، حيث وصل قسم منهم إلى المغربين الأوسط والأقصى وكذلك إلى الأندلس.

أدى توسع الهلاليين في المغرب الكبير وانتشارهم في العديد من أجزائه إلى نتيجة هامة للغاية، تجسدت على أرض الواقع في تعزيز مسيرة التعريب من خلال سيطرة اللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة الوحيدة هناك منذ عدة قرون. وفي مقابل هذه النتيجة الإيجابية، فإن الهلاليين تسببوا في بعض المشاكل السلبية من خلال موافقتهم على الاشتراك والإنخراط في الخلافات المحلية المغربية لصالح مجموعة ما ضد مجموعة أخرى. ورغم حدوث ذلك فإنهم لم يكونوا يستطيعون أن يتجنبوا مثل هذه التصرفات، ذلك لأنهم عاشوا في بيئة مضطربة متنافرة على أساس قبلي ومصلحي. ونتيجة انخراطهم في بعض هذه المشاكل، قام ابن خلدون بآتهامهم بالمسؤولية عن الخراب واللياب الذي حصل في المغرب في فترة دخولهم إليه ثم بعد ذلك بفترة وجيزة^(١)، ولم يقتصر ابن خلدون في تحميل العرب الهلاليين وغيرهم مسؤولية الدمار في الفترة التي تلت دخولهم إلى المغرب، بل حملهم نتيجة ما حدث من تخريب منذ العصر الروماني حتى هذه الفترة، وهي فترة كانت حافلة بكل ألوان التخريب والدمار، وبخاصة في عصر الواندال الذين خربوا كل شيء بالمغرب الكبير تقريباً، وكذلك ما خربته الكاهنة اليهودية دها وبخاصة في المغرب الأدنى، وأيضاً بعض الذي حصل من هذا القبيل أثناء عملية الفتح العربي، لكن ذلك لم يكن مؤثراً وما بنسائه الفاتحون العرب من مدن ومنشآت وما أقروه من أنظمة إدارية، كان شيئاً عظيماً للغاية^(٢). وبالجمله فإن الهلاليين لا يمكن أن يتحملوا أي شيء مما حدث بالمغرب الكبير من تخريب معماري أو زراعي أو سياسي، ذلك لأنهم لم يكونوا يحملون أية أحقاد سابقة على أي طرف من الأطراف المغربية المختلفة، وما

(١) - ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦٥.

(٢) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٨.

حدث أن المغاربة أنفسهم أحموهم في مشاكلهم وخلافاتهم وحروبهم، ودليل ذلك أن هؤلاء العرب الذين حملهم ابن خلدون مسؤولية حالة الخراب بالمغرب، لم يقيموا لأنفسهم أية دولة أو كيان سياسي خاص، فالذي يستطيع فعل الخراب يكون قوياً ومقرراً في الوقت نفسه، وهذا ما لم يتوفر للهلاليين العرب على الإطلاق. والدليل على ذلك أن خراب القيروان، كان قد حصل قبل مجيء العرب الهلاليين إلى المغرب الأدنى، وكان ذلك من قبل الصنهاجيين الذين نقلوا ثقل الحركة الاقتصادية العامة إلى مدينة صبرة أو المنصورية في سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م^(١).

وفي الوقت الذي كان الصنهاجيون، يحولون النشاط الاقتصادي إلى مدينة المنصورية، ظهرت دولة أخرى صنهاجية دُعيت بالدولة الحمادية، وهي دولة منشقة عن الأسرة الزيرية، قامت في منطقة قسنطينة الجزائرية، وقد بنى الحماديون قاعدة جديدة لهم في هذه المنطقة إلى الغرب من مدينة سطيف، دُعيت القلعة. وقد ازدهرت هذه المدينة حينما تحولت إليها الأنشطة التجارية والقوافل التجارية، التي كانت تقصد مدينة القيروان، وزاد من ازدهارها التجاري أن جعلت مدينة بجاية منفذها الرئيسي على البحر المتوسط، والتي أصبحت بسرعة فائقة المدينة أو العاصمة الثانية للدولة الحمادية بدءاً من سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٦م. كما أصبحت مدينة القلعة وبجاية من المدن العلمية الهامة في المنطقة بتشجيع حكامها الذين كانوا يؤمنون بضرورة العلم وتشجيعه. ومن الناحية العسكرية، وقف الحماديون وقفة شجاعة في وجه الزناتيين، بعد أن أعلنوا تبعيتهم للخلافة العباسية، واستقلالهم عن التبعية للدولة الفاطمية، ووصلوا في ملاحقة الزناتيين إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وإلى مناطق في المغرب الأدنى مثل سوسة وصفاقس وغرب طرابلس في سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. وكل ذلك حصل في عصر الناصر الحمادي، الذي حكم مدة طويلة بدأت سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م.

(١) - القاضي عياض، المصدر السابق، ج ٣-٤، ص ٦٢٦.

وانتهت في سنة ٤٨١هـ/١٠٨٩م وكانت مدّة حافلة بالمنجزات الحضارية العامة، لم تشهد الدولة الحمادية نظيراً لها.

وحينما انتهت مدّة هذا الحاكم، بدأت الدولة الحمادية تسير على طريق النهاية بسبب تقدم العرب الهلاليين باتجاه أملاكها، كما انتقل الثقل الاقتصادي من عاصمتها القلعة إلى مدينة بجاية^(١)، الأمر الذي جعلها عاصمة الدولة من بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ولم يكن الهلاليون هم الذين أسقطوا هذه الدولة، بل أسهم في ذلك النورمانديون الذين هاجموها بقوة واستطاعوا أن يسيطروا على بعض المواقع، حتى جاء الموحدون فأسقطوا هذه الدولة في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م في عصر حاكمها يحيى بن العزيز الحمادي.

وبذلك تكون القوى المغربية المتصارعة، هي التي أدت برعونتها وحقدتها على بعضها بعضاً إلى تدمير العديد من حواضر المغرب الكبير، التي كان العرب منذ الفترة الأولى لفتح المغرب قد بدأوا بعمارتها وإشادتها لتكون قواعد حضارية في مجال العلم والاقتصاد والتطور الاجتماعي، وكان دور الهلاليين دوراً إيجابياً أضفى على هذه الحواضر ثوباً جديداً، تجلّى بأن أعطاها مزيداً من التعمق بالتعريب والتطوير والتهذيب.

(١) - الحميري، المصدر السابق، ص ٨٠ وما بعدها.



الفصل السابع

قيام دولة المرابطين بالمغرب الكبير وانضمام الأندلس إليها

كان من أهم الإيجابيات في حياة المرابطين، أنهم استطاعوا توحيد المغرب الكبير والأندلس في دولة واحدة، بعد معاناة قاسية من حياسة الفرقة والتجزؤ ولا سيما في الأندلس، التي كانت قد عانت كثيراً في عصر الطوائف. فمن هم المرابطون الذين صنعوا هذه الإيجابيات؟ المرابطون هم مجموعة من القبائل الصنهاجية، التي كانت تعيش في بلاد شنقيط (موريتانيا اليوم). وهذه القبائل هي مسوفة وجدالة ولمتونة وتلكاتة.. وغيرها، وهذه القبائل تعرف عادة بصنهاجة الجنوب. ويعرف المرابطون أيضاً بأسماء أخرى مثل (الملثمون) وذلك لوضعهم اللثام على وجوههم لأسباب مختلفة، منها اتقاء حرارة الشمس الالهبة في صحراء مترامية الأطراف. ومنها اسم (الطوارق) الذين ما زالوا موجودين في الصحراء الجزائرية حتى اليوم. لكن التسمية الغالبة على هؤلاء القوم فهي المرابطون نسبة إلى رباط داعيتهم المعروف عبد الله بن ياسين، الذي أقامه على شاطئ المحيط الأطلسي.

كانت حياة التنقل والترحال، هي الغالبة على حياسة المرابطين قبل ظهورهم على مسرح السياسة والحكم في المغرب الكبير والأندلس. وكانت حياتهم تقوم كأية مجموعة قبلية متنقلة على تربية الجمال والمواشي، وربما استفادوا في بعض الأحيان من العمليات التجارية الغادية والبادية عبر صحرائهم الواسعة. لذلك فقد كانت حياة المرابطين حياة بسيطة، تعتمد على توفير اللحم واللبن، في صحراء لا يعرف سكانها الزراعة على الإطلاق. وقد ذكر كثيرون

أن المرابطين، لم يعرفوا الدقيق حتى عرفهم به التجار، الذين كانوا في حركة دائمة بين غرب إفريقية والمغرب الكبير والأندلس^(١).

بدأ التألق المرابطي يظهر في مجال السياسة بالمغرب الكبير في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حينما قرر يحيى بن إبراهيم الجدالي أن يجعلهم من القبائل المتحضرة من خلال تعريفهم بالقانون، الذي ينظم حياتهم عن طريق تعريفهم بالشريعة ونشرها في صفوفهم على أساس من التركيز والانتباه، وهي أمور كانوا يفتقرون إليها قبل هذه الفترة.

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي موجوداً بالقيروان، حينما شرع بالبداية في مهمته التعليمية في صفوف المرابطين، ففي القيروان التقى بالفقيه المشهور أبا عمران الفاسي في سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م، وشرح له بتوسع حالة المرابطين المتردية على صعيد فهم الشريعة وتطبيقها، فلم يكونوا يعرفون منها إلا القليل من المبادئ مثل تأدية الشهادتين وما إلى ذلك من أمور بسيطة لا يحول عليها. وفي هذا اللقاء طلب منه أن يرسل معه من يراه مناسباً من الفقهاء أو المعلمين، ليعلم المرابطين ما يهمهم من أمور دينهم، لكنه تعثر في إيجاد من يوافق على القيام بهذه المهمة الصعبة من معارفه، ذلك لأن الجميع كان ينفر منها حينما يسمعون أنها ستكون في قلب الصحراء، حيث القساوة وشسظ العيش وصعوبته^(٢).

وجد أبو عمران الفاسي الحل لهذه المعضلة، فأعطى يحيى بن إبراهيم رسالة إلى فقيه بمنطقة نفيس بجنوب المغرب الأقصى على حافة الصحراء، واسم هذا الفقيه وأجاج بن زللو اللمطي، الذي كان قد تتلمذ عليه بالقيروان، وعاد إلى بلاد نفيس فاشتهر هناك كثيراً وقد حضر يحيى بن إبراهيم إلى بلاد نفيس، والتقى بالفقيه اللمطي، الذي بادر إلى إرسال فقيه إلى الصحراء معه، هو الفقيه

(١) - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٦٤.

(٢) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ٤٦.

عبد الله ابن ياسين، الذي تكفل بتفقيه المرابطين في الدين قدر ما يستطيع، ذلك لأنه كان متحمساً لهذه المسألة رغم صعوبة العمل في بيئة صحراوية يندر فيها الاستقرار في ذلك الزمن، هذا بالإضافة إلى أنه كان في ذروة نشاطه وشبابه وتوقده^(١).

حين وصل عبد الله بن ياسين اختار المقام في ربوع قبيلة جدالة، وفي بداية أمره لقي قبولاً كبيراً في صفوف المرابطين، وصار يعلمهم بدقة وجدية أمور دينهم، لكنه أثقل عليهم في تطبيق حدود الشريعة ونواحيها على عادة الفقهاء، الذين يرون في ذلك ضرورة مطلقة يجب أن تنفذ على وجه السرعة، لكن هذا لم يكن ممكن التحقيق والإنجاز في بيئة بدوية صحراوية، لم تكن تخضع لمثل هذه الأمور في المراحل السابقة. قادت هذه الحالة إلى نتيجة معاكسة تماماً، حينما بدأ المرابطون يققون ضد تصرفات عبد الله بن ياسين وخاصّة رجال الدين، الذين كان في طبيعتهم جوهر بن سكين، الذي عبر عن تذمره الكبير من أسلوب عبد الله بن ياسين، الذي وُصف بالفظاظة والقساوة ومجانبة المرونة وعدم الأخذ بعين الاعتبار مفاهيم الصحراويين العامة، ووصل الأمر بعبد الله بن ياسين إلى إصدار فتوى بقتل الفقيه جوهر بن سكين، وهذه الفتوى بحد ذاتها على الرغم من أنها لم تنفذ كانت سريعة ومتعجلة، وهي تعكس بوضوح أن عبد الله بن ياسين كان يفتقر إلى الاتزان والمعرفة والخبرة بشؤون القبائل الصحراوية، لذلك نراهم أي المرابطين يجمعون على طرده من بلادهم بعد أن صادروا كل ما يملكه.

لم يعد عبد الله بن ياسين إلى بلاده على أثر طرده من بلاد المرابطين، لأنه على ما يبدو كان متأثراً جداً بما حدث له من فشل في تحقيق المهمة التي أرسل من أجلها، ودليل ذلك نراه يتوجه إلى حياة الرباط والجهاد، وهي مرحلة كانت تشير إلى أحد أمرين في العصور الوسطى أولهما التكفير عن أفعال سابقة

(١) - القاضي عياض، المصدر السابق، ج ٣-٤ . ابن الأثير المصدر السابق، ج ٩، ص ٦١٨. وهناك أخبار تفيد

لن الفقيه جوهر بن سكين هو الذي جاء بعبد الله بن ياسين إلى الصحراء.

لم تكن مرضية بالنسبة للمرابط والمجاهد، وثانيهما اعتزال الناس نهائياً في مجتمعاتهم الواسعة، والسعي للعيش في مجتمع ضعيف لا يؤمن إلا بهدف واحد هو الرباط في سبيل الله من أجل نيل الشهادة، التي كانت في نظر المرابطين المجاهدين مفتاح الفوز بحياة الخلود في الآخرة.

كان بود عبد الله بن ياسين الذهاب إلى غرب إفريقية القريبة لكن يحسى بن إبراهيم الجدالي، أكد على وجوب وضرورة بقائه معه حتى النهاية، واتفق الاثنان على الاعتزال برباط على الأطلسي ليمارسا العبادة فيه إلى نهاية العمر. وبناء هذا الرباط لم يكن حادثة طارئة على مجتمع المغاربة والأندلسيين، بل كان استمراراً لمسيرة ميمونة مباركة، كانت قد بدأت منذ فترة طويلة قبل ذلك، وكانت مهمة المرابطين القيام بأعمال دفاعية ضد الأعداء المتربصين. لكن رباط عبد الله بن ياسين تميز إضافة لذلك، بأنه شكل نواة لقيام دولة امتدت على رقعة واسعة من الأرض في المغرب الكبير والأندلس على حد سواء^(١).

فقد بدأ المعجبون والمتطوعون يفدون تبعاً إلى رباط عبد الله بن ياسين، على الرغم من بُعد المسافات وصعوبة الأحوال المعيشية، فكان يعلمهم في هذا الرباط شؤون دينهم العامة، وحينما كثرت أعدادهم بدأ يفكر بتحقيق إستراتيجية كانت قد ارتسمت في مخيلته، وهي العودة إلى ديار المرابطين لقتالهم وتعليمهم الإسلام رغم عدم موافقتهم على شخصه كمعلم أو كداعية غير محبوب. ولا بسد أن الانتقام من الذين طردوه بالأس، كان محركه الرئيس في هذه المرة. وبدأ عمل هذا بهجوم مباغت على قبيلة جدالة، التي تسببت بطرده ومعاناته، وكان هجومه ساحقاً على هذه القبيلة في سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٣م، وساعده بخاصة فسي إخضاع هذه القبيلة إلى متابعة الهجوم على القبائل المرابطية الأخرى مثل لمتونة ومسوفة فنحج في إخضاعها كما حصل لجدالة.

(١) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٢٧ وما بعدها .

وبذلك يكون عبد الله بن ياسين أول فقيه، استطاع أن يصنع وحدة هامة في صحراء موريتانية بين عدة قبائل من صنهاجة، ورغم ذلك الإنجاز العظيم، فإنه لم يعلن نفسه زعيماً سياسياً كما يحلم فيه بعض الفقهاء في هذا الزمان، بل اقتصر على أن يكون ممثلاً للجانب الروحي، وأعطى الزعامة السياسية والعسكرية ليحيى ابن ابراهيم الجدالي، الذي لم يعيش طويلاً فحل محله يحيى بن عمر اللمتوني. لذلك فقد تفرغ عبد الله بن ياسين لغرض تعاليم الشريعة على المذهب المالكي في صفوف المرابطين، وبخاصة في المسائل التي كانت على طرفي نقيض مع مبادئ الدين، مثل تعدد الزوجات، والصلوات، وأمور القتل والجريمة، والسرقه والاعتداء على الحقوق الخاصة والعامة، والزنا وما إلى ذلك من أمور كثيرة^(١).

بعد عملية التوحيد هذه توجه المرابطون إلى المغرب الأقصى على مراحل متقاربة، بدأت هذه المراحل بتوحيد فروع صنهاجة بكاملها، وبخاصة تلك الفروع التي كانت تتوضع بجنوب المغرب الأقصى بمنطقة الواحات، التي دخلها المرابطون واستقروا فيها في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م بفعل المعاناة القاسية من الجفاف والمحل^(٢).

تلا ذلك مرحلة أخرى تجسدت على أرض الواقع بتوجه المرابطين شمالاً، رغبة منهم في السيطرة على مناطق أكثر بحبوحة وخصباً من المناطق التي انطلقوا منها، وبخاصة أنهم كانوا يريدون أن يسيطروا على المناطق التجارية الهامة بالمغرب الأقصى والأوسط، التي كانت تحفل بالنشاط التجاري الذي لا ينقطع، حيث كان يسيطر على مفاصل التجارة القبائل الزناتية وبخاصة مغراوة ويني يفرن^(٣).

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦.

(٢) - ابن عذاري المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٥.

(٣) - ابن القاضي، جنوة الاقتباس، ص ٣٣٨.

وكانت واحة سجلماسة من أهم المناطق العامرة، التي استهوت المرابطين وجعلتهم يركزون على وضعها تحت سيطرتهم المباشرة، وذلك لأهميتها التجارية والزراعية، وقد تحركوا من أجل ذلك باتجاهها في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وتمكنوا من دخولها بسهولة، ومنذ ذلك الحين أصبحت عندهم ثروة هامة مصدرها التجارة الرائجة في هذه الواحة، أضيف إليها ثروة أخرى تجسدت في حصولهم على أعداد كبيرة من الجمال، مكنتهم من تسريع حركتهم وانتقالهم من منطقة إلى أخرى^(١).

في غضون ذلك كان يحيى بن عمر قد توفي، فعين عبد الله بن ياسين بدلاً منه القائد الحربي للمرابطين أبو بكر عمر، الذي تمكن أن يكمل سيطرة المرابطين على المغرب الأقصى، ساعده في هذه المهمة ابن عمه يوسف بن تاشفين، الذي كان في طليعة القوات العسكرية التي أنجزت هذا العمل الهام للمرابطين، وسيصبح بعد ذلك بطل السيطرة على المغرب الأوسط والأندلس.

وكانت السيطرة على المغرب الأقصى، قد تمت نهائياً في سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م، باستثناء منطقة تامسنا بين نهري بورقراق وأم الربيع، حيث كانت تسيطر على هذه المنطقة دولة برغواطة، التي وقفت في وجه المرابطين وقفة قوية، ولكنهم استطاعوا في نهاية الأمر في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٩م أن يقضوا على هذه الدولة، وكان عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين، قد لقي حتفه في أثناء القضاء على هذه الدولة. وفي أثناء ذلك كانت قبيلة مسووفة تنزع حركة مناوئة لحركة المرابطين في الصحراء، فاضطر أبو بكر بن عمر أن يترك المغرب الأقصى، وأن يتوجه إلى الصحراء ليرتب الأمور فيها، بعد أن سلم الأمر لابن عمه يوسف بن تاشفين^(٢) بالمغرب الأقصى، وهذا ما ساعد على ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسية بشكل لافت، حيث سيشغل دوراً هاماً

(١) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٢) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٢٣٠. ابن خلدون، المعبر، ج ٦، ص ٣٣٧.

في توطيد أركان الدولة المرابطية. وهو يتحدر من قبيلة لمتونة أحد فروع أركان الدولة المرابطية. وكان قد ولد سنة ٤١٠هـ/١٠١٠م وامتد عمره حتى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م، وأمضى في حكم الدولة المرابطية سبعة وأربعين عاماً.

قام يوسف بن تاشفين ببناء عاصمة الدولة المرابطية مراكش إلى الشمال الغربي من أغمات، بعد أن وجد أن أغمات لا تصلح لأن تكون عاصمة الدولة لضيقها وعدم قابليتها للتوسع. كما قام بتنظيمات هامة وبخاصة على صعيد الجيش، حينما قسمه إلى قسمين، الأول كان تحت قيادته المباشرة، والثاني تحت قيادة القبائل الأربع التي كانت تشكل عماد الحياة الصحراوية، وهي لمتونة وجدالة ومسوفة وتلكاثة^(١).

فعل ابن تاشفين ذلك على الرغم من وجود قائد أرفع منه هو ابن عمه أبو بكر بن عمر، وهذا يدل بوضوح على أنه يوسف بن تاشفين، كان يخطط للاستئثار بالحكم دون ابن عمه، فحينما عاد من الصحراء لم يذهب يوسف بن تاشفين لاستقباله كما هو معروف باعتباره رجل الدولة الأول، ويبدو أنه كان يريد توجيه رسالة صريحة إليه، مفادها أنه يريد الحكم لنفسه مستفيداً من مبدأ ثابت في شخصية أبي بكر بن عمر، هو أنه لا يحب الفتن ولا الاختلاف مهما كان ذلك بسيطاً. لذلك نراه حينما يتأكد من نوايا يوسف بن تاشفين في الاستئثار بالحكم، يبادر إلى التنازل عن الحكم له بشكل طوعي بالمغرب الأقصى، ثم يعود إلى الصحراء فيحكمها حتى توفي في سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٨م. وهكذا تفرغ يوسف بن تاشفين لشؤون المغرب الأقصى^(٢).

بقي يوسف بن تاشفين مشغولاً بنصفية جيوب المعارضة بالمغرب الأقصى حتى سنة ٤٧٤هـ/١٠٨٣م، هذه المعارضة التي تميزت بشدة مقاومتها

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣.

(٢) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٣٩. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨.

وصلابتها. ثم توجه بعد ذلك إلى المغرب الأوسط فسيطر على تلمسان ووهران وتنس ووجدة، ووصل إلى تخوم المغرب الأندلسي حيث يسيطر إخوانه الصنهاجيون^(١).

تطلع المرابطون بعد ذلك إلى الأندلس لأسباب ومستجدات عديدة، سوف لن نتوسع فيها حتى لا نخرج عن الموضوع، الذي نحن بصدد الحديث عنه وهو تاريخ المغرب الكبير في هذا العصر وما دعانا للتوقف قليلاً عند تدخل المرابطين بالأندلس، أن ذلك العمل هو جزء من تاريخ هذه الدولة المرابطية العام. ويبقى البحث التفصيلي في هذا الأمر تحت عنوان حكم المرابطين بالأندلس، الذي يشكل بحثاً مستقلاً بحد ذاته.

بدأ تطلع المرابطين باتجاه الأندلس، حينما اقتنع المعتمد بن عباد أحد أكبر حكام دول الطوائف بالأندلس بضرورة الاتصال مع المغرب، من أجل طلب نجدة سريعة ضد تكالب حركة الاسترداد الإسبانية، التي كانت في ذروة نشاطها وقوتها بسبب تجزؤ الأندلس وتفرق كلمة أهلها. فقد حدث أن اختلف المعتمد بن عباد مع سفارة لألفونسو السادس بقيادة شخص يهودي هو ابن شاليب^(٢) كانت قد حضرت إلى إشبيلية مقر المعتمد بن عباد لقبض الجزية السنوية، التي كان المعتمد يدفعها مع ملوك دول الطوائف الآخرين. وفي أثناء تسليم مقدار الجزية، نوّه ابن شاليب لليهودي بأن عيار الذهب المقدم كجزية غير متوافق مع المواصفات المطلوبة، وأضاف مخاطباً المعتمد بن عباد أن هذا الأمر لو تكرر في العام القادم، فستكون إشبيلية وما حولها هي الجزية، المطلوبة فغضب المعتمد بن عباد وخرج عن المألوف، وأمر بقتل ابن شاليب واعتقال أعضائه سفارته. لكنه عاد بعد أن هدأ غضبه فقدم اعتذاراً حاراً لألفونسو السادس عن كل ما حدث، ورغم قبول ألفونسو السادس اعتذاره، فإنه بقي يعيش حالة خوف وتوتر

(١) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٢) - لنظر تفاصيل عنه في كتابنا اليهود في المغرب والأندلس في العصور الوسطى، طبعة دمشق، ١٩٩٨.

وقلق من أن يقدم ألفونسو على الانتقام لسفارته، فتوجه إلى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وطلب منه المساعدة الفورية لإنقاذ الوضع العربي المتدهور بالأندلس، وقد أقدم على ذلك رغم العديد من النصائح، التي قدمها له معاونوه ومفادها أن إدخال المرابطين إلى الأندلس، سيؤدي إلى سيطرتهم وسيادتهم عليها، أقدم على ذلك نتيجة تفكير عقلاني اعتمد على وعي ناضج تجسد بقوله المشهور للذين نصحوه: ((خير لي أن أصبح راعي جمال في المغرب من أن أصبح راعي خنازير في دولة قشتالة))^(١).

وفي الوقت نفسه كان المرابطون على ما يبدو، قد بدأوا في التطلع إلى الأندلس قبل دعوتهم إليها من قبل المعتمد بن عباد. وهذا التطلع كان من خلال إستراتيجية، كانت تحركهم في مرحلة يوسف بن تاشفين بصورة خاصة. من هذه الإستراتيجية أنهم كانوا يرون في الأندلس قاعدة هامة لانطلاق حملاتهم الجهادية، وهي قاعدة هامة لاستمرار خط التجارة الواصل بين غرب إفريقيا عبر المغربين الأوسط والأقصى وبين الأندلس، التي كانت إضافة إلى كونها سوقاً عظيمة للبضائع معبراً هاماً إلى بقية البلدان الأوربية، أضف إلى ذلك أن كل المعطيات على الأرض كانت مشجعة للمرابطين للعبور إلى الأندلس، مثل توفر وجاهزية المرافئ في المغرب الأقصى والأوسط، هذه المرافئ التي كانت مزدانة بكل وسائل العبور من سفن وغيرها^(٢).

أرسل المعتمد بن عباد وفداً إلى يوسف بن تاشفين، تألف من قاضي الجماعة بإشبيلية ووزيرها، ومن قاضي الجماعة بغرناطة وبطليوس، ووصل الوفد إلى المغرب حيث التقى بابن تاشفين، وكان تركيز هذا الوفد على قضية

(١) - المقرئ، فتح الطوبى، ج ٦، ص ٩١ وما بعدها.

(٢) - تذكر بعض المصادر أيضاً أن دعوات من بني الأفطس في بطليوس ومن أمير مالقة الزيري، كانت قد وصلت إلى يوسف بن تاشفين قبل دعوة المعتمد بن عباد، وكذلك سمع المرابطون بمقتل عدد من اللقهاء الذين أفتوا بعدم صحة إعطاء الجزية للأعداء.

واحدة، تجلت بتعريف يوسف بن تاشفين بوضع الأندلس المهدد على الدوام وبالسقوط من قبل حركة الاسترداد الإسبانية، وقام الوفد بدعوة ابن تاشفين والطلب منه المشاركة بقواته لوضع حد لما يجري بالأندلس على وجه السرعة، ورغم ذلك الوضع البائس للأندلس، فإن الوفد الأندلسي اشترط على ابن تاشفين عدم التدخل في الشؤون الداخلية الخاصة للأندلس، واشترط ابن تاشفين من جهته على الأندلسيين تقديم قاعدة في بلادهم، تكون أرضاً لتحرك القوات المغربية في ذهابها وإيابها، فقدم له الأندلسيون جبل طارق، لكنه أصر على الجزيرة الخضراء، ووافق المعتمد بن عباد على إخلائها ذلك لأنها كانت من توابع دولته التي مقرها إشبيلية^(١).

حينما وصلت القوات المرابطة إلى الجزيرة الخضراء بقيادة يوسف بن تاشفين كان في استقبالها المعتمد بن عباد، الذي قدم لهذه القوات كل أشكال الترحيب والمساعدة، وكذلك فعل زعماء دويلات الطوائف باستثناء زعيم دويلة المرية ابن صمادح، الذي اعتكر عن الذهاب لاستقبال ابن تاشفين بالجزيرة الخضراء، لأنه على ما يبدو كان يريد أن يبقى على الحياد فيما يجري بينما تتوضح النتائج وتتبلور الأحوال.

توجه المرابطون باتجاه إشبيلية وتجاوزوها حتى وصلوا إلى بطليوس، فاستقروا بموقع الزلاقة Sagrajas حالياً، إلى الشمال من بطليوس Badajoz بنحو ١٢ كم. ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى المنطقة ألفونسو السادس، الذي كان في أوج قوته وجبروته وغروره، وقد حضر إلى هذا المكان لتكون المعركة ضمن الأراضي التي يسيطر عليها العرب، وحينما أصبحت المعركة بين الطرفين وشيكة الوقوع، طلب المرابطون من ألفونسو السادس على عاداتهم أن يختار واحدة من ثلاث إما أن يدفع الجزية، أو أن يدخل في الإسلام، أو أن

(١) - الأمير عبد الله، التبيان، ص ١٠٢ وما بعدها. ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٤.
ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٩٩. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٤٥.

يدخل في الحرب، فاختار الحرب. إيماناً منه بأن النتيجة ستكون في صالحه. واتفق الطرفان على أن تكون المعركة في يوم معلوم، لكن ألفونسو السادس لم يلتزم بهذا الاتفاق حرصاً منه على أن تكون المبادرة في يده، وبالتالي تحقيق عامل المفاجأة الهام في هذه المعركة. وكان العرب في كتلتين، الأولى مغربية، والثانية أندلسية، ويبدو أنهم كانوا في حالة استعداد وترقب دائمة، الأمر الذي جعلهم يفوتون الفرصة على ألفونسو، التي أراد أن يحققها من خلال خرقه لبنود الاتفاق بخصوص المعركة، وقد استهدف ألفونسو في بداية هجومه أن يسحق الكتلة الأندلسية، التي كان يقودها المعتمد بن عباد، ذلك لأنه كان يعرف أساليب قتال الأندلسيين وكذلك أسلحتهم، أضف إلى ذلك فإنه كان قد تعود على كسبهم وإحراز النصر عليهم بسهولة، لكنه لم يتمكن هذه المرة من تحقيق شيء إيجابي، ذلك لأن المعتمد بن عباد صمد صموداً عظيماً لأنه كان يعرف أن النصر هو مفتاح حياته والحفاظ على كرامته، وساعده على الصمود وتحقيق النصر، أن يوسف بن تاشفين قام بإرسال الدعم إلى كتلته بصورة مستمرة، وفي الوقت نفسه كان يقوم بهجوم كبير ومركز على قوات ألفونسو من الخلف، مما أجبر ألفونسو على تفريق قواته في اتجاهين من الأمام ومن الخلف. وقيل أن المعركة لم تدم سوى نهار يوم الجمعة من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، هُزم في نهايتها ألفونسو السادس إلى مرتفع قريب مع مجموعة من جنوده، ولم يتبعه العرب إلى تلك الناحية بتوجيه من ابن تاشفين.

كانت نتيجة هذه المعركة بمثابة إعادة الحياة إلى الأندلسيين لذلك فإنها من أهم معارك العرب بالأندلس، ذلك لأن العرب تمكنوا فيها من وضع حد لعنجهية حركة الاسترداد الإسبانية، بعد أن تعثروا أمامها لفترة طويلة من الزمن قاربت من خمسة وسبعين عاماً، وحررتهم من دفع الجزية السنوية للأسبان، التي كانت تستأثر بمعظم دخول بلادهم. هذا وقد قذفت بالمعتمد بن عباد لأن يشغل القمة بين حكام دول الطوائف عن جدارة واستحقاق، وجعلت من يوسف بن تاشفين بطلاً قومياً، يستحق كل الاحترام والتقدير، وأعادت الأمل لكسل العرب

الأندلسيين، بأنهم سيحيوا حياة كريمة بعيدة عن كسل عوامل الذل والمهانة والتبذير.

على الرغم من هذا النصر الكبير، فإن يوسف بن تاشفين لم يبق فسي الأندلس، وكأنه كان يريد أن ينفذ تكتيكاً معيناً، تجلى بأنسه لا يطمع بامتلاك الأندلس، ودعم ذلك بالانسحاب الفوري منها وعدم التدخل في أي شأن من شؤون حكامها المتفرقين، سوى أنه أوصاهم بضرورة التعاون الإيجسابي على كافة الصعد، كي يشكلوا جبهة قوية في وجه حركة الاسترداد الإسبانية الطموحة في تخليص الأندلس من السيطرة العربية^(١).

عادت المظاهر القديمة السلبية إلى الحياة العربية بالأندلس من جديد، على أثر خروج يوسف بن تاشفين منها عائداً إلى المغرب الأقصى، فقد عاد الحكام إلى الاختلاف فيما بينهم، وعادوا إلى ظلم شعوبهم بشئى الوسائل، فأتسعت الهوة بين الجميع، وتطلع ألفونسو السادس إلى إعادة اعتباره من جديد مستفيداً من تدهور الأحوال العربية من جديد بسبب عدم الاتفاق على توحيد الجهود، وأمسام هذه الظروف السلبية الخطيرة، لم يكن أمام المرابطين سوى التحرك والمبادرة لإنقاذ الوضع العربي الأندلسي قبل أن تقع الكارثة من جديد. وقد تأثرت القيادة المرابطية كثيراً بتلك الدعوات، التي كان يثيرها أمامها الفقهاء، الذين وجدوا لهم موقعاً متقدماً في البلاط المرابطي منذ البداية، وكان معظم هؤلاء الفقهاء من الأندلسيين أنفسهم، الذي وجدوا في المرابطين عوناً حقيقياً لتحقيق أهدافهم بإيجاد مكانة لهم في أروقة الحكم، بعد أن فشلوا في تحقيق ذلك في عصر دويلات الطوائف.

ولم تطل الأيام كثيراً بيوسف بن تاشفين، حتى قرر العودة إلى الأندلس لوضع حد لمسيرة دويلات الطوائف، التي لم تستقم رغم أن الخطر الإسباني كان ما يزال يشكل المصدر الأكبر بالنسبة لتهديد حكمهم وحاضرهم ومستقبلهم، ذلك

(١) - الأمير عبد الله، المصدر السابق، ص ١٠٧.

لأنه الفونسو كان ما يزال على قيد الحياة، وهو الرجل الطموح الذي استفاد كثيراً من درس الهزيمة بالزلافة، فشرع بالتجهيز والاستعداد من جديد لإعادة الاعتبار لحركته. يضاف إلى ذلك أن يوسف بن تاشفين، كان قد أعجب كثيراً بالأندلس في كل الميادين، فهي بلاد متقدمة ومتحضرة وغنية وحافلة بكل ألوان وضروريات الحياة، الأمر الذي لم يكن متوفراً بالمغرب الأقصى أو في غيره وهذا ما توضح من خلال قول مشهور لابن تاشفين، كان قد صرح به في إحدى المناسبات وهو : ((كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها))^(١). وزاد في رغبة يوسف بن تاشفين للسيطرة على الأندلس، أن الفقهاء أصدروا له فتوى شرعية تخوله قتل زعماء الطوائف، الذين نعتوا بالخيانة والفسق والخروج عن جادة الصواب^(٢).

قرر يوسف بن تاشفين مواجهة زعماء الطوائف بشكل منفرد مستفيداً من حالة الكراهية، التي كانت قاسماً مشتركاً بينهم طوال حياتهم، ذلك لأنهم كانوا يطمحون في السيطرة على أملاك بعضهم بعضاً، مثال ذلك أن المعتمد بن عباد كان يحلم على الدوام في السيطرة على منطقة غرناطة، وحين دخل يوسف بن تاشفين إلى الأندلس حاول الاستفادة من هذا الواقع، فوعد المعتمد بن عباد بغرناطة إذا هو وقف على الحياد أثناء الهجوم عليها، الذي بدأ بفرض حصار شديد لمدة شهرين تقريباً، استسلم في نهايتها حاكمها من بني زيري الصنهاجيين، وكان ذلك في سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م.

فوجئ المعتمد بن عباد بعد ذلك، بأن وعد المرابطين كان كاذباً تماماً، وتبلورت لديه فئاعة راسخة بأن مملكته هي الهدف التالي في برنامج المرابطين بالأندلس، فلجأ إلى خندق الخيانة وارتمى في أحضان العدو الذي كان يتمثل في

(١) - عبد الواحد للمراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٣٨ .

(٢) - أحمد مختار الحياضي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٨٤ .

ذلك الحين بحركة الاسترداد الإسبانية التي كان يتزعمها ألفونسو السادس، الذي قاتله ابن عباد بالزلاقة سابقة الذكر، لكن ذلك لم ينفع ابن عباد في شيء، ذلك لأن المرابطين تمكنوا من إلحاق الهزيمة بكل النجذات التي وصلت إليه من الجانب الإسباني، واستطاعوا بسهولة ويسر أن يدخلوا قاعدته الرئيسية مدينة إشبيلية في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، واستسلم المعتمد بن عباد للقوات المرابطية بعد قتال شديد ضدهم، ذكرنا بقتاله المتميز ضد الأسبان بالزلاقة، ولم يقتله المرابطون بل منحوه عفوهم على الرغم من خيانتهم السافرة، بعد أن ساهم في تسليمهم حصن رنذة المنيع، ثم نقلوه بعد ذلك إلى المغرب فعاش بأغمار شخصاً مهماً حتى وافته المنية وقبره في هذه المدينة^(١) ثم سيطروا بعد ذلك على مدينة المرية ذات المرفأ العظيم على المتوسط في جنوب الأندلس، ومنها تابعوا شرقاً حتى وصلوا إلى بلنسية.

أما بالنسبة للثغور الأندلسية، وهي الثغر الأعلى (سرقسطة)، والثغر الأدنى (بطلوس)، والثغر الأوسط (طليطلة)، فإن المرابطين فضلوا التريث وعدم السرعة في السيطرة عليها، وذلك لحساسيتها البالغة التي كانت تأتي من قريبا من مواقع ممثلي حركة الاسترداد الإسبانية. وقد أمضوا ثلاث سنوات بعد سيطرتهم على إشبيلية، حتى سيطروا على بطلوس قاعدة الثغر الأدنى، وهي أقرب ثغور الأندلس إلى قرطبة التي كانت عاصمة الأندلس حتى نهاية عصر الخلافة الأموية. وكان يحكم بطلوس آنذاك عائلة عرفت ببني الأفطس، وكان آخر حاكم فيها قد أعطى للإسبان مدينة شنترين، ليعبر لهم عن نيته الطيبة تجاههم، وفي الوقت نفسه كان يتظاهر بمظاهر السولاء والطاعة للمرابطين. وحينما دخل المرابطون مدينة بطلوس أمروا بقتل هذا الحاكم نتيجة تفریطه بشنترين وغيرها لصالح الإسبان .

(١) - ابن الأثير، الحلة السيرة ج ٢، ص ٥٢ وما بعدها . الفتح بن خاقان، قلند العقيان، ص ٤ وما بعدها.

وبذلك يكون يوسف بن تاشفين، قد وطد أركان الدولة المرابطية في جزء هام من الأندلس، واستطاع أن يحميها من الانهيار في وقت مبكر، وهو بطل وحدة المغرب والأندلس لأول مرة بعد سقوط دولة الأمويين بالشرق. وتوفي في سنة ٥١٠هـ/١١٠٦م، وخلفه ابنه علي بن يوسف في حكم دولة المرابطين حتى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م. وفي عصره وصل المرابطون إلى ذروة النجاح، وبخاصة خلال العقد الأول من فترة حكمه، حيث أحرزت انتصارات هامة، لكن الحال بدأت في التغير خلال المرحلة التالية، فلم تكن النجاحات هي التي سيطرت على الجوّ، بل رافقتها نكسات مؤلمة للغاية، تجسدت على أرض الواقع بظهور خلافات شديدة مع السكان المحليين بالأندلس وفي المغرب بدأت الثورات بالظهور مثل ثورة الموحدين، وتبعها ثورة المرينيين بالأندلس.

ففي ذروة النجاح بالأندلس، أوشك المرابطون على استرداد كل ما أخذه الإسبان بالقوة والغلبة في فترة حكم ألفونسو السادس. فقد سيطر المرابطون على مدينة أليش ucle,s حالياً في سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، وكانت خسائر الإسبان كبيرة للغاية، ذلك لأنهم حاولوا استعادتها وقد سبب وقوع هذه المدينة بيد العرب المرابطين إلى نشر مزيد من القلق والخوف في صفوف أبناء المنطقة الحدودية على نهر التاجه، مما ساعد المرابطين على التقدم للسيطرة على قونقة cacnca وويذة hoete .

وقد حاول المرابطون بعد ذلك استعادة مدينة طليطلة الهامة في هذه المنطقة، فبدأوا يمهّدون لذلك بالسيطرة على المدن الصغيرة التي تجاورها، ونجحوا في استعادة طليطلة، وشنوا غاراتهم بعد ذلك على مجريط ووادي الحجاره، ثم انطلقوا باتجاه طليطلة فألقوا عليها الحصار، ولكنها تمكنت من المقاومة وفشلت هذه المحاولة، التي لن تتكرر بعد ذلك .

وفي شرق الأندلس، استطاع المرابطون السيطرة على سرقسطة في سنة ٥٠٣هـ/١١٠م، وقد أدى ذلك إلى سقوط دولة بني هود التي كانت واحدة من دويلات الطوائف^(١).

وفي الجهة الغربية توسع المرابطون كثيراً ساعدهم في ذلك معاناة المنطقة من خلافات داخلية كبيرة، فسيطروا على لشبونة وبابرة وشنترين إضافة إلى بطليوس، التي كانت تحت سيطرتهم منذ فترة يوسف بن تاشفين، وكان ذلك في سنة ٥٠٥هـ/١١١م^(٢) ثم سيطروا على قلمرية بعد ست سنوات من هذا الحادث. وفي سنة ٥٠٩هـ/١١٥م أعادوا سيطرتهم على جزر البليار في الشرق، وهي ميورقة ومنورقة ويايصة.

لكن هذه الحال كما ذكرنا لم تدم طويلاً، فقد استغل الإسبان كثيراً من الاضطرابات الداخلية العربية بالأندلس، التي سببت حدوث شرخ كبير في جبهة المرابطين سببت تراجعاً واضحاً أمام حركة الاسترداد الإسبانية. ففي سنة ٥١٢هـ/١١٨م تمكن الإسبان من السيطرة على سرقسطة في شمال شرق البلاد بقيادة ملك أرغون آنذاك.

ولم يمض على هذه الحادثة المؤلمة سوى ثلاث سنوات، حتى قامت بقرطبة حركة مناوئة للمرابطين، قام القرطبيون من خلالها بمهاجمة المرابطين في مدينتهم فنهبوا أموالهم وثرواتهم بحجة أن المرابطين كانوا قد مارسوا كثيراً من هذه الأمور ضد القرطبيين^(٣) في الماضي.

وفي الوقت نفسه استفاق المرابطون بالمغرب على خبر ظهور داعية ضدهم هو محمد بن تومرت الموحدي، الذي كان ظهوره مؤثراً واضحاً على

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ١٦٤ وما بعدها.

(٣) - مؤلف مجهول، الحال الموثقة، ص ٧١.

بداية نهاية الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس على حد سواء. فمنذ ظهور هذا الداعية لم ينعم المرابطون ولو بشيء بسيط من الأمن والراحة والاستقرار.

ويضاف إلى ذلك أنه لأول مرة في تاريخ العرب بالأندلس، يتحرك المستعربون ضد سلطة عربية هي سلطة المرابطين، ذلك لأنهم وجدوا في حكم المرابطين خطراً مباشراً عليهم، لأن هذا الحكم لم يكن مستقلاً عن تسلط الفقهاء، وبدلاً من أن يكون كذلك فإنه اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً لم تشهد له الأندلس مثيلاً على الإطلاق، من ذلك أن الفقهاء ألقوا يوسف بن تاشفين بتهديم كنيسة للمسيحيين بباب البيرة بغرناطة، كانوا قد بنوها في عصر الطوائف مستفيدين من جو التسامح الذي ساد في هذا العصر^(١) الأمر الذي أثار حقد المستعربين المسيحيين على المرابطين، الذين لم يكونوا حتى هذا الوقت قد تحركوا ضد السلطة العربية، على الرغم من ظهور حركة الاسترداد الإسبانية منذ عدة قرون قبل هذا الحادث.

أدى هذا الحادث الذي تسبب به الفقهاء على عادتهم في إثارة المشاكل المذهبية المقيتة، أدى إلى انتقال المستعربين إلى معاضدة جبهة حركة الاسترداد لأول مرة في تاريخ الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يريدون في هذه الجبهة حصناً يحميهم من تعصب الفقهاء، الذين يديرون شؤون الحكم المرابطي، وقد ساعد هذا الأمر ألفونسو على اختراق أراضي الأندلس بدءاً من الشرق حتى وصل إلى غرناطة وقرطبة، ثم إلى البحر المتوسط في الجنوب، وكان يرى في كل مكان وصله ترحيباً بالغاً من المستعربين، بعد أن فقدوا الأمل في تحسين أحوال المرابطين في ميدان إدارة الحكم على أساس المساواة بين الناس، هذا بالإضافة إلى أن الجيش المرابطي وقف عاجزاً عن القيام بأي عمل ضد ما كان يجري في هذه الأونة وهي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م.

(١) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ١١٤.

زاد من حرجة وضع المرابطين بالأندلس إضافة لذلك ، أنهم فرضوا ضرائب جديدة كانت مجحفة بحق الناس، بحجة أنهم في حاجة للأموال بصورة مستمرة لمواجهة الأخطار الكبيرة، التي تمثلت آنذاك بحركة الاسترداد الإسبانية، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل كبيرة ضد الحكم المرابطي، تمثلت بعدد من الانتفاضات التي أفضت مضجع هذا الحكم حتى نهايته.

دور المرابطين السياسي والحضاري

على الرغم من فترة حكم المرابطين كانت قصيرة إلى حد ما، فإنهم شغلوا دوراً هاماً في حياة المغرب الكبير والأندلس على الصعيدين السياسي والحضاري. فقد أبدعوا في كثير من الميادين قيماً جديدة، بقيت ترمز إلى دورهم الإيجابي على الساحتين المغربية والأندلسية.

ففي الميدان السياسي يأتي في طليعة إنجازاتهم، قيامهم بتوطيد سلطان قبيلة صنهاجة في المغرب الكبير برمته، بعد أن كان خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي مقسماً بين صنهاجة التي كانت توالي الفاطميين، وزناته التي كانت توالي الأمويين في الأندلس.

كما أنهم تمكنوا من إنجاز آخر كان غاية في الروعة، حينما استطاعوا صنع وحدة سياسية في منطقة، لم تعرف الوحدة طوال تاريخها المديد، إذ امتدت هذه المنطقة من الأطلسي غرباً إلى الجزائر شرقاً، ومن أقصى الصحراء التي تقترب من منعطف النيجر والسنغال جنوباً إلى نهر أبرة والتاجة في وسط شمال شبه الجزيرة الأيبيرية شمالاً. وكان الجديد في هذه الوحدة، يتجسد في المغرب الكبير، الذي افتقر إلى مثل هذا الواقع الوحدوي في السابق، بينما لم يكن كذلك بالنسبة للأندلس، التي ظلت واحدة حتى سقوط الخلافة الأموية فيها.

لكن الشيء الملاحظ على هذه الوحدة، أنها كانت وحدة خضوع لسلطة واحدة، مثلها في ذلك مثل جميع السلطات، التي قامت وعرفت على أرض

المغرب الكبير، والتي كانت تتبع أسلوباً واحداً تقريباً في ممارسة الحكم، حينما تفرض القبيلة المنتصرة سيادتها على جميع القبائل المنهزمة والقبائل المنتصرة والمتمثلة بالمرابطين، كانت حلفاً صنهاجياً مؤلفاً من قبائل الملتئمين. وقد حظيت لمتونة بنصيب الأسد من السلطة، يليها أفراد الحلف في التمتع بالمراكز الحساسة. ورغم أن المرابطين ضموا في صفوف جيشهم جماعات من قبائل زناتة المعادية ومصمودة، إلا أنهم لم يكونوا شركاء في الحكم ولا أصحاب مراكز في القيادة المرابطية.

ويستنتج من كل ذلك، أن وحدة الدولة المرابطية كانت وحدة سيادة للملتئمين فقط، لذلك كانت وحدة هشة، لم تثبت أن انهارت حينما واجهتها الأخطار بسرعة كبيرة.

وفي الميدان الحضاري:

يمكن التحدث عن مخلفات المرابطين الحضارية بسهولة بتقسيمها إلى قسمين، الأول على صعيد العمارة والبناء، والثاني في ميدان الفكر والثقافة.

أ- في ميدان العمارة والبناء.

وتشمل هذه الناحية بناء المدن والمساجد وما إلى ذلك. فقد اهتم المرابطون في هذه الأمور على الرغم من أن فترة حكمهم كانت قصيرة إلى حد ما. وكان أهم إنجاز للمرابطين في هذا المجال، هو بناؤهم لمدينة مراكش، التي أصبحت عاصمة الدولة المرابطية وفيما بعد الدول الموحدية.

لقد اختلف المؤرخون على باني مدينة مراكش وتاريخ هذا البناء، حيث يستحيل على المرء الفصل في هذا الأمر بصورة نهائية. فمعظم الآراء تقول إن يوسف بن تاشفين هو الذي أسس مدينة مراكش سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٣م أي في الفترة التي غادر فيها ابن عمه أبو بكر بن عمر أرض المغرب الكبير والتحق

بالصحراء. ولا ريب أن يوسف بن تاشفين، هو الذي تولى بناءها، لأن أبا بكر كان مشغولاً في هذا الوقت بإزالة الخلافات المحتدمة بين قبائل صنهاجة. وبعد عودته وإنهائه لها، تنازل ليوسف بن تاشفين عن الحكم. ويعتقد أن بناء مدينة مراكش استغرق خمس سنوات، وأنه أنجز في حدود سنة ٤٥٩هـ/٦٧م^(١). وقد تطورت فيما بعد فأصبح لها أسوارها وأبوابها ومرافقها العامة المتنوعة، وجل هذا التطور حدث في زمن الدولة الموحدية وبخاصة قسبة المدينة والجامع في مواجهتها وغير ذلك من التحسينات المختلفة، فحدث في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني الميلادي من أعظم المدن العربية الإسلامية.

أما بالنسبة للمساجد فقد أكثر من بنائها المرابطون في المغرب الكبير، وكانت أول أعمالهم في مدينة فاس، حينما أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد في جميع أرجائها، ولقي جامع القرويين في هذه المدينة اهتماماً خاصاً من العناية في زمن علي بن يوسف الذي قام ببناء زيادة كبيرة فيه حتى أصبح من أهم المساجد الجامعة في المغرب الكبير وأكثرها شهرة كونه بمثابة جامعة قديمة، تشبه إلى حد كبير جامعة الأزهر بالقاهرة. هذا بالإضافة إلى جامع تلمسان وجامع مراكش وغيرها.

وقد اهتم المرابطون بنوع آخر من أنواع العمران، تجسد بببناء القلاع والأسوار، كقلعة (قسبة) مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين.

وفي زمن علي بن يوسف بن تاشفين، أحيطت مدينة مراكش بسور على النظام الأندلسي. وفي مدينة تلمسان قام يوسف بن تاشفين ببناء سور حولها .

- أقام المرابطون عدداً من القلاع المنقرقة كان أهمها قلعة بني تاوداء، التي بنيت بقطع حجرية غير مهذبة، تربط فيما بينها بملاط شديد الصلابة، ولم

(١) مؤرخ مجهول، الحقل الموشية، ص ١١ .

يبقى من هذه القلعة إلا أجزاء بسيطة، يقتصر على الأسوار، وتقع هذه القلعة في منطقة الريف المغربية.

- أما القلعة الثانية فهي قلعة أمرجو، التي أقيمت على مرتفع من الأرض يشرف على وادي ورغة المنقرع من وادي سبو جنوب قلعة بني تساودا، وهي تمثل الذروة في ميدان العمارة الحربية في المغرب فسي عصر المرابطين.

ب- أما في الميدان الفكري:

انحصر عمل المرابطين في هذا المجال على أمور متعددة، منها أنهم عملوا على إقامة وحدة مذهبية دينية، بأن قضوا على جميع المذاهب الأخرى بسدون استثناء، لكنهم لم يأتوا بشيء جديد يمكن التوقف عنده، ما عدا أنهم استعملوا الشدة في تطبيق الحدود والشرائع الإسلامية التي كان تطبيقها ضرورياً في مجتمع كان القتل فيه أمراً عادياً والسرقة فاشية بشكل لا نظير له.

وحدث في عصرهم أن انتقلت مراكز الثقافة، التي كانت في الأندلس والقيروان على المغرب الأقصى في مراكش وما حوله بعد أن انهار مركز القيروان بخرابها، وعاش مركز الأندلس في ظروف صعبة آخر الأمر بسبب الهجوم الفرنجي.

ولأن حكم المرابطين، كان حكم فقهاء مالكيين متشددين فقد أدى إلى تدهور النشاط الفلسفي والشعري بصورة خاصة، ولكن ليس إلى النهاية، بينما استمرت النشاطات الدينية بشكل مميز. ففي زمن علي بن يوسف بن تاشفين على سبيل المثال، نرى بعض الحكام المرابطين في الأندلس، لا يختلفون عن ملوك الطوائف في شدة ضربهم للشعر وضخامة جوائزهم للشعراء كحاكم سرقسطة، الذي أنشده أحد الشعراء قصيدة مدحه فيها، فما كان منه إلا أن حلف على الشاعر، أنه لن يذهب من عنده إلا ما شياً من فوق المال إلى منزله^(١).

(١) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٤١٥.

ففي هذا العصر اشتهر ابن بسام، الذي شجع أهل المغرب والأندلس على الاهتمام بالأدب والشعر والنقد وما إلى ذلك ودعا بقوة إلى عدم الاعتماد على أدب المشاركة، لأن المغاربة والأندلسيين لا يقلون عنهم في شيء من هذا القبيل^(١). وقد وضع عدداً من المؤلفات الأدبية الراقية، ضاع معظمها، وما بقي منها هو كتابه الشهير في الأدب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، ضمنه سيرة الكثيرين من شعراء الأندلس وأدبائها البارزين.

كما اشتهر في عصر المرابطين أيضاً الأديب الشهير ابن خاقان، الذي تجول وقتاً طويلاً في ربوع الأندلس والمغرب في أواخر عصر نول الطوائف، وحينما جاء المرابطون التحق في خدمتهم، وكتب لأحدهم وهو الأمير إسحق بن يوسف كتابه العظيم (قلائد العقيان) الذي ضمنه العديد من تراجم رجال السياسة والفكر. وعلى الرغم من ذلك فقد قتل المرابطون في نهاية المطاف بتهمة تطرفه في نفعهم ويعد بحق من المقتولين ظلماً في تاريخ المغرب والأندلس^(٢).

أما الفلسفة في عصر المرابطين فقد اصطدمت في عدة عقبات أثرت على نشاطها ولكن إلى حد ما، فعلى الرغم من النخبة العارمة ضد علماء الكلام والمتكلمين، التي بدأت بإحراق كتب الغزالي، فإن الفلسفة ازدهرت في هذا العصر من خلال عدد هام من العلماء الموسوعيين، الذين اهتموا بالرياضيات والفلسفة في المقام الأول إضافة إلى بقية العلوم الأخرى. من هؤلاء كان ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المتوفى سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م. وقد ألف ابن باجة هذا في شتى علوم الحكمة وفروعها، إذ بلغت مؤلفاته فيها قرابة خمسة وعشرين كتاباً، علق فيها على علماء وفلاسفة مشاركة ويونان كأرسطو وجالينوس والفارابي وإقليدس. ومع الأسف فإنه لم يبق من هذه الكتب إلا ثلاثة

(١) - ابن بسام، الذخيرة، قسم ١ ص ١١-١٢.

(٢) - انظر ترجمته ابن خاقان، وقيلان الأعيان، ج ١ ص ٥١٥. المراكشي، الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٥٢٩.

هي (الكلام في اتصال العقل بالإنسان) و (رسالة الوازع) و (تدبير المتوحد). وقد تجاوز أثر ابن باحة الأندلس والعالم الإسلامي، ليؤثر في الكتاب والفلاسفة الأوروبيين في أواخر العصور الوسطى مثل ألبرتو ماغنو وريموند لوليو. وبوماس الأكويني^(١).

ومن الفلاسفة في هذا العصر يمكن أن نذكر الفيلسوف مالك بن وهيب الذي لم يتمكن من إظهار علمه في ميدان الفلسفة خوفاً من تعصب رجال الدين ضده، كما تعصبوا ضد غيره من قبل، وكان يتظاهر أمامهم بحرصه على الفقه حتى لا يشتبك معهم، وهذا ما جعله يبتعد عن ميدان التأليف في هذا المجال^(٢).

وقد اهتم المغاربة والأندلسيون بعلم الجغرافية والتاريخ، وظهرت عدة مؤلفات على درجة كبيرة من الأهمية في بابها.

ففي ميدان الجغرافية ظهر في الأندلس في عصر المرابطين عدد من الجغرافيين الكبار، نذكر منهم أبو عبيد الله البكري المتوفى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م فقد ألف كتابين أحدهما بعنوان (الممالك والممالك) وهو يشبه كتب أهل المشرق المعروفة بمثل هذا الاسم. ويبدو البكري في هذا الكتاب عارفاً بالطرق البرية والبحرية وبالمرافئ والخلجان معرفة جيدة، وأما الكتاب الثاني فهو (معجم ما استعجم). وهذا الكتاب مرتب على حروف الهجاء، وغايته أن يثبت أسماء الأماكن الصحيحة بعد أن تسرب إلى عدد كبير منها شيء من التحريف والتبديل^(٣).

جاء بعده الرحالة الجغرافي أبو حامد الغرناطي، الذي زار المشرق العربي لفترة قصيرة، حيث زار الإسكندرية والقاهرة ودمشق والموصل في سنة ٥١٢هـ/١١١٩م. فقد وصف مشاهداته في هذه البلدان، من ذلك فيضان النيل والأهرامات. أما معظم حياته فقد أمضاها في خوارزم وجنوب الاتحاد السوفيتي

(١) - انظر عن ذلك كتابنا: المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوربي، طبعة دمشق، ١٩٩٧ ص .

(٢) - انظر عنه للمراكشي، المعجيز ص ١١٩ ، مؤرخ مجهول، الحل الموشية.

(٣) - أحمد بدر ، تاريخ الأندلس، ص ٢٣ وما بعدها .

سابقاً والمجر وألف كتابه المشهور (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) عن مشاهداته في هذه البلاد، فذكر أشياء من الجغرافية الوصفية والبشرية، وأشار إلى أشياء لها صلة بطبقات الأرض وعلم الحياة، فهو يتكلم مثلاً على صفة البحار وعجائب حيواناتها وما في جزائرها من النفط وغيره كما يتضمن صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى غير ذلك . ويمكن أن نطلق على إنتاجه العلمي هذا (الأدب الجغرافي)، الذي يُعد من أقدم من ألف فيه، حيث لم يكن معروفاً في المشرق، فهو الذي أرسى قواعد هذا الفن في المشرق وربما في الأندلس^(١).

أما أشهر جغرافي هذا العصر فهو الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٠م، ولد فيما يبدو في سبّة بشمال المغرب الأقصى، وتلقى علمه في قرطبة، ثم سكن الأندلس مدة طويلة وطاف بها، بعدئذ انتقل إلى جزيرة صقلية واتصل بملكها رجار^(٢) . وألف له كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ويعرف بالكتاب الروجاري ذلك أن روجار هو الذي أراد تأليف هذا الكتاب فألفه الإدريسي له . وكتاب نزهة المشتاق، يتكلم عن أقاليم العالم كلها، وهو يتفوق على ما سبقه من كتب الجغرافية، بما فيه من التفصيل في وصف أوروبا كلها وربما ما رافقه من خرائط كثيرة ودقيقة، توضح جانباً من مواقع الأماكن الواردة في الكتاب^(٣).

أما في ميدان التاريخ فقد ظهرت في عصر المرابطين بعض المؤلفات الهامة، يأتي في مقدمتها كتاب (الصلة) لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م وهو كتاب في التراجم، جعله ذليلاً على تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، سلك فيه طريقة ابن الفرضي من حيث ترتيب التراجم على

(١) - انظر عنه حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، طبعة مدريد ١٩٦٧، ص ٣١٠ وانظر كتابنا : النور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، طبعة دمشق، دار شمال ١٩٩٥، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) - حكم صقلية من سنة ٥٦٢-٥٨٥ هـ وفي عصره ازدهرت الثقافة العربية في بلاده ازدهاراً كبيراً حتى انتهت نفرة من أتباعه بالارتداد عن المسيحية.

(٣) - عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٣٠٥ وما بعدها.

طريقة حروف المعجم كما يقول. وتغطي تراجمه في هذا الكتاب القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وينقل عن كتب أندلسية كجذوة المقتبس للحميدي. ويمتاز هذا الكتاب، بأنه يساعد على الاستنتاج بأن العلاقات التجارية في فترة ما قبل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كانت تسير بشكل طبيعي بين الشام والأندلس. من ناحية أخرى فإن هذا الكتاب يغطي العلاقات الفكرية بين القطرين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ولابن الصيرفي كتاب في التاريخ الأندلسي والمغربي هو كتساب (الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية) كما ألف الحجاري في هذا العصر كتابه المعروف (المسهب في فضائل المغرب) وهو كتاب تراجم خصصه لترجمة عدد هام من علماء الأندلس ورجالها منذ الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس.

ولعل أهم العلوم من حيث الاهتمام بها على صعيد الحكام والفقهاء كانت العلوم الدينية كالفقه والحديث وما إلى ذلك. لكن الذي حدث أن فترة المرابطين كان حظها قليلاً على صعيد الاجتهاد والتجديد باستثناء ابن القوطية، الذي أوجد لنفسه مذهباً خاصاً في تفسير الحديث، ويتجلى بالاهتمام بالمعنى دون اللفظ، فاتهمه الفقهاء على أنه يفسر الحديث على هواه^(١). كما اشتهر من محدثي هذا العصر يعيش بن سعيد بن محمد المعروف بابن الحجام، وعبد الرحمن بن محمد المعروف بابن فطيس^(٢).

وكان ابن العربي من أكبر فقهاء هذه الفترة، زار المشرق العربي وبقي فترة مهمة في بلاد الشام^(٣).

(١) - تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣١٢ وما بعدها.

(٢) - انظر عليهما كتاب الصلة، ص ٦٧٩.

(٣) - الديباج، المذهب لابن فرحون، ص ٢٨١.

أما بالنسبة للعلوم التطبيقية غير المرتبطة بالدين، فقد ازدهرت حتى في بلاط علي بن يوسف بن تاشفين، الذي عرف بميله إلى رجال الدين وكذلك تقريبه للزهاد، فقد ارتقى في بلاطه أكبر الأطباء في الجناح الغربي من دولة العرب والإسلام، وهو عبد الملك ابن زهر، الذي يشكل واحدة من أهم الحلقات في سلسلة هذه الأسرة الأندلسية المشهورة، وكتب للمرابطين كتابين طبيين ذاعا وانتشرا، هما كتاب (الطرر) وكتاب في (الأدوية) ^(١).

جاء بعده ابنه أبو مروان بن عبد الملك بن زهر، الذي عده الكثيرون من أفضل أطباء العصور الوسطى بعد الرازي، وخاصة الأوربيين الذين استفادوا من علمه الكثير. ومن أهم كتبه في الطب كتاب (الاقتصاد في صلاح الأجساد) وهو كتاب في الطب العام، وكتاب (التفسير) الذي يعد من أهم الكتب العربية في الطب التجريبي السريري، وقد ترجم إلى اللاتينية ^(٢) وقربه السلطان الموحيدي عبد المؤمن ابن علي إليه بعد سقوط دولة المرابطين، فألف له كتاب (الترياق السبعيني). وله أيضاً مقالة في علل الكلى، ورسالة في علتي البرص والبهاق.

من عائلة بني زهر اشتهر أيضاً أبو بكر بن زهر، الذي كان ذا ثقافة موسوعية، شملت إلى جانب الطب علوم اللغة العربية والحديث وما إلى ذلك .

وكان ابن باجة أيضاً من أهم أطباء الفترة المرابطية، الذي عرف في ميدان الرياضيات والفلسفة والموسيقى إضافة إلى الطب. ألف العديد من الكتب الطبية والصيدلانية أهمها كتاب (الأدوية المفردة) وهو تعليق على كتاب جالينوس تحت العنوان نفسه وكتاب (التجربتين على أدوية ابن وافد) وكتاب (اختصار الحاوي) للرازي (وتعليق على كتاب النبات) لأرسطو طاليس.

(١) - ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٦٦ .

(٢) - ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٥١٩ .

وكان ابن رشد أحد الأطباء في هذه الفترة على الرغم من اشتغاله على صعيد الفقه والفلسفة. وكذلك كانت للبكري الجغرافي بعض الاهتمامات الطبية ظهرت من خلال كتابه (أعيان النبات والشجريات الأندلسية) ومثله فعل الجغرافي الإدريسي من خلال كتابه (في الأدوية المفردة)^(١).

إضافة إلى كل ما تقدم فإننا لا يمكن أن نخفل ذكر ما أنجزه المغاربة في هذا العصر في ميدان هندسة استجرار المياه. فمُنذ وقت مبكر من حياة المغرب الحضارية، عُرِف نظام الفقارات في معظم مناطق المغرب الكبير، والفقارات مفرد فقارة، وهي عبارة عن قناة لجر المياه إلى المناطق المحتاجة، وكانت تونس أول من عرف نظام الفقارة، وكذلك الواحات الموجودة بجنوب الجزائر فقد عثر أخيراً على آثار لهذه القنوات في واحة سدراته على مسافة ٨٠٠ كم إلى الجنوب من مدينة الجزائر العاصمة. وكانت سدراته بفضل ذلك النظام المائي مدينة عامرة أهلة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين^(٢).

وفي عصر المرابطين موضوع بحثنا، ركز المهندسون خصوصاً على تطوير هذه الهندسة الراقية، لإيصال وجر المياه إلى المدن العطشى. فقد قام المهندس عبد الله يونس، حينما حضر إلى مراكش بابتكار نظام جديد لمدّ المياه من الأماكن البعيدة وفي جوف الأرض، فقد كانت مراكش تفتقر في بدايتها إلى المياه، حيث لم يكن فيها سوى بعض الآبار. فقام المهندس ابن يونس على ما يبدو بدراسة طبقات الأرض هناك، وتوصل بعد جهد كبير إلى اختراع طريقة المجاري الجوفية، فتوجه إلى طرف من أطراف المدينة، يعلو فيه مستوى الأرض على مثله في داخلها، ثم حفر بئراً كبيرة ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحيائها قريباً من سطح الأرض.

(١) - تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢١٣ وما بعدها .

(٢) - محمود علي مكي، مدريد العربية، طبعة وزارة الثقافة بمصر، ص ٥٢.

ويذكر الإدريسي أن السلطان المرابطي أعجب بهذا الابتكار، ومنح صاحبه عطاء كبيراً، ومنذ ذلك الحين بدأ أهل المدينة ببناء قنوات فرعية تستمد من تلك القناة الأم. وهذا ما ساعد على اتساع العمران بمراكش، وزيادة مروجها وحدائقها وأصبحت قاعدة وحضرة للدولتين المرابطية والموحدية. وقد سمي هذا النظام من القنوات (الخطارة)^(١).

وما زالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية بمدينة مراكش، ويبلغ عددها حوالي ٣٥٠ قناة، يصل طول كل منها إلى نحو خمسة كيلو مترات، غير أن الإهمال لحقها أخيراً وبطل استعمال عدد منها. ويبدو أن هذا المهندس كان من أصل أندلسي، ذلك لأن المرابطين اعتمدوا على الأندلسيين كثيراً، ولا سيما فيما يتعلق بالأعمال الإنشائية الكبرى. وقد ذكر الإدريسي أن مهندسين أندلسيين، كانوا هم الذين تولوا إنشاء القنطرة العظيمة على نهر تانسيفت^(٢). ونجد أن هذا النظام ما زال يستخدم حتى اليوم في الجزر الخالدات (جزر كنارياس اليوم)، وأغلب الظن أنها انتقلت إليها من هناك^(٣).

(١) - الإدريسي، نزهة المشتاق ص ٦٨.

(٢) - محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة عن المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، ١٩٦٠، ص ١٢١-١٢٢.

(٣) - F.W.Rabins - the story of water supply oxford university.press 1946.p.116.118.

الإدارة في عصر المرابطين:

مدة المرابطين هي استمرار لما سبقها، من حيث التطور الإداري العام، فقد بقيت جميع الوظائف السابقة تقريباً على هيئتها الماضية، كوظيفة الحجابة التي كانت من أكبر الوظائف الإدارية بعد الخليفة أو السلطان، فكان صاحبها يقوم بما يشبه اليوم رئيس الوزراء. وهذا ما جعل العديد من الوزراء يتنافسون فيما بينهم للوصول إلى هذه الوظيفة بعد موت أو عزل صاحبها، لأن المعروف في الأندلس والمغرب، أن الحجابة لا يليها إلا وزير سابق مع وجود بعض الاستثناءات البسيطة.^(١)

وكانت الكتابة العليا من الخطط الكبرى، التي تجعل صاحبها في عداد الوزراء، ذلك لما تتطلبه من معرفة وحذق في مسائل الكتابة والترسل والإنشاء وما إلى ذلك.^(٢)

وهناك وظيفة الشرطة الكبرى والوسطى والصغرى. ولصاحب الشرطة بعض سلطات القاضي، كما كان يقوم أحياناً بتنفيذ بعض الحدود بعد أن يصدر القاضي الحكم، وربما نظر في الحدود.

فكان صاحب الشرطة مسؤولاً عن الأمن والضرب على أيدي المجرمين. وبشكل عام فقد كان صاحب الشرطة الصغرى مختصاً فيما يتصل بعامة الناس. أما صاحب الشرطة العليا أو الكبرى، فيضاف إليه زيادة على ذلك، النظر في القضايا الخاصة من الناس وكبار رجال الدولة والضرب على أيدي العابثين. أما الشرطة الوسطى، فقد استحدثت لأول مرة في عصر الخليفة الحكم المستنصر المتوفى سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م. ولعل مهمة صاحبها إنجاز بعض الأعمال الخاصة

(١) - ابن الأبار، الحلة للسيرام، ج١، ص ١٣٥ .

(٢) - ابن الأبار، الحلة للسيرام، ج١، ص ١٤٠ .

التي يكلفه بها الخليفة لحفظ الأمن^(١). وكان العامة يسمون صاحب الشرطة بصاحب المدينة وصاحب الليل.

ومن الوظائف الأخرى وظيفة الأمين، الذي كان يتولى شؤون المال في الولاية، فهو الذي يقوم بجباية الضرائب المختلفة، وحساب نفقات الموظفين والأعمال العامة ومراتب الجند وإرسال الباقي، وكان يسمى الفئاض أو المستفاض إلى الإدارة العامة في عاصمة الدولة. وكان الأمين يسمى أيضاً الخازن، وهو يشبه وزير المالية في أعماله، يساعده عدد كبير من الجباة والحساب والمشرفين، وهم أشبه بالمفتشين الماليين^(٢).

لكن أهم الوظائف بعد الوزارة كانت وظيفة القاضي، ووظيفة المحتسب. فقد عرفت المغرب والأندلس القضاء منذ السنين الأولى لوصول الفاتحين إليهما، وقد تطور القضاء من وظيفة صغيرة كان صاحبها يسمى قاضي العسكر، إلى وظيفة كبيرة ذات شأن وتأثير في المجتمع بشكل عام، فأصبح يسمى بقاضي الجماعة الذي يشبه في عصرنا وزير العدل.

وقد تأثر القضاء في عصر المرابطين منذ البداية بالجو العام المتشدد، الذي اتخذ المرابطون خاصته، مما أعطى فقهاء هذه الفترة سلطات واسعة جداً، وطبقوا مالكية من نوع صارم للغاية، فكان علي بن يوسف بن تاشفين لا يقطع أمراً في جميع ممتلكاته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولي أحداً من قضائته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكماً في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء^(٣).

(١) - ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ٤٤.

(٢) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٤١.

(٣) - الحميري، الروض المعطار، ص ٩٥.

انحصرت مهمة القضاة خلال هذا العصر بصورة عامة في عدد من المسائل، التي كان لابد من معالجتها وحمايتها حتى يستقيم الناس ويبادلون بعضهم المودة والاحترام، فكان على القاضي حماية دماء المسلمين وأموالهم، وإقامة حدود الله ومشينته من خلال كتابه العزيز، والدفاع عن ضعاف الناس من سطوة الأقوياء والمتنفذين وإنصاف المظلومين من الرعية.

في هذا العصر أضيفت إلى بعض القضاة مهام أخرى إدارية كبيرة، كتولي خطة الحسبة والشرطة. كما شارك القضاة في أعمال النضال والجهاد والذود عن حياض الوطن وحياة الأهلين، وكثيراً ما استشهدوا في المعارك وساحات القتال. وكانوا يقومون أيضاً بأعمال مختلفة على الجانب السياسي^(١).

ظلت الشورى في هذا العصر من أهم أركان القضاء على الإطلاق وهي اعتماد مشاورين تكون مهمتهم مراقبة أحكام القضاة ومساعدتهم في استتباط أحكام المسائل، التي لا يستطيعون إيجاد حكم لها، حتى لا تكون أحكامهم خاطئة، مما يؤدي إلى ظلم من لا يستحق الظلم، وركز على هذا بشكل خاص الحكام المرابطون، الذين تشددوا في أمر القضاء بصورة عامة. فقد ذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) أن علي بن يوسف بن تاشفين كان إذا ولى أحداً من قضاة، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغيرة من الأمور ولا كبيرة إلا بمحضر أربعة من الفقهاء^(٢).

وبقيت خطة الشورى من الخطط الهامة الملحقة بالقضاء حتى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى في المغرب والأندلس، وظل يطلق على من يتقلدها (المشاور) ، وظل اختصاصها ثابتاً حول الإفتاء وإيداء الرأي في المسائل الشرعية البحتة. وتطور الأمر بأصحاب هذه الخطة إلى الأفضل بعد عصر

(١) - أنصاخ، تاريخ الأندلس، ص ٢٢٤ .

(٢) - عبد الواحد المراكشي، للمعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٧١ .

المرابطين، فقد بقي المشاورون أو أهل الفنيا في المغرب والأندلس دون مرتبة قاضي الجماعة، أي أنه كان يستشيرهم في بعض المسائل والأحكام، لكن رأيه كان يبقى هو المعول عليه في هذه المسألة^(١).

ويمتاز العصر المرابطي بظهور تسمية جديدة، أطلقت على بعض فروع القضاء، وهي تسمية قاضي العسكر، الذي كان يرافق القوات العسكرية في حثها وترحالها، ومهمته حل ما يحدث من مشاحنات وخصومات في صفوف العسكريين، وهو نفسه الذي كان يسمى في العصور السابقة قاضي الجند، حينما لم تكن الحياة المدنية قد استقرت وتشعبت مصالح الناس بعد أن كثرت جموعهم، وبالتالي تعقدت مشاكلهم الخاصة والعامضة. وكان قاضي العسكر هذا يسمى في بعض الأماكن (قاضي المحلة)^(٢).

وكان لكل قاضٍ نائب أو مساعد، كثيراً ما سمي في هذه الفترة بصاحب الأحكام، وهي تسمية أطلقت أحياناً على القاضي نفسه، وكان القضاء يريدون من نوابهم ومساعدتهم، أن يكونوا مثلاً للصرامة والاستقامة، وعدم التهاون في إحقاق حقوق الناس على أساس تعاليم الشرع وأحكامه^(٣).

إلى جانب ذلك نرى قاضي الأتكة، الذي ظل معروفاً في العصر كما كان في سابق عهده، وإن كانت مهمته قد تحددت بدقة أكثر^(٤).

أما ولاية المظالم فقد بقيت كما كانت عليه في السابق، هيئة مستقلة عن قاضي الجماعة يتولاها شخص غير القاضي. ومع ذلك فلم تكن هذه الخطة وفقاً على الأشخاص العاديين، فقد تصدى للقيام بأعبائها الحكام أنفسهم^(٥).

(١) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٢) - ابن اللزني، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفي، ص ٢٥٧. ابن خلدون، التعريف بآل خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ص ٤٦٨.

(٣) - ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٤٦٨.

(٤) - ابن القاضي، نيل وفيات الأعيان، ص ١٤٢.

في هذا العصر بقي المكان الذي يقضي فيه القضاة بين الناس غير مستقر أو محدد في جهة معينة، فكان بعض القضاة كما في السابق يقضي بين الناس في المسجد، حيث تعين فيه زاوية خاصة لهذا الأمر، وبعضهم الآخر كان يمارس عمله في منزله أو في مكان آخر. ولا يعرف السبب الذي جعل الحكومات العربية الإسلامية في العصور الوسطى موضوع هذا البحث تهمل هذا الأمر، على الرغم من جلالته وعظمته منصب القضاء في تلك العصور السالفة^(١).

بقي أن نذكر أن العرب المسلمين في المغرب والأندلس، برهنوا على أنهم خير من استطاع أن يتمثل روح الإسلام النقية الطاهرة في ميدان التعامل مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود في شتى الميادين، ولا سيما فسي مجال القضاء، فالذي حدث في المغرب والأندلس على هذا الصعيد لم يحدث نظيراً له في أية منطقة عربية إسلامية خلال العصور الوسطى، وهذا ما يقودنا للقول، إن أهل المغرب والأندلس، استطاعوا أن يتفوقوا في مسألة تطبيق التعاليم الإسلامية الصحيحة، هذه التعاليم التي تؤمن بالتعايش الحضاري والإنساني مع كل شعوب الأرض بغض النظر عن الأديان التي كانت آخر ما يلجأ إليها في تلك البلاد.

وهكذا طبق العرب المسلمون في المغرب والأندلس كل الشروط، التي أقرها الشرع الإسلامي، وزاد على ذلك بإعطاء أهل الذمة حريات واسعة جداً، توجت بالسماح لهم بممارسة القضاء على مذهبهم الدينية والحكم بين المتخاصمين بمقتضى قانون هذه الأديان وتشريعاتها، وهذا لم يحصل نظير له في منطقة أخرى، وظل ذلك مرعياً وراسخ الجذور طوال فترة الحكم العربي هناك تقريباً.

فمنذ عصر الولاة ترك العرب للمسيحيين في الأندلس حرية سياسية واسعة، تركوا لهم القضاء فيما بينهم وشيئاً من الإدارة المحلية المستقلة والخاصة

(٢) - المقرئ، فتح الطيب، ج ٢، ص ٢٧٧.

(١) - ابن الأحمر الغرناطي، أعلام المغرب والأندلس، ص ١٦٧.

بهم. وقد حكموا في دوائر قضائهم بموجب القانون القوطي، وكان قاضيتهم يسمى (قاضي النصارى وقاضي العجم) .

وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي وإداري، وكانوا يعينون لهم حكاماً من أبناء جنسهم. ولم يكونوا يلجأون للقاضي المسلم إلا في مسائل القتل، فكانوا يقدمون إليه ويعرضون ادلتهم وكانت المحاكم المسيحية تقبل شهادة المسلم على المسيحي^(١).

أما في الحالات التي كان المسيحيون واليهود يقدمون على شتم الرسول العربي الكريم أو التقليل من قدر الدين الإسلامي، فكانوا يحالون إلى القاضي المسلم. وإذا كان أحد أطراف القضية رجلاً مسلماً وهو المعتدي، فقد كانت هذه القضية تحال إلى قاضي المسلمين للفصل فيها بحسب معطيات الشرع الإسلامي، الذي لا يفرق بين المتخاصمين إلا بالحق^(٢).

وكان القضاة المسلمون يقفون أمام مقدسات المسيحيين باحترام بالغ، ولا سيما حينما كانوا يلجأون لأخذ اليمين منهم، فقد كانوا يتلمسون ويبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان، التي كانوا يعملون فيها من أجل أن يحلف المسيحيون في قضية معينة، فكانوا يخبرون بالذهاب إلى أقدس مركز ديني، ومعهم نائب عن القاضي المسلم يرافقه أحد الشهود فيحلف اليمين وتتقضي المشكلة^(٣).

وهناك حالة أخرى كانت تستوجب إحالة المتهم إلى القاضي المسلم، هي التعامل والتآمر مع الإسبان في الشمال ضد العرب المسلمين. وفي حالة عدم وجود قاضي ذمي في أية مدينة ما، كان قاضيتها المسلم يكلف بالنظر في شؤون أهل الذمة^(٤).

(١) - عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ص ١٨٤. خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا، ص ٩١. آدم منتر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٩٥.

(٢) - خير الله طلفاق، حضارة العرب في الأندلس، طبعة دار الحرية، بغداد ١٩٧٧، ص ١٦٩.

(٣) - انظر، شجرة النور الزكية، ص ١٧٧.

(٤) - مؤلف مجهول، الحلال الموشيه في الأخبار الأندلسية، ص ٩٠.

أما الوظيفة الهامة الأخرى بعد القضاء كما ذكرنا، كانت وظيفة الحسبة، التي كان صاحبها مسؤولاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك فقد كانت وظيفة دينية بالدرجة الأولى، تشمل في عصرنا السراهن أعمال عدة وزارات مثل وزارة التجارة ووزارة التموين والاقتصاد والصحة وما إلى ذلك. ولم تكن هذه الوظيفة معروفة بتسميتها هذه حتى العصر العباسي الأول، حيث انتقلت إلى المغرب والأندلس، فقد كان صاحبها في صدر الإسلام والعصر الأموي يعرف باسم (العامل على السوق أو العريف) هذا الاسم الذي استمر استعماله في المغرب والأندلس حتى فترة متأخرة من العصور الوسطى. وكان الولاية والحكام في المغرب والأندلس يمارسون هذه الوظيفة في بداية الأمر، ثم أخذت تسند إلى القضاة، الأمر الذي جعل سلطاتهم واسعة جداً. وكان القائم على هذه الوظيفة يتجول في الأسواق العامة لقمع كل مظاهر الغش والتدليس، وكذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وفي الفترة التي تلت نهاية النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، انفصلت الحسبة عن القضاء، وأصبح الذي يتولاها يدعى بصاحب السوق، وكان القاضي هو الذي يعينه لهذه الوظيفة بموافقة من الأمير أو حاكم المدينة، وكان من أهم شروط اعتماده لهذه الوظيفة، أن يكون من أهل العلم والخبرة والتجربة والمروءة والاستقامة، والعفة، وما إلى ذلك من صفات مشابهة.

وكان صاحب الحسبة أو صاحب السوق في المغرب والأندلس فسي كل العصور، يمتاز بسرعة البت في القضايا المعروضة أمامه، وكذلك تسوية الخلافات في الأسواق والطرقات، فهو في منطقتة بمنزلة القاضي، الذي كان ينوب عنه ويتولى مهامه في بعض الأحيان. وقد اشتهر نظام الحسبة في الأندلس والمغرب، وغداً علماً بارزاً يشمل على العديد من القوانين والأحكام التي يدرسها الطلاب، حتى إن بعض علماء المغرب والأندلس أفرد لها كتاباً خاصة ومفصلة،

كما فعل السقطي وابن عبدون الإشبيلي في العصرين المرابطي والموحدي، ولعل السقطي كان أفضل عالم ألف في هذا الميدان^(١).

أسباب ضعف وسقوط الدولة المرابطية

لقد تصافرت عدة أسباب قاهرة فيما بينها، أدت في نهاية المطاف إلى انهيار دولة المرابطين، التي امتدت على رقعة شاسعة من الأرض من بجاية شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً ومن السودان جنوباً إلى سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالاً. كان في مقدمة هذه الأسباب انغماس المرابطين في الترف والرفاه والرقّة، الأمر الذي أدى إلى زوال الخشونة، التي كان يعتز بها المرابطون عند مقارنتهم بالأندلسيين. فسرعان ما نسوا بتأثير هذه الحياة تلك المبادئ الأولى، التي قامت على أساسها حركة المرابطين، فتدهورت حال جيشهم في المغرب والأندلس.

إلى جانب ذلك كان ظهور المهدي بن تومرت، الذي قاد الثورة ضد المرابطين في المغرب، مما جعلهم يوجهون قسماً كبيراً من جهودهم للقضاء على هذه الثورة، أضف إلى ذلك تكتل قوى الأعداء في الأندلس ضدهم مما أجبرهم على خوض معارك متواصلة، وبخاصة في شرق الأندلس والثغر الأعلى.

وقد أسهم الفقهاء بصورة غير مباشرة في ضعف دولة المرابطين واحتلالها، حينما راحوا يقبلون على كتب الفروع، ولا يكلّفون أنفسهم العودة إلى الأصول، التي يمكن من خلالها الاجتهاد والاستنباط والابتعاد عن التقليد، الذي التزموا به طوال حياتهم. كما أنهم اتبعوا منهج التجسيم، الذي يؤدي إلى تجسيم الذات الإلهية، وإلى إثبات صفات جسمانية لله تعالى بالاعتماد على ظاهر النصوص الأصلية والتفسير الساذج لها^(٢).

(١) - الماوردي، الأحكام السلطانية ص ٢٤٠. ابن خلدون، المقدمة ص ٤٠٥. موسى لقبال، الحمية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها، ص ٢١ وما بعدها.

(٢) - ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٥٠.

أضيف إلى هذه المسألة، انتشار كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في المغرب الكبير، مما أدى إلى إثارة موجة عارمة من الغضب عند فقهاء الأندلس والمغرب، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت نذير شؤم يهدد نفوذهم بالزوال، إذ قام الغزالي بفضح نزعات هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدار الدنيا، وسعيهم الحثيث للحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء والزهاد. فما كان من هؤلاء إلا اتخاذ قرار عرضوه على الأمير علي بن يوسف بن تاشفين يقضي بإحراق كتب الغزالي في كل أنحاء دولة المرابطين، الأمر الذي أدى إلى حدوث ردة فعل غاضبة على الفقهاء المغاربة في صفوف العامة، وهذا ما جعل مهمة ابن تومرت في دعوته أكثر سهولة ويسراً.



الفصل الثامن

سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين على أنقاضها

كان من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين بالمغرب والأندلس، ظهور حركة الموحدين بالمغرب الكبير، وهي حركة نجحت بكفاءة عالية في تأسيس دولة كان لها شأنها المتميز في المغرب والأندلس، وهي دولة الموحدين التي تفوقت في عدد من الأمور والقضايا الهامة، مثل اتساع رقعتها، وعمرها الطويل إلى حد ما، وتنظيمها الإداري الجيد، واهتمامها بالافت في العلوم التطبيقية من خلال منح العلماء حريات واسعة بالقياس على الحريات، التي مُنحت لهم في عصر المرابطين.

كان رائد حركة الموحدين بالمغرب الكبير، محمد بن تومرت الذي قام بالترويج لمبادئها العامة والخاصة. وهو من أبناء قرية إيجليز في بلاد السوس من المغرب الأقصى، وهو من قبيلة هرغة. وفي قرية إيجليز عاش سنين طفولته الأولى، وفيها حفظ القرآن الكريم. ولما بلغ سن الشباب الأول، غادر قريته والمغرب إلى المشرق العربي، من أجل الدراسة والاطلاع العلمي على عادة الكثيرين من المغاربة والأندلسيين، فقد وصل إلى بغداد سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، فدرس على أبي بكر الشاشي مادة الفقه، وقيل أنه التقى الغزالي، ثم زار الشام ومصر والأماكن المقدسة بالحجاز، فاستغرقت رحلته في هذه البلاد إحدى عشرة سنة، عاد بعدها إلى المغرب الكبير، فنزل أول الأمر بقسنطينة ثم بجاية ثم بملاية بالجزائر، وبملاية استقر لأمد طويل وفيها تعرف على أكبر دعاة عبد المؤمن بن علي^(١) الذي

(١) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦٩. مؤلف مجهول، الحال الموشية، ص ٦٧. البيهقي، أخبار

للمهدي، ص ١٦ وما بعدها. ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٢٧.

غادر معه بلدة ملالة متوجهين إلى المغرب الأقصى، وسيبقى يلزمه بعد ذلك طوال حياته.

ويعد محمد بن تومرت أحد نوادر الفقهاء في العصور الوسطى، الذين نجحوا في استقطاب الأنصار والمؤيدين لدعوته، والذين تمكن من خلاصهم تأسيس دولة كان لها شأنها العظيم في المغرب والأندلس في العصور الوسطى فقد بدأ دعوته السياسية تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسألة حاول الفقهاء في العصور الوسطى أن يستغلوها لصالح مشروعات سياسية معينة، وما زالوا حتى اليوم وسيبقون كذلك حينما تسمح لهم الظروف وكان محمد بن تومرت يتعرض بالنقد لكل المخالفين لمبادئه من حكام وغيرهم، وبدأ في نهاية أمره أنه أكبر من الحكام أنفسهم، لذلك نرى أن حكام فاس واجهوه بقوة فطردوه من مدينتهم بتحريض من الفقهاء، الذين كانوا يقفون بقوة ضده ليس حرصاً منهم على الوطن أو الدين، بل لأنه بعلمه الجم والواسع استطاع أن يكشف جهلهم في العديد من مقاصد الشريعة.

ومن فاس توجه إلى مراكش فاستقر بها، وبدأ حربه الدعائية لحكامها ومساعدتهم، ولم يسلم من هجومه الدعائي زعيم دولة المرابطين نفسه علي بن يوسف بن تاشفين، ورغم ذلك فإنه لم يبح أو يأمر بقتله، بل طرده من مراكش فتنوجه إلى إيجليز مسقط رأسه وحل بها منذ سنة ٥١٥هـ/١١٢٢م ليتابع دعوته بقوة^(١).

كان محور دعوة ابن تومرت يدور حول فكرة التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة مسألة التجسيم وما إلى ذلك من أمور. وفي هذه المرحلة انضم إليه عدد جم من المناصرين، كان في طليعتهم أبو حفص عمر الهنتاني المصمودي، الذي شغل دوراً هاماً في الدولة الموحدية وقد أثارت مسألة

(١) - ابن خلدون، المعبر، ج٦، ص٤٦٩.

الانضمام الجماعي لدعوة ابن تومرت مخاوف المرابطين، الذين وجدوا فيها تطوراً يهدد سلطتهم ووجودهم في الحكم، فقرروا التخلص من ابن تومرت بشتى الوسائل، وكادوا ينجحوا في ذلك لولا حذر ابن تومرت، الذي وجد في بقائه بقرية إيجيليز خطراً على حياته، فتركها واستقر بقرية بوسط الأطلس الأعلى تدعى (تينمل)، التي وفرت له المنعة والحماية والأمان^(١) وبالتالي الحرية الواسعة في تنظيم دعوته لتخطيم سلطان المرابطين.

جاءت دعوة ابن تومرت خليطاً من الأفكار غير المتلائمة ذلك لأنه خلال رحلته المشرقية اطلع على جميع المصادر الدينية، واستفاد منها جميعاً في وضع مبادئ دعوته، فجاءت محتوية لبعض المسائل على المذهب الظاهري، الذي كان قد نادى به ابن حزم الأندلسي، وهو مذهب يعتمد على ظاهر النصوص الدينية في استنباط الأحكام، مبتعداً عن القياس الذي كان ابن حزم يُعده عقلياً بينما الشرح إلهياً^(٢) كما أنه ضمن دعوته مبدأ التوفيق بين الدين والعقل أي بين الدين والفلسفة وبذلك يكون قد سار في ركب الفلاسفة العقلانيين، الذين لم يلقوا أدنى قبول من الفقهاء والمتعصبين عبر العصور الوسطى. ومن جهة أخرى فقد تضمنت دعوة ابن تومرت التركيز على وحدانية الله وتنزيهاها إلى أبعد الحدود وفي ذلك يقول ابن تومرت : ((إن الله لا يشبه أي شيء فلا يشبه الشيء إلا ما كان من جنسه ولو كان من جنسه لعجز كعجزها)) . وكانت وحدانية الله من أهم ما ركز عليه ابن تومرت في دعوته، لذلك سمي أتباعه باسم الموحدين، وأعلن حرباً ضد الذين يأخذون بمبدأ التجسيم أو الحشوية^(٣). كما تضمنت دعوته مبدأ اعتبار الإمامة ركناً أساسياً من أركان الدين الإسلامي، يجب على الجميع أن يعتمدوا عليه بالعودة

(١) - ابن معبد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، ص ٥٩.

(٢) - أعز ما يطلب، ص ١٧.

(٣) - أعز ما يطلب، ص ١٦٦.

إلى الإمام في كل شيء^(١) ذلك لأن الإمام في نظره معصوم عن الخطأ وما يتصل به من أمور^(٢). ولا يستبعد أن يكون قد أراد من التركيز على الإمامة، حتى يجعل من نفسه مرجعاً رئيساً لكل أتباعه في المستقبل، حتى لا يعارضه أحد في مسيرته العامة^(٣) لذلك فإننا نراه في مرحلة متقدمة من دعوته ضد المرابطين، يعلن بصراحة أنه أن الأوان على حد قوله لأن يظهر الإمام، حتى يستأصل شأفة كل جذور الظلم والبهتان، وربط هذا الظهور بما كان قد تناقله الناس عن ظهور المهدي، حيث قيل أنه سيظهر بعد انقضاء خمسمائة عام على وفاة الرسول ﷺ أو بعد انقضاء نصف يوم إلهي، الذي يساوي خمسمائة سنة. وقد تجسد هذا الإمام المهدي بشخص ابن تومرت، الذي تزامن ظهوره مع انقضاء خمسمائة عام على وفاة الرسول ﷺ، وهو آخر الزمان كما قال ابن تومرت نفسه نقلاً عن الرسول ﷺ: ((أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة ورعاة الشاة يتطاولون في البنيان))^(٤). قصد بالحفاة هنا الحكام المرابطون.

على الرغم من كل ذلك فإن ابن تومرت، اعتقد أن مبادئ دعوته هذه لن تنسخ في النفوس إلا إذا ارتبطت بقتال الحكام المرابطين، الذي عدّه المعبر الوحيد لنيل الشهادة والخلود، كما برهن لأصحابه وأتباعه من خلال ممارسات كاذبة لا تمت إلى الواقع بصلة، فقد قام بوضع بعض أتباعه المخلصين في قبور، حرص أن تكون مزودة بفتحة لدخول الهواء، وقد حفرها بين قبور قتلى معاركه مع المرابطين، وزودهم بتعليمات خاصة حتى يصفوا له حياة الجنة والخلود، حين يسألهم عن ذلك، وحينما سألهم أجابوه بأنهم ينعمون بحياة حافلة بكل ألوان الراحة والأمان. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الفقهاء، لا يرون

(١) - ابن اللطمان، نظم الجمان، ص ٢٧ .

(٢) - أعز ما يطلب، ص ١٦٦ .

(٣) - أعز ما يطلب ص ٣٩ وما بعدها.

(٤) - أعز ما يطلب، ص ١٦٦ .

حرجاً من استخدام أية وسيلة مهما كانت درجة قبورها، إذا كانت هذه الوسيلة تؤدي إلى تحقيق مآربهم ومصالحهم الخاصة، ذلك لأنهم عبر تاريخهم لم يهتموا إلا بهذه المصالح، التي يجب أن تتحقق في نظرهم ولو أدى ذلك إلى أفدح الخسائر.

قام محمد بن تومرت بتشكيل عدد من المجالس من المقربين منه من خاصته، فبدأ بمجلس العشرة الذي تشكل من تلامذة ابن تومرت ومن أنصاره الأولين، الذي نعتهم بملح الأرض، ومنحهم العديد من الامتيازات الخاصة، من ذلك أنه اعتبر أن كل من يمشي على الأرض من البشر، هم عبيد لهم ولأبنائهم من بعدهم. وكان في طليعة هؤلاء العشرة عبد المؤمن بن علي الذي خلفه في قيادة الموحدين، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني، الذي سيكون يمين عبد المؤمن بن علي.

أما المجلس الثاني فقد كان مجلس الخمسين، الذي شكله حين استقراره بنينمل، وتكون هذا المجلس من كل القبائل التي دخلت في طاعة ابن تومرت، لكن هذا المجلس لم تكتمل فيه مسألة تمثيل القبائل كما يجب، وكانت صلاحيات أعضاء هذا المجلس تأتي بالدرجة الثانية بعد مجلس العشرة.

وكان المجلس الثالث هو مجلس أو مؤسسة أهل الدار، التي كانت تتكون من عشرين شخصاً بعضهم من مجلس العشرة وبعضهم الآخر من مجلس الخمسين، كان أربعة منهم يتكفلون بخدمة المهدي بن تومرت الشخصية، ومن كل هذه المجالس ينشأ مجلس السبعين، الذي قيل أنه كان مجلساً مستقلاً.

ظلت هذه المجالس هي المعول عليها في الدولة الموحدية بعد موت ابن تومرت، مع بعض التعديلات والتطورات التي جاءت مواكبة للمستجدات عبر الزمن، وكانت أهم تلك التطورات ما حدث على صعيد القبائل، حيث ضمنت جميعها في مسألة التمثيل في المجالس وفي غيرها، كالمؤسسة العسكرية التي

انضم عليها عدد من أتباع المرابطين، الذين حملوا في دولة الموحيدين اسم عبيد المخزن، كما انضم عدد آخر جاء من المشرق عرفوا بالدولة الموحدية بالمماليك الغز، الذين كانوا يعملون في دولة الأيوبيين والمماليك، الأمر الذي أجبر الموحيدين على تقسيم جيوشهم إلى قسمين الأول أطلقوا عليه تسمية الجموع، وتألف من المرتزقة من الغز وأمرى المرابطين وبعض الإسبان الهاربين، وفرضوا على عناصر هذا القسم الإقامة الإجبارية بمراكش، والثاني أطلقوا عليه تسمية العموم، وهم المحاربون الأصليون المعول عليهم، وقد تألفوا من كل القبائل الموحدية، وفرضوا عليهم الإقامة ببنداتهم، وكانوا لا يحضرون إلى مراكش إلا حين إعلان الحرب العامة^(١).

بدأ المرابطون يجردون الحملات ضد محمد بن تومرت، حينما تأكد عندهم خطر دعوته على حياتهم السياسية، ذلك لأنهم كانوا محور هذه الدعوة من حيث هدفها العام، لكن هذه الحملات لم تكن مؤثرة بسبب صعوبة مسالك المنطقة التي يقيم فيها محمد بن تومرت، خاصة وأن المرابطين كانوا يعتمدون في تحركاتهم العسكرية على الخيول وكثيراً ما تكبدت هذه الحملات خسائر فادحة بسبب تعرضها لكمائن في الممرات الضيقة الإجبارية الجبلية، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى أسلوب آخر، هو بناء الحصون بالقرب من مقر محمد بن تومرت وفرض حصار اقتصادي شديد عليه وعلى أتباعه^(٢).

رغم هذا الأسلوب الجديد فإن الموحيدين، بقوا يتابعون مسيرتهم ضد المرابطين بصورة طبيعية، ذلك لأنهم لم يتأثروا بشيء يعيق تحركهم، ودليل ذلك أنهم بادروا إلى الهجوم على مواقع المرابطين القريبة من جبالهم وأحرزوا انتصارات هامة، جعلتهم يتوجهون إلى مراكش وفاجأوا المرابطين وهم على

(١) - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) - الينقي، أخبار المهدي، ص ٩٠ .

أسوارها، لكن علي ابن يوسف بن تاشفين، تمكن من إلحاق هزيمة بالمهاجمين الموحدين بموقع البحيرة خارج أسوار مراكش في سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م^(١).

على الرغم من وقع الهزيمة في نفوس الموحدين، فقد تقبلها محمد بن تومرت بهدوء القائد الدبلوماسي، وعمل بكل الوسائل على تهدئة روع أصحابه حتى لا يتأثروا بعواقبها، ولكنه إذا كان استطاع أن يخفي مشاعره على المستوى الخارجي، فإنه فشل في ذلك على المستوى الداخلي، حينما أثرت عليه فمات بتأثيرها بعد ثلاثة شهور من وقوعها.

لقد كان موت ابن تومرت حادثاً مؤلماً للموحدين، أضيف إلى هزيمتهم أمام المرابطين بالأمس القريب، لذلك فقد قرر بعض المقربين منه إخفاء موته على الناس، حتى لا يؤثر على استمرار دعوة الموحدين، وبقي ذلك قائماً مسدة ثلاث سنوات كانوا خلالها يوجهون الأعمال العسكرية باسمه^(٢) ونجحت خطة هؤلاء، حيث استتمر حركة الموحدين في نشاطها، وستتجح في السيطرة على رقعة واسعة من المغرب الكبير، الأمر الذي يدل على أن ما خلفه من أفكار ومبادئ، كانت موضوع احترام وتقدير خلفائه على التوالي.

خلفه في قيادة الحركة الموحدية مساعده الأول عبد المؤمن بن علي، الذي ستعلن الدولة الموحدية في فترة حكمه، لذلك فيمكننا أن نعهده مؤسس هذه الدولة في الميدان السياسي والعسكري، بعد أن كان قد أسسها محمد بن تومرت في الميدان الإداري والروحي. وعبد المؤمن بن علي هو من قبيلة كومية، التي تُعد فرعاً هاماً من القبيلة الكبيرة زناتة، وكومية كانت تنعم بالاستقرار في مناطق معينة بالمغرب الأوسط ولاسيما بالمنطقة المحيطة بتلمسان^(٣).

(١) - ابن القطان، المصدر السابق، ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) - البيهقي، أخبار المهدي، ص ٤١ وما بعدها.

(٣) - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ٣٣٩.

كان على عبد المؤمن بن علي أن يتابع مسيرة الصدام مع المرابطين، هذه المسيرة التي تمخضت عن نجاحات كبيرة، تمثلت على الأرض بالسيطرة على المغربين الأقصى والأوسط، وكذلك على المغرب الأدنى وقسم كبير من الأندلس. وقد استهلكت الصدامات مع المرابطين بعد مضي ثمانية أعوام من وفاة محمد بن تومرت، شغل الموحدون خلالها بإعداد قواتهم العسكرية إعداداً قوياً، حتى لا يقعوا في المحذور كما حصل لهم في لقاء مراكش سابق الذكر. وكان بود الموحدين أن يبدأ المرابطون الهجوم، ليكون الصدام في المنطقة الجبلية التي يعرفها الموحدون بدقة، ولرفع معنويات الموحدين قدر الإمكان. وقد اقتصر عمل الموحدين خلال المرحلة الأولى على السيطرة على مناطق الجبال في الأطلس الأعلى والأوسط وفي جبال الريف وفي جنوب تلمسان، وكان المرابطون في حالة متابعة مستمرة للموحدين في هذه المناطق، تجنبوا خلالها أي اصطدام معهم، ذلك لأنهم كانوا ينتظرون أن يقع هذا الصدام عندما ينزل الموحدون من الجبال إلى السهول، التي تسمح لهم بحرية الحركة والتصرف باعتبار أنهم يركزون على قرات الفرسان والخيالة.

في هذه المرحلة كان الوقت يسير لصالح الموحدين ضد المرابطين، ذلك لأن الموحدين كانوا يوسعون رقعة سيطرتهم على المناطق الجبلية الهامة في المغربين الأقصى والأوسط، وهي مناطق كانت بالنسبة لهم ملجأ يؤمن لهم الحماية والأمان في الظروف الصعبة وفي الوقت نفسه كانوا يرتبون قواتهم العسكرية على أساس جديد تستطيع من خلاله مواجهة المرابطين بثقة واطمئنان. وأخيراً تحقق حلم المرابطين بنزول الموحدين إلى المنطقة السهلية الواقعة بين تلمسان ووهران بالمغرب الأوسط، وهناك وقع صدام عسكري كان له تأثيره البعيد في دفع حركة الموحدين قدماً إلى الأمام. ففي هذا الصدام تمكن الموحدون بالتخطيط والصمود من تفويت الفرصة على الفرسان المرابطين، الذين كان

جيش الموحدين يفتقر إلى أمثالهم، فقد ركزوا عليهم من جهة الرماة وحملات الدوارق والسهام والحجارة، فجفلت الخيول وسقطت أرضاً بسبب كثرة الإصابات^(١) ووقعت الهزيمة في صفوف المرابطين، بعد أن تكبدوا خسائر جمة في الرجال والمال، وتقدم الموحدون فسيطروا في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م على مدينة وهران وتلمسان، ثم تابعوا غرباً إلى فاس ومدن شمال المغرب الأقصى، وسيطروا على العاصمة المرابطية مراكش في سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، ويقال أنهم اقتربوا مجازر قتل جماعية بمن اتهموا بالكفر في نظرهم، وهم من المرابطين وأتباعهم، وهذه الأمور إذا كانت قد حصلت، فإنها في نهاية الأمر أعمال مرفوضة برمتها، ذلك لأنها تتأى بمقتربها عن الانتماء إلى الجنس البشري نهائياً، وتتأى بهم عن كل الأعراف والعقائد والقيم والأخلاق، التي يفخر الناس بممارستها والأخذ بها وتطبيقها في حياتهم العامة. وهذا ما أدى إلى ظهور معارضة شديدة ضدهم، تجسدت بعدد من الإنتفاضات والثورات، التي افتقرت إلى الإدارة والتنظيم، فتمكن عبد المؤمن بن علي أن يطوقها في أماكن حدوثها بنجاح كبير.

في غضون ذلك الإنهيار المرابطي أمام ضربات الموحدين بالمغرب الأوسط والأقصى، قامت ثورات واضطرابات ضد المرابطين بالأندلس، كانت عاملاً هاماً في دفع مسيرة الموحدين الناجحة، وكان الذي شجع الأندلسيين على هذه الثورات، هي الممارسات المرابطية التي لم تكن سليمة في الكثير من القضايا والمسائل، فقد اعتمدوا كما ذكرنا في تسيير حكمهم على الفقهاء، والفقهاء كما هو معروف لا يتمتعون بنظر سياسي ثاقب، ذلك لأنهم يبقون ضمن نصوص محددة حفظوها دون أن يخضعوها إلى العقل والتمحيص، وكثيراً ما يستغلونها لتثبيت مكانتهم في البلاط الحكومي، زد على ذلك أنهم يفتخرون إلى الحس

(١) - مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص ١٠٨.

السياسي، الذي يعتمد على المرونة والحركة واستمرار النبض، لذلك فقد كانت تصرفات الحكام المرابطين بالأندلس غير مرتبطة بما كان يجري على أرض الواقع هناك بسبب اعتمادهم على مدرسة الفقهاء القاصرة. فكثر مشاكل المرابطين بالأندلس، مما جعل الناس هناك ينفرون منهم، ذلك لأنهم انساقوا وراء السياسة الهدامة، التي كانت من صنع الفقهاء، هذا بالإضافة إلى انهزامهم أمام الإسبان وفشلهم في وضع حدٍ لاعتداءاتهم المستمرة^(١).

وقد مثلت الانتفاضة ضد المرابطين بالأندلس العديد من طبقات المجتمع، فقد جاءت من قبل فقهاء كانوا بالأمس في خدمتهم، ولكن ضعفهم جعل هؤلاء الفقهاء ينقضون عليهم، مثل ثورة ابن حمدين بقرطبة، وجاءت كذلك من ممثلي تيارات فكرية معينة، مثل ثورة ابن قسي بغرب الأندلس، الذي وجه حملة واسعة من النقد والتعرض للفقهاء في عصر المرابطين، لأنهم استغلوا الدين من أجل الحصول على مكاسب معينة كالأمال أو المنصب^(٢) وقد تطورت ثورة ابن قسي حتى اعترف بها عبد المؤمن بن علي، وقدم لها مساعدة مباشرة، بأن أرسل إليها قوة عسكرية من مراكش في سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م، مكنتها من السيطرة على غرب الأندلس^(٣).

ورغم أن القوة الموحدية تعثرت بالأندلس بسبب كثرة الأعداء والمعارضين من عرب وإسبان، فإن عبد المؤمن بن علي ظل بعيداً عن دعمها ومساعدتها، ذلك لأنه كان في وضع لا يسمح له على الإطلاق بدخول الأندلس أو أن يرسل قوات إضافية أخرى إلى هناك، فالمهمات كانت كثيرة أمامه في المغرب الكبير، فقد كان مشغولاً بالسيطرة على بقية أجزاء المغرب الأوسط مثل

(١) - ابن عذاري، المصنوع السابق، ج ٤، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) - ابن الأثير، الحلة لسيرة، ج ٢، ص ١٩٧ وما بعدها.

(٣) - ابن خلدون، العبر، المقدمة، ص ٣١١.

بجاية، التي سيطر عليها في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٣م ثم أتبعها بقسنطينة وبعض المناطق المجاورة^(٤).

ثم توجه بعد ذلك إلى المغرب الأدنى، ففرض على تجمعات بني زيري وغيرهم، واصطدم مع النورمانديين في البر والبحر، واستطاع أن يحرر مدينة المهدية، التي كانت قد وقعت تحت سيطرتهم في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م، بعد أن عجزت قوات المرابطين عن حمايتها، وكان تحريرها في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، ثم أعقبها تحرير بقية الجزر المجاورة^(١). وبذلك وقع معظم المغرب الكبير في أيدي الموحيين.

كان لهذه النجاحات الباهرة التي أنجزت في عصر عبد المؤمن بن علي، أثرها البالغ في تغيير بعض ما ورثه عن سيده محمد بن تومرت في مجال إدارة الدولة العليا. فعلى الرغم من أنه بقي وفياً لمبادئ سيده وحفظها في كتاب جمعه بنفسه وهو كتاب (أعز ما يطلب) ورغم محاربته للفقهاء المالكيين، الذين يأخذون بالفروع دون الأصول. رغم كل ذلك فإنه شذ عن طريقة سيده في أهم مسألة في حياة الدولة الموحدية، وهي أنه نقل السلطة من أيدي أعضاء المجالس التي كان محمد بن تومرت قد ألفها، وهي مجلس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس العشرين ومجلس السبعين، وحصرها بنفسه وأقربائه لأسباب غير معروفة على وجه الحقيقة. قام بعد ذلك بنقل القبائل العربية من هلال وسليم وغيرها، وهي التي كانت قد دخلت إلى المغرب بمساعدة الفاطميين، قام بتقلها إلى المغرب الأقصى ليكونوا على مقربة منه، كي يستخدمهم ضد معارضيه في أوقات الشدائد^(٢).

(١) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٩٢ وما بعدها.

(٢) - ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٤١ وما بعدها.

ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨ وما بعدها.

(٣) - ابن أبي دینار، المؤنس، ص ١١٧.

وفي خطوة لاحقة أعطى حكم الولايات لأبنائه، واعتمد شيوخ الموحدين مستشارين خصوصيين له ، وكان يقوم بتدريب أبنائه على شؤون الحكم وبخاصة في مجال الإدارة وفي مجال الأمور العسكرية والمعرفية العامسة من خلال مؤسسة من صنعه هي مؤسسة الطلبة. وكان الطلبة في هذه المؤسسة صنفين، الأول ويتألف من أبناء البلدان المغربية المختلفة، وأفضلهم أهل النظر، الذين كانوا يستدعون من مدنهم وبلدانهم لحضور مجلس عبد المؤمن ويسمون بطلبة الحضر والثاني يتألف من كل المهتمين بشؤون العلم من الموحدين، وكانوا يعرفون بطلبة الموحدين، الذين عول عليهم عبد المؤمن وحاول أن يربطهم بشخصه مباشرة عن طريق التربية المبرمجة، التي كانت تشمل العديد من المسائل مثل التعليم على ركوب البحر والخيول وإجادة الرمي والسباحة، هذا بالإضافة إلى معرفة العلوم الدينية وبعض علوم اللغة العربية وبخاصة الأدب، وكان يريد من التركيز على تعليم هؤلاء الطلبة كل هذه الأمور، حتى يجعل شيوخ الموحدين من مصمودة لا يطالبون بأمر الحكم، لأنهم لا يمكن أن يقارنوا بهؤلاء الطلبة من الأهلية والجدارة لإدارة الأعمال المتنوعة في الدولة الموحدية (١).

هذا وقد أمر عبد المؤمن بن علي بإجراء عملية مسح عامة للأراضي بالمغرب الكبير، ونتيجة لهذه العملية الهامة أسقطت كمية من مقدار مساحة المغرب الكبير الإجمالية، قدرت أنها كانت بمقدار الثلث، وربما هي المنطقة غير الصالحة للزراعة من جبال وسباخ وغير ذلك ، وأعفي هذا الجزء من الأرض من الخراج بينما فرض الخراج على المساحة المتبقية من الأرض، ولكن نسبة الخراج التي فرضت كانت كبيرة بلغت ربع الإنتاج (٢)، ولكنها لم تفرض على

(١) - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ٣٤٣. مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ١٢٥ .

(٢) - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٨٨ وما بعدها.

الجميع بالتساوي، بل كانت طبيعية في المناطق التي لم تقاوم الموحدين، وكانت كبيرة في المناطق التي قاومتهم^(٣).

بعد وفاة عبد المؤمن بن علي خلفه ابنه يوسف بن عبد المؤمن، دون أن يصدر عن شيوخ الموحدين أية معارضة ما ضده، ولا بد أن ذلك يعود في المقام الأول، إلى أن هؤلاء الشيوخ كانوا يمتلكون الكثير من الامتيازات والحريات والثروات، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا موضع احترام الجميع وبخاصة الخليفة، لهذا فقد سلموا بمسألة توريث العرش طالما أن الأمر لا يضر بمصالحهم^(١).

أمضى يوسف بن عبد المؤمن معظم سنين حكمه بمعالجة الانتفاضات بالمغرب الكبير والأندلس على حد سواء، لكن انشغاله الأكبر كان بما يحصل بالأندلس من مشاكل لم تنقطع على الإطلاق، فقد عمل على جبهتين، الأولى كانت الوقوف في وجه التوثب الإسباني والبرتغالي وبخاصة دولة قشتالة وليون، والثانية محاولة القضاء على الانتفاضات العربية، التي تمثلت في عصر يوسف بن عبد المؤمن بالمنطقة الشرقية من الأندلس، حيث كان المعارض الهام هو محمد بن مردنيش الذي يسيطر على المنطقة، والذي كان على النوام يهدد وسط الأندلس وجنوبها، ولاسيما مدن قرطبة وغرناطة وما حولها من بلدان^(٢).

على الرغم من صعوبة الواقع الذي كان سائداً في منطقة ابن مردنيش، فإن يوسف بن عبد المؤمن نجح بالتخلص منه بمساعدة ظروف محلية هامة، تجلت بأن معظم مؤيديه السابقين، انفضوا من حوله حينما أعلن تعاونه وتحالفه مع الإسبان، كي يحمي منطقتهم من الوقوع تحت سيطرة الموحدين، وزاد الأمر

(٣) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٤٧.

(١) - الحميري، المصدر السابق، ص ٥٤٠.

(٢) - ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص ٢٥٩ وما بعدها.

تفاقماً حينما اضطر لفرض ضرائب باهضة أثقلت كواهل الناس، فوقفوا ضده حتى مات، وخلفه ابنه الذي لم يتمكن من فعل شيء، فاستسلم ليوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م، فعفا عنه وتزوج أخته المعروفة بالزرقاء المردنيشية أو الزرقاء بنت محمد بن مردنيش، وهي التي فازت بحب الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، الأمر الذي جعله يعطي أهلها وأسرته الكثير من المكاسب والامتيازات والحريات، وكان يضرب المثل بذلك الحب بالأندلس لشدة وصدقته وديمومته^(١).

وإذا كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد نجح في الجبهة الشرقية، فإنه أحقق إخفاقاً عظيماً على الجبهة الإسبانية، فلم ينجح في السيطرة على وبدة، ولم يتمكن من حماية قونقة من الوقوع في أيدي القشتاليين، وحينما حاول أن يحرر شنترين بالبرتغال، أصيب بجروح مؤثرة مات على أثرها في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م^(٢).

خلفه في حكم الموحدين ابنه يعقوب المنصور أبو يوسف، الذي كان على النقيض من والده، ففي حين اتهم والده بعدم الخبرة أو بعدم المعرفة في المسائل العسكرية، كان يعقوب المنصور موفقاً إلى حد كبير في هذه المسائل، إلى درجة جعلت منه صانع مجد الموحدين تقريباً في هذا المجال، وقد ترافق ذلك مع إنجازات علمية وحضارية جعلت عصره عصر القوة والازدهار والذروة في عصر الموحدين.

ساعده على صنع هذا المجد للنولة الموحدية، أنه كان مؤيداً من قبل أشياخ الموحدين وكبارهم، على الرغم من أن والده لم يعينه ولياً للعهد فسي حياته، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن أمر وراثة العرش وانتقاله من

(١) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٥٩. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣٥، وما بعدها.

الخلفاء الموحدين، كان قد أصبح من الأمور الطبيعية المسلم بمشروعيتها في دولة الموحدين.

واجهت يعقوب المنصور صعوبات جمة منذ بداية حكمه، كانت أقسامها تلك التي جاءت من الأندلس، وهي المعارضة الكبيرة التي تمثلت بعائلة بني غانية في شرق الدولة. وقد استطاعت هذه المعارضة أن تقض مضجعه، على الرغم من أنه لم يخل في بذل الجهود المضنية لوضع حد لها^(١) وهنا يجب أن نتوقف قليلاً عند هذه المعارضة، التي مثلتها عائلة بني غانية. يعود أصل بني غانية إلى أخوين من مسوفة، عرفا باسم أمهما على العادة التي كانت شائعة كثيراً في عصر المرابطين، واستخدمهما المرابطون في حكم النواحي بالأندلس، وحينما بدأت الدولة المرابطية بالانهيار، قام الوحيد الباقي منهما بعبور البحر من دانية بشرق الأندلس إلى جزر الباليار المجاورة، وهي ميورقة ومنورقة ويايسة، واستقل بهذه الجزر بنفق على رعيته من وارداتها، وكذلك من أعمال الإغارة على شواطئ البلاد غير العربية واعتراض أساطيلها.

وحينما بدأ الخليفة الموحي بيسط سيطرته على الأندلس في عصر عبد المؤمن بن علي، لم يكن أمر إخضاع بني غانية وارداً في برنامجهم، لأن منطقة شرق الأندلس، كانت بعيدة ومنفصلة، ولكن حينما أتم الخليفة إخضاع الأندلس، دخل مع بني غانية بمفاوضات رضوا بموجبها، أن يدفعوا له جزءاً من الغنائم، التي يحصلون عليها، وكان يأمل أن يكون ذلك مقدمة، لأن يعترفوا بسلطانه وأن يخرجوا من الدعوة العباسية إلى الموحدية، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث حيث ظلوا عند حدود الاتفاق، مما جعله يقوم بمسعى آخر ومات قبل نجاحه.

(١) - انظر عن بني غانية تفاصيل وإليه في بحثنا المنشور بمجلة دراسات تاريخية العددان ٣١ و٣٢، جامعة دمشق، ١٩٨٩.

شجعت وفاة الخليفة الموحي زعيم جزيرة ميورقة علي ابن إسحق ابن غانية على السعي من أجل إقامة دولة له في شمال إفريقية مستغلاً ظروف موت الخليفة، فجهز عدداً من السفن حملت له جيشاً صغيراً نزل في بجاية بعد ثلاثة شهور تقريباً من تولي الخليفة الجديد شؤون الحكم، وتمكن من احتلالها بسرعة، وأرسل قواته إلى مليانة والجزائر وأشير وقلعة بني حماد، فاحتلها بسهولة لعدم وجود قوات موحدية كافية فيها. ورد الموحدون على هذه المباغة بسرعة وخلال شهور قليلة بجيشين وصل أحدهما عن طريق البر، ووصل الآخر عن طريق البحر، وتمكنا من استعادة مدينة بجاية سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م واضطر بنو غانية للهرب شرقاً.

ولم يركن ابن غانية إلى الهزيمة التي لحقت به، بل راح يعمل بجد لاستجلاب القوى المعارضة للموحدين، والتي كانت تنتظر فرصة مناسبة للثورة عليهم فتحالف مع بعض سكان المدن في المغرب الأوسط والمسالين للحماسيين الذين تجمعهم معه رابطة العرق لأنهم صنهاجيون، وأيضاً مع القبائل العربية البدوية، الذين كانوا ككل البدو يضيّقون ذراعاً بالسلطة المركزية ويحاولون التخلص من الخضوع لها. وكان تأكيد هذه القبائل شديداً إلى حد أنها انسحبت معه من المغرب الأوسط إلى المغرب الأدنى حينما انسحب إليه، فقد انضمت إليه القبائل البدوية المقيمة هناك. وهذا التحالف هو الذي وُد المضاعفات الناشئة عن حركة بني غانية، ولا يستبعد أن يكون العامل الأبرز في جعل حركة بني غانية، تكتسب هذه الصفة من الخطورة، وبالتالي تستمر بالمعارضة أكثر من خمسين عاماً، إذ لم تنته إلا والدولة الموحدية على حافة الانهيار.

أدرك يعقوب المنصور خطورة هذه الثورة، لذلك قام بتجهيز جيش سار على رأسه لمحاربة الثائرين، الذين لاحقهم في بلاد الجريد الداخلية، فقد انهزموا أمامه هزيمة منكرة عند بلدة الحامة بالقرب من مدينة قابس سنة

٥٨٣هـ/١١٨٧م ولكي يغير من الأوضاع، التي ساعدت على نجاح حركة بني غانية، فإنه قام بنقل بعض القبائل البدوية العربية إلى مركز الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى، ليبقوا على مقربة من المراقبة الموحدية، هذا بالإضافة إلى الاستفادة منهم في مقاومة الإسبان بالأندلس^(١) ذلك لأنهم على ما يبدو كانوا يعاضدون ثوار بني غانية في بعض أمورهم.

لم يمض وقت قصير على هذه الأحداث، حتى فوجئ يعقوب المنصور بتحركات برتغالية بغرب الأندلس، حينما تمكن البرتغاليون من إقناع الحملة الفرنجية التي كانت في طريقها إلى فلسطين لنجدة الفرنجة هناك، وكانت هذه الحملة تتألف عناصر أوروبية مختلفة من ألما و إنكلز وفرنسيين، أذهلهم أمر عودة بيت المقدس إلى أصحابها العرب في هذه الفترة. وبمساعدة هذه الحملة تمكن البرتغاليون من استعادة مدينة شلب بعد حصار شديد فرض عليها في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م. وفي الوقت نفسه كان القشتاليون ينفذون غارات في المنطقة، أسفرت عن احتلال بعض الحصون.

ولم يكن بمقدور يعقوب المنصور أن يشيح النظر عما يجري بالأندلس، فبادر إلى استعادة مدينة شلب في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، وأدى ذلك إلى خوض معركة كبيرة بعد سنين قليلة ضد حركة الاسترداد الاسبانية، التي كان يقودها ألفونسو الثامن حاكم قشتالة. وقد وقعت هذه المعركة في الأرك إلى الغرب من قلعة بني سعيد CUDAL REAL في سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م. واشترك في هذه المعركة مع الموحدين كل العناصر، التي لم تكن في حالة وئام معهم في السابق، مثل القبائل العربية الهلالية وقبيلة يفرن الزناتية وبني مرين، فقد نسيت هذه القبائل موقفها المناوئ للموحدين، حينما تأكدت من تصميمهم على مواجهة الإسبان.

(١) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦ وما بعدها.

كان النصر من نصيب الموحدين في هذه المعركة، التي أدت إلى وقوع خسائر بشرية ومادية جمة في صفوف الإسبان، وكانت من أكبر الضربات الموجعة لحركة الاسترداد الإسبانية في تاريخها بعد تلك الضربة، التي تلقتها بالزلافة أيام المرابطين قبل مئة واثنتي عشرة سنة.

وحقاً فقد أدت إلى نتائج كبيرة في عمقها وتأثيرها، وربما تفوقت في ذلك على نتائج الزلافة، ذلك لأن يوسف بن تاشفين عاد إلى عاصمته بالمغرب الأقصى بعد الزلافة دون أن يتقدم في الأراضي الإسبانية آنذاك، بينما تقدم يعقوب المنصور بعد معركة الأرك في الأراضي الإسبانية، وسيطر على بعض المواقع الهامة مثل قلعة رباح، ووصل إلى منطقة قريبة من طليطلة^(١).

ساعد نصر الأرك يعقوب المنصور على إجراء تعديلات هامة في صميم حركة الموحدين، وخاصة في ميدان العقيدة، فقد قام بإلغاء مسألة العصمة التي ينفرد فيها الإمام وهي التي عرفت منذ محمد بن تومرت كما مر معنا. كما أمر الناس على الأخذ والقول بالظاهر وإحراق كتب الفروع في محاولة لتذويب المذهب المالكي، الذي كان يعتمد اعتماداً كلياً على كتب الفروع، ووجه الناس للتركيز على دراسة الأصول من حديث وقرآن^(٢).

اشتهرت دولة الموحدين في عصر يعقوب المنصور عند حكام المشرق، إلى درجة أن صلاح الدين الأيوبي أرسل سفارة إلى يعقوب المنصور في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وكان هدف هذه السفارة الحصول على مساعدة عسكرية بحرية ضد الأسطول الفرنجي، الذي كان في حركة شبه دائمة بين الغرب والشرق، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل على الإطلاق، بحجة أن يعقوب المنصور كان بحاجة ماسة لكل قطعة بحرية في أسطوله لكثرة الأخطار، التي كانت تحيط

(١) - الحميري، المصدر السابق، ص ١٢-١٣. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ٢٢٠ وما بعدها.

ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩٣ وما بعدها.

(٢) - رسائل موحديّة، الرسالة ٣٥، ص ٢٢٨.

بالأندلس من كل الجهات. وقد توفي يعقوب المنصور في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م (٣).

ب وفاة يعقوب المنصور الذي كان عصره حافلاً بالمنجزات إلى جانب الصعوبات والمشاكل، بدأت الدولة الموحدية تسير في طريق الضعف والوهن والانهيار، ذلك لأن ابنه محمد الناصر بن المنصور، لم يتمكن على الإطلاق من متابعة مسيرة والده في الإبقاء على عظمة دولة الموحدين وهيبتهما في صفوف الأعداء، الذين نجحوا في توجيه ضربة قاسية للموحدين كان لها تأثيرها البالغ في الوضع العام بشبه الجزيرة الأيبيرية، ولعل السبب في هذا الأمر، أن مجهودات كبيرة صرفها الناصر على قمع حركة بني غانية، التي استغلت وفاة أبيه المنصور، وحاول زعمائها إنجاز مكاسب هامة مستغلين في ذلك صعوبة أوضاعه بالأندلس، وبذلك تكون حركة بني غانية من الحركات، التي أدت إلى تحسين وتطوير وتشجيع حركة الاسترداد ضد إخوانهم الموحدين، الأمر الذي جعلنا أو بالأحرى يحتم علينا اعتبار حركة بني غانية حركة شاذة في تاريخ العرب بالمغرب والأندلس في العصور الوسطى، ذلك لأنها لم تستطع أن ترتقي إلى مرتبة الوطنية، وبخاصة أنها استغلت حراجه أمر الموحدين مع حركة الاسترداد الإسبانية، وحاولت أن تستفيد من ذلك بالسيطرة على مزيد من الأراضي بالمغرب وغيره، لذلك فهي في نهاية الأمر حركة خيانية معادية في كل المقاييس، يجب أن ننظر إليها نظرة ازدراء وصغار.

إن ما فعله الناصر ضد هذه الحركة كان هاماً للغاية، فقد جهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه، وهاجم مواقع هذه الحركة بجزر الباليار، ثم بتونس وفي وقت واحد، وتمكن الموحدون من دخول تونس والهدية وما حولهما في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م (١).

تعلم الخليفة الموحد الناصر درساً جديداً من حركة بني غانية، هو أن هزيمة بني غانية لم تكن نهائية، ولا بد من أن يعودوا إلى المعارضة حينما

(٣) - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(١) - انظر بحثاً سابق الذكر في مجلة دراسات تاريخية العددان ٣١ و ٣٢.

يجدون الفرصة المناسبة لذلك، لذلك فقد أبقى بالمغرب الأدنى مجموعة من الإداريين والعسكريين، كي يتصرفوا بسرعة وحرية عند حدوث أية أخطار تهدد هذه البلاد. وعين لهذه المهمة الجديدة عبد الواحد الحفصي ابن أحد أكبر مشايخ الموحدين الأولين، الذي بقي وفياً لأسرة عبد المؤمن بن علي. وقد سار عبد الواحد الحفصي على طريقة ومبادئ والده بالإخلاص والوفاء والصدق للموحدين، ولكن تعيينه أدى مع مرور الأيام إلى استقلال المغرب الأدنى تحت سلطة الحفصيين حينما سقطت دولة الموحدين.

إن ما جرى بالمغرب الأدنى من أحداث بين الناصر وبني غانية، كان فرصة عظيمة للإسبان من أجل تنظيم صفوفهم وتوحيدها في جبهة واحدة لمهاجمة الأراضي العربية والانتقام لهزيمتهم بالأرك. ولكن الناصر رغم ذلك فإنه لم ينتظر عليهم طويلاً، بل نراه ينتقل على وجه السرعة من مراكش إلى الأندلس، ونجح في السيطرة على قلعة رباح، وبقي الناصر رغم ذلك مقيماً بشعاب جبال سييرامورينا في موقع يدعى العقاب las navasdetolosa . وكان المبادر بالهجوم هم الإسبان، الذين تألفوا من اتحاد كبير من القشتاليين والأراغونيين، واستطاعوا أن يباغتوا جيش الناصر من خلال تسربهم من ثغرة غير محروسة، ولم يطل اللقاء بين الطرفين، حتى لاحت الهزيمة على جيش الناصر في معركة دعيت معركة العقاب في سنة ١٢١٢/٦٠٩م^(١).

كان النصر بالنسبة للإسبان فاتحة عهد جديد، حمل لهم الكثير من المكاسب وحقق لهم مزيداً من الأحلام، فقد انتقموا لهزيمتهم في الأرك بالأمس القريب، وأوقعوا بالجيش العربي أفدح الخسائر في النفوس والمعدات إلى درجة أن معركة العقاب هذه ، كانت كارثة حقيقية، ذلك لأنها وضعت الدولة الموحدية في موقع قريب من النهاية والانهيار.

وقد قيل إن الخليفة الناصر مات بعد ذلك بسنة واحدة بمراكش على الرغم من صغر سنه، وبقيت أسباب موته لغزاً فمنهم من يقول أنه مات متأثرة بوقع الهزيمة، ومنهم من يقول إنه مات مسموماً إلى غير ذلك من أقوال.

(١) - الحميري، المصدر السابق، ص ١٣٨ .

دور الموحدين في المغرب على صعيد توطيد العلاقة بالمشرق

تابع الموحدون مسيرة التعريب التي كانت قد بدأت منذ الفتح العربي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وقد ظهر ذلك جلياً باصطباح الناس هناك بصبغة الثقافة العربية دون غيرها، وزادوا في ذلك أنهم وسعوا رقعة انتشار القبائل العربية، التي جاءت إلى المغرب الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بأن نقلوا قسماً منها إلى المغرب الأقصى والأندلس^(١).

وحافظوا من جهة أخرى على احترام النظرية، التي تقول بوجود ضرورة تحقيق وحدة الجناح الشرقي مع الجناح الغربي للوطن العربي الكبير، وقد ظهر ذلك واضحاً في مبادئ دعوة محمد بن تومرت، الذي كان يروج أن رسالته مستمرة حتى قتال الدجال بفلسطين، وكذلك ظهر ذلك في جزء من برنامج الخليفة يعقوب المنصور، الذي كان يحلم في الذهاب إلى مصر وغيرها من بلدان المشرق لوضح حد لما يجري فيها من أمور منكرة على حد زعمه.

كما استمرت في سيرها عملية استمرار سيطرة الثقافة العربية الواحدة لجناحي الدولة العربية متمثلة في المشرق والمغرب بانتقال التيارات من بلد إلى آخر، ولو أن حركة الموحدين تعدّ تجديداً من ناحية عدم اقتصرها على تغليب تيار واحد، بل إن صاحبها المهدي بن تومرت مزج تيارات فكرية وفقهية ودينية وسياسية في عقيدته، التي يرى فيها عنصر التشيع إلى جانب الأشعرية الغزالية والمذهب الفقهي الظاهري.

أما الأمر الجديد عند الموحدين بصورة ملموسة، هو تلك الثنائية التي تصل إلى حد التناقض في الفن والفكر. فبينما نراهم متحجرين على صعيد الفكر

(١) - عبد الواحد المرابطي، المصدر السابق، ص ٢٢٤ وما بعدها.

والفن إلى حد عَد من لا يؤمن بالتوحيد على مذهبهم غير مسلم، وإلى حد ظلم أهل الذمة في بعض الأحيان، وإلى حذف عمل العقل في الميدان الفقهي بقولهم بعدم اللجوء إلى الرأي والقياس والاكتفاء بظاهر النصوص، ذلك لأن القياس عقلي والتشريع إلهي نرى المهدي بن تومرت من جانب آخر في جانب العقيدة، يستعمل الأدلة العقلية، ولو أنه يقول إن للعقل حد يقف عنده لا يتعداه.

لذلك فقد ازدهرت في أيام الموحدين جميع الفروع، التي كانت ممقوتة في السابق مثل الفلسفة، التي ازدهرت ازدهاراً ملموساً بأن ظهر في مجالها نجوم عمت فائدتهم ديار العرب والإسلام قاطبة، وانتقلت منها إلى أوربا لتستمر فيها قرون متعددة من الزمن، مثل ابن الطفيل وابن رشد وغيرهما. كما شغل الموحدون دوراً في فتح الأبواب الموصدة على مصاريحها أمام التأثيرات الأندلسية، لا لتنتشر في المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط فحسب، بل لتنتشر في المغرب كله حتى أقصى الشرق منه بعد أن أصبح خاضعاً لهم.

نواحي العمران والفكر في عصر الموحدين

قامت في المغرب والأندلس التي حكم فيها الموحدون نهضة حضارية وعلمية على جانب عظيم من الأهمية، ساعد على ذلك في المقام الأول الاستقرار السياسي في هذا العصر وبخاصة في البداية وقبل النهاية بقليل، كذلك تطور الاقتصاد بشكل عام، فكانت الواردات إلى الخزينة العامة كبيرة جداً، فقد ازدهرت الزراعة وبقيت التجارة ولاسيما تجارة الذهب رائجة في ظل توحيد المغرب والأندلس.

كما أن الذي ساعد على ذلك أيضاً، هو تعدد مراكز الثقافة في كل من المغرب والأندلس، وكانت مدينة قرطبة من أكبر هذه المراكز ازدهاراً وتقدماً، ثم جاءت بعدها مدينة إشبيلية، التي شهدت حركة فكرية رائعة منذ أن دخلها

الموحدون، وتبعتها مدن أخرى كغرناطة وسرقسطة وفاس ومراكش وأغمسات
وسبتة وغيرها من المدن.

فقد تجلت النواحي العمرانية في هذه الفترة في عدد من المنشآت
المختلفة، التي بدأت تظهر منذ أيام عبد المؤمن بن علي، لكنها تساءلت بسالفن
الأندلسي المعماري والضخامة، وهو أمر طبيعي لأن المهندسين الأندلسيين هم
الذين كانوا يشرفون على المنشآت العمرانية الموحدية، مما جعل التأثير الأندلسي
يشمل كل شمال إفريقية كونها كانت خاضعة للموحدين. تعددت المنشآت
العمرانية في عصر الموحدين، هذه المنشآت التي ما زال بعضها قائماً حتى
يومنا هذا. وتأتي في طليعتها الأعمال العمرانية في مدينة الرباط، التي بدأت منذ
أيام عبد المؤمن بن علي وتابعها ابنه يوسف بن عبد المؤمن، وبعد وفاته تابع
ابنه يعقوب المنصور بناء أسوارها. ففي مدينة الرباط شرع ببناء مسجد ضخم
يقول عنه المراكشي، أنه لا يعلم في مساجد العرب أكبر منه^(١) وفي الحقيقة يبدو
اليوم وكأنه أقيم ليتسع إلى أعداد هائلة من المصلين وقد توفي قبل إتمامه، فتوقف
العمل به، ولا زال قائماً من بقاياها ثلاثمائة من الأعمدة ومائة دعامة.

ومن البقايا المعروفة اليوم منارة حسان، وميزتها البارزة ليست في مقدار
ارتفاعها بقدر ما هي في طريقة الصعود إلى أعلاها بواسطة سسطوح مائتة لا
بواسطة نرج، مما يجعل ثقل مواد بنائها سهلاً، حيث يمكن نقله على ظهور
الدواب^(٢).

ويعود الاهتمام بالبناء في هذه المدينة، لا كونها عاصمة أو مقراً، بل
لأنها مركز حشد للقوات سواء أكانت المتوجهة منها إلى الأندلس أم إلى ولاية
إفريقية، لذلك أعطي الاهتمام بها لتسيير الجيوش، وكان المعبر على النهر من

(١) - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ٢٦٦.

(٢) - الأخيرة السفية في تاريخ الدولة المرينية، ص ٦٢.

مراكش العاصمة وإليها فوق جسر، لكنه يغطي بالماء وقست المد، وتجاوز الموحدون هذه المعضلة ببناء قنطرة مركبة^(١).

وكان من البديهي أن يحظى البناء في العاصمة مراكش بجزء كبير من الاهتمام، فكان أول عمل نفذه الموحدون بها، أن قاموا ببناء قصور لهم ومسجد خاص لعدم رغبتهم في الصلاة بمسجد المرابطين. ففي عهد يعقوب المنصور بنيت شبه مدينة ضمنت جميع بلاطه وخدماته الإدارية وسميت القصبة. كما بنى بيمارستاناً كبيراً، كان فريداً من نوعه في ذلك الوقت، لإتقان بنائه ونفاضة فرشته وجمال حدائقه وجودة الخدمات المقدمة فيه للمرضى من إطعام وإكساء وأدوية وعناية فائقة^(٢).

وكانت مدينة إشبيلية الأندلسية موضع اهتمام الموحدون في ميدان البناء والتعمير. واستهل ذلك أبو يعقوب يوسف في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م، حينما أعطى أوامره لبناء قنطرة على واديه، وبناء مدينة ملكية له خارج أسوار المدينة سميت (قصر البحيرة) وضمت قصوراً متعددة للأمراء، إضافة إلى مساحات واسعة من الأراضي، خصصت لزراع الغراس فيها من الفواكه والزيتون، التي جلبت من المناطق المجاورة، ثم قام المهندسون بإصلاح قناة رومانية، تحمل المياه إليها من جهات قلعة جابر، ثم أكمل مد القناة داخل إشبيلية من أجل أن يشرب الناس^(٣).

كما أمر ببناء مسجد ليصلي فيه الموحدون، بعدما تكاثرت أعدادهم فلم يعد المسجد الصغير، الذي اعتادوا على الصلاة به بعد أن دخلوا إشبيلية يتسع لهم. وبدئ ببناء سور ومنارة المسجد، لكن أبا يعقوب مات آنذاك، واستكمل بناء

(١) - الحميري، الترويض المعطار، ص ٣١٨-٣١٩.

(٢) - المراكشي، المعجب، ص ٢٨٧.

(٣) - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٦١ وما بعدها.

المنارة في عهد خلفه يعقوب المنصور أبو يوسف، وتم صنعها بغير أدراج، إنما يصعد إليها في طريق للناس والدواب^(١).

وقد اشتهر الموحدون بناحية هامة جداً، هي اهتمامهم الشديد بمسألة إسالة المياه إلى المدن والحوضر، مثال ذلك مدينة مراكش وإشبيلية، التي كان علي بن يوسف بن تاشفين، قد بدأ في جلب المياه إليها من عين تبعد عنها بعضة أميال، وأكمل هذا المشروع فيما بعد عبد المؤمن بن علي الموحي كما قاموا بمحاولة من هذا القبيل بالنمسية لمدينة سبتة، التي جُرت إليها المياه من قرية بليونش، التي تبعد عنها ستة أميال في قناة تحث الأرض على حسب ما فعله الأوائل في قناة قرطاجة، وشرع في عمل ذلك ثم اقتصر عليه^(٢).

بصورة عامة امتاز المهندسون المغاربة بمقدرة فائقة. في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة، وأن الذي يطلع ما ورد بخصوص إيصال الماء إلى الرباط من عيون غبولة^(٣) التي تبعد عنها نحو عشرين كيلو متراً. وفي عصر الموحدين اشتهر عدد من المهندسين المعماريين، وكانت شهرتهم من خلال ما أنجزوه من عمائر وقصور ومساجد، نذكر منهم المهندس محمد بن المعلم، الذي قام بذكره صاحب كتاب (المن بالإمامة) على أنه هو الذي قام بعمارة قصور الموحدين في مدينة إشبيلية. ويبدو أن عمارته لهذه القصور لم تكن موفقة، وهذا ما أثار عليه النقد في كثير من الأحيان^(٤). ومنهم الحاج يعيش المالقي، الذي كان من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين. وقد كانوا يلجأون إليه في كل المشاريع الهامة، فهو الذي

(١) - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٨١ وما بعدها.

(٢) - الحميري، الأروض المعطار، ص ٥٤٠. أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥٦.

(٣) - تقع عيون غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بُعد تسعة عشر كيلو متراً منها، وكان تسريب الماء منها إلى الرباط سنة ٥٤٥هـ.

(٤) - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ج ٢، ص ٤٦٤.

صنع بأمر من عبد المؤمن بن علي الموحدي بمدينة مراكش مقصورة المسجد الجامع، التي حُيِّر وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية، وبخاصة منهم الذين يعنون بالنهضة الميكانيكية على ذلك العهد، فلقد صممت على أساس حركات هندسية، تُرفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله، وهو الذي قام سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م في إشبيلية بعملية تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية وتوصيله إلى داخل إشبيلية من قلعة جابر^(١). كما قام ببناء خزان للماء داخل المدينة، حيث كان الماء يُوزع منه إلى كافة أحياء المدينة^(٢).

وقد قام هذا المهندس المبدع بصنع رحي في جبل طارق لطحن الأقوات من قمح وشعير وغير ذلك وهذه الرحي تعمل على الريح، وبقيت تعمل هكذا طوال إقامته بجبل طارق، ولما عاد إلى مراكش تعطلت لعدم وجود خبير يتمكن من صيانتها وتشغيلها^(٣).

وهذا المهندس أيضاً هو الذي أنشأ محبساً (مستودعاً) للماء في وسط مدينة إشبيلية، بعد أن انتهى من عملية إيصال الماء إلى قصور البحيرة بإشبيلية بعد أن تم بناؤها في سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م. كما استعان به الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي لتخطيط وبناء الحصن، الذي قرر بناؤه على أثر دخول الموحدين الأندلس سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م في جبل الفتح. وربما يعود إليه إنجاز تلك القنطرة على نهر الوادي الكبير سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وذلك ليتمكن الناس من العبور إلى المناطق المجاورة، ولا سيما منطقة الشرف التي تقع إلى الشمال الغربي منها، وهي منطقة غنية بزرعتها^(٤).

(١) - قلعة جابر إلى الجنوب من إشبيلية على مقربة من قرمونة.

(٢) - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٣) - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢.

(٤) - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦١.

وعاصره المهندس أحمد بن باسة، الذي يُعد من أبرز الخبراء الذين اعتمدتهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى. وقد استفادوا من خبرته عند صدور الأمر ببناء القصور الملكية بإشبيلية. وكان شيخ العرفاء (المهندسون) في زمانه، وهو الذي قام بتنفيذ جامع إشبيلية الأعظم، وهو الذي أشرف على ترميم وتجديد القصور والمساجد وبقية منشآت الدولة بقرطبة وحينما بدأ الموحدون ببناء صومعة المسجد بإشبيلية، ظهر في مكان أساسها ماء غزير، فقام بردمها بالأحجار والكلس (الجير) ، وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور، وهو ما يشبه أعمال الهندسة في الوقت الحاضر، حيث يقوم المهندسون في هذه الحالة بردم المكان بالبيتون المسلح . وما تزال أسرة هذا المهندس معروفة إلى اليوم^(١).

أما بخصوص العلوم التي ازدهرت في هذا العصر فقد كانت كثيرة جداً بمعنى آخر أنها شملت معظم أنواع العلوم النظرية والتطبيقية.

ففي ميدان العلوم التطبيقية كانت علوم الطب والصيدلة من أحسن العلوم التي تطورت وازدهرت، ساعد على ذلك أن حكام الموحدين كانوا أكثر واقعية من غيرهم ولاسيما المرابطون، من حيث اعتناؤهم بالعلوم كافة.

ظهر في هذا العصر أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، الذي توفي في مراكش سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م، ونقل جثمانه إلى مدينة إشبيلية حيث دفن في مقبرة بني زهر . وقد كان جراحاً ماهراً، وكان يرى أنه لا ينبغي للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية، فسبق بذلك إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الصيدلة وعن الطب الباطني، وصرف همه كله إلى الطب الباطني، فألف فيه كتاب الاقتصاد، وهو دراسة للطب بشكل عام. وألف كتاب (التيسير) الذي تتجلى فيه شخصيته بكل وضوح. ويُعد خير ما ألف العرب في الطب

(١) - ابن صلبغ الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٠ .

العملي، فهو يأخذ فيه ما تؤدي إليه الملاحظة المباشرة^(١). وفي الصيدلة كان معظم الأطباء يعرفون الصيدلة، أي أنهم كانوا على خبرة ومعرفة بتركيب الأدوية. لكن أشهر الصيادلة الأندلسيين كان ابن البيطار، الذي سنتحدث عنه في سياق حديثنا عن علماء المغرب والأندلس الذين هاجروا إلى المشرق في هذا العصر. إضافة إلى الطب والصيدلة، فقد اشتهر المغاربة والأندلسيون في هذا العصر بالعلوم الزراعية، التي كانت قد بلغت القمة قبل هذا العصر الأمر الذي ساعد على ظهور عدد من العلماء في عصر الموحدين، الذين كان من أهمهم يحيى بن العوام الإشبيلي، الذي ألف كتابه المطول (الفلاحة) في خمسة وثلاثين باباً. وهو عبارة عن جمع مطول لما وضعه القدامى من يونان ولاتين، إضافة لما توصل إليه أسلافه الأندلسيون. لكنه لم يخل أيضاً من التجربة الشخصية للمؤلف، التي يضعها عادة في آخر كل باب ويحددها بقوله: وهذه لي. وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة لدى المغاربة والأندلسيين المتأخرين، إلى حد أن المفكر العربي ابن خلدون لم يجد عند حديثه عن الفلاحة في المقدمة، من يستحق الذكر من علماء الأندلس في ميدان الفلاحة والنبات غير ابن العوام هذا^(٢). كذلك لقي الاهتمام نفسه لدى المستشرقين، لأن مؤلفه تُرجم إلى لغاتهم في وقت مبكر وبخاصة إلى الإسبانية والفرنسية.

إلى جانب ذلك فقد كانت الهندسة من العلوم المزدهرة في عصر الموحدين، مما ساعد على القيام بتنفيذ مشاريع عمرانية كبيرة كما ذكرنا بالتفصيل في سياق الحديث عن نواحي العمران والفكر، وبخاصة في مجال هندسة المشاريع المائية وهندسة المساجد والقصور وما إلى ذلك. ويمكن أن نضيف إلى هذا معلومات نراها هامة في مجال هندسة المياه بالمغرب. ففي هذا

(١) - تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٦٦ وما بعدها

(٢) - انظر مقدمة ابن خلدون.

العصر امتاز المهندسون المغاربة بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة، وأن الذي يطالع ما ورد بخصوص إيصال الماء إلى مدينة الرباط من عيون غبولة، التي تبعد عنها نحواً من تسعة عشر كيلو متراً وجلب الماء من قرية بليونش على سبتة، وحينما تقرر جلب الماء لميضأة جامع القرويين من مدينة فاس أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ليشهد بما للمهندسين المغاربة من باع في هذا الصدد^(١).

أما العلوم النظرية فقد كانت أكثر نشاطاً من سابقتها، وهي سمة لا تقتصر على العصر الموحد فحسب، بل هي سمة عامة تغلب على الحياة العربية الإسلامية في العصور الوسطى. ولعل أهم العلوم التي ازدهرت في هذا العصر هي الفلسفة العقلانية التي اعتمدت على المنهج التجريبي مبتعدة بذلك عن الغيبيات التي لا تمت بصلة إلى واقع الحياة. وقد تمثلت هذه الفلسفة المتقدمة بعدد من العلماء العرب، كابن طفيل المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٦م الذي يعد أحد ثلاثة فلاسفة أندلسيين (ابن باجة وابن طفيل وابن رشد). فابن طفيل لم يكن صوفياً ولا زاهداً متسكاً ولا داعياً لفكرة معينة يريد أن يشد انتباه الناس إليها. ولا هو رجل متزمت ولا هو رجل جاحد أو ملحد ثائر على معتقداته، بل هو عالم نظري يكتب للخاصة دون العامة، ويبحث بإخلاص عن التوفيق بين العقل والإيمان. ويعتقد جازماً أن العقل وحده والعلم والبدية والحس العقلي هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

والكتاب الوحيد الذي نعرفه له هو كتاب (حي بن يقظان) وهو عمل فلسفي وأدبي وديني وتربوي ونفسي في وقت واحد. ويذكر فيه أنه عن طريق التأمل والزهد والملاحظة والحس العقلي، يصل الإنسان إلى معرفة وجود الله. وابن طفيل يفضل الإنسان الذي يصل إلى الاعتقاد عن طريق العقل على المؤمن

(١) - ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، ج ٢، ص ٤٤٨ .

عن طريق التلقين. وأن الأخلاق الدينية عنده هي حرية التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة وهو يدعو في هذا الكتاب إلى الحب والخير والأصالة والجمال والإيمان بالله العظيم^(١).

وقد تفوق على ابن طفيل في هذا المضمار العالم العربي المتفوق ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م. وهو أكبر فلاسفة العصور الوسطى بإطلاق. وهو تلميذ ابن طفيل. وقد وصف بأنه أكبر شارح لفلسفة أرسطو، وبكفي ابن رشد فخراً أنه تجرأ على إطلاق حرية الفكر لنفسه ونادى بها للجميع، على الرغم من وجوده في عصر كان مثل هذا الفكر يجلب لصاحبه الذلة والمهانة والتحقير، وقد عانى من ذلك كثيراً لكنه مضى على طريقته الرائعة، فأعلن عن آرائه بصراحة وقوة، حتى عده الأوروبيون مثلاً خالداً على حرية الفكر. وقد عبر عن أفكار أرسطو تعبيراً صادقاً بإعلانه أن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث وقال، يجب على المسرء أن لا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا.

وتعرض للفلسفة الخلقية والاجتماعية، فأعلن كرهه للظلم والاستبداد ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهما في الكم ولشدة ما تأثر به الأوروبيون قالوا عنه، أنه ينتسب إلى أوربة والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى المشرق والفكر العربي الإسلامي. وبذلك أقدم الأوروبيون على دراسة فلسفة ابن رشد ورحبوا بكتبه ترحيباً كبيراً، فأسهمت بإخراجهم من العصور المظلمة. وقد أثرت فلسفة ابن رشد في الأوروبيين إلى حد أن كثيراً منهم، خرجوا على تعاليم الكنيسة وتمسكوا بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة، التي نادى بها ابن رشد^(٢).

(١) - عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٢٩٠. جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٥٢٧.

(٢) - ابن رشد، كتاب الكليات، ص ١١-١٧.

جاء بعد الفلاسفة من حيث الأهمية الاهتمام بأعمال الرحلة من المغرب والأندلس من قبل المهتمين بالجغرافية على مختلف أشكالها، وذلك استمراراً لما حدث في عصر المرابطين. فكان من هؤلاء الجغرافيين الرحالة ابن جبير الأندلسي، الذي قام برحلته على أثر شيوع خبر تحرير بيت المقدس، وكان انطلاقه من مدينة غرناطة سنة ٥٨٥هـ/ ١١٩٠م، وزار بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز. وقد سجل كل شيء عن مشاهداته في هذه البلاد، ولاسيما الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمنشآت العمرانية والعلمية. وفي بعض الأحيان كان يتحدث عن الأحوال السياسية إلى غير ذلك. لذلك جاءت هذه الرحلة موسوعة مصغرة عن أحوال المشرق العربي، اشتملت على جميع مناحي الحياة، وكانت فائدتها عظيمة في العصور الوسطى وما زالت هكذا حتى الآن^(١).

تلا ابن جبير في هذا الميدان كل من علي بن سعيد المغربي المتوفى سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، الذي قام برحلته إلى المشرق وهو ابن تسعة وعشرين سنة فزار مصر وتوقف بها ردهاً من الزمن، وفيها التقى بالمؤرخ الحلبي ابن العديم، الذي اصططحبه إلى مدينة حلب^(٢) والرحالة العبدري صاحب الرحلة المغربية، التي تمحورت بشكل خاص على الحياة العلمية في فلسطين ومصر والحجاز^(٣).

إلى جانب أعمال الرحلة اشتهرت في هذا العصر بعض المؤلفات التاريخية، التي ما زالت تحظى بالاهتمام حتى اليوم، منها كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م وهو كتاب تراجم جعله نيلاً على تاريخ علماء الأندلس لابن الفرسي، رتبّه على طريقة حروف المعجم^(٤). وكتاب (بخية الملتمس) لأحمد بن يحيى الضبي المتوفى سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م وهو كتاب

(١) - انظر رحلة ابن جبير ص ١٣ وما بعدها.

(٢) - للمقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٣) - المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٧٢ وما بعدها.

(٤) - ابن بشكوال، الصلة ج ١، ص ١ وما بعدها.

تراجم مؤلف ومرتب على طريقة حروف المعجم، وذكر فيه المشاهد من أهل العلم والفضل، الذين عاشوا بالأندلس والذين دخلوها أو خرجوا منها. وكتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، هو من الكتب التي أرخت للمغرب والأندلس حتى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م. ومعلومات هذا الكتاب تُعد وثائق أصلية، ذلك لأن عبد الواحد المراكشي هو من الذين شاركوا عن قرب وخبروا أحداث البلاط الموحيدي^(١).

وكتاب (الكلمة لكتاب الصلاة) لمحمد بن عبد الله المعروف بابن الأبرار المتوفى قتلًا سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. وهو كتاب تراجم للعلماء الأندلسيين وغيرهم من الذين لهم صلة بالأندلس، غطى فيه رجال القرن السادس وثلاثاً من القرن السابع الهجري وهو يعد مكملاً لابن الفرضي وابن بشكوال، الأمر الذي يظهر جلياً في تسميته، وهو مرتب على حروف المعجم، بدأه (بأحمد) تبركاً بالرسول الكريم الذي يسمى أحياناً بهذا الاسم. وله كتاب آخر هو كتاب (الحلة السيرة) الذي يترجم فيه للمشاهير من السياسيين والعلماء والأدباء الأندلسيين من القرن الأول حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولا يتبع فيه نظاماً معيناً. وكتاب (المن بالإمامة على المستضعفين) لابن صاحب الصلاة، الذي يوجد الجزء الثاني منه، ويبدأ بأخبار ثورة محمد بن سعيد بن مردنيش على الموحيدين من مرسية وشرق الأندلس من سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م وينتهي من سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وأسلوب ابن صاحب الصلاة يتميز بالرشاقة والجزالة. وقد أجمع كل الذين كتبوا عنه على أن كتابه هذا يُعد من أحسن ما كتب عن تاريخ المرابطين والموحيدين^(٢).

(١) - انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٢.

(٢) - شوقي ضيف، الفن ومذاهب من الشعر العربي، طبعة بيروت، مكتبة الأندلس، ١٩٥٦، ص ٤١٤.

وفي مجال الأدب وعلوم اللغة العربية، ظهر في هذا العصر جملة من المهتمين طارت شهرتهم في المغرب والأندلس، وخاصةً حينما تصدوا لتصوير الحالة المأساوية المحزنة التي ألمت في كثير من المناطق الأندلسية، حينما اضطلع سلطان العرب المسلمين فيها اضمحلالاً واضحاً في عصر الموحدين، وأصبح اعتماد الأندلسيين على المعونات المغربية، وكان من نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى الأندلسيين نظرة استصغار واستضعاف، فسائبرى الأدباء الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم، ورسالة أبي الوليد الشقندي إن هي إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين^(١) وكان من حسن حظ الشعراء والأدباء في المغرب والأندلس، أن حكام الموحدين كانوا يحبون الجلوس للاستماع إلى القصائد الشعرية المختلفة، نذكر منهم يعقوب المنصور أنه لما عاد من معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ورد عليه الشعراء من كل صوب يهنئونه، فلم يتمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كان يختص منها بالإنشاد لبعض الأبيات وخاصةً الأولى منها^(٢). وممن اشتهر أمره من شعراء هذا العصر وتسامى نجمه في بلاط الموحدين، أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي المتوفى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، وهو من تلامذة ابن خفاجة. وكان يمتاز بخلق سمح وجميل وذهن حاضر، وكان يميل إلى الدعة والراحة ويبتعد عن العمل بشؤون الدولة. وكان مولعاً بحفصة بنت الحاج الشاعرة الغرناطية الملقبة بالركونية وهي نسبة أبيها وكانت تشغل في عصر الموحدين مكانة ولادة في قرطبة في عصر دولة بني جهور، وكان ولعه بها سبب موته^(٣).

(١) - تاريخ الأندلس ١٩٥٦، ص ٤١٤.

(٢) - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٤١٠.

(٣) - تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٢٧.

كما اشتهر أبو بحر صفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٦١هـ / ١٢٠٢م صاحب (زاد المسافرين) فقد كان شاعراً محسناً.

وكذلك كان أبو البقاء الرندي، الذي اشتهر بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرناندو الثالث. وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس، وبلغ من إعجابهم بها أن أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى كان قد احتلها الإسبان. من أحسن أبيات هذه القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يعر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءت أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شأن
أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان؟^(١)
وأهم أولئك الأدباء جميعاً أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبرار
القضاعي، فقد وصل إلينا من شعره أبيات رقيقة في النسب، وقصيدة ذاتعة
النصيت القاها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص، وكان قد قصده في سفارة
أرسلها الأمير الموحد صاحب بلنسية في ذلك الحين، وكان الإسبان قد ألحوا
في حصارها .

قال فيها :

أدرك بخيلك خيسل الله أندلساً إن السبيل إلى منجائها درسا
وهب لها من غزير النصر ما التمس فلم يزل منك عز النصر ملتصاً
وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقته البلوى صباح مساء^(٢)

(١) - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٣٢ .

(٢) - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ أدب العرب، ج ٣، طبعة القاهرة ، ١٩٤٠، ص ٩٠ .

الإدارة في عصر الموحدين:

بقيت المناصب الإدارية التي كانت معروفة في عصر المرابطين هي نفسها في عصر الموحدين، باستثناء بعض الوظائف المستحدثة إضافة إلى بعض التطورات، التي شملت بعض الوظائف وخاصة على منصب القضاء.

فأما الوظائف الجديدة في هذا العصر، فقد كانت قليلة جداً لعل من أهمها وظيفة الأشغال، التي كانت من الوظائف الرفيعة في الدولة الموحدية. وقد اعتمدها الحفصيون وغيرهم بعد سقوط دولة الموحدين. ومهمة صاحب هذه الوظيفة كما ذكر ابن خلدون، الانفراد بولاية العمال وعزلهم ومحتسبتهم على أمور الجباية العامة^(١).

بقي أن نتابع تلك التطورات، التي ظهرت في ميدان القضاء في هذا العصر، وهي تطورات غير جذرية، وبقيت في الحدود الطبيعية العادية، ومع ذلك فهي تطورات إيجابية وهامة لا بد من التوقف عندها. من ذلك أن بعض القضاة كان يفرض عقوبات لا تعتمد على شرع ولا على عرف إنساني، فكان الحكام يقومون بعزل هؤلاء القضاة. فقد استغل القاضي ابن دحية مسألة كراهية الموحدين للغناء والموسيقى، فحكم على شخص ضبط وهو يستخدم زمراً، بأن قام بشق فمه وتثويبه وجهه، واستأصل مذاكير شخص آخر، مع أنه لا يوجد نص قرآني أو حديث نبوي، يخوله فعل أو فرض هذه العقوبات البشعة. ولما سمع الخليفة المنصور الموحدي بهذه الأحكام، أمر بخلع القاضي ابن دحية وكان إذ ذاك على قضاء دانية في شرق الأندلس، وقد جاء هذا الحكم في وقت كان الحكام الموحدون، قد بدأوا يتسامحون مع المغنين والموسيقيين بعد ملاحقة قاسية منذ بداية حكمهم^(٢).

(١) - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ٨٠.

(٢) - ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة أولى للخرطوم، ١٩٥٤، ص (و).

وقد رأى بعض القضاة عدم صحة أي عقد من العقود ما لم يشهد بصحبته أربعة من الشهود العدول، وكان القاضي في بعض الأحيان هو الذي ينتقي الشهود. وفي الوقت نفسه كان قضاة آخرون يرون أنه لا ضرورة لتقديم الشهود إلا عند الحاجة^(١).

وبصورة عامة فقد بقي القضاء محافظاً على احترامه وقدره ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين أو قبل ذلك بقليل، ودليل ذلك أن عظماء وكبار الحكام، كانوا يقفون بخشوع واحترام أمام إرادة القضاة من خلال أحكامهم الرائدة، مثال هؤلاء الحكام، الخليفة المنصور الموحدي، الذي كان قد زوج شقيقته لأبي محمد بن عبد الواحد الحفصي، وفي وقت من الأوقات جرت بينهما منافرة جاءت على أثرها إلى بيت أخيها الخليفة المذكور وبعد أمد قصير لجأ زوجها إلى القاضي، الذي قام بإبلاغ الخليفة ضرورة أن يعيدها إلى زوجها، وتكرر ذلك للمرة الثالثة، التي اضطر خلالها الخليفة من إعادة شقيقته إلى زوجها.

تدهور دولة الموحدين وسقوطها

بدأت هذه الدولة تسير على طريق السقوط منذ هزيمة العقاب سابقة الذكر، ذلك أنه لم تقم للموحدين منذ ذلك الحين قائمة، ولم يتمكن الخلفاء الذين جاؤا بعد الناصر المهزوم بالعقاب من إيقاف عوامل السقوط، التي كانت تتحرك بسرعة فائقة، وهي عوامل داخلية وخارجية على حد سواء، فعلى الصعيد الداخلي كانت دولة الموحدين تعاني من مشكلة عدم وقوف الموحدين من الخلفاء وقفة صادقة، ذلك لأن الخلفاء الموحدين منذ وفاة محمد بن تومرت، كانوا قد حصروا كل السلطات بأنفسهم وبأقربائهم، وظلوا هكذا حتى النهاية. وفي الميدان الخارجي كانت قوى حركة الاسترداد الإسبانية في صعود وتطور مستمرين،

(١) - المقرئ، نفع الطيب، ج ٢، ص ٦١٦-٦١٧.

وتجسد ذلك على أرض الواقع بوقوع بعض الأراضي التي يسيطر عليها تحت سيطرة قوى هذه الحركة. ورافق ذلك على أرض المغرب الكبير بتحريك بني مرين الزناتيين باتجاه وسط وشمال المغرب الأقصى، حيث أحكموا سيطرتهم على هذه المناطق، ولم يتمكن الموحدون من استرجاعها على الإطلاق^(١).

يضاف إلى ذلك الوضع اليائس، أن خلافات شديدة حدثت بصورة مستمرة بين الحكام الموحيدين في الفترة الأخيرة، الأمر الذي جعل الاستقرار ضرباً من الخيال، ووصل الأمر ببعض هؤلاء الحكام إلى طلب معونة أجنبية ضد أشقائه وأقربائه في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى وقعت اشتباكات حربية دامية بينهم. وبلغ الأمر بأحد هؤلاء المتقاتلين وهو المأمون، أن تنكر لكل مبادئ المهدي بن تومرت وأمر بإزالة اسمه من الخطبة والسكة، وأقدم على قتل عدد من مشايخ الموحيدين.

وبصورة عامة فقد انتهت دولة الموحيدين بموت حاكمها السعيد، ذلك لأن خليفته عمر المرتضى لم يكن له من الحكم والسيطرة سوى على مدينة مراكش، لأن المرينيين سيطروا على رقعة واسعة من المغرب الأقصى، وتمكنوا من قتله في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وبذلك انتهى آخر رمز لدولة الموحيدين بالمغرب والأندلس.

في غضون ذلك كانت بقية أجزاء المغرب الكبير، تسقط بالتدريج في أيدي أسر معروفة، فقد سيطر الحفصيون على المغرب الأدنى، وسيطر الزيانيون أو بني عبد الواد على المغرب الأوسط. وفي الأندلس كان نجاح حركة الاسترداد في اضطراب مستمر، حيث تمكنت قوى هذه الحركة من السيطرة على مدن عديدة مثل إشبيلية وقرطبة وبلنسية وجيان، ولم يصمد في وجه حركة

(١) - ابن عذاري، للمصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٤.

الاسترداد هذه سوى مجموعة عربية كانت قد ظهرت على أثر ضعف الموحدين، وهي التي تمثلت بدويلة بني الأحمر بغرناطة.

يضاف إلى ما تقدم من أسباب أدت إلى سقوط الدولة الموحدية، فإن أسباباً أخرى ساعدت على تسريع السقوط، منها أن الدولة الموحدية امتدت على رقعة واسعة من الأرض بالمغرب والأندلس، لم يتمكن الموحدون من إدارتها إدارة حازمة، ذلك لأن الموحدين عجزوا طوال حياتهم السياسية عن ابتكار أو وضع نظام شامل لإدارة دولتهم، يكون بديلاً عن تلك المجالس القاصرة، التي ابتكرها المهدي محمد ابن تومرت، وهي مجالس لا تصلح على الإطلاق لإدارة دولة في هذا الاتساع والامتداد والتنوع. هذا وقد عجز الموحدون عن إقامة العدل بين الناس في دولتهم، وهؤلاء كانوا من قبائل مختلفة ومتنافرة في الوقت نفسه، نظروا إلى قبائل الموحدين نظرة حسد وحقد.

الفصل التاسع

سقوط دولة الموحدين وظهور الدول المنفصلة في المغرب الكبير

كان سقوط دولة الموحدين كارثة حقيقية، ذلك لأن الوجود العربي بالأندلس تقلص إلى حد كبير، فلم يبق بأيدي العرب سوى غرناطة وتوابعها كمالقة ووادي آش وغيرهما. وتجزأ المغرب الكبير. وعاد إلى المعاناة من تأثير الفرقة والانفصال بعد أن ذاق حلاوة الوحدة والوئام في عصر المرابطين والموحدين. ومن أهم الدول المنفصلة التي ظهرت على أثر سقوط دولة الموحدين، دولة بني مرين في المغرب الأقصى (المملكة المغربية)، ودولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ودولة الحفصيين بالمغرب الأدنى (تونس اليوم).

ولم تستطع هذه الدول أن تحافظ على الزخم، الذي كان في عصر الموحدين وبخاصة على الصعيد العلمي، فقد تأخرت منظومة العلوم التطبيقية والنظرية إلى درجة كبيرة، وزاد في الطين بلة أن معظم العلماء المغاربة، هاجروا إلى المشرق العربي واستقروا بمصر والشام والعراق والحجاز. وحاول المرينيون أن يفعلوا شيئاً في سياق إعادة اللحمة إلى أقطار المغرب الكبير، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً. وهذه الدول هي:

دولة بني مرين في المغرب:

تأسست هذه الدولة منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مدينة مراكش عاصمة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م.

ويتصل نسب أبي يوسف يعقوب هذا بمرين بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتي، وكان مركزهم بأرض الزاب من جبل يقال له إيكجان. وقد دعيت دولتهم بالدولة المرينية حيناً نسبة إلى مرين هذا، وبالدولة الوطاسية حيناً آخر، وذلك نسبة إلى وطاس بن نجوس بن جرماط بن مرين. وكان أمير المرينيين في عهد يعقوب المنصور الموحدي هو أبو خالد محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن مرين. وقد اشتهر المرينيون في معركة الأرك، حينما استنقزهم أبو يوسف يعقوب الموحدي إلى المناضلة والجهاد، فحضرُوا هذه المعركة وأبلوا فيها بلاداً حسناً، حتى أن محيو ابن أبي بكر هذا أصيب إصابة بالغة، أدت في النهاية إلى موته في صحراء الزاب سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م. وخلفه على رئاسة بني مرين ابنه عبد الحق، وفي عصره دخل بنو مرين بلاد المغرب الأقصى، وأقاموا بمنطقة الريف المغربية سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م حينما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنتصر وسوء تدبيره، واختلال حال الدولة وتهاون خلفاء الموحدين وأمرانهم في الدفاع عن الثغور والحواضر الأخرى^(١).

أمام هذا الوضع المشجع، أخذ المرينيون يغيرون على النواحي والبوادي في شتى أنحاء المغرب الأقصى، ويعيثون فيها فساداً وخراباً، حتى بادر الناس إلى الشكوى إلى المنتصر الموحدي، الذي قرر الوقوف في وجههم وكبح جماح تمردهم، فأعد لذلك جيشاً تألف من عشرين ألف فارس، يقودهم أبو علي بن وادين، وأبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن حاكم مدينة فاس. والتقى هذا الجيش بمقاتلي بني مرين في وادي (نكر) سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، وقد هُزم الموحدون في هذا اللقاء أمام بني مرين، الذين حصلوا من ذلك غنائم وأسلحة كثيرة.

كان لهذا الانتصار دفعة مشجعة على متابعة الزحف والهجوم على مواقع الموحدين وممتلكاتهم، فقد زحف الأمير المريني عبد الحق بجموع كبيرة من

(١) - شارل جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٢١٢ وما بعدها .

اتباعه إلى رباط تازا، وأحرز انتصاراً ثانياً على الموحيدين فيها، لكنهم خسروا في موقعة الثالثة أميرهم عبد الحق وابنه الأكبر إدريس بالقرب من وادي سبو على بُعد أميال متعددة من تافراطست سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م .

وكان غضب بني مرين كبيراً بسبب هذه الحادثة، التي أفجعتهم بقائدهم وابنه، فصمموا على الثأر مهما كانت النتائج، فقاتلوا في البداية قبائل رياح أشد قبائل العرب قوة، ذلك لأنها تحالفت مع الموحيدين ضدهم، وتمكنوا من إحراز النصر على هذه القبائل واستحوذوا على كل أسلحتهم وخيولهم.

وقد استغل أبو سعيد بن عبد الحق، الذي خلف والده في زعامة بني مرين ضعف الموحيدين وتهاونهم، فراح يدعو قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته، وكان لدعوته صدى إيجابي حينما بايعته قبائل هوار و زكارة وتسول ومكناسة وبطوية وفشتالة وسدراته ويهلولة ومديونة، وألزم أهل فاس وتازا ومكناسة وقصر كتامة بضريبة معينة، يؤدونها إليه في كل سنة انقضاء لهجومه عليهم.

قتل أبو سعيد عثمان بن عبد الحق غيلة في سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م وخلفه أخوه محمد، الذي سار على طريقته في مقاتلة الموحيدين والسيطرة على بلدان المغرب وجمع الضرائب والمغارم. واشتبك مع الموحيدين في عدد من المواقع، فانتصر على جيش الرشيد بن المأمون الموحيدي بقيادة أبي محمد بن وانودين بالقرب من مكناسة.

وقد اختلف الأمر بالنسبة للموحيدين حينما تولى السعيد بن المأمون الحكم للموحيدين وخلافتهم سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م، حينما كرس كل جهوده لمقاتلة بني مرين، فجهز لذلك جيشاً كبيراً، تألف من المصامدة وعرب المشرق والروم، والتقى مع جيش محمد المريني في ضواحي مدينة فاس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م، وتمكن من هزيمة بني مرين وقتل أميرهم، فلجأوا إلى الجبال في نواحي تازا.

وخلال إمارة أبي بكر بن عبد الحق، استطاع المرينيون السيطرة على مكناسة سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م، وعلى ملوية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، وانتزعوا مدينة فاس من الموحدين ودخلوها في السنة نفسها. كما لم تلبث أن سقطت تازا في أيديهم. لكن أهل مدينة فاس انتهزوا فرصة غياب المرينيين عنها، فدخلوها وقتلوا العامل المرني فيها، وبايعوا المرتضى الموحدي، فقدم إليهم أبو بكر المرني وأعلن حصار المدينة، حتى ينس أهلها من مساعدة المرتضى لهم، فاستأنوا أبا بكر على أنفسهم فأمنهم ودخل المدينة وقتل الخارجين عليه، فانقادت له البلاد وأذعن الناس له بالطاعة.

ثم استمر بعد ذلك في فرص سيطرته على سلا وريباط الفتح سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٢م، وأقام عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، ثم سيطر على سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م واستقر بمدينة فاس بعد أن اتخذها حاضرة لدولته المقبلة.

وحيثما مات أبو بكر في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م خلفه في الحكم عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، حاول الإسبان الاستيلاء على مدينة سلا، فردهم عنها وبنى سورها الغربي. واستطاع السيطرة على مراكش سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وبذلك يمكن عد هذا الحادث بداية تاريخ الدولة المرينية. وقد استمر المرينيون في الحكم إلى أواسط القرن التاسع الهجري/الخامنس عشر الميلادي فخلفهم بنو وطاس.

تعاقب على حكم الدولة المرينية عدد كبير من رجال الحكم، كان أشهرهم بإطلاق أبو الحسن المريني المتوفي سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢م. بويع له بفاس سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م بعد وفاة أبيه. كانت حياته حافلة بالأحداث السياسية والعسكرية، وامتد سلطانه إلى تلمسان وتونس، وامتد ملكه من مصراتة في ليبيا إلى السوس الأقصى في المملكة المغربية، وهو الذي ألجأ الأندلسيين في أخرج ظروفهم، وتدخل في الكثير من مشكلات الحفصيين في تونس وبنى عبد الواد في الجزائر.

يليه في الشهرة ابنه أبو عنان المتوفى سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م. وهو شبيه
بوالده إلى حد ما، ولا سيما في مسألة إخضاعه لبني زيان ملوك تلمسان،
والحفصيين حكام تونس، وقد مات مخنوقاً على يد وزيره الحسن بن عمر
القنودى^(١).

تلقب حكام الدولة المرينية بلقب (السلطان) على غرار حكام دولة
المماليك في المشرق، ويلقب أمير المؤمنين في بعض الأحيان كأبي عنان سابق
الذكر.

علاقات المرينيين الخارجية

تباينت علاقات بني مرين الخارجية من حيث أهداف و توجه هذه
العلاقات، فكانت تختلف مع الأندلسيين والمشاركة مع الزيانيين والحفصيين في
المغرب الأوسط والأدنى. ولفهم هذه العلاقات على حقيقتها فلا بد من دراستها
على صعيد كل جهة من هذه الجهات.

علاقة بني مرين مع الأندلسيين

كان حكم العرب في الأندلس في عصر بني مرين، يقتصر على غرناطة
وما حولها كمالقة ووادي آش وغيرها. وكان الحكام في غرناطة من بني نصر
أو بني الأحمر كما هي شهرتهم الواسعة والمعروفة. وقد كانت غرناطة هدف
حركة استرداد الإسبانية، التي بلغت أوج نشاطها في هذا العصر، الأمر الذي
جعل بنو الأحمر يتوجهون إلى طلب المساعدة من المغرب الكبير، الذي كان
على الدوام مصدر عون قوي للأندلسيين في أيام محنهم وملاماتهم، وكانت أقوى
دول هذا المغرب الذي اعتراه هو الآخر حالة من الضعف، هي دولة بني مرين،

(١) - ابن الأحمر - روضة السرين ص ٢٧، الناصري، الانتصاف في أخبار المغرب الأقصى، ج ٣، ص ١٨١

وما بعدها. ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ٩٣، و ١٠٤ و ١٠٦.

التي لم تتأخر في مد يد العون والمساعدة للأندلسيين في مناسبات عديدة كانت فيها المساعدة ضرورية وملحة.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام، أن بني مرين شغلوا دوراً هاماً في ميدان مساعدة بني الأحمر ضد الهجمات الإسبانية التي كانت شبه مستمرة خلال هذه الفترة وفي الفترة التي تلتها. فقد خرج السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م بنفسه من مدينة فاس بجيش كبير، وجاز إلى الأندلس، وتمكن أن يكتسح بجيشه عدداً كبيراً من المناطق والبلدان داخل الجبهة الإسبانية المعادية، ولم يعد إلى المغرب حتى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م حيث بدأ ببناء المدينة البيضاء بالقرب من مدينة فاس وجعلها مقراً لدولته.

وفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٨م جاز إلى الأندلس للمرة الثانية، فحاصر إشبيلية ونشر جيشه في نواحيها، كما دخل عدة حصون كحصن قطنيانة وجليانة والقلعة بالقوة، وغزا شريش، وألقى حصاره على مطينة قرطبة، وهاجم مدينتي جيان.

وكانت المرة الثالثة التي دخل فيها الأندلس سنة ٦٨١هـ/١٢٨٣م، والمرة الرابعة سنة ٦٨٤هـ/١٢٦٧م، وفي هذه المرة مرض مرضاً شديداً وتوفي بقصره في الجزيرة الخضراء سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٧م، ودفن في مسجد شالة من رباط الفتح، وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب خلفاً له.

سار أبو يعقوب يوسف هذا على طريقة والده في الجهاد والعدل، وشارك في قتال الإسبان بالأندلس عدة مرات، وكانت وفاته سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م. وخلفه ابنه أبو ثابت عامر.

وفي عهد أبي الحسن المريني السلطان المشهور، دخلت أساطيل بني مرين إلى الأندلس، بعد اشتداد حملة الدول الإسبانية عليها، وعلى الرغم من قوة الأسطول البحري المغربي وعظم شوكته في مجال الأعمال البحرية المختلفة في

عصر هذا السلطان، فقد خسر المرينيون المعركة بمن معهم من جموع الأندلسيين سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م بالقرب من طريف. وبعد فترة من هذا التاريخ أمر هذا السلطان بتجهيز الجيش للعودة إلى الجهاد في الأندلس مرة ثانية، لكنسه اصطدم بمشكلات متعددة في إفريقية وغيرها منعتة من دخول الأندلس، لكنه ظل مهتماً في الشأن الأندلسي حتى كانت وفاته سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢م^(١).

وقد كانت لبني مرين قوة عسكرية خاصة بالأندلس، ترابط فيها باستمرار وتشترك في حروبها الوطنية والدفاعية، دعيت هذه القوة في التاريخ الأندلسي والمغربي بـ (مشيخة الغزاة) وكانت هذه المشيخة من أهم قنوات العلاقات والاتصالات بين الأندلسيين والمرينيين وكانت هذه القناة قد تجسدت حقيقة واقعة في المجال العسكري، الذي كان المرينيون محوره الرئيس، فقد قدموا للأندلسيين على مدى أكثر من مئة عام قوات عسكرية، ساهمت في حماية دولة غرناطة وإطالة بقائها بالأندلس. وقد عرفت هذه القوات العسكرية باسم (مشيخة الغزاة)، التي كانت تتألف من مجموعة من الجنود المغاربة، لا نعرف عددها على وجه الدقة، ولكنها على ما يبدو من خلال حديث أصحاب بعض المصادر، أن أعدادها لم تكن قليلة، ذلك لأنها أثرت إيجاباً في الدفاع عن الأرض الغرناطية ضد ما كان يسمى بحركة الاسترداد الإسبانية، التي نجحت في نهاية الأمر من إسقاط الدولة الغرناطية بالأندلس.

كان لمشيخة الغزاة التي رتبها المرينيون بالأندلس، من أجل متابعة عملية الدفاع عن مملكة غرناطة أثرها الفعال في مساعدة الغرناطيين وترجيح كفتهم في بعض الأوقات، غير أن قوة المرينيين لم تسجل إلى درجة قوة المرابطيين أو الموحيدين في أيام قوتهم^(٢).

(١) - ابن الأثير، روضة النعمان ص ٢٥. ابن الخطيب، اللوحة البيرية، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) - آخر أخبار غرناطة، ص ١٤ وما بعدها.

كان يرأس مشيخة الغزاة بالأندلس أمير من الأسرة المرينية، وكان مقر هذه المشيخة بغرناطة نفسها، ويتفرع منها أقسام صغيرة كما في مالقة ووادي أش ورندة، ومن يتصفح تاريخ مملكة غرناطة، يرى أن قادة مشيخة الغزاة، شغلوا دوراً كبيراً في مجال سياسة مملكة غرناطة، إلى درجة أنهم تدخلوا في بعض الأحيان في مسألة تعيين السلاطين وعزلهم^(١).

وقد استمر منصب شيخ الغزاة هذا قائماً بغرناطة، حتى أمر بإلغائه السلطان محمد الخامس سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م، وتولى قيادة الجنود المغاربة بنفسه^(٢) الذين كانوا من الفرسان المتطوعين في الجيش الغرناطي. وقد اشتهر جنود مشيخة الغزاة بنظام حربي خاص، عرف باسم قبيلتهم زناته. وقد انتشر هذا النظام في إسبانيا بين الإسبان والعرب على حد سواء. ويذكر المؤرخ الإسباني أيلالا Ayala، إلى أن ملوك قشتالة اتخذوا إلى جانب فرقهم الثقيلة المدرعة بالحديد، فرقة خاصة من الفرسان يحاربون على طريقة فرسان الزناتيين خفيفة الحركة ذات الدروع الجلدية والركاب المرتفع، وطريقة الكر والفر في القتال وأطلقوا عليهم اسم Ginetes أي زناته، ولا يزال لفظ Ginete مستخدماً إلى اليوم في اللغة الإسبانية بمعنى فارس^(٣).

وأشهر من تولى رئاسة مشيخة الغزاة بغرناطة، هو الأمير يحيى بن عمر ابن رحو بن عبد الحق المريني زمن السلطان الغرناطي محمد الخامس، وخلفه إدريس بن عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق. وبصورة عامة فإن مشيخة الغزاة، بقيت حكراً على المرينيين والدليل على ذلك، أن أحد وزراء الدولة المرينية وهو الوزير سليمان بن داود، رشح لرئاسة هذه المشيخة لكنه لم يصل إليها، وذلك بسبب تدخل الوزير الغرناطي الشهير لسان الدين بن الخطيب ضده، وأصر على بقاء مشيخة الغزاة تحت قيادة بني مرين، لأنهم في نظره كما قال

(١) - نفع الخطيب، ج ٧، ص ٣٧. ابن الخطيب، نقاضة الجراب في غلالة الاعترايب، تحقيق أحمد مختار العبادي،

طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة بدون تاريخ ص ١٦ و ١٧.

(٢) - ابن خلدون، المعبر، ج ٧، ص ٣٧٩.

(٣) - ابن الخطيب، نقاضة الجراب، ص ١٧.

(يعسوب زناتة) فحقّد الوزير سليمان بن داوود عليه، وشارك في قتله بمحبسه حينما هرب من غرناطة إلى المغرب الأقصى^(١).

وكان قسم من جنود مشيخة الغزاة بالأندلس، ينتشرون في أماكن ساحلية هامة في أمكنة عُرفت بالمصطلح المغربي الأندلسي (مسالح)، وهي مراكز عسكرية تشبه أماكن الرباط والمناغرة، وتفيد في اتجاهين، الأول أنها تسمح في الاشتباك مع العدو أثناء نزوله على السواحل، وتحقيق تقدمه حتى تصل الجيوش النظامية، أما الثاني فهي عين ساهرة ترصد وتراقب حركة العدو في البحر والبر، بما يشبه مراكز الاستطلاع في جيوش هذه الأيام^(٢).

ولم يكن قائد مشيخة الغزاة بعيداً عن السياسة في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى، بل نراه أحياناً كان يطمع في الوصول إلى الحكم، كما فعل شيخ الغزاة عثمان بن عبد الحق، الذي انفرد بالدعوة لنفسه في شمال المغرب الأقصى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٨ م، لكنه هزم أمام قوات السلطان المريني^(٣). وكثيراً ما كان السلاطين المرينيون يكلفون قائد مشيخة الغزاة بالنيابة عنهم في الحروب والغزوات، فقد كُلف قائد مشيخة الغزاة مسعود بن رحو بن ماساي بقيادة جيش، أُعد لغزو تلمسان^(٤). ولهذا كان رئيس مشيخة الغزاة، يسمى أحياناً قائد الحروب، الذي كان يقابله في المشرق العربي الأتابك، أي القائد العام للجيش.

علاقة بني مرين مع المغربيين الأوسط والأدنى

ظل بنو مرين طوال حياتهم ينظرون إلى المغربيين الأوسط والأدنى بعين طامعة محبة للسيطرة والاحتواء وضم أملاكهما إلى المغرب الأقصى، أملاً في

(١) - ابن خلدون، العبر ج ١٣، ص ٧٠٨ وما بعدها.

(٢) - ابن خلدون، العبر ج ١٣، ص ٤٣٧ و ٤٤٨ و ٥٩٣.

(٣) - ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٤٩٢ وما بعدها.

(٤) - ابن خلدون، العبر، ج ١٣، ص ٦٢٩ وما بعدها.

عودة المغرب الكبير الموحد. لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق شيء هام في هذا المجال باستثناء سيطرة مؤقتة على بعض الحواضر والبلدان في كلا المغربين.

وقد بدأت هذه الأطماع تظهر بوضوح، منذ أن تولى حكم الدولة المرينية أبو سعيد عثمان بن يعقوب، الذي تمكن من السيطرة على معظم أراضي المغرب الأوسط، إذ سار على رأس جيش إلى مدينة تلمسان سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م وخلصها من أيدي موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد بها .

وفي عصر خليفته أبو الحسن علي بن عثمان، هوجمت مدينة تلمسان سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م، وخلصها من سلطان بني عبد الواد ابن أبي تاشفين. كما استطاع السيطرة على تونس وهزيمة أميرها أبي يحيى الحفصي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وامتد ملكه بين يرقنة في الشرق والسوس الأقصى والمحيط الأطلسي في الغرب. هذا واستمرت سيادة بني مرين على المغربين الأوسط والأدنى قائمة في عصر ابنه أبي عنان بن أبي الحسن، الذي سيطر على بجاية وقسنطينة بعد تنازل الأمير محمد بن أبي زكريا الحفصي عنهما^(١).

ثم ضعفت دولة بني مرين حينما تولى حكمها وقيادتها سلاطين ضعاف فخسرت بذلك المغربين الأدنى والأوسط وعادت إلى حدودها الأولى.

علاقة بني مرين مع المشرق العربي:

على الصعيد الرسمي ظل المرينيون كغيرهم من حكام المغرب الكبير مقتصرين على علاقات الود والاحتفال وإظهار المودة والاحترام وتبادل الهدايا في بعض المناسبات. ولم ترق هذه العلاقات إلى مستوى التعاون الإيجابي الفعال حتى في أقصى الظروف وأصعبها، ولاسيما في الميدان العسكري، الذي كان

(١) - ابن الخطيب، رقم الحطال في نظم الدول، ص ٩٢ . الاستقصا، ج ٣، ص ١١٨ و ١٨١.

كافياً لتوحيد مشرق الوطن العربي مع مغربه، بسبب كثرة الهجمات والتكالب على الأملاك العربية في الأندلس والمغرب.

واقترنت هذه العلاقات على جانب واحد، هو تبادل الهدايا بين الطرفين، فقد ذكر المؤرخون مثلاً على ذلك في عصر أبي الحسن المريني، الذي أهدى للحرم المكي الشريف في موسم الحج سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٨م مصحفاً جميلاً زخرفه بكل أنواع الزينة. كما أرسل هدايا متعددة أخرى لسلطان مصر والشام آنذاك الناصر محمد بن قلاوون، كان من جملة ما هجر من ياقوت ومن زمرد، وقطعة من المجوهرات النفيسة، وحلل كثيرة، وفرش مطرزة بالذهب والفضة، وغير ذلك شيء كثير قدر ثمنه بمئة ألف دينار، وقد أهداه الناصر محمداً بن قلاوون هدايا متعددة مماثلة^(١).

الازدهار الحضاري في عصر بني مرين:

نعني بالازدهار الحضاري ذلك التقدم على صعيد الثقافة والفكر وعلى صعيد البناء والعمران، الذي تم خلال أكثر من مائتي عام، حكم فيها بنو مرين في المغرب الأقصى بشكل خاص. ففي ميدان العمران يمكن القول، أن ما خلفه بنو مرين كان شيئاً قليلاً، إذا قيس بما خلفه غيرهم من الذين سبقوهم، ربما لأن عصرهم كان عصر حروب وصراع شبه مستمر مع جيرانهم من بني عبد الواد والحفصيين، ومع ذلك فقد تركوا بعض الآثار الهامة في المغرب الأقصى وكذلك المغرب الأوسط. وتتميز هذه الآثار بطابعها الأندلسي البديع، نذكر من ذلك المدرسة العنانية، ومدرسة العطارين، ومدرسة الصغارين، ومدرسة الصهرج، والمدرسة المصباحية في فاس. وربما تظهر المدارس لأول مرة في هذا العصر، كما حدث ذلك في المشرق العربي، وإن كان المشرق قد سبق المغرب على هذا

(١) - انظر التفاصيل عن هذه الهدايا وغيرها، ابن خلدون كتاب العبر، ج ٥، ص ٤٢٠ وما بعدها. والتعريف بابن خلدون، ص ٣٤١ و٣٤٥، وكتاب الروضتين لأبي شامة، ج ٢، ص ١٧٣.

الصعيد بمئة عام على الأقل. وفي المغرب الأوسط تركوا المسجد الجامع المتصل بضريح الشيخ أبي مدين شعيب بن الحسين الأندلسي بساحية العباد بتلمسان، وكذلك المدرسة المجاورة له، وكلاهما من منشآت السلطان أبي الحسن المريني سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. وكذلك البرج الأحمر وبرج المرمى بوهران والمسجد الجامع بمستغانم والجامع الكبير بقسنطينة. كما لا تزال أطلال من مدينة المنصورة التي أنشأها السلطان يوسف بن يعقوب المريني بالقرب من تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م^(١).

أما عن سير الحياة العلمية والفكرية في هذه الدولة، فإنه يكفي أن المؤرخين قد ذكروا عن عصر بني مرين، أنه عصر إنشاء المدارس والمعاهد وتعيين المدرسين والعلماء فيها. لكن الذي حدث ولسوء الحظ، أنهم اهتموا بعلوم الدين والشريعة، وتغافلوا عن كل ما يمت بصلة إلى العلوم العقلية والتطبيقية التي تنهض بالبلاد إلى أعلى المستويات والمراتب.

وقد ساعد على ازدهار هذه العلوم اهتمام الحكام فيها، فقد عرف عنهم ترحيبهم بالعلماء والحرص على وجودهم بصورة دائمة، هذا بالإضافة إلى اهتمامهم بجلب الكتب وتوزيعها على المدارس والمساجد. ولم تغب هذه الناحية عن ذهن الحكام المرينيين حتى في أصعب الظروف وأحلكها، مثال ذلك السلطان أبو يوسف يعقوب المريني، الذي اشترط على ملك الإسبان (شانشو الرابع) في معاهدة الصلح التي عقدها معه أن يعيد إليه جميع المحفوظات العربية، التي نهبها غداة احتلاله مدينة قرطبة وإشبيلية، فأرسل إليه شانشو هذا بأحمال كثيرة من الكتب، وزعها أبو يوسف على خزائن الكتب في مساجد المغرب، وعند ذلك نصرأ كأي نصر عسكري في ساحات الوغى. وقد اشتهر في هذا العصر من

(١) - ابن خلدون، العبر، ج٧، ص٢٢١. تاريخ إفريقيا الشمالية، ج٣، ص٢٣٩، وما بعدها.

العلماء، آل العقباني والمشدالي وابن مرزوق والعبدي وابن قنفسذ القسنطيني وشقرون الوهراني شيخ الحافظ الذهبي وغيرهم كثيرون.

أما عن صناعة الطب وفنون الحكمة، فقد انعدمت في هذا العصر، وإذا وجدت فقد كانت تقوم على الخرافة والشعوذة وأما الغناء والموسيقى، فقد بقيت منها بقية قليلة، نقلت عن بلاد الأندلس بعد أن هجرها معظم سكانها وعلمائها، ونزل قسم منهم في المغرب الأقصى^(١).

(١) - ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٥، و ٢١٠-٢١١ و ٢٤٠ و ٢٧٥ .

دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط

كان أصحاب هذه الدولة في الأصل من أمراء القبائل الرحل، التي تجوب في صحراء المغرب الأوسط، ثم ساعدتها الظروف للاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. فلقد انتقلت هذه القبائل إلى سواحل المغرب الأوسط، وهي منطقة لم تتأثر كثيراً بغزوات بني هلال. واستطاع بنو عبد الواد، أن يفرضوا أنفسهم فرضاً على أهالي هذه المنطقة، وما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحمايتها، واتخذوا من تلمسان حاضرة وعاصمة لهم.

وقد شغل يغمراسن بن زيان دوراً بارزاً في تأسيس هذه الدولة، إذ تم له ذلك بموافقة الموحيدين أنفسهم، فلقد كان بنو عبد الواد وأقاربهم من القبائل، التي كانت تترك الصحراء، وتستقر في سهول وهران وتضع رجالها في خدمة الموحيدين وعاملهم في تلمسان، وبمرور الوقت استطاع بنو عبد الواد أن يساهموا مساهمات فعالة في الدفاع عن منطقة وهران، وتلقوا لقاء ذلك بعض الامتيازات، إذ قام خليفة الموحيدين بتعيين يغمراسن بن زيان عاملاً على تلمسان وبلاد زناتة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، واستقل هذا الحاكم بالبلاد عقب سقوط الدولة الموحدية.

والحقيقة أن استقلال بني عبد الواد بالمغرب الأوسط، لم يكن كاملاً من جميع الوجوه^(١) فلقد كان الخطر يحدق ببلادهم من ناحية الشرق والغرب، وكان لموقع المغرب الأوسط أثره البالغ في التنبؤ بمصيرهم، فلقد كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالي للجزائر، ويفرضون الغرامات على سكانه في الوقت الذي كان فيه بنو عبد الواد غير قادرين على إخضاعهم. وبينما كانت هذه الصعوبات الداخلية، تكاد تشمل جميع نشاطات دولة بني عبد الواد، كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها. فمن جهة الشرق كان بنو

(١) - عبد الله العروي، تاريخ المغرب، ترجمة د. ذوقان قرقوط، ط أولى، بيروت، ١٩٧٧ ص ٢٠١.

حفص بتونس، يزعمون أنهم ورثة الموحدين، الأمر الذي يخولهم بسط سيطرتهم على المغرب الأوسط، لذلك اضطّر زعيم بني عبد الواد إلى الاعتراف بسيادتهم، وأصبحت بلاد المغرب الأوسط تحت وصاية بني حفص. ومن جهة الغرب راح بنو مرين يتربصون الفرصة المناسبة للتدخل في المغرب الأوسط وضمه إلى دولتهم، وجاءت جيوش بني مرين إليه من مدينة فاس في عهد أبي سعيد عثمان، وحاولت تخليص تلمسان من حاكمها موسى بن عثمان بن يغمراس، ولكنه لم ينجح أمام حصانة تلمسان وقوة دفاعها.

وفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م سار أبو الحسن علي بن عثمان إلى تلمسان وشدد عليها الحصار، وأقام معسكراً ثابتاً أمام تلمسان، يكون قاعدة هامة لعملياته الحربية، واتسع نطاق هذا المعسكر فيما بعد، فأصبح مدينة كبيرة دعت (المنصورة). واستمرت جيوش المرينيين تحاصر تلمسان حتى سقطت سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م في أيدي بني مرين، وتمكن أبو الحسن المريني من قتل الأمير ابن أبي تاشفين وبقيت تلمسان مدة أحد عشر عاماً مركزاً لحكومة مرينية، ثم خرجت سنة ٧٥٠هـ/١٣٥٠م من تحت السيطرة المرينية. وتمكن بنو عبد الواد من استعادتها، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حينما قام أبو عنان بن أبي الحسن المريني في سن ٧٥٣هـ/١٣٥٣م بالسيطرة على تلمسان مرة أخرى. ولم تدم هذه السيطرة طويلاً، إذ قام أهلها بشق عصا الطاعة على المرينيين، فدخلها السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن بالأمان سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م وأقر أميرها أبا زيان من أحفاد بني عبد الواد وعاد إلى فاس.

ثم تولى أبو حمو علي بن أبي زيان إمارة تلمسان، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس، التي ازدهرت في عصرهم رغم هذه الصعوبات والعواصف، وكانت تحظى بموقع ممتاز، فكان لمياهها فضل كبير في إحاطتها بالبساتين والمزارع فاستعادت بذلك مجدها القديم وكانت

مركزاً للقوافل التي تمر بها إلى تافيلالت وغرب إفريقيا، وبنى فيها بنو عبد الواد وبنو مرين القصور والمدارس.

ثم بدأ عهد من الفوضى والاضطراب منذ أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. فقد تغلب أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي على السلطان الوائق بالله ملك تلمسان، كما استمر غزو بني حفص لتلمسان في عصر السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي، الذي نجح في سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م في هدم أسوار تلمسان وتقويضها. ومع ذلك بقيت حكومة بني عبد الواد متماسكة إلى أن ظهر الإسبان على المسرح السياسي، وكانت حركة الاسترداد للأندلس وقتئذ على أشدها، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية في المغرب الأوسط، فسقطت بجاية سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ثم استولوا على وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م ثم سعوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينة الجزائر^(١).

وقد سميت هذه الدولة منذ نشأتها حتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م دولة بني عبد الواد. أما فيما بعد ولاسيما منذ عصر السلطان أبو حمو الثاني فقد سميت باسم الدولة الزيانية نسبة إلى والد يغمراس بن زيان أول حكام هذه الدولة.

(١) - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج٢، ص ١٧٢ وما بعدها.

دولة الحفصيين في تونس (إفريقية)

يعود الفضل في قيام هذه الدولة إلى أسرة مغربية عرفت بالأسرة الحفصية، التي حكمت إفريقية نيفاً وثلاثة قرون من سنة ٦٢٦-٩٨١هـ/١٢٢٨-١٥٧٤م. وقد نسبت هذه الأسرة إلى الشيخ أبي حفص عمر زعيم قبيلة هنتانة، ومن أوائل مريدي المهدي بن تومرت وأحد ضباط عبد المؤمن بن علي المخلصين.

وبلغ من تعظيم الناس لقدرهم، أنهم كما يقول ابن خلدون، قد تتأوبوا الحكم على الأندلس والمغرب وإفريقية. وقد عين الخليفة الناصر الموحي في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م، أبا محمد بن أبي حفص حاكماً على إفريقية فحقق انتصارات على حركة بني غانية، واحتفظ بسلطانه إلى أن توفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢٢م، فاستخلف رؤساء الموحدين في تونس ابنه أبا زيد ولكنه عزل، ثم استخلف مرة أخرى. كما عين العادل ولدين آخرين من أولاده، هما أبو محمد عبد الله وأبو زكريا، فأقام الأول على إفريقية والثاني على قابس.

بقي الحفصيون تحت سلطان الموحدين إلى ذلك الحين، ولكن أبا زكريا خرج على طاعتهم، وأقام أسرة مستقلة بأمورها، وقد عينه المأمون حاكماً على إفريقية بدلاً من أخيه، الذي رفض أن يعترف بهذا الخليفة، وأقام في تونس حتى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٨م، ولكنه سرعان ما تذرع بقسوة الخليفة وبدعه على الدين، فحذف اسمه من الخطبة ولقب نفسه بالأمير، ثم جعل الخطبة باسمه آخر الأمر، وذلك سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وأرسل حملات متعددة ناجحة، استولى بها على قسنطينة وبجاية والجزائر، ودان المرينيون وأهل مكناسة أيضاً لأمير تونس، فامتد ملكه من طرابلس إلى سبتة وطنجة، ومن البحر المتوسط إلى السبزاب وسجلماسة وهدد الإسبان في مدن بلنسية ومرسية وإشبيلية وشريش وجزيرة

طريف، فاستجد أهل هذه المدن ودانوا لحكمة، ثم مات في مدينة بونة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وكان بحق أقوى حاكم في إفريقية.

لم يكن عصر ابنه أبي عبد الله المستنصر بالله ٦٤٥-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٧م أقل من عصر أبيه ازدهاراً، فما كاد يخرج ظافراً من تلك الفتنة، التي أثارها عليه ابن عمه اللحياني بواسطة عرب رباح وغيرهم حتى أتجه إلى التمكنين الحفصيين في المغرب الأوسط، فنجح في ذلك كما نجح أيضاً في القضاء على الحملة، التي وجهها على تونس القديس لويس وشارل صاحب أنجو. وذاعت شهرته في الآفاق، واجتمع في بلاطه رسل المرينيين وسفراء وأمراء المسيحيين، الذين لجأوا إليه، وساهموا فيه مع علماء المسلمين في الحملات التي وجهوها على بلاد المغرب.

لم يقتنع المستنصر بلقب الأمير الذي قنع به أبو زكريا، فلغسب نفسه بالخليفة وأمير المؤمنين، ونجح في الحصول على وثيقة من شريف أشرف مكة، تجعله وريثاً للخلفاء العباسيين، بعد أن قضى التتار على ملك هؤلاء واستولوا على بغداد.

لقد حقق قيام دولة الحفصيين لإفريقية تقدماً ملموساً، فجعل تونس لا مقر لحكم فحسب، بل المركز السياسي والثقافي للقطر بأسره. وشيد الحاكم الأولان لهذه الأسرة أبنية متعددة من قصور ومساجد وزوايا ومكتبات وقناطر معلقة، واجتذب إلى البلاد الشعراء والعلماء من جميع بقاع العالم العربي، ولا سيما الأندلس، وكانت العلاقات بينهما وبين المسيحيين حافراً على رواج التجارة بين أوروبا وإفريقية، فعقدت معاهدات مع فريديك الثاني حاكم صقلية سنة ٦٢٧هـ/١٢٣١م، ومع مرسلينا وبيزة والبندقية سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٤م، وجددت هذه المعاهدات جميعاً في عهد المستنصر.

أعقبت هذه الفترة المزدهرة فترة ساد فيها الاختلال والاضطراب، ذلك أن الواثق خلف المستنصر في الحكم، على أنه عزل على يد عمه أبي إسحق سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، بيد أن ابن أبي عمارة اغتصب ملك أبي إسحق وطرده من قسبة بلاده، ثم قتله بالقرب من بجاية سنة ٦٨٢هـ/١٢٩٣م.

وسرعان ما انقسمت دولة الحفصيين إلى قسمين، قسم يضم تونس وحكمه أبو حفص، وقسم ضم بجاية وحكمه أبو زكريا. وشبت حرب ضروس اشتبكت فيها القبائل العربية في إفريقية والمغرب الأوسط وقبائل عبد الواد التلمسانيين، ودامت هذه الحرب ثلاثة وعشرين عاماً ثم هيمن السلام، وعقد صلح بين أبي عسيده محمد بن الواثق ملك تونس وأبي البقاء سلطان بجاية قضى بأن يكون حكم الدولة بأسرها إلى أحدهما بعد وفاة الآخر.

وهكذا استطاع أبو البقاء أن يعيد للدولة الحفصية وحدتها، ولكن إلى حين، ذلك أن الأمير الحفصي أبا زكريا اللحياني، استولى على تونس سنة ٧١٠هـ/١٣١١م وقتل أبا البقاء، بينما قام مختصب آخر يدعى أبا يحيى، فأقام نفسه حاكماً على بجاية، على أن أبا يحيى نجح عام ٧١٨هـ/١٣١٨م في حكم تونس ووحدة إفريقية والمغرب الأوسط تحت سلطانه، ومع ذلك فقد ظل مركزه مزعزعاً محفوفاً بالمكاره. فقد اضطر إلى قتال بعض القبائل التي تحالفت مع بني عبد الواد.

لقد طرد أبو يحيى من عاصمة ملكه في أربع مناسبات، لكنه تغلب مؤخراً على أعدائه بمساعدة المرينيين، الذين عقد لهم حلفاً وثيقاً. وتزوجت أميرة بني حفص بأبي الحسن بن السعيد سلطان فاس. ونجح يحيى في أواخر حكمه في إعادة الأمن إلى إفريقية وفي إخضاع مدن الجريد، التي انتهزت فرصة الفوضى التي كانت سائدة، فجعلت من نفسها إمارات مستقلة، فخرجت طرابلس من

قبضته، إلا أنه نجح على الأكل في استعادة جربة، التي كان المسيحيون قد تغلبوا عليها في نهاية القرن السابق.

عادت الفوضى إلى إفريقية مرة أخرى عند وفاة أبي يحيى عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، فاغتصب أبو حفص السلطان من الوريث الشرعي أبي العباس بعد أن ذبح أمراء بني حفص. وقد أثار هذا العمل حفيظة بني مرين، ودفعهم إلى التدخل وقدم السلطان الحسن إلى إفريقية واحتل قسنطينة وبجاية، ودخل تونس التي هجرها أبو حفص سنة ٧٤٨هـ/١٤٣٧م، لكنه هزم في السنة التالية بالقرب من القيروان على يد بعض الثائرين، واستعيد إلى وطنه بسبب الثورة التي قام بها ابنه أبو عنان. ولكن لم يستطع هذا السلطان المريني أن يحتفظ بفتوحاته.

ومع ذلك فقد ظلت دولة الحفصيين في حالة بائسة، وانتشرت الفوضى في كل ربوعها، وحكمها ثلاثة أمراء في وقت واحد، هم أبو إسحق الثاني في تونس وأبو عبد الله في بجاية، وأبو العباس في قسنطينة، ثم انتهى الأمر بأن أصبح أبو العباس هو الحاكم الوحيد سنة ٨٧٠هـ/١٣٦٩م. وحاول في مدة حكمه أن يعيد الأمن والنظام إلى البلاد، فكبح جماح العرب وأرغم مشايخ الجريد وقفصة وقابس على الخضوع له. واستمرت سلطة الحفصيين التي استعدها قائمة طوال عصر ابنه فارس عزيز من سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م إلى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م الذي حافظ على توازن القوى بالمغرب. واستطاع بذلك أن يتدخل في شؤون تلمسان، فظاهر أولاً أبا عبد الله المطالب بالعرش على السلطان عبد الملك، ثم انقلب إلى تعضيد عبد الملك نفسه واستولى على تلمسان بعد وفاة هذا الملك، ووضع على عرشها أميراً من بني زيان اعترف بسيادة تونس.

وقد أحيا أبو العباس سنن أجداده في العناية بالأدب والفنون. ويذكر القيرواني بياناً طويلاً بشتى المباني التي أقيمت برعايته، كالمساجد والزوايا

والمدارس والمكتبات والمستشفيات. وأيضاً كان خلفاؤه مهتمين بهذه الأمور. لكن كانت تعوزهم القوة، مما أدى إلى انحلال سلطان الحفصيين من جديد. فما حلت نهاية القرن التاسع الهجري/الحادي عشر الميلادي حتى كانت قسنطينة وبونة وبجاية قد استعادت استقلالها، وجعلت طرابلس وقابس ومدن الجريد من نفسها جمهوريات.

وكانت سياسة الحكام الحفصيين نحو المسيحيين في هذه الفترة كسياستهم في معاملتهم المسلمين أنفسهم، إذ جددت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي المعاهدات التجارية، التي عقدت في القرن السابع مع جنسوة وبيزة، وأبرمت معاهدات جديدة مع أرغوان وميورقة والبندقية وفلورنسة ومنبلييه. وكان في تونس وبجاية وبونة وصفاقس وجربة فنادق، يخرن فيها التجار المسيحيون بضائعهم. على أنه كان من الصعب الإبقاء على هذه الصداقة، نظراً لما قام به المسيحيون من الأعمال العدائية باحتلالهم جربة وهجومهم على المهدية، واشتداد القرصنة على الساحل الإفريقي منذ أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

وكانت موائئ الحفصيين ملجأ هؤلاء القراصنة، مما جعلها عرضة لغزوات الإسبان، الذين فكروا في تثبيت أقدامهم في النقاط الهامة على الساحل الإفريقي انتقاماً من هؤلاء القراصنة، لكن الأتراك سبقوهم إلى هذه الفكرة، حينما استجد بهم الحفصيون، فدخلت البلاد مرحلة جديدة من التاريخ الحديث^(١).

الإدارة في عصر هذه الدول

بقيت الوظائف الإدارية التي عرفناها في العصور السابقة هي نفسها في هذا العصر، وبقيت وظيفة الحجابة كما كانت من أرفع هذه الوظائف على

(١) - ابن خلدون، المعبر، ج ٢ و ٣. دائرة المعارف الإسلامية ج ٧، ص ٤٧٤.

الإطلاق. فقد ظلت وظيفة الكتابة والأشغال والقضاء والحسبة والشرطة كما كانت مع بعض التطورات البسيطة وبخاصة على صعيد القضاء، وكذلك على صعيد الحجابة نفسها، التي دُعيت أحياناً بوظيفة (المزوار) حيث كان الحاجب أو المزوار ينوب عن الحاكم في أوقات غيابه عن حاضرة ملكه. وكان صاحب هذه الوظيفة أي المزوار من أكبر الموظفين.

وقد زادت في هذا العصر أهمية وظيفة الكتابة العليا، وأصبحت كمثيلتها في المشرق العربي باستثناء بعض الفروق البسيطة في التسمية، ففي حين كان صاحب هذه الوظيفة يسمى في المشرق كاتب الإنشاء، كان في المغرب يسمى (صاحب القلم الأعلى)^(١).

كما ارتفع شأن وظيفة الأشغال لأهمية صاحبها، الذي كان مسؤولاً عن متابعة شؤون عمال الولايات وعزلهم ومحاسبتهم على أمور الحجابة العامة، وتحديد مداخيل الدولة ومضروفاتها.

ولا يحق لأحد أن يراقب صاحب هذه الوظيفة أو يراجعه في عمله إلا السلطان أو الوزير^(٢).

كذلك اشتهرت في هذه الفترة وظيفة (العلامة) وهي أن يقوم صاحبها بوضع عبارة (الحمد لله والشكر لله) بالقلم الغليظ في نهاية كل كتاب أو أمر سلطاني، أو أية عبارة أخرى يكون السلطان أو الحاكم أمر بوضعها. وهي تشبه التوقيع الذي يكتب أو يدون عادة في أيامنا في نهاية كل أمر أو مرسوم يصدر عن أي مسؤول في دوائر الدولة الرسمية. وكانت هذه العلامة توضع في بعض الأوقات نيابة عن السلطان، وفي أوقات أخرى توضع من قبل السلطان نفسه ومما يدل على مدى خطورة وأهمية هذه الوظيفة، أن كبار الشخصيات العلمية

(١) - ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ١٥٠.

(٢) - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ٨٠٥.

في هذا العصر انتخبت لتكون صاحبة هذه الوظيفة، نذكر من هذه الشخصيات ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون، الذي كان صاحب العلامة في الدولة الحفصية بتونس قبل مجيئه إلى مصر^(١).

وكانت وظيفة القضاء الهامة، قد طرأ عليها بعض التطورات في عصر الدول المستقلة، من ذلك أن قاضي الجماعة مهما كانت مرتبته العلمية وخبرته القضائية، فإن أحكامه تظل رهن موافقة المشاور أو المفتي، وكذلك فلا بد من موافقته على تعيين القضاة الذين كان يعينهم قاضي الجماعة في البلدان التابعة له^(٢).

وقد حافظ القضاء على أسلوب وأصول المحاكمات، ذلك لأن المذهب المالكي بقي المذهب الوحيد في كل المغرب والأندلس كما كان من ذي قبل، وهذا ما جعل العقوبات هي نفسها التي ينص عليها هذا المذهب، لكن ذلك لم يكن بصورة مطلقة، بل وجد من القضاة من شذ عن ذلك، ووصلت بعض عقوباتهم إلى حد فطيع من البشاعة، مما كان يحرك غيرة الحكام وحرصهم على حياة الناس، فيقومون بعزل مثل هؤلاء القضاة^(٣).

وبصورة عامة فقد بقي القضاء محافظاً على احترامه ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين، حينما تغير الأمر وبخاصة منذ بداية النصف الثامن من القرن السابع الهجري، فكان معظم القضاة لا يسيرون على الدرب، التي كان يسيرون عليها أسلافهم، ولا سيما قضايا الاستقامة والصلابة والجرأة فيما يخص اتخاذ الأحكام دون خوف. أضف إلى ذلك أن المعرفة العلمية والفقهية، التي كانت من

(١) - ابن خلدون، للتعريف بابن خلدون، ص ٨١٣ و ٨١٥ .

(٢) - ابن الدباغ، معالم الإيمان، ج ٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) - ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص (و) .

أهم الشروط لاختيار القضاة، قد أصابها إهمال شديد^(٤) وأصبح معظم القضاة العوبة في أيدي الحكام وبعض الوزراء المتنفذين، فكانوا ينفذون كل الذي يريدونه مهما كان قبيحاً أو خطيراً، والدليل على ذلك أن القضاة هم الذين ساعدوا وأفتوا في شرعية قتل أكبر كاتب ووزير وأديب وكاتب في عالم العصور الوسطى وهو لسان الدين بن الخطيب، الذي قتل ظلماً وعدواناً سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م^(١). ومن كان يرفض أوامر الحكام من القضاة في هذه المسائل، كان مصيره الموت، وهذا ما جعل بعض القضاة من هذا الطراز يلزم بيته فسي الليل خاصة^(٢).

وفي هذا العصر ظهرت تسمية (قاضي العسكر) الذي كان يرافق القوات العسكرية في حنها وترحالها. ومهمته ألبت في كل القضايا التي تحدثت في صفوف العسكريين. وهو نفسه الذي كان يسمى في العصور السابقة قاضي الجند، حينما لم تكن الحياة المدنية قد استقرت وتشعبت مصالح الناس وتعقدت مشاكلهم العامة. وكان في بعض النواحي يدعى (بقاضي المحلة)^(٣) وفي هذه الفترة نرى أنه بعد أن كان هناك قاضٍ واحد لقافلة الحج المغربي، أصبح لهذه القافلة ثلاثة من القضاة، قاضٍ للركب المريني، وقاضٍ للركب الزياني، وقاضٍ للركب الحفصي^(٤).

(٤) - انظر عن ذلك، ابن الدباغ، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٧.

(١) - التتوحي، التاج المكلل من جواهر ملوك الطوائف الآخر والأول، ص ٤٤٠-٤٤١.

(٢) - المقرئ، نفع الطبيب، ج ٥، ص ٣٨٦.

(٣) - ابن الفريسي، المعجم في أصحاب القضاة أبي علي الصديقي، ص ٢٥٧. ابن خلدون، التعريف بالبن خلدون، ص ٤٦٨.

(٤) - ابن خلدون، المعبر، ج ١٣، ص ٤٨٦.

العلوم في عصر هذه الدول

للأسف لم تزدهر العلوم العربية في هذا العصر، كما ازدهرت في العصور السابقة. حتى إن أمر المحافظة على الإرث العلمي والحضاري، لم تكن ممكنة في ظل الدول المنفصلة في المغرب، ذلك لأن هذه الدول بددت أموالها على مسألة الحرب والقتال من أجل النفوذ والسيطرة وتحقيق الأطماع الشخصية. وعلى الرغم من رغبة عدد من حكام هذه الدول، وخاصة حكام دولة بني مرين، في ظل التركيز على القضية العلمية والحضارية وإظهار دولهم بمظهر حضاري لائق، فإنهم لم ينجحوا في ذلك المسعى، واقتصرت العلوم في هذا العصر الذي كان طويلاً إلى حد ينوف على عصر المرابطين والموحدين، اقتصرت على ميادين العلوم اللغوية والدينية، واختفت إلى درجة مرعبة العلوم التطبيقية من طب وصيدلة وهندسة على مختلف فروعها وفلك ورياضيات وعلوم طبيعية إلى غير ذلك من هذه العلوم.

وقد أحب جميع العلماء المغاربة الإقامة في المشرق على الإقامة في المغرب كما سنرى فيما يلي من صفحات. ولا بد أن ذلك كان من الأسباب الهامة، التي أدت إلى هذا الواقع المؤلم.

ومع ذلك فقد ظهر عدد مهم من علماء اللغة وآدابها، وكذلك في مجال علوم الدين والتاريخ والجغرافية، كابن مرزوق والعبدي وشقرون الوهراني وابن قنفذ القسنطيني وغيرهم عديدون وكان في مقدمة كل هؤلاء، أولئك العلماء الذين نفذوا رحلات جغرافية واسعة في المشرق وفي غيره، سجلوا لنا فيها معلومات غاية في الأهمية والروعة على غرار ما حدث في العصور السابقة. كان من هؤلاء الرحالة المغربي العبدي صاحب الرحلة المغربية التي تمحورت

بشكل خاص على الناحية العلمية في غزة بفلسطين ومصر والحجاز^(١) ومثله فعل بعد وقت قصير الرحالة أبو عبد الله محمد بن عمر السبتي المعروف بابن الرشيد، الذي دون أحداث وما شهده في هذه الرحلة بكتاب سماه (ملء العيبة) في ستة مجلدات. وهو يشبه العبدري من ناحية اهتمامه بالشؤون العلمية^(٢). وقد عاصر جغرافي مغربي آخر، هو القاسم بن يوسف التجيبي البستي الذي صنف الرحلة المشرقية، والتي ركز فيها على مصر والحجاز. وأسلوبه يشبه إلى حد كبير أسلوب ابن جبير، ذلك لأن اهتمامات الإثنين هي واحدة تقريباً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن رحلة ابن جبير هي أكثر شمولية واتساعاً ودقة^(٣).

لكن الرحلة الأكثر شهرة من حيث اتساع الرقعة العالمية التي زارها صاحبها، هي رحلة ابن بطوطة الطنجي المغربي، الذي بقي أكثر من ربع قرن من الزمن يتجول في دول آسيا وإفريقية خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهذه الرحلة تُعد أوسع رحلات الأندلسيين والمغاربة، من حيث المعلومات التي اشتملت عليها.

أما بعد ابن بطوطة، فقد وصل إلى المشرق العربي رحالة مغربي آخر، هو علم الدين خالد بن عيسى البلوي صاحب الرحلة المسماة (تاج المفرق في تحلية علماء المغرب والمشرق). وقد زار مصر والحجاز، وجمع فيها بين أسلوب ابن جبير وأسلوب العبدري، فقد اهتم بالنواحي العلمية والاجتماعية والاقتصادية. ويمكن القول في صدد هذه الرحلة، أنها من الرحلات ذات الطابع الموسوعي. وقد جاءت أهميتها من المعلومات القيمة، التي احتوتها عن مناطق مصر والحجاز^(٤).

(١) - المقرئ، نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٧٢ .

(٢) - الذهبي، ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٢٥٥.

(٣) - السبتي، مستفاد الرحلة والاعتراف، ص ٧ .

(٤) - البلوي، تاج المفرق، ص ١٤٤ وما بعدها.

الفصل العاشر

هجرة المغاربة والأندلسيين إلى المشرق العربي

بدأت الهجرة من المغرب والأندلس إلى المشرق العربي بقصد الاستقرار والعيش بصورة دائمة، منذ عصر المرابطين واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى، وبلغت ذروتها في أواخر عصر الموحدين، حينما بدأت معاقلة العرب بالأندلس تسقط تبعاً بيد زعماء حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية. ومن حسن حظ المهاجرين المغاربة والأندلسيين، أنه لم تكن هناك موانع من دخول أي بلد عربي مشرق، بل على العكس تماماً فقد كان حكام المناطق المشرقية، يرحبون بالمغاربة والأندلسيين إلى درجة كبيرة، ذلك لأن هؤلاء المغاربة كانوا يتمتعون بسمعة طيبة على كافة المستويات. وكانت الهجرة كثيفة باتجاه مصر والشام ولاسيما مدينة الإسكندرية التي استقبلت أعداداً كبيرة من المغاربة والأندلسيين، وكذلك مدينة القاهرة، تليها مدينة دمشق، ثم حلب وبيت المقدس. وقد ساهم هؤلاء المهاجرون في العديد من المواقع الهامة كمواقع الاقتصاد والعلوم بكل أنواعها، وكذلك في الدفاع عن مصر والشام في أصعب وأحلك أوقاتها، ولاسيما في الدفاع ضد العدوان الفرنجي، وفي الحياة الاجتماعية والإدارية، وبرهنوا في كل هذه المجالات على أهلية عالية، وعلى أخلاق نبيلة، وعلى إخلاص متميز. وما زالت بعض آثارهم باقية حتى يوم الناس هذا، ولاسيما في المجال العلمي العام، فقد ألفوا كتباً في شتى أنواع العلم، تميزت بجديتها ورصانتها وجودتها، وبخاصة بمدينة القاهرة ودمشق والإسكندرية، وهذا ما سنلمسه في الفقرات الآتية:

١- في عصر المرابطين:

لم تكن العلاقة بين المغرب والمشرق في عصر المرابطين علاقة قد خطط لها حكام البلدين، بل نراها تسير على سجيئتها حيث لم تتوقف الحركة بين البلدين. وكل ما فعله المرابطون في هذا الشأن، أنهم كانوا ينظرون إلى منسصب الخلافة نظرة احترام وتقدير على الرغم من ضعف هيبة هذه الخلافة وعدم قدرتها على التأثير.

فقد دعا المرابطون للسيادة العباسية النظرية. وقاموا بأعمال من شأنها تعزيز الروابط بين المشرق والمغرب وهي نشر العربية والإسلام والقضاء على بقايا الوثنية القديمة، ولاسيما في المغرب الأقصى. ومن ناحية أخرى فقد عبر المرابطون عن اعترافهم بالسيادة الروحية للخليفة العباسي بطبع اسمه على النقود والدعاء له على المنابر. وقد بدأ ذلك منذ أيام أبي بكر بن عمر كما تشهد النقود التي اعتمدها، ثم سار يوسف بن تاشفين على طريقته، وطلب من الخليفة العباسي المستظهر تقليده حكم المغرب فجاءه التقليد، واعترف الخليفة بقلبه أمير المسلمين وناصر الدين الذي اتخذ له ليتميز عن الأمراء الآخرين (أمراء القبائل). وقد ورد ذلك في كتاب من الخليفة العباسي وصله سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م. وعد الخليفة في كتابه أن يوسف بن تاشفين هو نائب الخليفة والقائم بدعوة أمير المؤمنين وقائد جيوشه في المغرب، وحاول ابنه علي بن يوسف أن يوشح نفسه بألقاب أبيه أمير المسلمين ونائب الخليفة، إلا أن كتاب الإنشاء في بلاط الخليفة، لم يوشحوه بهذا اللقب، بل كتبوا زعيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية^(١).

(١) - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٧١ .

وكان باستطاعة أي شخص من المغرب أن ينتقل إلى المشرق العربي ويسكن في أية منطقة يختارها دون عوائق أو مشاكل، مما ساعد على هجرة عدد كبير من المغاربة والأندلسيين في هذا العصر، سكنوا في بلاد الشام ومصر وأسهموا في كل نواحي الحياة العامة هناك. وكانوا في معظمهم إيجابيين إلى حد كبير نذكر منهم في مجال علم الطب، أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي، الذي درس الطب في مصر وبغداد، وفي هذه الأخيرة أصبح طبيب البيمارستان، الذي كان يحمل عقاقيره وأدواته في المعسكر السلطاني على أربعين جملاً. ومن بغداد انتقل إلى مدينة دمشق، فاستهوت الإقامة فيها بصورة دائمة، حتى وافته المنية في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م^(١).

وقد ظهر علم أبي الحكم عند ابنه أبي المجد محمد بن عبد الله الباهلي المتقلب بأفضل الدولة بشكل أكمل، فقد برع في جميع العلوم والفنون التي كان يعرفها والده باستثناء صناعة الشعر. وقد تفوق على والده بشكل واضح وبخاصة في مجال معرفته المتعمقة بالموسيقى والهندسة والفلك. أما في مجال علم الطب، فكان فيه أحق أهل زمانه، مما جعل نور الدين زنكي يعتمد مسؤولاً أولاً عن إدارة البيمارستان، الذي أنشأه بمدينة دمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد كان يقسم وقته إلى ثلاث فترات يومية، تبدأ الأولى بزيارة البيمارستان، وخلالها يعود مرضاه ويتفقد أحوالهم، بعد ذلك تبدأ الفترة الثانية بمغادرته البيمارستان متوجهاً إلى القلعة، فينفق أحوال الوالي ومعاونيه، لتبدأ الفترة الثالثة، وكانت مدتها ثلاث ساعات

(١) - انظر عنه أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٤. وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ١٢٣.

ونفع الطبيب للمقري، ج ٢، ص ١٣٣.

تقريباً يمضيها جالساً في إيوان البيمارستان، يناقش المشتغلين في مجال الطب ويدرس المبتدئين ثم يعود إلى بيته^(١).

ومنهم الطبيب عمر بن علي البذوخ القلعي نزيل دمشق المتوفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨١م. وقد جمع بين الطب والصيدلة، وكان يمارسها في عيادة له بحي اللبادين بدمشق، وكان هو الذي يقوم بتحضير الدواء الذي يصفه لمرضاه. له كتاب (الحواشي) على كتاب (القانون) لابن سينا.

ومن الأطباء أيضاً كان الطبيب عبد المنعم الجلياني نزيل دمشق، الذي عمل معظم حياته في البيمارستان السلطاني في السفر والحضر، وكان حاذقاً في صناعته ودليل ذلك لقبه جميع من كتب عنه بـ (حكيم الزمان). وكان يعرف علم الكحالة والكيمياء والأدب.

أما في مجال العلوم الدينية فقد اشتهر منهم بعض المحدثين، الذين سكنوا في دمشق وحلب والقاهرة والإسكندرية، وكذلك بعض المقرئين كابن الطحان صاحب كتاب (نظام الأداء في الوقف والابتداء) وكتساب (السدعاء) وبعض المقالات^(٢) وبعض رجال الزهد والتصوف.

وفي علوم اللغة العربية طار ذكرهم في هذا العصر، لكنهم لم يصلوا إلى المستوى الرفيع الذي وصله إخوانهم في العصر الموحدي والعصور التالية، الأمر الذي سنوضحه في أثناء دراسة العصر الموحدي.

بقي أن نقول، أن دورهم في مجال علم الهندسة والكيمياء والرياضيات والفلك، كان باهتاً إلى حد كبير لأمر تتعلق بروح العصر التي كانت مساندة، ولاسيما ما يخص علم الكيمياء الذي كان علماً ممقوتاً من أغلبية الناس. نستثني من ذلك بعض العلماء الذين اشتهروا في ميدان علم الميكانيك، كأمية بن عبد

(١) - الصفي، الوافي بالوفيات، ج٤، طبعة دمشق ١٩٥٩ ص ٢٤.

(٢) - المراكشي، الذيل واللمعة مفرداً ق٢، ص ٤١٥.

العزیز بن أبی الصلت المتوفى سنة ۵۲۹هـ/ ۱۱۳۴م، الذي كان قد نزل مصر، وكان بارعاً في عدد من العلوم. وقد وقعت معه حادثة طريفة ومأساوية في الوقت نفسه، فكان قد وصل إلى مدينة الإسكندرية مركب محمل بالنحاس، فاتفق أن غرق على مقربة منها، وكانت الحاجة إلى النحاس ملحة، والزم من زمن الحروب الفرنجية، فقال أبو الصلت للأفضل حاكم الإسكندرية، إنه قادر على رفع المركب من قاع البحر، فأعد الأفضل كل ما طلبه أبو الصلت.

بنى أبو الصلت مركباً عظيماً وجعله في البحر على موازاة المركب الغارق، ثم ربط المركب الغارق بحبال من الحرير مبرومة، وجعل أطراف تلك الحبال على دواليب، ثم أمر الرجال بإدارة تلك الدواليب. بدأ المركب يرتفع من قاع البحر شيئاً فشيئاً حتى حاذى سطح الماء، فلما تابع أبو الصلت رفع المركب إلى ما فوق سطح الماء، انقطعت الحبال وغاص المركب ثانية.

إن عمل أبي الصلت واستخدامه البكرات المتعددة، يدل على أن ما كان قد وصل إليه علم الحيل (الميكانيك) في أيام أبي الصلت، كما أن في ذلك دلالة على براعة أبي الصلت في علم الحيل من الناحيتين النظرية والعملية، ولكن غاب عنه مبدأ أرخميدس، وذلك أن ثقل المركب بعد أن ارتفع فوق سطح الماء قد أصبح أكثر مما كان والمركب تحت سطح الماء، فكان يجب عليه إما أن يفرغ شيئاً من محمول المركب وإما أن يزيد عدد الحبال. وقد سجنه حاكم الإسكندرية بعد هذه الحادثة مدة عشرين عاماً بعد أن توسط له بعض المصلحين^(١).

٢- في عصر الموحدين:

توطدت علاقة المغرب الكبير مع المشرق العربي من خلال العلماء في مختلف الاختصاصات، الذين هاجروا من المغرب والأندلس إلى مختلف مدن

(١) - انظر عن ذلك كتابنا: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي، ص ۱۹۹. والرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت، الطبعة الثانية، مصر ۱۹۷۲.

المشرق في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية في عصر الموحدين. وقد كانت هذه الهجرة كبيرة إلى حد لم نعهده في أي وقت من الأوقات، ذلك لأن معظم المعامل العربية الإسلامية في الأندلس سقطت في هذا العصر في أيدي الإسبان، مما أدى إلى هجرة واسعة من الأندلس إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق.

نذكر من هؤلاء العلماء على سبيل المثال مبتدئين في مجال العلوم التطبيقية. ففي ميدان الطب والصيدلة، كان الطبيب إبراهيم بن موسى القرطبي، الذي اعتمده الكامل الأيوبي رئيساً لأطبائه بمصر، والطبيب أبو الحجاج يوسف الأندلسي، الذي اشتهر بمدينة حلب في عصر غازي بن صلاح الدين الأيوبي^(١).

أما في ميدان الصيدلة فقد كان الأمر أفضل من الطب، حينما هاجر أحد العلماء البارزين في هذا العلم إلى مصر، وهو العالم الصيدلي أبو محمد عبد الله ابن أحمد المسالقي النباتي الذي يعترف باين البيطار المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م. فقد تفوق على جميع معاصريه بالخبرة الصيدلانية والدوائية، التي حصلها من خلال مشاهداته الكثيرة في بلاد الروم والمغرب وبلاد الإغريق. ومن خلال لقاءاته مع صيادلة وعلماء هذه البلدان، كان يفرق النبات مباشرة على الأرض والبيئة التي ينمو ويعيش فيها.

فبلغ بذلك حداً قارب من الكمال والمعرفة المطلقة في هذا الشأن.

قال عنه ابن أبي أصيبعة : (وأول اجتماعي به كان بدمشق سنة ٦٣٣هـ. ولقد شاهدت معه بظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه، وقرأت عليه. وكان أحضر لنا من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي فكانت أراجع تلك الكتب معه ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها)^(٢).

(١) - انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص ١٥٧.

(٢) - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج١، ص ١٢١.

ويُعد ابن البيطار هذا ثورة عربية في ميدان علم الدواء والصيدلة، فقد أظهر براعته وتعمقه فيه من خلال كتابه الجليل الموسوم (بالجامع في الأدوية المفردة) وهو أكمل ما ألفه العرب في هذا الحقل وأكثره تفصيلاً وفيه أكثر من ثلاثمائة مادة دوائية جديدة لم يشر إليها أحد من قبله. وكان في أثناء إقامته في مصر يعمل رئيساً للعشابين وعلماء النبات وأصحاب الاهتمامات خلال فترة حكم الملك الأيوبي الكامل^(١).

وفي الرياضيات اشتهر من علماء المغرب السموال بن يحيى المغربي نزيل بغداد في القرن السادس الهجري، الذي برع في العلوم الرياضية فبلغ في العدديات مبلغاً لم يصله أحد وبخاصة في علوم الجبر. وهو صاحب كتاب (القوافي في الحساب) الذي يعد أهم كتبه التي قيل أنها بلغت خمسين كتاباً. وفي ميدان الفلك اشتهر في مصر ابن أبي حجلة التلمساني، الذي ألف كتاباً واحداً سماه (النحر في أعمدة البحر)^(٢).

وفي مجال علم الكيمياء لم يتمكن المغاربة من العمل بحرية تامة، ذلك لأن هذا العلم كان من العلوم المخطرة، الأمر الذي أدى ببعض العلماء إلى حد الرعب والذعر، كما حدث لابن عربي المتصوف المشهور صاحب مذهب وحدة الوجود، الذي عبر من خلال مذهبه على شجاعة فائقة حينما تحدى الفقهاء الجهلة، فلم يلتفت إلى الحملة التي قادوها ضده، ومع ذلك فإنه لم يتجرأ على العمل في مجال الكيمياء أو على الأقل الاهتمام فسي واحد من موضوعاتها المختلفة، وهو الذي ذكر في عدة مواضع، أنه كان يعرف الاسم الأعظم ويعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب^(٣).

(١) - تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٧٩. وانظر كتابنا: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) - حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٢١٢.

(٣) - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ص ١٧١.

أما في ميدان العلوم اللغوية، فقد كان الأمر يختلف عن العلوم التطبيقية، وتجسد ذلك بهجرة عدد كبير من علماء المغرب والأندلس في عصر الموحدين إلى المشرق، وعملوا هناك بحرية تامة، وتفوقوا في بعض الأحيان على نظرائهم من أهل المشرق، نذكر منهم على سبيل المثال، النحوي المغربي يحيى بن عبد المعطي الزواوي، الذي اشتهر بابن معطي المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٣م بمدينة القاهرة. وقد اشتهر من خلال كتابه (الألفية) الذي يُعد أول مؤلف من هذا القبيل. ولا يستبعد أن يكون ابن معطي هو الذي أوحى لابن مالك أن يؤلف ألفيته المشهورة^(١) وقد عاش ابن مالك بمدينة دمشق ومات فيها، وبرز كمؤلف ومدرس في ميدان النحو فكان لا يجارى في ذلك، وترأس مشيخة النحو فسي المدرسة العادلية بدمشق. ومن أشهر كتبه (الخلاصة) وهو الكتاب الذي عرف بالألفية^(٢).

وكذلك الأمر فقد اشتهر كثيرون في ميدان العلوم الدينية، وخاصة في مجال الحديث، نذكر منهم المحدث الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية المتوفى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، الذي ترأس المدرسة الكامليية بالقاهرة^(٣) والمحدث محمد بن أبي بدر الشاطبي المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، الذي تسلم مشيخة الحديث في مدرستين، واحدة بمدينة حلب وهي المدرسة البهائية، والثانية مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة^(٤).

وفي العلوم الاجتماعية اشتهر عدد من المؤرخين والجغرافيين ولاسيما الرحالة. فمن المؤرخين كان علي بن سعيد المغربي الذي ألف عدة كتب، جمعت في طياتها معلومات قيمة عن المشرق والمغرب على حد سواء مثل كتاب (المشرق في حلى المشرق)، وأبو الوليد الطرطوشي الذي عاش بمدينة

(١) - الباقعي المكي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج ٤، ص ٦١.

(٢) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) - العبريني، عنوان الدراية، ص ٢٢٨.

(٤) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١، ص ١٣٤.

الإسكندرية، وهو صاحب الكتاب المشهور (سراج الملوك) الذي يُعد فريداً في مضمونه وأهدافه^(١). وعبد الواحد المراكشي، الذي هاجر إلى بغداد وعاش فيها، حيث ألف كتابه في التاريخ (المعجب في تلخيص أخبار المغرب).

وفي الجغرافية اشتهر في هذا العصر ابن جبير الأندلسي، الذي زار معظم مناطق مصر والشام والحجاز والعراق، وقد قام بتدوين مشاهداته في كتابه الرحلة، التي تعد موسوعة عن المشرق، شملت جميع نواحي الحياة^(٢). وعلي بن سعيد المغربي، الذي زار معظم المناطق التي زارها ابن جبير، لكنه لم يصل إلى درجة ابن جبير، الذي تميز بدقته وشمولية معلوماته.

يضاف إلى هؤلاء العلماء مجموعة كبيرة من المغاربة والأندلسيين هاجروا إلى المشرق وعملوا في مجالات إدارية وسياسية وخدمية عامة.

ففي المجال الإداري عملوا في معظم مجالاته، وكان في طليعته ذلك منصب القضاء على المذهب المالكي ثم على المذهب الشافعي وقد ظهروا على هذا الصعيد منذ نهاية العصر الموحدوي وهو ما سنتحدث عنه في فترة لاحقة. وكذلك الأمر في المجالات الإدارية الأخرى، فقد بدأ المغاربة يتسلمونها في الشام ومصر وغيرهما منذ نهاية العصر الموحدوي، الأمر الذي سنتحدث عنه بشيء من التفصيل في مكان لاحق. وفي حقل السياسة والتعاون بين المغرب والأندلس والمشرق، فإن ذلك لم يحدث بشكل واقعي يمكن أن نتوقف عنده باستثناء تلك المحاولة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، حينما أرسل سفارة إلى بلاط الموحدين وطلب منهم مساعدته في كبح جماح الحملات الفرنجية الواردة من الغرب، لكن هذه السفارة لم تحصل على وعود إيجابية وتسذرع الموحدون بحجج لم تكن مقنعة في ذلك الوقت.

(١) - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٢) - رحلة ابن جبير، ص ١٣ وما بعدها.

ومع ذلك فقد بدأ المغاربة والأندلسيون يشاركون في الدفاع عن الشام ومصر ضد هجمات الفرنجة، ولكن ذلك لم يحدث بتوجيه من الحكام، بل كان عبارة عن مبادرات فردية محضة، مثلها في هذه الفترة خير تمثيل يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي حينما حاول الفرنجة احتلال مدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م، فقد اندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق آنذاك وهي عدم الاشتراك في الحرب، لكنه مضى إلى غايته بكل رغبة وقبول، وقاتل رحمه الله حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة في غرب مدينة دمشق، وحمل جثمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن. ويُعد من الشخصيات المغربية التي طار ذكرها على صعيد مدينة دمشق، وظل قبره يزار فترة منتهى عام بعد وفاته^(١).

وقد أشار ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى الشام، إلى أن مجموعة مغربية كبيرة كانت قد اشتركت في الجهاد ضد الفرنجة في هذه المرحلة بالذات بوصفهم محاربين أساسيين وكمراقبين للجيش يقومون بتقديم الخدمات، التي لا تقل عن غيرها في ساحات القتال وهذه المشاركة الطبية للمغاربة، جعلت من حكام مصر والشام ينعمون على المغاربة بالاحترام والمودة والمساعدة في كل ميدان، لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية، التي نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها على أنها تعبير عن المكافأة على خدماتهم والرغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه^(٢).

بقي أن نذكر أن أكبر مجموعة مغربية، كانت تلك المجموعة التي اشتغلت في مجالات الخدمة العامة، كالعامل في حراسة طاحونة ما أو بستان أو

(١) - القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٩. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ١، ص ٢٠٠. معجم البلدان مادة فندلاو، الذمهي، المعبر في خبر من غير، ج ٤، ص ١٢٠.

(٢) - انظر عن ذلك كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ٣٠٢ وما بعدها.

حمام أو مطبخ إلى غير ذلك . وقد دفعهم إلى ذلك أن ظروفهم العامة، لم تكن تساعدهم أو تؤهلهم لشغل مناصب على مستوى أرفع وأفضل مردوداً كالعامل في التدريس أو التجارة. وقد اشتغل في هذا الميدان كبار العلماء والشخصيات المغربية في المشرق العربي حينما كانت ظروفهم تتعثر^(١).

وفي هذه الفترة بالذات قُدر للمشرق أن يتعرف على طرق جديدة من التصوف العام والفلسفي، بواسطة علماء مغاربة وأندلسيين هاجروا إلى المشرق العربي، ونشروا فيه مذاهبهم الصوفية على الرغم من وقوف الكثيرين من الفقهاء ضدهم. من هؤلاء الشيخ محيي الدين بن عربي القائل بوحدة الوجود، هذه الفكرة التي كانت في هذه الفترة من المفاهيم الغربية والجديدة على المجتمع بشكل عام. ويُعد ابن عربي هذا أعظم شخصية أندلسية سكنت بلاد الشام ومصر في العصور الوسطى، من حيث تأثير إنتاجه وأفكاره التي جاء بها، والتي كانت مثار جدل ونقاش دام عدة قرون بعد وفاته وما زال حتى أيامنا هذه. وأهم كتبه التي جسدت مذهبه في وحدة الوجود هي كتاب (فصوص الحكم) وكتاب (الفتوحات المكية) . ومهما يكن من أمر فإن ابن عربي يُعد بحق من عظام المغاربة والأندلسيين سكان المشرق العربي، الذين استطاعوا أن يتركوا بصمات خالدة على جبين الحضارة الإنسانية وذلك بغض النظر عن أقوال الحاقدين والشناع، الذين لم ينصفوه بشيء^(٢).

٣- في عصر الدول المستقلة التي ظهرت بعد سقوط دولة الموحدين:

كان الوجود المغربي في أقطار المشرق العربي في هذا العصر من أهم الملامح التي تثير الانتباه، في إطار العلاقات بين المغرب والمشرق. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل بشكل خاص على أن الوطن العربي الكبير هو وحدة واحدة

(١) - الطرطوشي، سراج الملوك، رحلة ابن جبير، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) - انظر عنه تفاصيل واسعة في كتابنا: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ١٧٣ وما بعدها.

لا تتجزأ، ولا يمكن لأي قطر من أقطاره أن يستقل أو يستغني عن الأقطار الأخرى. من ذلك نرى أن مجموعة كبيرة من المغاربة في هذه الفترة، أحببت أن تعيش في معظم أقطار المشرق، بعد أن رأّت صعوبة في العيش في أقطار المغرب، التي لم تتمكن من تحقيق تعاون وثيق يحقق لسكانها الرخاء والحبوحة. وقد كانت هذه المجموعة متنوعة الاختصاصات والاهتمامات، إلى درجة أنها شملت جميع مناحي الحياة العامة، الأمر الذي انعكس إيجاباً على الحياة المشرقية.

فكانت منهم مجموعة من العلماء المبرزين على كل صعيد. ففي مجال الطب اشتهر منهم الطبيب أحمد المغربي الإشبيلي، الذي توصل إلى رئاسة الأطباء بمصر في أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي^(١) والطبيب شهاب الدين أحمد بن المغربي، الذي ترأس هو الآخر أطباء مدينة القاهرة. لكن الذي اشتهر أكثر هو ابنه إبراهيم بن أحمد المعروف بابن المغربي جمال الدين رئيس الأطباء بالديار المصرية، الذي عُرف بعلمه وباختصاصه في الإشراف على شؤون السلطان الطبية^(٢).

وفي مجال علوم اللغة العربية، برزت منهم مجموعة مهمة كان لها دور فعال في هذا الشأن، كان في طليعة أفرادها ابن مالك النحوي نزيل دمشق رئيس المدرسة العادلية في حقل النحو صاحب المؤلفات النحوية المبتكرة كالألفية وغيرها^(٣).

ومحمد بن يوسف أنير الدين أبو حيان الغرناطي نزيل مدينة القاهرة المتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م، الذي طارت شهرته في ميدان علم النحو فوصف

(١) - أحمد عيسى، ذيل عيون الأبناء في طبقات الأطباء ص ١٢٥.

(٢) - السخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٢١.

(٣) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٣٥٩.

أنه إمام الدنيا فيه، فقد ألف العديد من الكتب وشرح بعض مؤلفات غيره، وتخرج به تلامذة كبار في مصر والشام^(١).

وفي علم الأدب اشتهر الأديب الشاعر محمد بن سعيد المعروف بالبوصيري المتوفى بصعيد مصر سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م. وكانت شهرته مسن خلال قصيدته التي سماها (البردة) وهي التي نصيها في مدح الرسول ﷺ إثر إصابته بفالج نصفي على حين غرة، وقد شفي على أثر ذلك. وكذلك الشاعر الشاب الطريف ابن عفيف الدين التلمساني نزيل دمشق، وقد وصف شعره بالقوة والجزالة والبيان^(٢). وابن أبي حجلة التلمساني المتوفى بالقاهرة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م، الذي عارض في بعض قصائده قصائد الشاعر الشهير ابن الفارض الصوفية، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة في مختلف صنوف الأدب، كديوان الصبابة ورسالة الهدد وكتاب السكردان وغيرها^(٣).

أما العلوم الدينية فقد كان حظها وافراً من المغاربة ففي الحديث ظهر منهم بعض الحفاظ الكبار من أمثال فتح الدين محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤هـ/١٣٧٨م الذي تسلم مشيخة الحديث في عدد من مدارس القاهرة^(٤).

والقاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م، الذي عدّ من كبار مغاربة المشرق في الحديث، فكان يلقب بحافظ الشام ومحدثها^(٥). وقام المغاربة بتفسير القرآن الكريم، كما فعل محمد بن أحمد القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م، وسمي تفسيره (الأسما في أسماء الله الحسنى). وكذلك فعل

(١) - شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٤٥.

(٢) - الدرهمي، العبر، ج ٥، ص ٣٥٩.

(٣) - النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٣١.

(٤) - الوافي بالوفيات، ج ١، ص ٣٨٩.

(٥) - ذيل تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ١٩.

أثير الدين أبو حيان النحوي الذي كان يدرس مادة التفسير بالمنصورة بالقاهرة^(١). ومحمد بن علي المعروف بابن النقاش المتوفى سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٣م، الذي فسر القرآن بكتاب سماه (اللاحق السابق) الذي قيل فيه أنه لم يعتمد على كتاب آخر^(٢).

وفي حقل العلوم الاجتماعية برزوا في ميدان التاريخ وعلم الاجتماع. ففي التاريخ قام كثيرون منهم بوضع مؤلفات تاريخية بالغة الأهمية، نذكر منهم علي بن سعيد المغربي، الذي ألف عدة كتب، اشتملت على معلومات هامة عن المشرق العربي مثل كتابه، (المشرق في حلى المشرق) تناول فيه بحث شؤون المشرق، وهو شبيه بكتابه الآخر (المغرب في حلى المغرب) وكتاب (القدح المعلى في التاريخ المحلي) وكتاب (رايات المبرزين وغايات المميزين) وغيرها^(٣).

وابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م، الذي تلقى جل معرفته العلمية في بلدان المشرق حتى استقر به المطاف بمدينة القاهرة، وكان من المقربين لرجال الدولة، وحصل على مكانة رفيعة عندهم. وأهم كتبه التاريخية هو كتاب (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) ومختصره (نور العين). فالأول يبحث في غزوات الرسول ﷺ وحروبه وتاريخ الدعوة الإسلامية حتى وفاته ﷺ. وقيل أنه ألف كتاباً ثالثاً هو (نور العيون في سيرة الأئمة والمؤمنين) وهو من الكتب المفقودة^(٤).

أما المؤرخ المغربي الأشهر والأهم، فهو علم الدين القاسم البرزالي، الذي أرخ لأحداث جرت في حياته وكان شاهداً عياناً عليها. وأهم كتبه في هذا الميدان كتاب (التاريخ) الذي ذيل به على كتاب (الروضتين) لأبي شامة

(١) - شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٤٦.

(٢) - شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٩٨.

(٣) - ابن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ١٦ وما بعدها.

(٤) - البيهقي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص ٢١٦ وما بعدها. الكتبي فولت الوفيات، ج ١، ص ٧١.

المقدس. ويبدأ هذا الكتاب بسنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهي السنة التي وصل إليها المقدسي، وينتهي في حوادث سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م. والموجود من تاريخ البرزالي هذا عبارة عن مجلدين مخطوطين يؤرخ فيهما حتى سنة ٧٢٠هـ. وله كتاب آخر هو (المعجم) الذي ترجم فيه للمشايخ والمدرسين، الذين أخذ عنهم علمه خلال رحلاته الطويلة في المشرق، وهو على غرار كتب التراجم^(١).

ومنهم أيضاً الأديب أبو حيان أثير الدين الذي ألف كتاباً في التاريخ هو كتاب (النضار في المسألة عن نضار) وهو كتاب تراجم لعلماء سبقوه ولعلماء عاصروه مغاربة ومشاركة^(٢) ومثله كان الأديب ابن أبي حجلة التلمساني، الذي ألف كتاباً تاريخياً وأديباً سماه (سكردان السلطان) ألفه للسلطان الناصر حسن بن الناصر بن محمد بن قلاوون. ويُعد من الكتب المبتكرة في منهجه وأسلوبه. ويحتوي على أخبار مختلفة من الجد والهزل مع نصائح وسير لبعض الملوك والدول منذ القديم حتى عصره^(٣).

وكتب ابن خلدون كتاباً اشتهر بعد إقامته بالقاهرة وهو كتاب (العبر والمبتدأ والخبر) الذي يُعد من خيرة كتب التاريخ في العصور الوسطى، لأنه شمل أحداث التاريخ العربي والإسلامي حتى عصر صاحبه، وكان ابن خلدون يريد من خلال هذا الكتاب أن تعود اللحمة إلى الكيان العربي الإسلامي، الذي كان يعاني في عصره من أشد الأمراض، التي تجسدت بالانقسامات والتشردم. وله كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) وهو يعكس فيه الحياة العامة في عصره في المغرب والمشرق على حد سواء^(٤).

(١) - انظر مخطوطة درة الأسلاك حوادث سنة ٧٣٩ ورقة ٢٢ .

(٢) - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٧٣-٧٤.

(٣) - ابن أبي حجلة التلمساني، سكردان السلطان، ص ٣٤٩.

(٤) - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، من أول الكتاب إلى آخره.

في خاتمة هؤلاء المؤرخين، محمد بن أحمد الفاسي نزيل مكة المكرمة المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م، الذي صنف كتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) في مجلدين، وكتاب (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) وهو كتاب تراجم يشتمل على سير وأخبار آل البيت والصحابه وخلفاء قريش من كنانة وخزاعة وجماعة من ولاية مكة وقضااتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها، وجمع من العلماء والرواة والقاطنين بها والواردين إليها، ومن وسع المسجد الحرام إلى غير ذلك^(١).

وفي ميدان علم الاجتماع فقد كان الأمر رائعاً، حينما ابتكر المغاربة هذا العلم لأول مرة في تاريخ البشرية على يد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، الذي وضع فيه كتاباً هو مقدمة كتابه التاريخي (العبر) وتبحث هذه المقدمة في طبيعة العمران، ويشمل ذلك كل أنشطة البشر على الأرض. لذا فقد عُد ابن خلدون مبتكر علم الاجتماع بلا منازع. يقول المقرئ عن مقدمته: (لم يعمل مثلاً وأنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها إذ هي زبدة المعارف والعلم ونتيجة العقول السليمة)^(٢).

ومن المغاربة الذين عاشوا في المشرق في هذه الفترة، كانت مجموعة من الإداريين شغلوا مناصب رفيعة ومارسوا أعمالاً هامة في كل صعيد إداري. كان في مقدمة ذلك أولئك الذين عملوا في مجال القضاء المالكي والشافعي. فقد تولى كثير من المغاربة منصب قاضي قضاة المالكية في مصر والشام في عصر المماليك. ولم يلتزم معظم هؤلاء القضاة بتطبيق القانون القائم على تحقيق العدل والإنصاف، بل راحوا يستخدمون سلطاتهم القضائية من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة، فأخذوا الرشوة وحابوا في قضائهم رجال الحكم والشخصيات المؤثرة

(١) - طبع هذا الكتاب في المملكة العربية السعودية في عدة أجزاء.

(٢) - السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ١٤٧.

في المجتمع، وكانوا في ذلك يسبرون على النهج العام الذي ساد في عصر المماليك على صعيد القضاء، الذي كان يباع ويشترى وكأنه سلعة مادية معينة. ومن عرّف من القضاة المغاربة عن هذا الأسلوب المخزي، فقد تميز بالصلافة والشدة في الأحكام. فكل الجرائم الكبرى في عصر المماليك كانت تحال إلى القاضي المالكي، كالارتداد عن الإسلام والزندقة وشتّم الرسول الكريم ﷺ وما إلى ذلك، وكانت أحكامهم لمن يأتي على هذه المسائل تتجسد بالموت. وقد طبقوا ذلك على المسلم والذمي دون تفریق^(١). وإن الشيء اللافت للانتباه هنا، أن جميع القضاة الذين التزموا جانب الحق والصدق والأمانة، تعرضوا للإهانة والذلة وانتهت حياة بعضهم نهايات محزنة مثل العزل والطرْد وما إلى ذلك^(٢).

وعمل قسم من هؤلاء القضاة في مجال القضاء الشافعي، ولكن هؤلاء كانوا قليلين بالمقارنة مع الذين عملوا في القضاء المالكي، هذا بالإضافة إلى أنهم لم يعملوا في المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق وحلب والإسكندرية وبيت المقدس، بل عملوا في الحواضر والبلدات البعيدة^(٣).

وعمل المغاربة بعد القضاء في المجال العسكري كما كان الأمر في العصور السابقة. وكانت هذه الأعمال جماعية وفردية وفي أساليب مختلفة. ففي بلاد الشام نرى أمثلة واضحة تعكس هذا الواقع الطيب. فقد تطوع القاضي المالكي مع مجموعة من المغاربة في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م وكانوا بدمشق آنذاك، للدفاع عن مدينة بيروت ضد الفرنجة. وحينما أحْدَقَتْ جيوش التتار بالشام، وداهم خطرهما دمشق وحلب، كان المغاربة في طليعة المدافعين عن

(١) - البوليبي، ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٦٨. ذيول العبر، ص٢٩.

(٢) - ابن تغري بردي، للنجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٩ وما بعدها.

(٣) - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٥٩.

هاتين المدينتين، نذكر من هؤلاء القاضي المالكي بدمشق إبراهيم بن محمد الشاذلي الذي توفي متأثراً بجراحه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م^(٩).

وكان بعضهم يتكفل بتقديم الأموال لتجهيز المقاتلين بالسلاح، كما فعل محمد بن محمد المغربي، إمام محراب المالكية بدمشق المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م^(١٠).

وقد أسهم المغاربة في الدفاع عن الشام على وجه آخر، يختلف عن الوجوه السابقة الذكر. وقد تجلّى هذا الوجه بالدبلوماسية الفذة، التي بذلها العلامة ابن خلدون لدى تيمورلنك، الذي كان جيشه قد احتل مدينة دمشق حتى سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، فقد جاء ابن خلدون من مصر مع جيش السلطان الناصر فرج، الذي لم يشتبك مع جيش تيمورلنك. فقد دخل ابن خلدون في ظلمة الليل من فوق أحد أسوار المدينة مشدوداً بالحبال، فسقط في قبضة الحرس، وتخلص منه وتقدم إلى تيمورلنك والتقى معه، وقد بُهر تيمور بحديث ابن خلدون ورأيه الشديد وتوجيهاته الغالية، وبخاصة دعوته لتيمورلنك إلى غزو المغرب والسيطرة عليه، وذاكره بعد ذلك في مسألة التوقف عن استباحة مدينة دمشق وتدميرها، ورغم أن معظم أجزائها كانت قد دمرت، فقد أدى تدخل ابن خلدون عند تيمورلنك إلى التخفيف من هذا التدمير^(١١).

وقد تجسد وجود المغاربة في مصر خلال هذا العصر في ميدان سلاح البحرية وبخاصة بمدينة الإسكندرية القاعدة البحرية الهامة، التي كانت تنطلق منها القطع البحرية المصرية في البحر المتوسط. وقد توصل بعض المغاربة إلى

(٩) - ابن عريشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص ٩٨.

(١٠) - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٥٠-٣٥١.

(١١) - محمود الباجي، عبد الرحمن بن خلدون، ص ٥٨. ابن عريشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص ٩٨ وما بعدها.

أرفع المناصب القيادية في بحرية مصر العسكرية، مثل شهاب الدين أبو العباس المغربي، الذي توصل إلى منصب قيادي رفيع حتى كان يُدعى بالرييس. وكذلك الحاج محمد التازي المغربي، الذي تسلم قيادة أسطول مصر سنة ٦٧٩هـ/١٣٦٨م. ويبدو أن معظم البحارة الذين وجدوا بصورة دائمة في مواقع البحرية بمدينة الإسكندرية كانوا من المغاربة. وقد دلت الأحداث التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في أعمال البحر، أنه لم يكن في سلاح البحرية المصرية أشجع من أهل المغرب^(١).

يضاف إلى ذلك أن المغاربة في هذه الفترة، توصلوا إلى تسلم عدد من المهام الإدارية العالية في مصر والشام، على الرغم من أن مثل هذه المهام كانت في معظمها حكراً على المشاركة، الأمر الذي يعكس بوضوح ثقة حكام المشرق في أمر الاعتماد على المغاربة في بعض الوظائف الكبرى. فعملوا في دواوين الكتابة بالقاهرة وغيرها من الحواضر المصرية، كالבוصري المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م الذي عمل في محافظة الشرقية في كتابة ديوانها، وأبو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني المتوفى سنة ٦٩٤هـ/١٢٥٩م، الذي تسلم أمانة سجن القاهرة. والأمير بدر الدين المغربي المتوفى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، الذي استلم منصباً رفيعاً جداً هو منصب الدوايرية، الذي لم يتسلمه مغربي غيره، لأن مثل هذا المنصب غالباً ما كان يسند إلى المقربين من السلطان وحاشيته. وعبد الواحد بن إسماعيل المغربي المتوفى سنة ٨٧٦هـ/١٣٨٤م، الذي شغل منصب كتابة السر عند السلطان، وهو أكبر المناصب الإدارية وأخطرهما لقربها من السلطان^(٢).

(١) - ابن جبير، للرحلة ص ٣٤-٣٥. البونيني، ذيل مرآة الزمان ج ٣، ص ٨٦. المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣، ص ١١٣ أو ١٢٩ أو ١٥٩.

(٢) - ابن حجر، الحفلاتي، أقباء المعمر بأبناء المعمر، ص ٢٥٩. السلوك لمعرفة دول الملوك، قسم ٣، ج ١.

ولا بد أن نذكر طالما نتحدث عن الإدارة المغربية في المشرق أن بعض المغاربة ولاسيما في مصر، كانوا يطمحون إلى استلام قيادة الدولة بدلاً من المماليك، الذين كانوا في نظر هؤلاء المغاربة مغتصبين يجب التخلص منهم، وهذا شعور كان في قمة الوعي والنضوج والمسؤولية.

فقد تدخلت مجموعة من هؤلاء المغاربة في السياسة العامة للدولة فسي عصر المماليك، لكن هذه المجموعة كانت قليلة من حيث عددها. وكان لأفراد هذه المجموعة رأيها الخاص في هذا المجال، فكان الواحد منهم طموحاً لتولي السلطة، الأمر الذي ندر عند المشاركة. وقد عُدَّ تدخلهم في شؤون السياسة، التي كانت تنتهجها طبقة الحكام آنذاك من أشد الأمور مساساً بمركز السلطان، ذلك لأنه لم يسبق لأحد أو جماعة أن تدخلت في شؤون السلطنة من أهل البلاد الأصليين.

فبلغ الأمر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة أن أرجعوا سوء الحالة الاقتصادية ونفاق الأمور وتدهورها إلى سياسة السلطان نفسه، فقد اتهم مغربي جريء السلطان بأنه السبب فيما وصلت إليه حالة الاقتصاد من سوء وتدهور وتحمس بصورة كبيرة لهذه القناعة التي تكونت عنده، حتى أخذ يسدعو الناس بالقاهرة للتخلص من السلطان في سنة ٧٧٥هـ - ١٣٧٤م، التي عمت خلالها موجة من الغلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها. وبلغ الأمر بهذا المغربي، الذي لم يذكر المقرئزي اسمه إلى التوجه إلى مكان قريب من القلعة وبدأ يحرض الناس علانية على قتل السلطان والاستخلص منه، لأن في ذلك مفتاح حل الأزمات التي تعاني منها البلاد في ذلك الوقت^(١).

وقد جرت حادثة أخرى تدخل من خلالها المغاربة في أمور السياسة، كانت من أخطر الحوادث على الإطلاق على مستقبل السلطان المملوكي والحكم

(١) - المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، قسم ١، ص ٢٢٦.

بصورة عامة. وكان بطلها أحد المغاربة، الذي قام بالتخطيط مع بعض أمراء العرب (البدو) للإطاحة بالسلطان المملوكي والتخلص من حكم المماليك نهائياً. لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق والارتكاز على ثوابت موضوعية ما يمكن صاحبه من الوصول إلى هدفه. وكان أن أخفقت أول وآخر محاولة من هذا القبيل، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن المغاربة تفوقوا على إضرابهم من المشاركة. وصاحب هذه المحاولة الفريدة هو جمال الدين محمد العنابي المتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م. فقد اتفق مع الأمير البدوي العربي موسى بن محمد بن عيسى الذي كان في سجن المماليك بأمر السلطان برقوق، وعرض عليه أن يخبر جميع أنصاره بأن يحضروا إلى قريب من القاهرة وينتظروا حتى يخرج السلطان، الذي كان على وشك الخروج إلى الشام، ومن ثم يهاجمون القاهرة يدعمهم في ذلك خمسمئة مملوك بقيادة العنابي من داخلها ويسيطرون عليها. وإذا نجحت المحاولة يعلن العنابي نفسه خليفة، ويقوم بتعيين سلطان جديد، وكذلك يعين شهاب الدين بن قايمار أتابكاً للجيش. لكن الأمير السجين لم يوافق على الخطة لأنه على ما يبدو لم يعطه العنابي منصباً قيادياً كبيراً، فلم تذكره العنابي إلى من أوصلها إلى السلطان الذي أمر باعتقال العنابي، وصدر الأمر السلطاني بقتله^(١). وبذلك انتهت أول محاولة تجرأ مغربي على القيام بها .

(١) المقرئبي، الملوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، قسم ٣، ص ٥٩٤.



الفصل الحادي عشر

تعاون المغاربة مع المشاركة في الحروب الفرنجية

في الحديث عن المساهمات الأندلسية والمغربية في عملية الجهاد ضد الفرنجة على مسرح بلاد الشام- مصر، في الحروب الفرنجية، لا بد من الإشارة أولاً إلى أن الأندلسيين والمغاربة الذين أسهموا في تلك العملية، غادروا بلادهم إلى المشرق العربي مهاجرين يشدون الاستقرار والحياة الآمنة، ولم يغادروا مستهدفين الحرب والجهاد.

وقد دفعتهم إلى هذه الهجرة عوامل متعددة، داخلية وخارجية. فمن العوامل الداخلية عدم الاستقرار، وما ألم بالمجتمع العربي في الغرب من قلق واضطراب وانقسامات حادة، ارتبطت في التاريخ بقيام ملوك الطوائف ثم قيام حكم المرابطين بين سنتي ٤٨٥ - ٥٤١ هـ/ ١٠٩٢ - ١١٤٦ م، ثم حكم الموحدين بين سنتي ٥٤١ - ٦٦٨ هـ/ ١١٤٦ - ١٢٧٠ م، ولا يخفى علينا أن كل عصر من هذه العصور وكل دولة من تلك الدول كان لها أنصارها وأتباعها ومؤيدون لها والمعارضون لغيرها، مما أوجد أحزاباً وآثار خصومات على أرض الأندلس بين المسلمين بعضهم وبعض وربما جاءت هذه الخصومات مصحوبة بتباين في فهم العقيدة وتطبيقها، فبينما كانت حركة المرابطين، مثلاً حركة فقهية مالكية، مثلها الأعلى تطبيق الشريعة الإسلامية وفق أحكام المذهب المالكي، إذا بحركة الموحدين تجمع بين كل تيارات الفكر الإسلامي المعاصر^(١) وهكذا ظهر في الأندلس بعد قيام حكم المرابطين جماعة تدعى بالولاء السياسي للحكم البائد ممثلاً في ملوك الطوائف، كما ظهر مرابطون مؤيدون عارضوا حكم الموحدين. ولا

(١) - أحمد بدر، المغرب والأندلس، طبعة جامعة دمشق، ص ١٥٣ (١٩٧٤-١٩٧٥).

شك في أن هذه التيارات المعارضة كان لها أثرها في إثارة التصدع في بناء المجتمع، بحيث تعذر توفير الاستقرار في عصري المرابطين والموحدين على حد سواء.

وهذا الوضع من عدم الاستقرار دفع بعضهم إلى الهجرة وترك البلاد وخاصة نحو الشرق. ومن هؤلاء المهاجرين نذكر على سبيل المثال والد أبي بكر ابن العربي، الذي كان أحد الرجال الأقطاب المعروفين في إشبيلية، ولكنه غادر على أثر سقوط دول الطوائف خوفاً من المرابطين^(١) وعند سقوط دولة المرابطين، عمل أميناً لربوة دمشق، وفيها مثل الرجل الذي يشعر بمسئوليته تجاه رعاياه، فكان يعمل لتدبير أمور القادمين من الأندلسيين، الذين أصبحوا بدون أرض ولا مأوى فيقول: والأمين فيها (أي الربوة) الآن من بقية المرابطين المسوفيين^(٢) ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة، وله في الشهر خمسة دنائير حاشاً فائدة الربوة، وهو متسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من أسباب البر في إيواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعاش من إمامة في مسجد أو سكنى بمدرسة، تجري عليه فيها النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع، يجبى إليه فيها رزقه، أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، ويجرى عليه ما يقوم من أوقافه، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه^(٣).

(١) - المقري، نفح الطيب من الأندلس الرطيب، ج٢، تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت سنة ١٩٦٨، ص٣٤.

(٢) - المسوفيون نسبة إلى مدينة مسوف من بادية التكرور، انظر تحقيق حسين نصار لرحلة ابن جبير،

ص٢٦٦.

(٣) - رحلة ابن جبير، الأندلس، طبعة بيروت سنة ١٩٥٩، ص٢٥٠، وانظر أيضاً ابن الأثير: الكامل في التاريخ

ج٩، طبعة بيروت، ١٩٦٦.

ولعل أوضح مثال على اضطراب الحالة السياسية في الأندلس عندئذ ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين إذ يقول : (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي من أخلاق الأديب رضاعتي....)^(١) وقد عبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال إجابته عن سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء، خواض للدماء، مصلط على من فوق الماء، حكم سيفه في المعمم، وأعمه في رقاب الأمم.... ولو أن للعلم لساناً والورق إيماناً لتألمت وتظلمت ولأنشدتك في الملا قول الشيخ أبي العلاء:
جلوا صارماً وتلوا باطلاً
وقالوا صدقنا فقلنا نعم

"ولكن السكوت على هذا أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح")^(٢)

ومن المعروف أن الموحدين نظروا إلى الذين خالفوهم في الأفكار والمبادئ نظرة معادية، اتسمت بالحقْد والكرهية، فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار الذعر والخوف، في نفوس كثيرين. من ذلك ما حدث لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن فيرة القرطبي، الذي وصف المقرئ أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج في الفتنة بعدما علا ذكره في قرطبة، وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي. ثم قال، كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ثم سافر إلى مصر وأقام بها مدة، ثم قال: فوالله، ما مصر والإسكندرية، بمبتاعدين، ثم سافر إلى الصعيد، وحدث بقوص بالموطأ ثم قال: والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد، فمضى إلى مكة وأقام بها ثم قال: ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن، فلما رآها قال: هذه

(١) - منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش، طبعة للقاهرة سنة ١٩٦٨،

ص ١٠.

(٢) - الوهراني، المصدر السابق، ص ١١.

أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١هـ/١١٤٧م وقيل مات باليمن^(٣).

وبالإضافة إلى هذه الأوضاع الداخلية القلقة التي دفعت بكثير من الأندلسيين إلى الهجرة، وجدت عوامل أخرى خارجية تمثلت في الزحف الإسباني الجاد والمنظم باتجاه معازل العرب في الأندلس، والاستيلاء عليها واحداً تلو الآخر وبشكل نهائي. ولم تحل سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م حتى وقعت معظم المدن الأندلسية الكبرى تحت وطأة الاحتلال الإسباني، إذ استولى الإسبان على لوشة وبظليوس وقرطبة وشاطبة وبلنسية ومرسية وإشبيلية، وعلى شلب وطلبيرة. وهكذا لم يبق بيد العرب غير غرناطة وضواحيها تحت حكم بني الأحمر. ولبت الأمر توقف على الاحتلال فحسب. بل تبعته إجراءات قاسية، حيث فرضت على كل من أثر البقاء من العرب في مدنها شروط بلغت حدّاً من الإهانة والشراسة ما لا يطاق بأي حال من الأحوال، فقد أجبروهم على وضع إشارة على ثيابهم تميزهم عن غيرهم من السكان، وإنه لا يجوز لمسلم أن يستخدم مسيحياً على الإطلاق ومن يخالف هذا الأمر تصادر أملاكه، ومن يفر منهم إلى بلاد المسلمين، يعد أسيراً في حال القبض عليه، وبالتالي يصبح ملكاً لمن قبض عليه من الإسبان، إلى غير ذلك من الإجراءات الظالمة غير الإنسانية^(٤). وتحت تأثير هذه العوامل مجتمعة أصبحت الهجرة جماعية أكثر من أي وقت مضى، وهذا ما يظهر بجلاء من خلال تتبع الأندلسيين، الذين وفدوا إلى بلاد المغرب، أو الذين وفدوا إلى المشرق العربي، وذلك في الفترة التي تبدأ من نهاية الثلث الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ففي هذه الفترة كثرت أعدادهم

(٣) - نفح للمطيب، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٠، وانظر أيضاً ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب طبعة أولى مصر، ١٣٥١هـ، ص ٣٢١-٣٢٢.

(٤) - محمد لييب البتوني، رحلة الأندلس، طبعة الكشور، سنة ١٩٢٧، ص ١٣٧.

بشكل يستلقت النظر، لا يمكن مقارنته بما حدث في الفترة السابقة، وبخاصة على صعيد بلاد الشام ومصر موضوع هذا البحث.

ومهما يكن الأمر، فقد ارتبطت بهذه العوامل نتيجة واحدة، تجلت في ضياع الجزء الأكبر من أرض العرب في الأندلس، وبالتالي بتشريد وإجبار أعداد كبيرة من الأندلسيين على النزوح عن أراضيهم إلى بلدان عربية وإسلامية متعددة، ولا سيما بلاد المشرق بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص. وعندما اقتصر حكم العرب في الأندلس على غرناطة وضواحيها، لم ينعم أهلها من العرب بالاستقرار الحقيقي الكامل، وإنما غلب القلق وعدم الاستقرار على حياتهم العامة بسبب الحروب، التي لم تنقطع تقريباً بينهم وبين الإسبان. وظل الأمر على ذلك حتى سقوط غرناطة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، لذلك استمر النزوح منها تحت هذه العوامل.

وفي مقابل هذه العوامل السلبية القاهرة، التي حدثت على الساحة الأندلسية بشكل خاص، كانت هناك عوامل مشجعة وإيجابية في كل بلدان المشرق العربي، ساعدت المهاجرين المغاربة والأندلسيين على الإقامة والعيش بأمان وإطمئنان، مثلهم في ذلك مثل السكان الأصليين. ذلك أن جميع العوامل الطبيعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وربما النفسية، كانت أكثر ملاءمة وتوافقاً لسكنى وإقامة هؤلاء المهاجرين، وبخاصة في مصر والشام. فمصر على سبيل المثال كانت تقع على طريقهم الرئيسي إلى الحج هذا بالإضافة إلى غنى البلاد ووفرة الموارد المختلفة، وحرية الاختيار في السكن والإقامة في أية بقعة من بقاعها.

يضاف إلى أن مصر غدت منذ أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ السابع عشر الميلادي، مستقر سلاطين المماليك والخلفاء العباسيين، ومن أحاط بهم من رجال الدولة. ويمكن القول أنها شغلت مكانة كبيرة منذ

وصول صلاح الدين الأيوبي إلى الحكم خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مما جعلها مأوى صالحاً للإقامة أمام الأندلسيين وكذلك الأمر بالنسبة لبلاد الشام، التي كانت ملائمة لإقامة المهاجرين من الأندلسيين، والمغاربة من جميع النواحي ولاسيما الطبيعية والاقتصادية، ففيها توافرت سبل العيش، إضافة إلى معاملة الأهالي، هذه المعاملة التي تميز بها الشاميون وأهل المشرق بوجه عام. ويبدو أن الشام كانت أكثر تميزاً وملاءمة في ضوء ما ذكره بعض زوار مصر والشام في تلك الفترة، وبخاصة ابن سعيد المغربي الذي قال عندما كان في صدد المقارنة بين مصر والشام، ونقل ذلك عنه المقري في كتاب نفح الطيب، إن المصريين "وسائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول، إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر، وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر ومن لا يعرف، وهم في القدم عليها بين حالين: إن كان المغربي غنياً طوَّلب بالزكاة، وضيق عليه السعاة، وإن كان مجرداً فقيراً حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول"^(١)، على أن هذه الصعاب لم تشكل عقبة دائمة إذ الواضح أن مصر والشام بوجه عام توافرت فيهما، عوامل مشجعة لأهل الأندلس للنزوح إليهما والإقامة فيهما منها النواحي الطبيعية، فيما يتعلق بأحوال المناخ والطقس السائد في هذه البلاد، وتشابهه مع ما كان معروفاً في عدد من المناطق الأندلسية، مما جعل الاستقرار سهلاً ومقبولاً بالنسبة للأندلسيين القادمين إليها^(٢). وبالإضافة إلى النواحي الطبيعية، كان للعامل الديني أثره في استقرار الأندلسيين والمغاربة في المشرق بشكل عام ومصر والشام بشكل خاص. ذلك أنه وردت في كتب الصحاح وغيرها عدة أحاديث نبوية نوهت بمكانة مصر

(١) - المقري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٢) - انظر تفصيل ذلك في كتاب نفح الطيب للمقري، ج ١، ص ٢٣٧ و ٢٠٩.

والشام^(٢). كذلك تحتل العوامل السياسية في مصر والشام دوراً فعالاً في هذا المجال، فقد اتصفت الأوضاع في هذين البلدين بالاستقرار منذ الحكم الفاطمي خلال الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وبخاصة في المدن التي لم تقع تحت الاحتلال الفرنجي كدمشق والقاهرة. وتبلورت الملامح الأولى لهذه الظاهرة في ظل حكم البوريين في مدينة دمشق، وهو الحكم الذي استمر حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وفي ظل حكم الزنكيين قبل ظهور نور الدين الزنكي في مدن المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من بلاد الشام. وكذلك الحال على أيام صلاح الدين الأيوبي في مصر، مما جعل الأندلسيين والمغاربة يقصدون هذه البلاد ويستقرون فيها دون خوف أو حرج في ظل أحكام السنة والشرع، وعدم اللجوء إلى الجدل في الأمور الدينية. ومما يعكس هذه الصورة ما يرويه المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن القلائسي في حوادث سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م إذ يقول "في رجب من هذه السنة أذن لمن يتعاطى بالوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرسم فبدأ من اختلافهم في أحوالهم وأعراضهم، والخوض فيما لا حاجة إليه من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معسه من الفساد مطمح سفهاء الأوغاد"^(١).

وخلال الفترة التالية، أي الفترة الزنكية النورية والأيوبية والمملوكية غدت الظروف أكثر إيجابية ووضوحاً، ففي الوقت الذي كانت الأندلس على شفا الانهيار، وتعاني من اضطرابات سياسية حادة مؤلمة، كانت مصر والشام قد

(٢) - انظر بعض هذه الأحاديث في ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ١٩٥١، ص ١٣٧. للسلمي نزعيب أهل الإسلام في سکنی الشام، صححه ونشره أحمد سامح الخالدي، طبعة القدس سنة ١٩٤٠، ص ١١.

(١) - ابن القلائسي، ذیل تاریخ دمشق، طبعة بيروت سنة ١٩٠٨، ص ٣٠١.

قطعت شوطاً بعيداً على طريق الوحدة والوثام والاستقرار، الأمر الذي ساعد النازحين الأندلسيين على العثور على المأوى البديل^(٢).

وكان أن قدم نور الدين محمود كل التسهيلات للأندلسيين القادمين من الأندلس والمغرب، فأحسن وفادتهم، وأنزلهم أحسن المنازل، بل لقد فضلهم في كثير من الأحيان على السكان الأصليين الأمر الذي استرعى انتباه ابن جبير الأندلسي فقال "ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى، أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام وديكانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة، أن هذا الوقف المغربي، يغل إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار^(٣).

وما حدث زمن نور الدين، حدث مثله في عهد صلاح الدين ومن جاء بعده من الأيوبيين والمماليك، نضرب على ذلك مثلاً مما قاله الرحالة ابن بطوطة عند زيارته للمشرق العربي، وبالأذات لمدينة دمشق: ((كان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرائي، من عادته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف عنه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلزمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة علاء الدين ابن غانم وجماعة غيره^(٤))).

أما العوامل الأخرى الاقتصادية والعلمية، فقد توافقت هي الأخرى مع مصالح الأندلسيين وتوجهاتهم وتطلعاتهم العامة، لأن الشام ومصر كانتا من البلدان الغنية في هذين الجانبين، مما ساعد الأندلسيين والمغاربة على مباشرة

(٢) - صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين، طبعة أولى، بيروت سنة ١٩٦٣، ص ٢٢.

(٤) - رحلة ابن جبير، ص ٢٥٧.

(٣) - ابن بطوطة الرحلة، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

أعمال مناسبة، سواء كان ذلك في الزراعة أو الصناعة أو التجارة. وكذلك الأمر في الميدان العلمي، حيث كانت مراكز العلم من مدارس وزوايا وخوانق متوفرة بشكل لا مثيل له في مكان آخر، ولاسيما في المدن الكبرى كدمشق والقاهرة وحلب وبيت المقدس. وقد صور ابن جبير ذلك تصويراً واقعياً رائعاً بقوله: ((وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهل الخير عليه من أهل الضيعة الأخرى...))^(٢). ثم يتابع قوله : ((فهذا الشرق باب مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد، ولو لم يكن بهذه البلاد الشرقية كلها، إلا مباررة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولاسيما أهل باديتها، فإنك تجد من يبادر إلى كرم الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لهم))^(١). وبالجملة فقد ساعدت جميع العوامل سابقة الذكر الأندلسيين والمغاربة وأثرت فيهم بشكل جعلهم يقبلون على بلدان المشرق، وخاصة مصر والشام، وبصورة مستمرة وقد عمل مهاجرون من الأندلس والمغرب خلال وجودهم في المشرق في شتى مجالات الحياة العامة دون استثناء، مثلهم في ذلك مثل بقية سكان المنطقة الأصليين. وانطلاقاً من ذلك لم يكونوا بعيدين عن المعارك التي خاضها العرب ضد الفرنجة. ومن العوامل التي دفعتهم إلى المشاركة في محاربة الفرنجة في الشام أنهم كانوا في حروب شبه دائمة مع الأوربيين في بلادهم قبل أن تنشب الحروب الفرنجية في المشرق^(٢). على أن المؤرخين لم يشيروا إلى هذه المشاركة بشكل مباشر، بمعنى أنهم لم يتحدثوا عن مجموعة معينة من المغاربة شكلت كتيبة مستقلة عن الجيش الشامي. وكل ما كتبوه حول هذا الموضوع،

(٢) - رحلة ابن جبير، ص ٢٥٩.

(١) - رحلة ابن جبير، ص ٢٥٨. وانظر عن المنجزات العلمية الكثيرة التي شجعت الأندلسيين والمغاربة للإقامة في المشرق.

(٢) - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٨٥.

اقتصرت على إشارات إلى حوادث فردية، باستثناء واحدة ذكرت بإسهاب، ويبدو منها أن الأندلسيين والمغاربة، شاركوا بجهد فعال في الحرب ضد الفرنجة فسي بلاد الشام، ومن بعدهم ضد التتار. هذا فضلاً عن أن بعضهم قدم المال لتجهيز المقاتلين وإعدادهم للقتال. ذلك أنه حدث في النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، عندما حاول الفرنجة احتلال مدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م أن اجتمع أهلها لتدارس الطرق والأساليب لمواجهة الموقف في الدفاع عن مدينتهم، وعندئذ ظهر أن يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي، كان أشدهم حماساً واستعداداً لخوض الحرب، وذلك على الرغم من تقدمه في السن. وقد اندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق معين السدين أنر، إذ نصحه بعدم الاشتراك في الحرب. ولكنه رد على حاكم دمشق قائلاً: ((قد بعث واشترى فوالله لا أقليله ولا أستقبله وتلا الآية الكريمة ﴿إِنْ اللَّه اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، وظل يقاتل حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربرة، ودفن بمقبرة باب الصغير^(١).

ويعد الفندلاوي من الشخصيات المغربية التي طار ذكرها، وولد على صعيد مدينة دمشق، فقد ذكر الذهبي من مؤرخي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أن قبره على عهده كان ما يزال يقصد بالزيارة والتبرك، على الرغم من مضي أكثر من مئتي عام على وفاته^(٢).

وهناك دليل أكثر وضوحاً وأهمية على اشتراك الأندلسيين والمغاربة في الحرب ضد الفرنجة، يبدو في الملاحظة التي دونها الرحالة ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لبلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس الهجري. وفي هذه المرة لم تتخذ مقاومة الأندلسيين للفرنجة بالشام شكلاً فردياً وإنما اتخذت صورة

(١) - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨.

(٢) - الذهبي، المعبر في خير من غير، ج ٤، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكويت سنة ١٩٦٣.

جماعية، الأمر الذي جعل الفرنجة في المغرب يلجأون إلى اتخاذ إجراءات مضادة للأندلسيين، تجسدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك جزاء اشتراكهم مع العرب المشاركة ضدهم.

يقول ابن جبير عندما زار حصن تبنين: "وكان مكاناً لتمكيس القوافل" ولا اعتراض على غيرهم، وسببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج: (إن هؤلاء المغاربة، كانوا يختلفون على بلادنا ونسالهم ولا نرزأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا، وتسلبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة قسي أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو عليهم ويخفف عنهم^(١).

وقد استمر دور الأندلسيين والمغاربة في الجهاد طوال الفترة، التي تلت انتهاء حكم نور الدين محمود. ويمكن القول إن أعدادهم ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبي، فظهرت مشاركتهم على وجهين، الأول بوصفهم محاربين أساسيين، والثاني بوصفهم مراقبين للجيش يقومون بتقديم الخدمات المختلفة، التي لا تقل أهمية عن غيرها في ميدان الحرب. ففي المجال الأول نستشهد بالحادثة التي ذكرها العماد الكاتب الأصفهاني في كتابة الموسوم — (الفتح القسي في الفتح القدسي) حيث يظهر من خلاله قيمة الدور الذي شغله هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكري، بصفتهم مقاتلين أشداء نذروا أنفسهم لتنفيذ مهام في غاية الخطورة. من ذلك أنه حدث سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م في أثناء حصار المسلمين لمدينة عكا، أن جاء رسول من قبل أحد قادة الفرنجة ومعه أسير مغربي، قدمه إلى السلطان صلاح الدين على سبيل الهدية، فاستقبل الأسير

(١) - انظر رحلة جبير، ص ٢٧٤.

بحفاوة بالغة وتقدير عظيم، الأمر الذي يدل على مدى إعجاب صلاح الدين الأيوبي بالمغاربة والأندلسيين وتقديره لجهودهم في الحرب التي خاضها ضد أعدائه^(٢).

أما الأمثلة في المجال الثاني فهي متعددة، نذكر منها على سبيل المثال إن قسماً منهم لم يشتركوا على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح، وإنما قاموا بمراقبة الجيش، وتقديم خدمات كبيرة، ساهمت إلى حد كبير في رفع معنويات الجيش القتالية، وأزكت في الجند الروح القتالية العالية. وقد اشغلت أعداد كبيرة منهم بتحضير الطعام وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال وتوفير أسباب النظافة العامة، التي تضفي على النفس الإنسانية نوعاً من البهجة والراحة. ويمكن النظر إلى الوظائف العالية، التي نالها المغاربة والأندلسيون في القدس بعد تحريرها على أنها اعتراف بجهودهم وتعبير عن المكافأة على خدماتهم، والرغبة في استمرار هذه الخدمات، بالإضافة إلى ما قام به صلاح الدين الأيوبي تعبيراً عن ذلك.

وفي هذا الميدان يمكن أن نذكر أيضاً تلك الخدمات الجليلة، التي قدمها أطباء أندلسيون لصلاح الدين وجيشه وشعب الشام، الذي وقف كتلة واحدة شامخة ضد الفرنجة. فمنذ النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بدأ الأطباء الأندلسيون المشاهير يتوافدون على دمشق بعد أن سمعوا بمحاولات الفرنجة احتلالها، وكأنهم كانوا يشعرون أن من واجبهم وهم من بلاد اعتاد أهلها على محاربة الفرنجة باستمرار المساعدة في السداف عن دمشق وغيرها من بلاد الشام. ومن هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي المولود بمدينة المرية في جنوب الأندلس أو بمدينة مرسية، شرق الأندلس سنة ٤٨٦هـ/١٠٧٦م وقد درس الطب بالأندلس ثم بمصر، حتى اشتهر

(٢) - المصادر الكلاسيكية، الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القسيمي، تحقيق محمد محمود صبيح، بدون ذكر الطبعة ولا تاريخها، ص ٥٠٢.

كطبيب البيمارستان الذي كانت تحمل عقاقيره وأدوائه في المعسكر السلطاني على أربعين جملاً^(١). ولما سمع بتهديد الفرنجة لدمشق غسادر بغداد، وأقام بدمشق، يدلوي الناس بديكان عند باب جيرون بالقرب من المسجد الأموي الكبير حتى وافته المنية في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م^(٢). وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلي اللقب بأفضل الدولة، وتفوق على والده في مسألة الخدمات الجليلة، التي قدمها للمجتمع الشامي في أحلك الظروف وأصعبها، لأنه ابتعد عن الأدب والشعر، الذي شغل حيزاً هاماً من حياة والده، فصار من أحذق أطباء زمانه، الأمر الذي جعل نور الدين محمود يعتمد عليه كمستول أول عن إدارة البيمارستان، الذي أنشأه في دمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وقد أدى خلال حياته، التي انتهت في الربع الثالث من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بسنوات قليلة، خدمات رائعة في ميدان الطب، إذ كان عمله اليومي مقسماً إلى ثلاث فترات، خصص الأولى لزيارة مرضى البيمارستان سابق الذكر، وخصص الثانية لزيارة مرضى النقلة من الحكام وأتباعهم، وخصص الثالثة للتدريس، في إيوان البيمارستان النوري^(٣).

كذلك قام الطبيب الأندلسي عمر بن علي البذوخ القلعي المتوفى بدمشق سنة ٥٧٩هـ/١١٨١م^(٢) بممارسة المداواة العامة، واختلف عن بقية زملائه من الأندلسيين بتصنيع الدواء وتحضيره بنفسه^(٣).

(١) - القفطي (علي بن يوسف) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بنشره محمد أمين الخانجي، طبعة مصر ١٣٢٦هـ، ص ٢٦٤. المقري، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٣. ابن قاضي، شبيهة طبقات اللخويين والنحويين مخطوطة الظاهرية، ص ٣٤٧. ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ٣، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت سنة ١٩٧٠، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) - المقري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٣) - للصفي (صلاح بن أبيك) الوافي بالوفيات، ج ٤، طبعة دمشق سنة ١٩٥٩، ص ٢٤.

(٢) - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، الطبعة الأولى، المطبعة البهية، ١٨٨٢، ص ١٥٥.

(٣) - ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٥٧.

ومن الأطباء أيضاً عبد المنعم الجلياني، نسبة إلى جليانة على مقربة من غرناطة في جنوب شرق الأندلس المتوفى بدمشق سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م، وكان قد اشتغل منذ وقت مبكر بالطب والأدب، وتفوق فيهما بشكل ملحوظ، ثم رحل إلى المغرب ومنها إلى بغداد، حيث أطلع فيها على خزائن الكتب الطبية الغنية. ولما سمع بما كان يجري في الشام من حرب ضد الغزاة الفرنجة، تسرك بغداد متوجهاً إلى دمشق، حيث عمل طبيباً رئيساً في البيمارستان السلطاني في السفسر والحضر أيام صلاح الدين الأيوبي، وظل هكذا حتى وافته المنية^(١).

وقد حظي عند صلاح الدين الأيوبي طبيب أندلسي آخر، هو يحيى البياسي الملقب بأمين الدين. وكان قد ترك الأندلس، متجهاً إلى مصر حيث استقر فيها مدة من الزمن توجه بعدها إلى مدينة دمشق، واستقر فيها بشكل نهائي. وُعد البياسي طبيباً أندلسياً مارس الطب في بلاد الشام، حتى اشتهر وعلا ذكره مما جعل صلاح الدين الأيوبي، يعتمد في قائمة أطبائه الأساسيين، الذين رافقوه في حروبه ضد الفرنجة^(٢).

وقد قام الرحالة المغربي ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لمدينة دمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م. بالدعاية لصلاح الدين الأيوبي، لما يقوم به من أعمال جليلة لتحرير، بلاد الشام، ولإسيما بيت المقدس من الفرنجة، الأمر الذي يساعد على استقطاب جالية أندلسية للمشاركة في الحروب ضد هؤلاء الأعداء^(٣).

ومن المعروف أن كتب الحديث النبوي الشريف حوت كثيراً من الأحاديث^(٤) التي تنوه بمكانة مدينة بيت المقدس، فقام الأندلسيون والمغاربة عندما

(١) - ابن سعيد المغربي، الغصون للبانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة مصر بلا تاريخ، ص ١٠٤-١٠٦. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٧. المقري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩٢.

(٢) - ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٣.

(٣) - انظر عن ذلك رحلة ابن جبير، ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٤) - انظر جملة من الأحاديث مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج ١، ص ٢١١ وما بعدها. والرعي، فضائل الشام ودمشق، طبعة دمشق سنة ١٩٥٠ ص ١٤. ابن عساكر، تاريخ مدينة

احتل الفرنجة بيت المقدس باستئثاره القلوب لزيارتها. من ذلك أن المراكشي قال عن ابن جبير الأندلسي: ((ولما شاع الخبر المبهج للمسلمين جميعاً حينئذ فتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين المظفر يوسف بن أيوب، وكان فتحه يوم السبت الثالث عشر ليلة بقية من رجب سنة ثلث وثمانين وخمسائة. وكان من أقوى الأسباب التي بعثته على الرحلة الثانية، فتحرك من غرناطة أيضاً يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسائة. قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد. وقد استمر الأفضل بن صلاح الدين وبقية الحكام من بني أيوب على سياسته في رعاية القدس وتوفير الحماية لها ذلك أن صلته بالقدس كانت قوية منذ أن حررت، لأنه كان الموكل من قبل أبيه بحفظها. ويستفاد من رسالته للعماد الأصفهاني على لسان صلاح الدين الأيوبي في معرض ذكره لانتصاراته وما فتحه عام ٥٨٣هـ أنه قال والآن فقد خلاصنا جميع مملكة بيت المقدس وحدها في سمت مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك. وتشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت ولم يبق من هذه المملكة إلا صور..... وإنه قد رتب الجانب القبلي والبادي القدسي. وشحن الثغور من حد جليل إلى عسقلان بالرجال والأموال وآلات العدد المتواصل وحفظ ولايتها...^(١))).

وعندما خلف الأفضل والده عند وفاته بدمشق سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م حرص في سلطنته على إكرام الأندلسيين والمغاربة نظراً لما بذلوه من جهد في حركة الجهاد ضد الفرنجة. من ذلك أنه وقف على فقهاء المالكية بالقدس بالمدرسة الأفضلية، وجوارها أوقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار المسجد وسور الأقصى من جهة الغرب، ويخرج إليها من أحد أبوابه، علماً بأن المسجد الأقصى

دمشق مجلداً، طبعة دمشق سنة ١٩٥١، ص ١٣٧، السلمي تزيين أهل الإسلام في سكتى الشام، طبعة

دمشق سنة ١٩٤٠، ص ١١.

(١) - أبو شامة، الوضعتين في أخبار الدولتين، ج ٢، تحقيق محمد حلمي أحمد، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦،

ص ١٣٧.

يقع في الجنوب الشرقي من مدينة القدس، وأضحى معروفاً باسم حارة المغاربة، وصارت وفقاً كما يقول صاحب الأنس الجليل: "على طائفة المغاربة لاختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم، وكان الوقف حين سلطنته على دمشق ولم يوجد لها كتاب، فكتب محضراً بالمواقف^(٧). كذلك كان للمغاربة مسجد تقام فيه صلاة المالكية بداخل المسجد الأقصى الكبير وكان حي المغاربة يتضخم مسع الزمن ويكتظ بالمغاربة والأندلسيين الوافدين، منهم الميسورون ومنهم الفقراء. وقام الشيخ عمر بن عبد الله المصمودي المجرد بتعمير زاوية بأعلى الحارة أنفق عليها من ماله، وقفها على الفقراء والمساكين سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م.

وإذ كان عمل الأفضل هذا تجاه المغاربة نوعاً من المكافأة على خدمتهم في مجال الجهاد، فإنه يبدو بعد وفاة أبيه، رغباً في الاستعانة بقوتهم العسكرية للدفاع عن القدس. فالمدينة فقيرة ولا تكفي وإرادتها وواردات الأراضي التابعة لها للقيام بكلفتها، مما أدى إلى تخصيص ثلث وارد إقطاع نابلس لها. وكان ضياء الدين بن الأثير وزير الأفضل قد أقنعه بالتنازل عن القدس، لأسباب منها التخلص من النفقة عليها، لكن المكانة الدينية للمدينة جعلها تمثل قوة معنوية لمن تتبعه. وربما كان هذا أيضاً من جملة الأسباب، التي جعلت نواب الأفضل في فلسطين، وفي مقدمتهم عماد الدين بن المشطوب مقطع نابلس يعرضون على سيدهم الرقيق، ويتعهدون للفرجة، وكان بيدهم رأس جسر مناسب للهجوم عليها، يتمثل في ميناء عكا الحصين. وكان على الأفضل والمشيرين عليه والمحيطين به أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار، خاصة وأن الأفضل لم يكن الحاكم الفعلي للدولة الأيوبية كلها مثلما كان الحال مع أبيه، وإنما اقتصر سلطانه على الشام بكل ما حفلت به آنذاك من تيارات انفصالية، مما حال دون تأليف جيش كبير يحقق الحماية للبلاد والعباد.

وفي مثل هذه الأوضاع، رأى الأفضل في المغاربة والأندلسيين قسوة عسكرية مناسبة، يمكن أن يستفيد منها في الدفاع عن القدس على الأقل.

(٧) - الحنبلي، (مجبر الدين) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، للجزء الثاني، بدون ذكر اسم للطبعة ولا تاريخ ص ٣٩٧.

ومن الثابت أن عدد الجند النظامي في جيش صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين. لم يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم الأندلسيون والمغاربة من غير المسؤولين للحرب بشكل نظامي مرتب. ولم يكن الإفرنج على ما يبدو غافلين عن هذه القيمة أو المكانة التي يشغلها المغاربة عند حكام الشام. فقد حدث في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٣٠م أن حمل عدد كبير من أسرى جزيرة ميورقة إلى الساحل الشامي، حيث استفكوا وقدموا إلى دمشق. يقول أبو شامة في كتابه (الذيل على الروضتين) في صدد حديثه عن سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م.. ((في هذه السنة جاء الخبر بأن الفرنجة استولوا على جزيرة ميورقة، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا كذلك، وقدموا بعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم^(١)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى التقدير الذي أظهره الأيوبيون للأندلسيين والمغاربة، لما قاموا به من أعمال مميزة ومخلصة خلال الحرب ضد الفرنجة. يضاف إلى ذلك، أنهم قوة جديدة تضاف إلى الموجودين القدماء.

وكما كان الحال في زمن البوريين والزنكيين والأيوبيين، لم يتبدل فسي زمن المماليك، إذ ظل الأندلسيون والمغاربة في مقدمة المتحمسين للدفاع عن أرض العرب في الشام ومصر ضد الفرنجة وغيرهم. والأمثلة كثيرة في هذه الفترة نذكر منها على سبيل المثال حادثة وقعت في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، عندما هاجم الإفرنج^(٢)، مدينة بيروت. فعلى أثر اتصال المسؤولين عن إدارتها مع نائب دمشق طلباً للمساعدة لحمايتها والدفاع عنها، تذرع النائب أنه يحتاج إلى أمر سلطاني، فقام بعض المنتقدين^(٣)، من المماليك بدعوة الناس للنتطوع من أجل

(١) - أبو شامة، الذيل على الروضتين، علي بلشره عزت العطار الحميلي، طبعة أولى سنة ١٩٤٧، ص ١٥٩.

(٢) - المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس القسم الثاني، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت سنة ١٩٦٥، ص ٦٠٦-٦٠٥.

(٣) - المقرئ، المصدر السابق، ٢٩٠ ص ٤٨٨. المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس القسم الثاني، ص ٥٩٩.

الجهاد، فكان في مقدمة الذين استجابوا لهذه الدعوة، القاضي المالكي آنذاك مع مجموعة كبيرة من الأندلسيين والمغاربة الموجودين بدمشق^(١).

ويفهم للوهلة الأولى من كل ما تقدم من أمثلة ووقائع، أن اشتراك الأندلسيين كان رهناً بمداهمة بلاد الشام ومصر قبل الجيوش الغازية المعتدية، بحيث يشتركون لفترة معينة وينصرفون. لكن الحقيقة كانت غير ذلك، فمن خلال الأمثلة يتبين أنهم داوموا العمل في صفوف الجيش، والقاضي محمد الدمشقي المالكي المنقلب بعلم الدين القفصي ووالده خير مثال على ذلك، إذ عمل قبل تسلمه القضاء جندياً في عدة مدن شامية مثل حلب ودمشق وحماة وكذلك الأمر بالنسبة لوالده^(٢).

أما الوجه الثالث لمشاركتهم وإسهامهم في الدفاع والذود عن حياض مصر وبلاد الشام، فقد تجلّى بتقديم الأموال من أجل تجهيز المقاتلين بالسلاح والعتاد وما إلى ذلك، مثلما سبق أن أشرنا مثال ذلك محمد بن محمد أبو الوليد التجيبي الأندلسي إمام محراب المالكية المتوفى بدمشق سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م. وقد قال عنه ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة: "وكانت له عدة كاملة من السلاح والخيول أعدها للغزاة من ماله..."^(٣).

لذلك لم يكن غريباً أن تصرفات الحكام المماليك تجاه الجالية الأندلسية المغربية في الشام ومصر اتصفت بالاعتدال، مثل تخفيض الضرائب على البضائع التجارية، التي يأتي بها إلى الشام ومصر التجار المغاربة والأندلسيون وغير ذلك.

وبالجملة فقد بدا واضحاً، أن الأندلسيين والمغاربة، سواء منهم الذين أقاموا بصورة دائمة في مصر والشام، أو الذين بقوا فيها لفترات متفاوتة خلال

(١) - ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج ١، تحقيق حسن حبشي، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٩، ص ٢٧.

(٢) - ابن حجر العسقلاني، ألباء الخمس، ج ٢، ص ٢٥٢. تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١، ص ٥٩ و ١٨٢ و ٢٦٨. المخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللمع لأهل القرن التاسع، ج ١٠، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ١٣.

(٣) - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٣، طبعة أولى. حيدر آباد النكن، ١٣٤٩هـ، ص ٣٥٠-٣٥١.

القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى موضوع هذا البحث، لم يقفوا مكتوفي الأيدي حيال ما جرى على الساحة العربية من أحداث ومعارك، بقصد السيطرة على هذه البقعة من أرض العروبة والإسلام لقد سيطروا من خلال مشاركتهم في الدفاع عنها أنصع الصفحات وأنقاها فبرهنوا بذلك على صدق انتمائهم العربي الإسلامي.





الفصل الثاني عشر

القدس في نظر المغاربة والأندلسيين

خلال العصور الوسطى

إن الحديث عن مدينة بيت المقدس في هذه الأيام بالذات يعني أموراً كثيرة تبدو في غاية الأهمية. يأتي في مقدمة هذه الأمور: أولاً: إن بيت المقدس جُرحت منذ أعوام طويلة، جرحها الغاصبون الصهاينة ووضعوها في أسرهم الرهيب، فلم يندمل جرحها حتى اليوم، ولن يندمل حتى تُعتَق من الأسر بجهود المخلصين من أمتنا العربية الذين نجحوا في الماضي في تخليص هذه المدينة المقدسة من أسر الفرنجة. ثانياً: إنها تشغل مكانة خاصة على الصعيد الديني عند جميع المسلمين، ذلك لأنها تضم في حناياها أقدس ما يقدره المسلمون بعد الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهو المسجد الأقصى الذي شرفه الله تعالى بحادثة الإسراء والمعراج. هذا المسجد الذي كان إلى عهد قريب مقصداً لأعداد هائلة من الحجاج من مختلف البلدان والأقطار، والذين كانوا يعتقدون بعمق أن الانطلاق من فلسطين بعد زيارة المسجد الأقصى الشريف والتبرك به إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، من الأعمال التي تجعلهم يطمثون على أن حجهم مبرور ومقبول.

من هنا تأتي أهمية التذكير بمدينة القدس الشريف، ولاسيما أن الصهاينة يخططون لإزالة المسجد الأقصى الشريف، بذريعة أنه أقيم مكان هيكل سليمان المزعوم. وإذا نجحوا في ذلك، سيكونون قد وجهوا لكل العرب والمسلمين طعنة قاسية في صميم حياتهم الدينية المقدسة. ومن يعلم أنهم سيمتدحون بعد ذلك إلى إزالة غيره من الأماكن المقدسة الأخرى، التي لا توازيه بطبيعة الحال.

حتى لا نصل إلى هذه الكارثة المؤثرة فإنه يتوجب علينا نحن العرب
بخاصة والمسلمين المخلصين بعامّة-- أن نستفيق من نومنا العميق وسباتنا
الطويل، قبل أن تقع المأساة الكبرى، فيغدو أمر المطالبة بالأراضي الفلسطينية
العربية من الأمور المتعذرة إلى حد كبير، ولاسيما أننا نمثل الفريق الأضعف في
ميدان الصراع على هذه المسألة. يضاف إلى ذلك أن كل الأمم الحية تستغل في
كثير من الأحيان بعض مقدساتها الدينية للحصول على مكاسب وطنية معينة، مع
أن كثيراً من هذه المقدسات ليس لها وجود على أرض الواقع، كما هو حال
الصهيانية في فلسطين، الذين يدعون ظلاماً وبهتاناً أن مكان الأقصى الشريف هو
مكان هيكل سليمان المزعوم. ومع ذلك، فما زال معظم العرب والمسلمين
يتفرون من بعيد على كل الذي يجري من أخطار على مدينة القدس الشريف،
وكان الأمر لا يعينهم في شيء من قريب أو بعيد.

في نهاية المطاف، نقول إن الحديث عن مدينة بيت المقدس يعني توجيه
رسالة إلى أجيالنا القادمة وجيل الشباب المعاصر، هذه الأجيال التي لا تعترف
الكثير عن قدسية هذه المدينة العربية الحزينة وعظمتها، وذلك لقلة ما يكتب عنها
وندرته، على الرغم من أهميتها وخطورتها وقدسيتها وموقعها في قلب الوطن
العربي الكبير.

في الصفحات التالية، يتجسد موقف الأندلسيين والمغاربة الرائع من مدينة
بيت المقدس. فقد نظروا إليها نظرة واقعية ووطنية، واعتبروها من أهم مدن
العرب والإسلام في العصور الوسطى، وبخاصة أثناء الاحتلال الفرنسي وبعده.
قبل سقوط بيت المقدس في أيدي الفرنجة، كانت نظرة الأندلسيين
والمغاربة إليها تختلف عن نظرتهم بعد وقوعها في أيديهم. ففي الفترة الأولى
كانوا ينظرون إلى القدس نظرتهم إلى مدينة مقدسة من واجبه زيارتها والتبرك
بما فيها من مشاهد إسلامية مقدسة، في مقدمتها المسجد الأقصى وبعض المشاهد
الأخرى.

تكونت هذه القدسية لديهم من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي صرح بها الرسول العربي الكريم في صدد هذه المدينة. وقد تنوعت هذه الأحاديث من حيث مقصدها العام. فمنها ما حض على زيارتها، ومنها ما حض على الإقامة بها. من هذه الأحاديث تلك التي تجعل القدس عامل جذب للمغاربة للمرور منها والإقامة فيها أمداً معيناً، حيث يأخذون العلم المتمثل في الأمور الدينية، وبخاصة ما ينص على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، مثل الحديث الذي يقول: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا))^(١).

وإن المشقة التي كان يتحملها القادم إلى المسجد الأقصى، تهون عليه ما يحذوه من أمل كسب الثواب والمغفرة بالصلاة فيه. إذ جاء في حديث آخر: ((انتوه فصلوا فيه: فإن كل صلاة فيه كألف صلاة))^(٢)، لأن في هذه الصلاة غفراناً مضاعفاً للذنوب وتكفيراً قاطعاً عنها، كما هو واضح من الحديث الشريف الذي يقول: ((من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة إلا الصلاة، فصلى فيه خمس صلوات صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه))^(٣).

طبق الأندلسيون والمغاربة مضمون هذه الأحاديث وأخذوا بها، مثل إبراهيم ابن حارث القرطبي، الذي جاء إلى بيت المقدس سنة ٢٩١هـ / ٩٠٤م قبل وفاته بثلاث عشرة سنة^(٤)، كما طبقوا مضمون أحاديث نبوية أخرى دعت إلى المجاورة والإقامة في بيت المقدس، وشجعت على الانطلاق منه لأداء فريضة الحج. وربطت هذه الأحاديث بين الحج وزيارة بيت المقدس. فلكني

(١) - مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١، د.ت، ص ٢٠.

(٢) - المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(٤) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٠٨.

يكون الحج كاملاً، يُستحسنُ الانطلاق من بيت المقدس كما في الحديث القائل: ((من أهل حج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام، غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة))^(١).

ومن المغاربة الذين طبقوا ذلك علي بن أحمد الكنائي، وإسماعيل بن محمد الأنصاري الأندلسيان^(٢). وفي بعض الأحيان كانت تنتاب بعض الأتقياء من الأندلسيين والمغاربة حالة نفسية، تعكس مدى تأثرهم بمثل هذه الأحاديث عن بيت المقدس. من ذلك ما حدث مع محمد بن عمر الشهير بابن الفخار ففي حجه الأول، رأى فيما يرى النائم أن ملكاً من الملائكة يقول له : ((ابق مجاوراً إلى موسم قابل، فإنه لم يتقبل حجاً هذا العام)) . فارتاع لما رآه، وأقام بمكة مجتهداً بعمله، وخرج إلى المدينة المنورة فزار قبر النبي ، وجعله وسيلة إلى ربه، ثم صار إلى بيت المقدس فتجد فيه زماناً ثم انصرف إلى مكة وحضر موسم الحج الثاني. فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام في أحلام نومه، كان يسلم عليه ويصافحه ويبتسم إليه ويقول له : يا محمد حجك مقبول أولاً وأخيراً، يرحمك الله^(٣).

وهناك أحاديث أخرى كثيرة، تشجع بحرارة على المجاورة والإقامة في بيت المقدس إلى غير ذلك^(٤).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل بقيت هذه العوامل التي يمكن تسميتها (العوامل الجاذبة)، هي نفسها، أو أن عوامل أخرى استجبت فأضيفت إليها، وخاصة في الفترة التي تلت نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر

(١) - مجبر الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) - المقري التلمساني، نفع للطبيب من غصن الأندلس للطبيب، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٢٤.

(٣) - ابن بشكوال، كتاب الصلة، ج ١، طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٠٥.

(٤) - انظر هذه الأحاديث عند: مجبر الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١١.

الميلادي، بعد أن احتل الفرنجة بيت المقدس؟ للجواب على هذا السؤال، لا بد من القول إن العوامل القديمة التي تجلت في تأثير الأحاديث النبوية، لم تبقى هي الوحيدة التي تثير في المغاربة والأندلسيين حب الزيارة والشوق لبيت المقدس، بل أضيفت إليها عوامل أخرى زادت من حدة تأثيرها. فمن المعروف أن دولة الأيوبيين والمماليك التي اجتذبت إليها الأندلسيين والمغاربة، ضمت كلاً من مصر والشام، أي أن فلسطين وبيت المقدس بوجه خاص أصبحت في قلب هذه الدولة يضاف إلى ذلك أنها كانت ميدان فعالية أساسية للدولة الأيوبية والمملوكية، لأنها ساحة الجهاد ضد الفرنجة، مما جعل العوامل التي تجذب المغاربة والأندلسيين تزداد وتتطور، لأن الأهمية بفضل رواج أدب من نوع جديد، هو أدب تقديس الأماكن المقدسة المحتلة. وشغلت مدينة بيت المقدس المرتبة الأولى في هذه العملية انطلاقاً من مكانتها الدينية، وقامت حركة التقديس عندما أخذت الأخبار تنتشر في أوساط الناس عن احتواء القدس الشريف لأضرحة بعض الأنبياء وقبورهم. وأقدم من كتب عن هذه المسألة المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، الذي تحدث عن الأحداث التي شهدتها وعاصرها، والتي أدرجها في الحديث عن مجريات سنة ٥١٣هـ/ ١١٢٠م ووقائعها. فذكر أنه ورد في هذه السنة خبر من بيت المقدس عن ظهور قبور الخليل وولديه إسحق ويعقوب، وهم موجودون في مغارة بأرض القدس، وكأنهم أحياء لم تبل أجسادهم ولا رم لهم عظم^(١).

وقد ظهر أن هذه الأخبار بدقائقها أصبحت جزءاً من النتاج الثقافي المتبادل على امتداد البلدان التي تسودها الحضارة العربية الإسلامية، بما في ذلك الأندلس والمغرب، حيث كانت تعمل عملها لدى الناس هناك، وبخاصة المتدينين والأتقياء والزهاد والصوفيين. وتشير بعض القصص المسجلة في كتبهم إلى المدى الذي وصل إليه الإعلاء من مكانة بيت المقدس والمسجد الأقصى.

(١) - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، طبعة بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٠٢.

ففي ترجمة يوسف بن عبد العزيز، يورد ابن الأبار في كتابه (المعجم) رواية بسند طويل عن أبي الزاهرية الذي قال: أتيت بيت المقدس أريد الصلاة، فدخلت المسجد وغفلت سدانة المسجد حتى أطفئت القناديل وانقطعت الرجال وغلقت الأبواب. فبينما أنا على ذلك، إذ سمعت حفيفاً له جناحان قد أقبل وهو يقول: ((سبحان الدائم القائم، سبحان الحي القيوم، سبحان الملك القدوس، سبحان رب الملائكة والروح، سبحان الله وبحمده، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى)) ثم أقبل حفيف يتأوه يقول مثل ذلك، ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها، حتى امتلأ المسجد. فإذا بعضهم قريب مني، فقال: ((أدمي؟)) قلت: ((نعم))، قال: ((لاردع عليك))^(١).

شكلت هذه القصص، التي أحاطت بالقدس و فلسطين خلال الغزو الفرنجي، دافعاً جديداً كان له أثره الفعال في زيادة الرغبة والشوق لزيارتها والإقامة بها، لأن القدسية غدت أعظم من قبل، وأصبحت زيارتها لا تقتصر على كسب ثواب الصلاة فحسب، بل كانت تهدف أيضاً إلى زيارة المشاهد الموجودة ضمنها، وتلك التي حولها في مواقع فلسطين الأخرى. والدليل على ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا من أوائل المدافعين عن المسجد الأقصى غداة دخول الفرنجة إلى بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فقتل منهم عدد كبير داخل المسجد وعلى أبوابه. وقدر هذا العدد بنحو ثلاثة آلاف رجل من المقيمين بالمدينة والمجاورين بالمسجد الأقصى^(٢).

وقد أثار احتلال مدينة بيت المقدس حمية عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين ورجال الوطنية، وأدى بهم ذلك إلى إدراج قضية تحرير القدس في تفسير بعض الآيات القرآنية، كما هو حال الفقيه أبي الحكم بن برجان الأندلسي، الذي

(١) - القاضي عياض (البحصبي)، المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) - مجير الدين الحنبلي، الأئس الجليل، ج ١، ص ٢٧٣.

قال عنه المؤرخ الدمشقي أبو شامة إنه قام بتفسير القرآن كما أخبره الشيخ مجد الدين بن جهبل الحلبي، الذي وجد في تفسير قوله تعالى: ﴿الم غلبت الروم﴾ على النحول التالي: ((إن الروم^(١) سيغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، ويفتح البيت المقدس ويعود لأصحابه العرب والمسلمين))^(٢). وقد وقف على ذلك صلاح الدين الأيوبي واستحسنه.

وقد شغل بعض الأندلسيين والمغاربة دوراً سياسياً بالغ الأهمية فيما يخص بيت المقدس. وكان من أبرز هؤلاء وأشهرهم نزير بيت المقدس وخطيب مسجدها أبو الحسن علي بن المعافري الأندلسي المتوفى سنة ٦٠٥هـ/١٠٢٤م، الذي عكس في خطبه الدينية السياسية العامة للدولة، التي رسخها صلاح الدين الأيوبي. وقد اعتبر المعافري الصراع مع الفرنجة في وجه من وجوهه على الأقل صراعاً وطنياً، يجب على الجميع أن يساهم فيه، مسلمين ومسيحيين. وهي السياسية نفسها التي كان ينتهجها صلاح الدين الأيوبي، بدليل أنه قرب إليه أحد زعماء الكنيسة، على اعتبار الكنيسة الغربية كانت وراء الغزاة الفرنجة، فأتخذ يوسف بن بانيط مستشاراً له^(٣). ويعد دور المعافري هذا من أقدس المهمات الفكرية والثقافية والسياسية وأجلها في كل زمان ومكان، خاصة وأنه كان يدعو إلى إنقاذ قطعة غالية وعزيزة من أرض الوطن العربي الكبير، والحفاظ على توحيد الكلمة والجهد في وجه الغزاة الفرنجة.

كما شارك كثيرون منهم في العمليات الحربية ضد الفرنجة، منذ بدأ نور الدين زنكي يجهز لتحرير القدس. نذكر من هؤلاء يوسف بن دباس المغربي الفندلاوي، الذي كان يتوقد حماساً واندفاعاً لخوض الحرب ضد الفرنجة، على

(١) - يُقصد بالروم هنا المحتلون الصليبيون.

(٢) - أبو الشامة المقدسي، عيون الروضتين، ج٢، ص١٠٦-١٠٧.

(٣) - انظر تراث الإنسانية، مجلد٢، ص٧٩٤.

الرغم من تقدمه في السن. فاندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة التي أسداها له حاكم دمشق آنذاك معين الدين آثر، إذ نصحه بعدم الاشتراك في الحرب، ولكنه رد على حاكم دمشق قائلاً : ((قد بعث واشترى، فوالله لا أقبله ولا أستقبله)) . وتلا الآية الكريمة : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ . وظل يقاتل رحمه الله حتى استشهد. كان ذلك سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م. وحمل جثمانه إلى دمشق، فدفن بمقبرة باب الصغير^(١). وكان يوسف بن دوباس هذا يلقب بأبي الحجاج المغربي. قدم إلى بلاد الشام بعد أن سمع باستعداد نور الدين زنكي لتحرير بيت المقدس، فسكن بلدة بانياس في الجولان مدة، ثم انتقل إلى دمشق، وبقي فيها يدرس بمذهب الإمام مالك، ويحدث بكتابيه ((الموطأ))، حتى استشهد^(٢).

ويعد الفندلاوي من الشخصيات المغربية التي طار ذكرها، وخلد على صعيد الشام بعامة ودمشق بخاصة. فقد ذكر الذهبي من مؤرخي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أن قبره على عهده كان ما يزال يقصد للزيارة والتبرك، على الرغم من مضي أكثر من مئتي عام على وفاته^(٣).

وهناك أدلة أكثر وضوحاً وأهمية على اشتراك المغاربة والأندلسيين في الحرب ضد الفرنجة من أجل تحرير مدينة القدس، منها ما يظهر من الملاحظة التي كتبها الرحالة ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لبلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وفي هذه المرة لم تتخذ مقاومة الأندلسيين للفرنجة بالشام شكلاً فريداً، بل اتخذت صورة جماعية، الأمر الذي

(١) - ابن الفلاس، ذيل تاريخ دمشق، معاصر مذكور، ص ٢٠٨. بلقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١٥، ص ٢٧٧-٢٧٨.

مادة فندلاو. الحموي، للزيارات، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة دمشق ١٩٥٦، ص ٦٣.

(٢) - صهبت ابن الجوزي، مرآة الزمان، القسم الأول من الجزء ٨، طبعة ١، حيدر آباد الدكن، الهند، ص ٢٠٠-٢٠١. وانظر أيضاً : العبر، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصليحية، ج ١، ص ٥٢.

(٣) - الذهبي، العبر في خبر من غير، ج ٤، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكويت، ١٩٦٣، ص ١٩٥.

جعل الفرنجة في المغرب يلجؤون إلى اتخاذ إجراءات مضادة للأندلسيين، تجسّدت في فرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك من جراء اشتراكهم مع العرب المشاركة ضدهم. يقول ابن جبير عندما زار حصن تبليين: (وكان مكاناً لتميكن القوافل ولا اعتراض على غيرهم). وسببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالهم ولا نرزؤهم شيئاً. فلما تعرضوا لحربنا، وتساءلوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فلمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخففه عنهم^(١).

وقد استمر دور الأندلسيين والمغاربة في الجهاد طوال الفترة التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي. ويمكن القول إن أعدادهم ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبي، فظهرت مشاركتهم على وجهين الأول محاربيين أساسيين، والثاني مرافقين للجيش يقومون بتقديم الخدمات المختلفة، التي لا تقل أهمية عن غيرها في ميدان الحرب. ففي المجال الأول، نستشهد بالحادثة التي ذكرها العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه الموسوم بـ ((الفتح القسي في الفتح القدسي))، حيث يظهر من خلالها قيمة الدور الذي شغله هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكري، بصفتهم مقاتلين أشداء نذروا أنفسهم لتنفيذ مهام في غاية الخطورة، على طريق تحرير بيت المقدس. من ذلك أنه حدث سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م في أثناء حصار العرب لمدينة عكا، أن جاء رسول من قبل أحد الفرنجة ومعه أسير مغربي، قدمه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي على

(١) - رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤ .

سبيل الهدية. فاستقبل الأسير بحفاوة بالغة وتقدير عظيم، الأمر الذي يدل على مدى إعجاب صلاح الدين بالمغاربة والأندلسيين وتقديره لجهودهم في الحرب التي خاضها ضد أعدائه الفرنجة^(١).

أما الأمثلة في المجال الثاني، فهي متعددة. نذكر منها على سبيل المثال أن قسماً منهم لم يشتركوا كجنود يحملون السلاح، وإنما قاموا بمرافقة الجيش الذي كان يقيم في مناطق قريبة من القدس وعكا وغيرها من مدن فلسطين، التي كانت ترزح تحت احتلال الفرنجة هذا القسم من المغاربة والأندلسيين قدم خدمات كبيرة، ساهمت إلى حد كبير في رفع معنويات الجيش القتالية، وأذكت في الجند الروح القتالية العالية. وقد اشتغلت أعداد كبيرة منهم بتحضير الطعام وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاعتسال وتوفير أسباب النظافة العامة، التي تضيف على النفس الإنسانية نوعاً من البهجة والسرور. ويمكن تقدير عدد هؤلاء الأندلسيين والمغاربة بأكثر من ثلاثة آلاف رجل^(٢). لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية، التي نالها المغاربة والأندلسيون في القدس بعد تحريرها، على أنها اعتراف بجهودهم وتعبير عن المكافأة على خدماتهم، والرغبة في استمرار هذه الخدمات، بالإضافة إلى ما قام به صلاح الدين الأيوبي تعبيراً عن ذلك. وفي هذا الميدان يمكن أن نذكر أيضاً تلك الخدمات الجليلة التي قدمها أطباء أندلسيون لصلاح الدين وجيشه الذي وقف كثلة واحدة شامخة ضد الفرنجة في بين المقدس وغيرها. فمنذ النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بدأ الأطباء الأندلسيون المشاهير يتوافدون بعد أن سمعوا باحتلال بيت المقدس ومدن فلسطين الأخرى، وكأنهم كانوا يشعرون أن من واجبهم وهم من بلاد اعتاد أهلها على محاربة الفرنجة باستمرار، أن يساعدوا في تحرير بيت

(١) - العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسبي في الفتح القسبي، تحقيق محمد محمود صبح د.ت. ص ٥٠٢.

(٢) - المعريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القسم ١، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٤، ص ٦٤.

المقدس والمدن الأخرى والذود عن دمشق وغيرها من مناطق بلاد الشام. ومن هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي المولود بمدينة المرية بجنوب الأندلس أو بمدينة مرسية في شرق الأندلس سنة ٤٨٦هـ/١٠٧٦م. وقد درس الطب في الأندلس ثم بمصر، حتى اشتهر طبيباً. وفي بداية أمره توجه إلى بغداد، وفيها عمل طبيب البيمارستان، الذي كانت تحمل عقاقيره وأدواته في المعسكر السلطاني على أربعين جملًا^(١). ولما سمع باحتلال الفرنجة لبيت المقدس وتهديدهم لمدينة دمشق، غادر بغداد. وأقام بدمشق يداوي الناس بذكاء عند باب جيرون بالقرب من المسجد الأموي الكبير حتى وفاته في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م^(٢).

وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلي الملقب بأفضل الدولة. وتفوق على والده في مسألة الخدمات الجليلة التي قدمها للمجتمع الشامي في أحلك الظروف وأصعبها، لأنه ابتعد عن الأدب والشعر الذي شغل حيزاً هاماً من حياة والده. فصار في علوم الطب من أحقق أطباء زمانه، الأمر الذي جعل نور الدين زنكي يعتمده مسؤولاً أول عن إدارة البيمارستان، الذي أنشأه بدمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد أدى خلال حياته التي انتهت في الربع الثالث من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بسنوات قليلة، خدمات جلّي في ميدان الطب. إذ كان عمله اليومي مقسماً إلى ثلاث فترات: خصص الأولى منها لزيارة مرضى البيمارستان سابق الذكر، وخصص الثانية لزيارة مرضى القلعة من الحكام وأتباعهم،

(١) - أنقضي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، عن بشره محمد أمين الخانجي، مصر، ١٣٢٦هـ، ص ٢٦٤.

ابن قاضي شعبة، طبقات اللغويين والنحويين، مخطوطة القاهرة، ص ٣٤٧، ابن خلكان، وفیات الأعيان،

ج ٣، تحقيق غحسان عباس، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) - المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٣٤.

وخصص الثالثة للتدريس في إيوان البيمارستان النوري^(٣). ومن هؤلاء الأطباء أيضاً عبد المنعم الجلياني (نسبة إلى جليانة على مقربة من غرناطة في جنوب شرق الأندلس) المتوفى بدمشق سنة ٦١٢هـ/١٢٠٧م. وكان قد اشتغل منذ وقت مبكر بالطب والأدب، وتفوق فيهما بشكل ملحوظ. ثم رحل إلى المغرب و منـه إلى بغداد، حيث اطلع على خزائن الكتب الطبية الغنية. ولما سمع ما كان يجري في الشام من حرب الغزاة الفرنجة، ترك بغداد متوجهاً إلى دمشق حيث عمل طبيباً رئيساً في لبـيـمارستان السلطاني في السفر والحضر أيام صلاح الدين الأيوبي، وظل هكذا حتى وافته المنية^(٤).

استمر المغاربة والأندلسيون على هذا الطريق في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين وتحرير بيت المقدس. ففي عهد الأفضل بن صلاح الدين، لاقى المغاربة والأندلسيون عناية فائقة منه، جزاء طيباً على خدماتهم. ففي أيام سلطنته وحينما أصبح قادراً على منح الإقطاعات، وقف على فقهاء المالكية المدرسة الأفضلية، وبجوارها وقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار المسجد الأقصى وسوره من جهة الغرب، علماً بأن المسجد الأقصى يقع في الجنوب الشرقي من مدينة القدس، وأضحى معروفاً بحارة المغاربة، التي كانت وفقاً كما يقول صاحب كتاب ((الأنس الجليل)) على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكورهم وإناثهم^(٥). وكان للمغاربة جامع تقام فيه الصلاة بالمغاربة الوافدين، منهم الميسورون ومنهم الفقراء أيضاً. وقام الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المتصوف بتعمير زاوية بأعلى الحارة، أنفق عليها من ماله،

(٣) - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، دمشق، ١٩٥٩، ص٢٤.

(٤) - ابن سعيد المغربي، النصور البائعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، مصر، د. ت. ص ١٠٤-١٠٦. ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج٢، ص١٥٧، للمقري، مصدر مذكور، ج٣، ص ٣٩٢.

(٥) - مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، مصدر مذكور، ج٢، ص٣٩٧.

ووقفها على الفقراء والمساكين سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. وإذا كان عمل الأفضل هذا تجاه المغاربة نوعاً من المكافأة على خدماتهم في جيش أبيه، فإن ظروفه بعد وفاة أبيه تجعل الاعتقاد أنه فعل ذلك بدافع من الاستعانة بقوتهم العسكرية للدفاع عن القدس. فالمدينة فقيرة، ولا تكفي وارداتها وواردات الأراضي التابعة لها للقيام بكلفتها، مما أدى إلى تخصيص ثلث وارد إقطاع نابلس لها. وكذلك، فإن ضياء الدين ابن الأثير وزير الأفضل، ألقاه بالتنازل عن القدس، لأسباب منها: التخلص من النفقة عليها. لكن المكانة الدينية للمدينة جعلتها قوة معنوية لمن تتبعه. وربما كان هذا أيضاً من جملة الأسباب التي جعلت نواب الأفضل في فلسطين، وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب مقطع نابلس، يعرضون على سيدهم الرقيق، ويتعهدون بالقيام بأودها وأود رجالها. كما أنها كانت حتى ذلك الوقت هدفاً رئيسياً للفرنجة، وكان بيدهم رأس جسر مناسب للهجوم عليها، يتمثل في ميناء عكا الحصين. وكان على الأفضل والمشيرين عليه والمحيطين به أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار، خاصة وأن الأفضل لم يكن حاكم الأمبراطورية الأيوبية فعلياً كابيه. بل إن سلطانه اقتصر على الشام بكل ما حفلت به آنذاك من عوامل تمنع من قيام سلطة مركزية بها، كما أنها كانت عاجزة عن تمويل جند كثيف، فقد كانت غير قادرة على تمويل أكثر من أربعة آلاف جندي نظامي. وبهذه القوة الضئيلة كان عليه مجابهة الخطر الفرنسي، وكذلك خطر أفراد أسرته المستضعفين له. وكان أخوه العزيز صاحب مصر على رأسهم في الظاهر. وفي ظل هذه الأوضاع يبدو منطقياً الافتراض بأن الأفضل كان يرى في المغاربة والأندلسيين قوة عسكرية مناسبة، يمكن أن يستفيد منها في الدفاع عن القدس على الأقل. ومما يؤكد اشتراك المغاربة في الحرب مع صلاح الدين في معارك التحرير، في حال غياب الإحصاءات الدقيقة، أن هؤلاء المغاربة هم كالكثير من الشاميين الذين شاركوا في هذه الحرب من غير الجيش النظامي الذي لم يكن

يشكل كل القوة المحاربة ولا حتى النسبة العددية الكبرى. فقد بين المستشرق الإنكليزي جب (gibb) أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين، لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل^(١). أما المحاربون الآخرون، فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم المحاربون الآخرون فكانوا من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب. ولم يكن الإفرنج على ما يبدو - غافلين عن هذه القيمة التي يشغلها المغاربة عند حكام الشام. فقد حدث في سنة ٦٢٦هـ/١٢٣٠م، أن حمل عدد كبير من أسرى جزيرة ميورقة إلى الساحل الشامي، حيث استفكوا وقدموا إلى دمشق، يقول أبو شامة في ((السذيل على الروضتين)) في معرض حديثه عن سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م: ((في هذه السنة جاء الخبر بأن الفرنج استولوا على جزيرة ميورقة وقتلوا خلقاً كثيراً واسمروا كذلك، وقدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم))^(٢). وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى التقدير الذي أبداه الأيوبيون للمغاربة لما قاموا به من أعمال مميزة ومخلصة خلال الحرب مع الفرنجة. يضاف إلى ذلك أنهم قوة جديدة، تضاف إلى الموجودين القدماء.

كما اشتغل قسم من هؤلاء المغاربة في عدد من الميادين العلمية والإدارية في القدس بعد تحريرها، وبخاصة في حقل القضاء. فقد عملوا جاهدين على استحداث منصب قاضي المالكية بهذه المدينة، ونجحوا في ذلك فكانت بيت المقدس هي المدينة الرابعة، بعد القاهرة ودمشق وجلب، التي استحدث فيها هذا المنصب. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على وجود جالية مغربية أندلسية

(١) - encyclopedia of Islam, vol, I, pp. 797-798

(٢) - أبو شامة، السذيل على الروضتين، مصدر مذكور، ص ١٥٩.

فيها^(٣). وقد شغل هذا المنصب عدد من المغاربة، توافرت في بعضهم الشروط الضرورية للقاضي، ولم تتوافر في بعضهم الآخر. نذكر من هؤلاء على سبيل المثال القاضي عيسى بن محمد المغربي الشحامي الملقب بشرف الدين أبي الروح، الذي بقي على رأس منصبه بصورة مستمرة حتى سنة ٨٥٤هـ/١٤٥١م، ومارس الحكم خلال هذه الفترة بكل إخلاص وعفة واستقامة، لا يحابي أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم، يدعمه في ذلك قوة شخصيته وصلابة مواقفه وعدم التراجع عنها إضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الإسلامية. ومن مواقفه الرائعة ما حدث له مع نائب القدس مبارك شاه: كان هذا الأخير قد قرر قتل أربعة من الفلاحين، وكلفه بشنقهم بتهم السرقة والنصوصية، فسأله القاضي المذكور هل كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطريقة شرعية. فأجابته النائب: ((نحن لا نحتاج إلى إثبات شرعي)). فرد عليه: ((لا يمكن تنفيذ ما أمرت به إلا بعد أن تثبت الأدلة)). لكن النائب تمادى في تصلبه وألح على قتلهم، فأجابته القاضي بقوله: ((والله لو قتلتهم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، وأعلقك إلى جانبهم...)) فترجع النائب عن إصراره^(٤).

ومنهم محمد بن سعيد المغراوي الملقب بشمس الدين، الذي اشتغل مدة بدمشق، ثم انتقل إلى القدس، ليشغل قاضي قضائتها بعد وفاة القاضي سابق الذكر حتى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٩م^(٥)، والقاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، الذي تولى قضاء المالكية بالقدس والرملة في وقت واحد، وهو أول قاض من الأندلسيين والمغاربة، جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد، لكن ولايته لم تدم طويلاً في هاتين المدينتين، حيث عزل في أواخر سنة

(٣) ... استحدث منصب قاضي قضاء المالكية بالقاهرة ودمشق سنة ٦٦٤هـ، ويحلب سنة ٧٤٧هـ، وبالقدس بعد حلب بسنوات قليلة.

(٤) - الحنيلي، الأس الجليل، مصدر مذكور، ج٢، ص ٥٨٥.

(٥) - المصدر نفسه، ص ٥٨٦.

٨٧٨هـ/١٤٧٠م، وتوجه إلى القاهرة ومنها إلى طرابلس الشام حتى وفاته
في سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٤م^(٣).

وربما كان آخر القضاة الأندلسيين في مدينة القدس، العلامة الغرناطي
شمس الدين محمد بن علي الأزرق المغربي الأندلسي المالكي، الذي اختلف عن
جميع القضاة الأندلسيين في بلاد الشام في ناحية واحدة، تجلت في أنه كان قاضياً
للجماعة في كل من مألقة وغرناطة بجنوب الأندلس، قبل أن يأتي إلى الشام. وقد
اشتهر عنه التبحر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة، خرج من غرناطة على
أثر سقوطها بيد الإسبان، خرج منها ليستقر ملوك العرب، فتوجه إلى المغرب
وطلب من ملوكها نجدة بلاده، لكن محاولته هذه باءت بالإخفاق، فتوجه إلى
مصر، حيث التقى بالسلطان الأشرف قايتباي، وطلب منه نصرة العرب في
الأندلس، لكن الثابت أن هذا الطلب لم يسفر عن نتيجة إيجابية كما حصل في
المغرب. عند ذلك، أثر البقاء في المشرق، وطلب من السلطان سابق الذكر تأمين
عمل له، فولاه قضاء بيت المقدس بدلاً من القاضي محمد بن مازن الغزي،
وباشر عمله في السادس من شوال سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١ وظل فيه حتى السابع
عشر من ذي الحجة من السنة نفسها. وبذلك تكون ولايته أقصر ولاية أمضاها
أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيث لم تتجاوز واحداً وستين يوماً توفي
بعدها متأثراً بمرض مفاجئ ألم به، ودفن بمأملاً ببيت المقدس. وقد كان مثال
العفة والنزاهة^(١).

من ناحية أخرى، ركز الجغرافيون الرحالة المغاربة على زيارة بيت
القدس، في الفترة التي تلت تحريرها، وكأنهم كانوا يريدون بذلك التنويه بمكانة
هذه المدينة المقدسة. وكان في مقدمتهم ابن جبير الأندلسي، الذي ذكر أن تحرير

(٣) - المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

(١) - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٥٩١-٥٩٢.

بيت المقدس كان من أقوى الأسباب التي بعثته على الرحلة الثانية إلى المشرق في سنة خمس وثمانين وخمسمائة. قال : ((وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجهاً، وفي شهر واحد متصرفاً))^(١).

جاء بعده الرحالة العبدري، الذي بقي ببيت المقدس فترة من الزمن وقف خلالها على طبيعة الحركة العلمية، التي كانت مثار اهتمامه في كل البلدان التي زارها ومنها القدس، التي وصفها بقوله: (ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنياً به، إلا شيخاً هو قاضي البلد يلقب ببدر الدين واسمه ابراهيم بن جماعة، له مجلس علم يدرس فيه أول النهار...) ^(٢).

وكذلك قام ابن بطوطة بزيارة القدس، وفعل الشيء نفسه الرحالة البلوي الذي اهتم اهتماماً خاصاً بالمسجد الأقصى ووصفه بأنه من أعظم مساجد الدنيا واستغرق في وصفه طويلاً، بحيث يمكن القول إنه لم يوصف غيره بمثل ما وصفه، فذكر طوله وعرضه وعدد أعمدته ومحتوياته وكل ما يتعلق به^(٣).

أضف إلى كل ما تقدم أن الأندلسيين والمغاربة ظلوا يهتمون بزيارة بيت المقدس إلى نهاية العصور الوسطى، بصفته أحد الأماكن العزيزة على المسلمين من الناحية الدينية. مثال ذلك المفكر المغربي الكبير عبد الرحمن بن خلدون (المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي). لما كان مقيماً بالقاهرة، استأذن السلطان فرج بن برقوق لزيارة القدس. فأذن له السلطان بذلك. فزار المسجد الأقصى ومدفن الخليل - عليه السلام - وبيت لحم. ذلك لأنه واحد

(١) - المراكشي، الخليل والتكملة، ص ٦٠٥-٦٠٦.

(٢) - العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٣٠.

(٣) - انظر عن ذلك: رحلة للبلوي، ص ١٠٣ فما بعد.

من المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يؤمنون بوجوب زيارة القدس، كما تُزار مكة والمدينة في الحجاز^(٤).

وقد كان المغاربة والأندلسيون، الذين يزورون القدس والشام يصطحبون معهم عند عودتهم إلى بلادهم عدداً من الكتب التي ألُفت في المشرق عن قدسية الشام وبيت المقدس، والتي كان القصد منها حث الناس وتشجيعهم على الاشتراك في تحرير القدس وما حولها من مدن فلسطين وحماية بقية المدن الشامية التي كان الفرنجة يتطلعون لاحتلالها. من هذه الكتب كتاب ((ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام)) لعز الدين بن عبد السلام الملقب بسُلطان العلماء، وكتاب ((مثير الغرام في زيارة القدس والشام)) لشهاب الدين المقدسي، وكتاب ((مثير الغرام في زيارة الخليل)) للتمري. وكثيراً ما تأثر الناس بالدعاية التي ضمتها هذه الكتب وأمثالها^(٥). بقي أن نقول إنه إلى جانب بيت المقدس، حظيت مدن فلسطينية باحترام كبير من قبل الأندلسيين والمغاربة، كمدينة الخليل وعسقلان وعكا وطبريا وغيرها. لكن هذا الاحترام على الرغم من أهميته البالغة، لا يمكن مقارنته بالاحترام والتقدير، اللذين حظيت بهما مدينة بيت المقدس. وقد جاء هذا الاحترام من أن المدن سابقة الذكر تحتوي على عدد كبير من المقدسات الإسلامية التي يجلها المسلمون ويرغبون في زيارتها، مثل قبور الأنبياء، ومشاهد الصالحين، والمساجد المقدسة، إلى غير ذلك^(٦).

وبالجملة فقد كان موقف الأندلسيين والمغاربة من مدينة القدس الشريف، موقفاً رائعاً مسؤولاً جسديته التضحيات الكبيرة والسخية التي قدموها على مدى سنين طويلة وفي مختلف الحقول والميادين، يحدوهم في ذلك شعورهم الوطني

(٤) - ابن خلدون، للتعريف بآين خلدون ورحلته، ص ١٨٠-١٨١.

(٥) - نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢١٢-٢١٣، كراشكوفسكي، ج ٢، ص ٥١١.

(٦) - انظر أسماء هذه المقدسات العديدة عند: ابن بطوطة، مذهب ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، ١٩٦٤، ص ٦٥ و ٦١ و ٧٠٤ و ٧٧٩.

الدافق بأن بيت المقدس من المدن العربية المقدسة التي تستحق أن تظل بعيدة عن الاحتلال والذلة لما تمثله في حياة العرب والمسلمين من قيمة روحية بالغة الأهمية. هذه التوضيحات التي جاد بها المغاربة لم تحدث بفعل تدخل الحكام أو سياستهم العامة، بل كانت عفوية صنعها الشعب المغربي وحده بعيداً عن حكامه في ذلك الوقت.





الفصل الثالث عشر

مظاهر التعريب في المغرب الكبير

في الحديث عن مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى، تجدر العودة إلى الفترة القديمة التي سبقت ظهور الإسلام وانتشاره في هذه المنطقة. ففي هذه الفترة نرى أن مظاهر التعريب في المغرب كانت طاغية بشكل عام، وبخاصة في المناطق الساحلية الممتدة من تونس في الشرق إلى طنجة في الغرب. ولعل أهم قاعدة انتشر منها تيار تعريب المنطقة، هي مدينة قرطاجة بتونس، التي بناها الفينيقيون، رواد عملية التعريب في المغرب الكبير في العصور القديمة، لتكون عاصمة لهم على مدى أكثر من ثمانية قرون متواصلة، ولتكون كذلك أهم عاصمة في المغرب الكبير وفي الغرب الأوروبي، على صعيد نشر العلم والثقافة وترويج حالة اقتصادية نشطة. وبخاصة في مجال التجارة التي شملت عملياتها مختلف مناطق المغرب الكبير ومناطق القارة الأوروبية، ساعدهم على ذلك امتلاكهم لأسطول كبير وخبرة واسعة في شؤون الملاحة البحرية^(١).

ولعل من أعظم مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور القديمة، هي انتشار اللغة الفينيقية في صفوف سكان المغرب الكبير وغيرهم، مما ساعد على انتشار اللغة العربية الحالية بسرعة فائقة، وذلك لوجود تشابه كبير في جذور اللغة العربية والفينيقية^(٢)، ولم تستطع كل محاولات الرومان وغيرهم، أن تقضي على التأثير العربي الفينيقي، الذي شكل أساساً مثيراً بنى عليه العرب المسلمون في العصور الوسطى بناء عربياً خالداً في كل أجزاء المغرب الكبير.

(١) - أحمد توفيق المدني - قرطاجة في أربع عصور، طبعة تونس، ١٩٢٦، ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) - أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦.

أما في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، فقد سارت عملية التعريب في المغرب الكبير مسيرة متباعدة، وذلك بسبب الظروف السياسية والاجتماعية، التي كانت تظهر على السطح بين الفينة والأخرى. ورغم الصعوبات التي رافقت هذه العملية، فإنها بقيت مستمرة بنجاح، ساعد على ذلك سيادة مفهوم عام في المغرب الكبير، هو أن الإسلام كدين وكعقيدة يساوي في نظر المغاربة مفهوم العروبة، وتطور هذا الأمر حتى أصبح الإسلام يعني العروبة حتماً، وكذلك العروبة تعني الإسلام، ودليل ذلك أن معظم الحركات المناوئة للعرب، كانت تتباعد عن إثارة قضية الدين إلا في حالات نادرة سنأتي على ذكرها في حينها بما يتناسب مع منهج وسياق هذا البحث.

وهنا يجب أن نلفت النظر، بأن السبب في التركيز على ظاهرة التعريب في المغرب الكبير، أن فتح المغرب الكبير^(١) كان قد أنجز في العصر الأموي، هذا العصر الذي تميز بشكل خاص بتركيز حكامه على مسألة الاعتماد على العنصر العربي في الحكم والإدارة العامة، انطلاقاً من أن العرب هم الذين أنجزوا توحيد تلك الدولة المترامية الأطراف، التي حكمها الخلفاء الأمويون بنجاح إلى حد ما.

فقد كان المغرب الكبير يشكل إحدى الولايات العربية في الدولة الأموية، التي كلفت الأمويين جهوداً كبيرة ومضنية وأموالاً جمة وخسائر لاقتة في النفوس والدماء، ذلك لأن المغاربة من العرب لم يكونوا وحدهم، الذين في يدهم القرار والحكم أو الفصل في الأمور الكبيرة، بل كان إلى جانبهم عناصر أخرى غير عربية، مثل الروم واللاتين واليهود والوثنيين، وقفوا منذ البداية في وجهه كل الحملات العربية، التي أرسلت من مصر والشام لفتح المغرب الكبير، وقد نجحوا

(١) - بدلت عملية فتح المغرب الكبير في سنة ٢١ وانتهت في سنة ٩٠هـ.

في العديد من المناسبات في كبح جماح التقدم العربي، مما جعل فترة الفتح تطول حتى زادت على سبعين عاماً^(١).

إن الذي حصل من صعوبات وخسائر فادحة في المغرب الكبير أثناء عملية الفتح، أدى بالأمويين إلى اتباع سياسة قاسية للغاية، فقد وقعوا في مغالطة كبيرة، حينما عدوا المغاربة برمتهم عنصراً لا يمت إلى العرب بصلة كبقية العناصر الأخرى من ترك وفرس وغيرهم، فمنعواهم في البداية من القيادة، ورفضوا مساواتهم بالمشاركة في مسألة العطاء أو المعاملة بشكل عام، لكن ذلك لم يكن عاماً في كل الفترات، بل اقتصر ذلك بشكل خاص على الفترة، التي شغلها عقبة بن نافع الفهري كوال للمغرب الكبير، الذي لم يتمكن من فهم الواقع الذي كان سائداً في المغرب الكبير أثناء فترة ولايته^(٢)، فنظر إلى المغاربة على أنهم من الدرجة الثانية، مثلهم في ذلك مثل بقية الجماعات من الموالي من غير العرب.

لكن أبا المهاجر دينار الذي خلف عقبة في ولاية المغرب، التفت إلى الضرر الذي سببته سياسة عقبة في المغرب الكبير، فأعلن منذ أيامه الأولى في الولاية عن سياسة العدل والمساواة بين المشاركة والمغاربة على اعتبار أن الجميع من أصول عربية واحدة، وقد كان تصرفه هذا لفتة عظيمة على طريق تعزيز القوة العربية والوجود العربي بالمغرب الكبير، ليكون العرب قوة فاعلة تستطيع مجابهة كل المتربصين بعملية التعريب، ولاسيما البيزنطيون واليهود. وكان من نتيجة هذه السياسة الناجحة، أن دخلت مجموعات كبيرة من المغاربة في الإسلام تحت المظلة العربية، وكانت قبيلة أوربة المغربية بزعامة كسيلة أهم

(١) ... علي أحمد - تاريخ المغرب القديم والإسلامي، طبعة جامعة دمشق، ٢٠٠٧.

(٢) ... شغل عقبة بن نافع ولاية المغرب الكبير من سنة ٥٠ إلى سنة ٥٥ هـ، حيث عزل ثم أعيد فسي سنة

٦٢ هـ وبقي حتى لستشهد في سنة ٦٥ هـ.

هذه المجموعات، التي أعلنت على الفور استعدادها للسير في ركب المشروع العربي في المغرب الكبير، طالما أن هذا المشروع يوفر لهم الحرية والعدل والاستقرار^(١).

وفي ولاية حسان بن النعمان الغساني على المغرب الكبير، تابع انتهاز سياسة المواءمة بين المشاركة والمغاربة على أساس عربي واضح الرؤى، مما ساعده على تحقيق إنجازات كبيرة بالمغرب الكبير. يضاف إلى ذلك، أنه كان يرى أن أخطر ما يهدد المشروع العربي آنذاك، هو الوجود البيزنطي واليهودي. فقد ركز بشكل خاص على تدمير مدينة قرطاجة وإقامة مدينة تونس إلى جوارها، ذلك لأنه كان يعدها قاعدة بيزنطية سببت للعرب الكثير من المصائب والخسائر، التي ترافقت مع مجريبات عملية الفتح العربي للمغرب الكبير. وكان قبل ذلك قد توجه إلى تقويض الوجود اليهودي بمنطقة الأوراس بجنوب شرق الجزائر، وكان هذا الوجود يتمثل آنذاك بقبيلة جراويّة قوية، بزعامة الكاهنة دهايا، التي تميزت بشدة كرهها للعرب، وقد تجلّى ذلك بموقفها ضدهم في فترة ولاية حسان بن النعمان، الذي استطاع بعد تعثر ومعاناة، أن يلحق الهزيمة في صفوف أتباعها وأن يضع حداً للوجود اليهودي بمنطقة الأوراس في الجزائر^(٢).

وحينما تولى موسى بن نصير ولاية المغرب الكبير بعد عزل حسان بن النعمان الغساني، تابع السير على نهج حسان بن النعمان في الحرص على استمرار عملية التعريب، التي كان من أهم أسسها في نظره، هي مسألة مساواة المغاربة بالمشاركة على كافة الصعد، وهو الذي شهد ما حدث لعقبة ابن نافع،

(١) - ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب، ص ٧٢. المالكي، رياض النفوس، ص ٢٥.

(٢) - ابن عذاري - البيان المغرب، ج ١، ص ٣٤ وما بعدها. المالكي، رياض النفوس، ص ٣٥.

ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٨١.

الذي تجاهل هذه المسألة نهائياً، وأدت في النتيجة إلى سقوطه شهيداً بتهودة في جنوب شرق الجزائر، التي أطلق عليها اسم سيدي عقبة إجلالاً وإكباراً لشخصه وأعماله الجليلة في المغرب الكبير على صعيد عملية التعريب^(١).

اختلفت أحوال التعريب في المغرب الكبير بعد سقوط الدولة الأموية، وأصبح المغرب مسرحاً لنشاط كثير من المغامرين، الذين حاولوا صنع أمجاد معينة خاصة بهم تحت حجج مختلفة ومتباينة، فقد بدأ الخوارج يصلون من المشرق إلى المغرب الكبير مستغلين بعض الثغرات السياسية، التي لم ينتبه لها الأمويون المتأخرون، وهي التي تجسدت بالمعاملة غير العادلة وغير الإنسانية للمغاربة بشكل عام، مما ساعد على ظهور نقمة واسعة النطاق في نفوسهم، مما جعلهم يسرون وراء الخوارج، الذين أعلنوا مبادئ راقية في العدل والمساواة وتكافؤ الفرص وحق الترشيح للخلافة بغض النظر عن الأصل والجنس واللون، بشرط أن يحصل المرشح على موافقة الأغلبية. وقامت ثورة خارجية بالمغرب الأقصى سنة ١٢٢هـ/٧٤١م، كانت تستهدف في المقام الأول السلطة العربية المتمثلة بالوالي الأموي. وقد نجحت هذه الثورة نجاحاً باهراً، بعد أن فشل الخليفة هشام بن عبد الملك، في وضع حد لها رغم إرساله جيشاً قوياً لقمعها بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، وهو الجيش الذي أرسله بعد قوله المشهور: (سأغضب لهم غضبة عربية وسأرسل لهم جيشاً يكون أوله عندهم وآخره عندي). ومن هذا القول يفهم أن هشام بن عبد الملك، كان يعرف تماماً ما تشكله ثورة الخوارج من أخطار على الوجود العربي بالمغرب الكبير، وبالتالي حرصه على استمرار هذا الوجود بكل الوسائل^(٢).

(١) - سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي، ص ١٦٩.

(٢) - ابن عدلوي - البيان المغرب، ج ١، ص ٥١ وما بعدها. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٣١. المقري، فتح للطيب، ج ١، ص ١٥٥ وما بعدها.

لم يتمكن الخلفاء الأمويون الذين جاؤا بعد هشام بن عبد الملك أن يفعلوا شيئاً، وبخاصة في ميدان فرض سياسة النولة العربية الأموية في المغرب الكبير، فوقع معظمه في قبضة الخوارج، حتى جاء العباسيون فحاولوا أن يعيدوا الأمور إلى سابق عهدها، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً كبيراً، واقتصر نجاحهم في السيطرة على المغرب الأدنى (تونس)، الذي بقي يسير في ركب الدولة العباسية، حتى جاء الفاطميون في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فضموه إلى بقية أجزاء المغرب الكبير، هذه الأجزاء التي شكلت دولة موحدة تحت حكم الفاطميين.

وقد حافظ المغرب الأدنى (تونس)، الذي شهد في هذه الفترة حكم الأسرة الأغلبية، حافظ على السياسة العربية الواضحة، التي كانت الدولة العباسية تنفذها بائزان ووضوح، فكل ما طُبق في العصر العباسي الأول من عمليات تعريبية في المشرق، طبق مثيله في المغرب الأدنى في ظل النولة الأغلبية، التي كانت في عصرها واجهة عربية واضحة المعالم في كل المجالات. فقد عاش في ظل دول الأغلبة مجموعات بشرية من مختلف الأجناس، لم يذكر أنهم عانوا من أية مصاعب أو مضايقات، ذلك لأن سياسة الحكام الأغلبية، كانت سياسة عربية واضحة، ترى حق العرب في الحكم والسيادة والثقافة، الأمر الذي يحتم عليهم استيعاب الآخرين بالاعتماد على هذا الواقع الإيجابي، الذي ابتعد عن كل أشكال التفرقة العنصرية أو الدينية، ودليل ذلك أن الفقيه المغربي المعروف بسحنون، حُرّم من ممارسة كل وظائفه العلمية والدينية، حينما شعر الأغلبية أنه يعادي المعتزلة في الوقت الذي كان العباسيون فيه وكذلك الأغلبية، يرون في المعتزلة حركة عربية مجددة على الصعيد العلمي العقلاني، وهو أمر يساعد العرب بصورة عامة للوقوف في وجه الحركات الأجنبية المناوئة للخلافة العباسية، التي كانت من أقوى رموز الوجود العربي وأدواته حتى نهاية العصر العباسي الأول.

وهذه الحركات كانت كثيرة ومتعددة، كما رأينا في بحث مظاهر التعريب في العصر العباسي.

ومن منجزات التعريب التي حرص الأغلبية على صنعها، هي التي نتجت عن حملاتهم في جزيرة صقلية وشرق وجنوب إيطاليا، وفي عدد من جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فعلى الرغم من تعرّضهم في السيطرة على صقلية وما حولها من مناطق، فإنهم طبعوا هذه البلاد بطابع الثقافة العربية، التي نقلوها إلى هذه المناطق جاهزة، وهي التي ساهمت في تطوير مجتمعات هذه المناطق، والدليل على ذلك أن حكام صقلية بعد خروج العرب منها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، بقوا يعتمدون على معطيات هذه الثقافة إلى وقت متأخر من العصور الوسطى. وما حرص حكام صقلية رجار على بقاء الجغرافي الإدريسي في بلاده، إلا من هذا القبيل. كذلك فقد كان تأثيرهم في جزيرة مالطة كبيراً، فالمالطيون حتى اليوم يتكلمون اللغة العربية مع بعض الكلمات الإنكليزية^(١).

أما بخصوص الدول الأخرى المستقلة، التي قامت بالمغرب الكبير إلى جانب الدولة الأغلبية، وهي الدولة الإباضية بتأهت بالجزائر، ودولة الأدارسة ودولة سجماسة في المغرب الأقصى، فعلى الرغم من أن هذه الدول قامت على أساس مذهبي ديني، فإنها لم تتمكن في واقع الحال أن تطبق ما جاء في برامجها المذهبية، التي كانت تنادي بها قبل أن تتجسد في دول حقيقية على الأرض، ذلك لأنها رأت أن استمرارها في الوجود، لن يكون إلا من خلال نسيان المبادئ المذهبية الدينية، أو على الأقل وضعها جانباً، لأن مصالحها الاقتصادية كانت

(١) - ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥ وما بعدها، و ج ٦، ص ١٩.

للحميري - الروض المعطار، ص ٥٢. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

أحمد المدني - المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٥٧ وما بعدها.

تقتضي ذلك، وبخاصة أنها اعتمدت التجارة، التي كانت ناشطة بين غرب إفريقيا وبينها وبين الأندلس وأوروبا والدويلات المجاورة، مما جعل الجميع يتناسون الخلافات المذهبية، ويضعونها على الرف من أجل أن تبقى مصالحهم الاقتصادية في حالة مزدهرة. وتبعاً لذلك قبلت هذه الدول جميعها في مجتمعاتها مختلف الأجناس والأعراق وأصحاب العقائد المختلفة^(١)، فكانوا يعيشون تحت مظلة العروبة، التي جمعتهم من جميع الجهات والفئات، وهي المظلة التي لم يختلف أحد عليها.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وبداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تمكن الفاطميون من إزالة كل الدول المستقلة بالمغرب الكبير وأعلنوا وحدة المغرب الكبير^(٢) على أساس عربي واضح المعالم، وكان ذلك ضمن مشروعهم العربي الكبير، الذين كسانوا يحلمون في تحقيقه في ضم الأندلس والمشرق إلى المغرب الكبير، وإعلان الدولة العربية الواحدة، فابتعدوا عن الخلافات المذهبية والعرقية، وأعلنوا حرية واسعة في البحث العلمي في كافة مجالات العلوم، وركزوا في ذلك على العلوم الفلسفية والتطبيقية، لأنهم كانوا يرون في ذلك خطوة عظيمة الأهمية على طريق إنجاز وحدة الدولة العربية، وقللوا من شأن الدراسات النظرية، ولاسيما المتعلقة منها بعلوم الدين، لأنهم رأوا فيها إثارة الخلافات والأحقاد، ومع ذلك فإنهم لم يبقوا في طريق أي مذهب من المذاهب على الإطلاق، وعاشت في كنفهم مجموعات من كل المذاهب والأديان، وتمتعت هذه المجموعات بحريات واسعة، واستخدم قسم من هذه المجموعات في مجال الإدارة الفاطمية في كافة مستوياتها، ومع ذلك فلم توفق هذه الدولة على الإطلاق في تحقيق حلمها الكبير في جمع العرب في دولة

(١) - انظر عن هذه الدول، علي أحمد - تاريخ المغرب الكبير، ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) - هذه الدول هي: الدولة الأغلبية بثونس، والإباضية بالجزائر، والإدرسية بالمغرب الأقصى والمدراية.

واحدة، ذلك لأن القسم الأعظم من سكان الوطن العربي في الشرق والغرب وقفوا ضدها وحاربوها على أساس مذهبي بغيض، سواء كان ذلك في مرحلتها المغربية أو المشرقية^(٣). وقد شغل الغرباء دوراً سلبياً كبيراً في هذه المسألة، وبخاصة السلاجقة الأتراك ومجموعات أخرى، أعلنت راية العداء لهذه الدولة، تحت عنوان حماية الدين والسنة، وكان الفاطميون كانوا خارج دائرة السنة والدين. لكن سبب ما جرى كان يتعلق بعروبة هذه الدولة وحرصها على السيادة العربية القائمة على العدل والمساواة والعلم والفضيلة، ومحاربة كل أشكال العنصرية والمذهبية الدينية، وهي أمور لا تعجب الغرباء، فانبأوا للتصدي لهذه الدولة، واستطاعوا أن يستقطبوا إلى جانبهم مجموعات كبيرة من سكان البلاد من العرب الأصليين، من خلال التظاهر بالحرص على إحياء السنة وحمايتها من الخطر الفاطمي، الذي صورته الغرباء في طليعة الأخطار المؤثرة. ونجحوا مع الزمن بإسقاطها، فدخلت المنطقة العربية، وبخاصة في المشرق في مرحلة جديدة، كانت من أقسى مراحل تاريخها على الإطلاق، ذلك لأنها سقطت في أيدي الغرباء، الذين جعلوها خلال أكثر من ثلاثة قرون نهباً لجشعهم ومطامعهم، فأفقرت مواردها الاقتصادية والعلمية^(١).

لكن الذي فشل الفاطميون في تحقيقه في المغرب الكبير، نجح المرابطون في إنجازه بسرعة كبيرة، وبخاصة حينما صنعوا وحدة المغرب والأندلس لأول مرة بعد سقوط دولة الأمويين، وكان لهذه الوحدة تأثيرها الإيجابي البالغ في الحفاظ على الأندلس، وإنقاذها من سقوط كان محتماً بيد حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، التي كان يقودها بجدارة وقوة الفونسو السادس. وخلال عملية توحيد

(٣) - استمرت المرحلة المغربية من سنة ٢٩٧ إلى سنة ٤٦١ هـ. وانتهت المرحلة المشرقية من سنة ٤٦١ حتى سنة ٥٦٧ هـ.

(١) - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٥٢. المغرزي، اتحاد الحفاء، ج ٣، ص ٣١٦ وما بعدها.

المغرب الكبير، اصطدم المرابطون بمقاومة شديدة من قبل مجموعة من المغاربة، كانوا قد كونوا دولة صغيرة، عُرفت في التاريخ المغربي (الدولة البرغواطية)، التي شغلت كل منطقة تاسنا أي تلك المنطقة المحصورة بين نهري بورقراق وأم الربيع، حتى المحيط الأطلسي بالمملكة المغربية، وهي منطقة الرباط الحالية. وقد ركز المرابطون منذ البداية على حرب هذه الدولة من منطلقين هامين، الأول ديني يعتمد على أن الدولة البرغواطية، كانت تخالف الشريعة الإسلامية في الكثير من المسائل^(١)، والثاني قومي عربي يعتمد على أنهم كانوا يعدون أنفسهم مجموعة غير عربية على الإطلاق، فقد ذكر أحد قادتهم وهو صالح البرغواطي، أنه نبي ورسول مبعوث إلى البرغواطيين باللهجة المغربية، وكان يحتج ويدعم صحة ذلك بأية من القرآن الكريم هي قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، وأن محمداً عربي اللسان مبعوث إلى قومه العرب^(٢). ولعل ذلك هو الذي جعل الجميع قبل المرابطيين، كالأمويين والأدارسة والفاطميين والزيريين والزناطين، يصرون على تطويع البرغواطيين، ولكنهم لم يفلحوا حتى جاء المرابطون، فالحقوا بهم هزيمة كبيرة كانت بداية النهاية لوجودهم، وأصبحت منذ ذلك الحين منطقة الرباط تحت سيطرة الدولة المرابطية.

وقد رأى المرابطون بعد أن استقرت سلطتهم بالمغرب والأندلس، أن خير ما يحمي ويحصن وحدة الدولة العربية التي صنعوها، وبالتالي تعميق جذور التعريب في كيانها، هو أنهم اعتمدوا المذهب المالكي كمذهب وحيد للدولة، يتمثل فيه الإسلام في نظرهم، ذلك لأن الإسلام كان في عُرْف المرابطيين ديناً قومياً عربياً، ينبغي أن لا يخضع لأي شكل من أشكال الانقسام والتجزؤ، لذا فقد قضوا

(١) - الإدريسي - فزحة المشتاق، ص ٩ وما بعدها، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٢٠-١٢٣.

(٢) - أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٩٢ وما بعدها.

على جميع المذاهب الأخرى، التي كانت تنتشر في بعض أجزاء المغرب الكبير، كالمذهب البرغواطي ومذهب الخوارج والمذهب الشيعي. ومن الطريف أن أعداءهم قلدوهم في هذا الشأن، وكان في مقدمة هؤلاء الأعداء الإسبان، الذين يمثلون حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية في شمال إسبانيا (الأندلس). فقد أمر زعماء حركة الاسترداد بأن يكون المذهب الكاثوليكي هو المذهب الوحيد في كل الممالك، التي تسيطر عليها حركة الاسترداد، وهي قشتالة وليون وبرشلونة وتوابعها، ذلك لأن المذهب الكاثوليكي، هو المذهب الوحيد في نظرهم، الذي كان يمثل المذهب القومي والوطني لكل الإسبان بدون استثناء^(١). كذلك فقد حرص المرابطون من جهة أخرى، أن يعيدوا إلى الأذهان ضرورة إعادة اللحمة والوثام بين مغرب الدولة العربية ومشرقها، فاعترفوا بالخليفة العباسي وأعلنوا تبعيتهم له، على الرغم من أن الخلافة العباسية كانت في حالة بانسنة، وكأنها غير موجودة على الإطلاق بسبب سيطرة السلاجقة الأتراك عليها.

لكن أعظم أعمال المرابطين في ميدان التعريب، كانت أعمالهم في الأندلس حينما هبوا بقوة لإنقاذ الأندلس العربية من خطر الزوال، بعد أن قويت شوكة حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، في الوقت الذي انفرطت فيه كل أواصر المحبة والتعاون والاتصال بين زعماء الطوائف بالأندلس، حتى أصبحوا عائلة على أنفسهم. وقد أحس بجسامة الخطر أكبر زعماء الطوائف قوة وسطوة وأكثرهم إحساساً بوطنيته وعرويته، وهو المعتمد بن عباد الذي فضل أن تبقى الأندلس عربية، ولو كان ذلك على حساب وجوده في الحكم. وقد تفجر الشعور العربي فيه على أثر حادث، شعر المعتمد خلاله بالذلة والهوان، وكان ذلك أثناء حضور وفد من قبل الفونسو السادس زعيم حركة الاسترداد لقبض الجزية المستحقة على المعتمد بن عباد، وكان رئيس الوفد رجلاً يهودياً يدعى ابن

(١) - أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٩٢ وما بعدها.

شاليب، الذي قال للمعتمد بن عباد أن عيار الذهب المخصص للجزية غير كامل، ولا تتوفر فيه المواصفات المطلوبة. وأضاف مخاطباً المعتمد بن عباد، أن هذا الأمر لو تكرر في العام القادم، فستكون إشبيلية مقر حكم المعتمد وما حولها هي الجزية المطلوبة، فغضب المعتمد بن عباد وخرج عن المؤلف، وأمر بقتل ابن شاليب اليهودي واعتقال مرافقيه. ومنذ حدوث هذه الحادثة تبلورت قناعة المعتمد على ضرورة طلب المساعدة الفورية من المرابطين بالمغرب الكبير، من أجل إنقاذ الوضع العربي المتدهور بالأندلس. وفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، قرر طلب المعونة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، على الرغم من النصيحة التي قدمت له، ومفادها أن إدخال المرابطين إلى الأندلس، سيؤدي إلى سيطرتهم وسيادتهم عليها. لكنه لم يلتفت إلى هذه النصيحة، وأقدم على خطوته نتيجة تفكير عقلاني، اعتمد على وعي ناضج تجسد بقوله المشهور للذين نصحوه: (خير لي أن أصبح راعي جمال في المغرب من أصبح راعي خنازير في قشتالة)^(١).

لقد أدى دخول المرابطين إلى الأندلس إلى عدد من النتائج الإيجابية، فقد أعيدت الحياة إلى عرب الأندلس، وبخاصة بعد معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون على الإسبان، الذي مثلهم آنذاك أتباع حركة الاسترداد بقيادة الفونسو السادس في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، ذلك لأن العرب تمكنوا في هذه المعركة الخالدة، من وضع حد لعنجهية وجبروت حركة الاسترداد الإسبانية، بعد أن تغزوا أمامها لفترة طويلة من الزمن، قاربت من خمسة وسبعين عاماً، وحررتهم من دفع الجزية السنوية للإسبان، التي كانت تستأثر بمعظم دخول بلادهم. هذا وقد قذفت بالمعتمد بن عباد، لأن يشغل القمة بين حكام دول الطوائف عن جدارة واستحقاق، وجعلت من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بطلاً قومياً عربياً،

(١) - المقرئ، فتح الطب، ج ٦، ص ٩١ وما بعدها. علي أحمد، اليهود في المغرب والأندلس في العصور الوسطى، طبعة دمشق، ١٩٩٨.

يستحق كل الاحترام والتقدير، وأعادت الأمل لكل العرب بالأندلس، بأنهم سيحيوا حياة كريمة بعيدة عن كل عوامل الذلة والمهانة والتنظيط^(٢).

هذا وقد نظر المرابطون إلى المشرق العربي نظرة إيجابية، ونظروا إلى الخلافة نظرة احترام وتقدير على الرغم من ضعف هيبة هذه الخلافة وعدم قدرتها على التأثير. ودعوا من جهة أخرى إلى السيادة العربية تحت السيادة العباسية، وقاموا بأعمال من شأنها تعزيز الروابط بين المشرق والمغرب، منها نشر اللغة العربية في كل أنحاء المغرب الكبير. ومن ناحية أخرى فقد عبر المرابطون عن اعترافهم بالسيادة الروحية للخليفة العباسي، وذلك بطبوع اسمه على النقود والدعاء له على المنابر، فقد طلب يوسف بن تاشفين من الخليفة العباسي المستظهر تقليده حكم المغرب فجاءه التقليد، واعترف الخليفة بلقبه أمير المسلمين وناصر الدين، الذي اتخذته لتمييز عن الأمراء الآخرين (أمراء القبائل)^(١).

لكن الذي يؤخذ على المرابطين بصورة عامة، هو مسألة اعتمادهم في الحكم على طبقة الفقهاء، الذين أساؤا إلى القضية العربية وإلى حركة التعريب بشكل خاص، فقد لجأ الفقهاء بعد أن تمكن المرابطون واستقر حكمهم بالمغرب والأندلس، لجأوا إلى التدخل في الشؤون الدينية لغير المسلمين، ولاسيما تدخلهم في شؤون المستعربين^(٢). وقد أدى هذا التدخل الأرعن إلى تحول المستعربين من دعم حركة التعريب والوجود العربي بشكل كبير في الأندلس، إلى دعم حركة الاسترداد، فقد تحرك هؤلاء المستعربون ضد سلطنة عربية هي سلطنة

(٢) - الأمير عبد الله ، التكوين، ص ١٠٢ وما بعدها. ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٤٥.

ابن الأبار ، الحلة السراء، ج ٢، ص ٩٩.

(١) - مؤلف مجهول ، الحلل الموشية، ص ٧١.

(٢) - المستعربون هم مجموعة من الإسبان بقيت على دينها المسيحي، وتبنت معطيات الثقافة العربية، وبقيت مواكبة للدولة العربية إلى زمن المرابطين.

المرابطين، ذلك لأنهم وجدوا في حكم المرابطين خطراً مباشراً عليهم، لأن هذا الحكم كان في نظرهم غير مستقل عن تسلط الفقهاء، وبدلاً من أن يكون كذلك فإنه اعتمد اعتماداً كبيراً، لم تشهد له الأندلس مثيلاً على الإطلاق. ومن ذلك أن الفقهاء أقنعوا يوسف بن تاشفين بتهديم كنيسة للمسيحيين بباب البيرة بغرناطة، كانوا قد شيدوها في عصر دول الطوائف، مستفيدين من جو التسامح الذي ساد في هذا العصر^(١) الأمر الذي أثار حقد المستعربين المسيحيين على المرابطين، الذين لم يكونوا حتى هذا الموقف قد تحركوا ضد السلطة العربية، على الرغم من ظهور حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية منذ عدة قرون قبل هذا الحادث.

أدى هذا الحادث الذي تسبب به الفقهاء على عادتهم في إثارة المشاكل المذهبية^(٢) المقيّنة، أدى إلى انتقال المستعربين إلى معاضدة حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية لأول مرة في تاريخ الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يرون في هذه الجبهة حصناً يحميهم من تعصب الفقهاء، الذين يديرون شؤون الحكم المرابطي. وقد ساعد هذا الأمر قائد حركة الاسترداد الفونسو إلى اختراق أراضي الأندلس بدءاً من الشرق، حتى وصل إلى غرناطة وقرطبة، ثم إلى البحر المتوسط في الجنوب، وكان يرى في كل مكان وصله ترحيباً بالغاً من المستعربين، بعد أن فقدوا الأمل في تحسن أحوال المرابطين في ميدان إدارة الحكم المرابطي على أساس مبادئ العروبة في العدل والمساواة بين الناس على اختلاف أجناسهم^(٣). ولعل تحول طبقة المستعربين عن دعم الوجود العربي بالأندلس، من أخطر مسا واجهته حركة التعريب في المغرب الكبير والأندلس على حد سواء.

(١) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ١١٤.

(٢) - لا نقصد كل الفقهاء، بل نقصد منهم رواد الفتنة وخلق المشاكل.

(٣) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ١١٥ وما بعدها.

علي أحمد، تاريخ المغرب الكبير القديم والإسلامي، ص ١٥٤.

كما تسبب الفقهاء في ضربة أخرى مؤلمة لحركة التعريب في العصر المرابطي، تجسدت بإبعاد الناس عن الأخذ بأسباب العلم والتقدم والتطوير، فقد التزموا بكتب الفروع على الصعيد الديني، بمعنى أنهم استعاضوا بالمؤلفات الحديثة التي تعود إلى زمنهم أو قبل ذلك بقليل، وتركوا العودة إلى الأصول، التي يمكن من خلالها دعم مسيرة التعريب، عن طريق الاجتهاد والاستنباط والابتعاد عن التقليد، الذي التزموا به طوال حياتهم^(٢).

يضاف إلى ذلك فقد شنوا حرباً قاسية ضد الحركة الفكرية، التي تعتمد منهج الاستقراء والتجربة أسلوباً لها، الأمر الذي أضر كثيراً بالوجود العربي في المجال العلمي بصورة عامة. وقد تجسد ذلك بالهجوم على الفلسفة العقلانية، التي طورها المتفوقون من المفكرين العرب كي تكون سفارتهم الإيجابية إلى كل جهات الأرض وخدمة الإنسانية، على طريق التقدم والازدهار وتسخيرها في الكون لخدمة الإنسان بعامه. ومع ذلك فقد استطاع بعض الفلاسفة المتفوقين كابن باجة، أن يضع أكثر من خمسين كتاباً في فلسفة العقل والعلوم، نجا منها حتى اليوم ثلاثة كتب هي (الكلام في اتصال العقل بالإنسان) و(رسالة الوداع) و(تدبير المتوحد). وهي كتب مفيدة استفادت الإنسانية بعامه من مضمونها العلمي العربي المتقدم^(٣). وقد كان للمغاربة الذين هاجروا إلى المشرق العربي لأسباب مختلفة، كانت لهم أياد بيض في معظم حقول التي عملوا بها فسي بلاد الشام ومصر والعراق، فقد كانوا أوفياء لعروبيتهم في كل الأوقات، وذلك من خلال الأعمال التي مارسوها في العلوم كافة، ولعل من أهم علمائهم في المشرق العربي، كان الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) الذي يقال، أنه هو الذي

(٢) - ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٥٠.

(٣) - ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ١، ص ٥١٥. المراكشي، للذيل والتكملة، ج ٢، ص ٥٢٩.

علي أحمد، المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوروبي، طبعة دمشق، ١٩٩٢.

أوجى لابن خلدون وفتح الباب أمامه واسعاً في ميدان علم الاجتماع، ومنهم ابن معطي الذي ألف في النحو ألفية للتعريف بقواعده وتفصيله.

أما في عصر الموحدين^(٢)، فقد شهدت عملية التعريب انطلاقة واسعة النطاق، حتى قيل أن عصر الموحدين كان من أهم عصور التعريب في العصور الوسطى، بعد عصر الدولة الأموية في المشرق، فقد نشط العلماء فركزوا على علوم ذات تأثير كبير في المجتمع، وبخاصة العلوم الفلسفية العقلانية، التي مثلها خير تمثيل العالم العربي المبدع ابن رشد. ولولا وجود مجموعة من الفقهاء المتعصبين، الذين استطاعوا السيطرة على عقول بعض الحكام الموحدين في فترات معينة، لكان عصر الموحدين تفوق على كل العصور العربية في المشرق والمغرب.

لقد اصطبغ الناس في هذا العصر في المغرب والأندلس بصبغة الثقافة العربية دون غيرها، وزادوا في ذلك أنهم وسعوا رقعة انتشار القبائل العربية، التي جاءت إلى المغرب الأدنى (تونس) في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، بأن نقلوا قسماً منها إلى المغرب الأقصى والأندلس^(١)، وحافظوا من جهة أخرى على احترام النظرية، التي تقول بوجوب وضرورة تحقيق وحدة الجناح الشرقي مع الجناح الغربي للوطن العربي الكبير، وقد ظهر ذلك واضحاً في مبادئ دعوة محمد بن تومرت، الذي كان يروج بأن رسالته مستمرة حتى قتال الدجال بفلسطين، وكذلك ظهر في جزء من برنامج الخليفة يعقوب المنصور، الذي كان يعول على الذهاب إلى مصر وغيرها من بلدان المشرق لوضع حد لما يجري فيها من أمور منكرة على حد زعمه.

(٢) - بدأ هذا العصر سنة ٥٤٣ هـ وانتهى سنة ٦٦٨ هـ.

(١) - عبد الواحد العراقي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٢٤ وما بعدها.

كما استمرت في سيرها عملية استمرار سيطرة الثقافة العربية الواحدة لجناحي الدولة العربية متمثلة في المشرق والمغرب بانتقال التيارات من بلد إلى آخر، وكما أن حركة الموحدين تعد تجديداً من ناحية عدم اقتصرها على تغليب تيار واحد، لأن صاحبها المهدي بن تومرت مزج تيارات فكرية وفقهية ودينية وسياسية في عقيدته، التي يرى فيها عنصر التشيع إلى جانب الأشعرية الغزالية والمذهب الفقهي الظاهري.

لذلك فقد ازدهرت في أيام الموحدين جميع الفروع، التي كانت ممقوتة في السابق مثل الفلسفة، التي ازدهرت ازدهاراً ملموساً، فظهر في مجالسها نجوم كبار، فعمت فائدتها ديار العرب عامة، وانتقلت منها إلى أوروبا لتستمر فيها قرون متعددة من الزمن، وهي أهم ما أخذه الأوروبيون من الثقافة العربية، التي تفوقت على كل ثقافات العصور الوسطى، ولعل فلسفة ابن الطيف وابن رشد وغيرها خير مثال على هذا الواقع العربي الإيجابي في عصر الموحدين. كما شغل الموحدون دوراً كبيراً في فتح الأبواب الموصدة على مصاريعها أمام التأثيرات العربية، لا لتنتشر في المغرب والأندلس وحسب، بل لتنتشر في كل القارة الأوروبية.

وقد توطدت علاقة التعريب في المغرب الكبير والأندلس مع المشرق العربي في عصر الموحدين، وذلك من خلال العلماء من مختلف الاختصاصات، الذين هاجروا من المغرب والأندلس إلى مختلف مدن المشرق في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، وقد كانت هذه الهجرة إلى حدٍ لم نعهده في أي وقت من الأوقات، ذلك لأن معظم معاقل العرب بالأندلس، سقطت في هذا العصر في

أيدي الإسبان، مما أدى إلى هجرة واسعة من الأندلس إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق^(١).

وقد تجلّى الشعور العربي في نفوس المهاجرين العرب من الأندلس والمغرب إلى المشرق في العديد من المواقف الوطنية الرائعة، من ذلك أنهم شاركوا في العديد من المناسبات الوطنية، مثل الدفاع عن أجزاء من بلاد الشام ومصر ضد الاعتداءات الفرنجية. وأروع ما في هذا الأمر أن المغاربة والأندلسيين، الذين شاركوا في هذه المناسبات، لم يقبلوا على ذلك نتيجة توجيه من حاكم أو نحو ذلك، بل أقبلوا على هذا العمل الرائع بفعل شعورهم العربي، الذي ازداد اشتعاله حين وصولهم إلى المشرق العربي، الذين وجدوا فيه البديل الآمن لبلادهم ومواطنهم، التي أُجبروا على هجرها. نذكر من هذه الأعمال الجليلة، ما نفذه خير تنفيذ يوسف بن دوحاس المغربي الفندلاوي نزيل دمشق، حينما حاول الفرنجة احتلال مدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م، فقد اندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق آنذاك، وهي عدم الاشتراك في الحرب، لكنه مضى إلى غايته بكل رغبة وقبول، وقاتل رحمه الله حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربرة في غرب مدينة دمشق، وحمل جثمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن، ويعد من الشخصيات المغربية التي طار ذكرها على صعيد مدينة دمشق، وظل قبره يزار فترة مئتي عام بعد وفاته^(١).

وقد أشار ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى الشام، أن مجموعة مغربية كبيرة، كانت قد اشتركت في القتال ضد الفرنجة في هذه الفترة بالذات كمحاربين أساسيين وكمراقبين للجيش يقومون بتقديم الخدمات، التي لا تقل عن غيرها في

(١) - جنثالث بالثيسا ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٧٩. علي أحمد ، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، ص ٣١٧ وما بعدها.

(١) - القلائسي ، نيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٨، ص ٢٠٠.
باقوت الحموي ، معجم البلدان. مادة فندلاو الذهبي ، العبر في خبر من غير، ج ٤، ص ١٢٠.

ساحات القتال، وهذه المشاركة الطيبة للمغاربة جعلت من حكام مصر والشام، ينعمون على المغاربة بالاحترام والمودة والمساعدة في كل ميدان. لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية التي نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها، على اعتبار أنها تعبير عن المكافأة على خدماتهم والرغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه^(٢).

وفي هذا العصر ولدت بوادر تعاون عربي على مستوى الدول والحكام، ولكن أنانية الحكام وتمسكهم بمسائل شخصية بحثة لا قيمة لها، حالت دون تحقيق هذا التعاون، وقد تجسد ذلك بتلك المحاولة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، حينما أرسل سفارة إلى بلاط الموحدين وطلب منهم مساعدته في كسب جماح الحملات الفرنجية الواردة من الغرب الأوروبي، لكن هذه السفارة لم تحصل على وعود إيجابية، وتذرع الموحدون بحجج لم تكن مقنعة على الإطلاق.

هذا وقد ظهرت ملامح التعريب في العصر الموحدي في الشعر والأدب، فقد ظهر في هذا العصر جملة من المهتمين طارت شهرتهم في المغرب والأندلس، وبخاصة حينما تصدوا لتصوير الحالة المأساوية المحزنة، التي ألمت في كثير من المناطق الأندلسية، فحينما اضمحل سلطان العرب المسلمين اضمحلاً واضحاً في عصر الموحدين، وأصبح اعتماد الأندلسيين على المعونات المغربية، وكان من نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى الأندلسيين نظرة استصغار واستضعاف، فانبهرى الأدباء الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم. ورسالة أبي الوليد الشقندي ما هي إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين^(٣).

(٢) - علي أحمد ، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص ٣٠٢ وما بعدها.

(٣) - جنتال بالنتيا ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٢٦.

ومن أهم الشعراء الذين تمثلت في شعرهم مشاعر الحرص على الوجود العربي بالأندلس، أبو البقاء الرندي الذي اشتهر بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرناندو الثالث. وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس، وبلغ من إعجابهم بها أن أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى، كان قد احتلها الإسبان. من هذه القصيدة الأبيات المعبرة الآتية:

كل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغرّ بطيب العيش
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساعته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحدٍ	ولا يدوم على حال لها شأن
أين الملوك ذوي التيجان من	وأين منهم أكاليل وتيجان ^(٢)

لكن الأهم في قائمة الشعراء والأدباء الأندلسيين، الذين تفجرت فيهم الحمية العربية بكل ألوانها الحريصة على الوجود العربي بالأندلس، هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن الأيثار القضاعي، الذي اشتهر بقصيدة ذاتعة الصيت، كان قد ألّفها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص الموحدي، وكان قد قصده في سفارة أرسلها الأمير الموحدي صاحب بلنسية في ذلك الحين، وكان الإسبان قد ألحوا في حصارها قال فيها:

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما	فلم يزل منك عز النصر ملتصا
وحاش مما تعانسه حشاشتها	فطالما ذاقن البلوى صباح مسا ^(٣)

وما يدعو للفخر والاعتزاز والإعجاب، أن العصر الموحدي كان عصر تصدير الثقافة العربية المتقدمة إلى معظم البلدان الأوروبية، ساعد على ذلك

(٢) - جنثالث بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣٢.

(٣) - جنثالث بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٢٦.

نضوج الثقافة العربية وازدهارها، إلى درجة كانت هي المسيطرة من بين الثقافات العالمية. يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا قد وصلوا في اتصالاتهم المختلفة إلى مناطق أوروبية شاسعة، كمنطقة البروفانس في جنوب شرق فرنسا، وشمال غرب إيطاليا وشرقها، وسهول سويسرا وجبال الألب وغيرها. كما كانت أعمال السفارة والتجارة من العوامل المساعدة على نقل الثقافة العربية إلى أوروبا. وكذلك المدارس الأندلسية، التي قصدها المتبعثون الأوروبيون ودرسوا بها، ولاسيما طليطلة وقرطبة، ساعدهم في ذلك أن حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات، كانت نشيطة في هذه المدارس^(١). وقد ركز الأوروبيون على الجوانب التطبيقية من منتجات ثقافة التعريب، مثل علوم الطب والصيدلة، وعلوم الفلك، والرياضيات والفلسفة العقلانية التي أثرت إيجاباً في بعث النهضة الأوروبية وتقدمها، ولاسيما فلسفة ابن رشد، الذي قال عنه الأوروبيون بفخر واعتزاز: (إنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي)^(٢). والصناعات العربية المتقدمة كصناعة الورق والسكر والمنسوجات والسفن وما إلى ذلك^(٣)، وعلوم الزراعة وتوطين بعض الزراعات، التي انتقلت من الشرق إلى الأندلس، والفنون الأدبية كالشعر والقصص العربية المعروفة^(٤). مما أدى إلى توسيع مدارك الأوروبيين، وأخذهم بأسباب النهضة في مطلع العصور الحديثة، التي أነعت ثمرات طلياً، تجسد بما يشهده العالم المتقدم من إنجازات حضارية لم تعرف البشرية لها مثيلاً، وما زالت تتقدم بسرعة مذهلة، بينما تقهقر العرب إلى آخر الدرك الحضاري، فأصبحوا على هامش الشعوب المتحضرة.

(١) - علي أحمد، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، طبعة جامعة حلب، ١٩٩٧، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢) - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء والمسلمين، ص ٦٨.

(٣) - جورج يعقوب، - لفر الشرق في الغرب، ص ٥٥. ابن الأبار، للحلة السيرة، ج ١، ص ٢٩٧.

(٤) - أحمد أمين، ظهير الإسلام، ص ١٨٩. جب، ثلاث الإسلام، ص ١٦٠ وما بعدها.

وفي سقوط دولة الموحدين بالمغرب والأندلس سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م، ضعفت حركة التعريب إلى درجة كبيرة، فقد تجزأ المغرب الكبير إلى ثلاث دول، هي الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى. وفي الأندلس سقطت معظم معاقل العرب هناك باستثناء المنطقة الجنوبية الشرقية، التي تمثلت بغرناطة ونوابها، كمالقة ووادي آش. وكانت غرناطة على الدوام هدف حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، التي بلغت أوج نشاطها بعد سقوط دولة الموحدين، مما جعل الغرناطيين يوجهون جل اهتمامهم ونشاطهم على مسألة الصمود في وجه الأخطار المحدقة، ولم يكن لحركة التعريب أي حظ من برامجهم، إلا إذا اعتبرنا أن صمودهم اللافت حتى نهاية العصور الوسطى، كان في هذا السبيل أو من هذا القبيل. والدليل على ذلك أنهم، كانوا يشعرون المشاركة والمغاربة، بأنهم بحاجة للمساعدة الملحة من أجل البقاء والصمود والمحافظة على الوجود العربي بالقارة الأوروبية. وقد استجابت لهم دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ومدت لهم يد المعونة العسكرية على مدى أكثر من مئة عام، ذلك لأن الدولة المرينية كانت أقوى الدول، التي ورثت حكم المغرب الأقصى من الموحدين، هذا بالإضافة إلى أن هذه الدولة، تحسست وشعرت بالمسؤولية العربية تجاه دولة بني الأحمر المهددة بالزوال من الأندلس^(١).

ومن أجل المحافظة على الوجود العربي بالأندلس ممثلاً بدولة بني الأحمر بغرناطة، قرر المرينيون اعتماد قوة عسكرية خاصة في غرناطة وما حولها، ترابط فيها بصورة دائمة وتشارك في حروبها الوطنية والدفاعية، وعُرفت هذه القوة في التاريخ الأندلسي والمغربي بمشيخة الغزاة^(٢).

(١) - ابن الأحمر، روضة السنين، ص ٢٥. ابن الخطيب واللمعة البدرية، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) - علي أحمد، تاريخ المغرب القديم والإسلامي، ص ٢٤٧.

ومما أضعف حركة التعريب في المغرب الكبير إضافة إلى انقسامه إلى ثلاث دول، أن مجموعة كبيرة من علمائه من أصل مغربي أو أندلسي، هاجرت إلى المشرق العربي، فأسهمت بشكل لاقت في دعم حركة التعريب، التي كانت متعثرة في مصر والشام بخاصة بسبب سيطرة المماليك المطلقة على مفاصل الحكم والإدارة، فغابت كل الملامح العربية في هذه المنطقة بعد أن كانت أهم مصدر لثقافة التعريب، لذلك فإننا نعتبر أن مجيء المغاربة إلى مصر والشام في هذه الفترة، التي نعرف عادة بفترة حكم المماليك، كان أمراً إيجابياً للغاية، ذلك لأن فريقاً متوقفاً منهم، شارك العلماء المشاركة في تخليد ما يمكن تخليده وحفظه من الثقافة العربية، التي كانوا يؤمنون أنها خير ما يحفظ ويصون هوية الأمة.

فقد أبدع بعضهم في مجال اللغة العربية، وتركوا بصمات خالدة في هذا المجال الحيوي بالنسبة للغة التعريب، نذكر منهم على سبيل المثال ابن مالك النحوي، نزيل مدينة دمشق، ورئيس قسم النحو بالمدرسة العادلية، الذي حصر قواعد النحو والصرف في كتاب صاغه شعراً لسهولة حفظه، هو "كتاب الألفية"^(١)، ومحمد بن يوسف أنير الدين "أبو حيان الغرناطي" نزيل مدينة القاهرة، الذي اشتهر بالنحو والأدب تأليفاً وشرحاً وما إلى ذلك^(٢)، والأديب الشاعر البوصيري، الذي اشتهر من خلال قصيدته البردة، التي مدح فيها رسول الله (ﷺ) ومدح رسول الله زمن المماليك كانت له أهداف كبيرة، منها التذكير بأنه (ﷺ) من الأمة العربية، التي غلبت على أمرها في غفلة من أهلها، وابن أبي حجلة التلمساني، الذي ألف كتاباً هامة، تدل على غنى العرب بتراثهم وثقافتهم، مثل ديوان الصبابة، ورسالة الهدد، وكتاب السكردان وغيرها^(٣).

وفي مجال علم الاجتماع فقد كان الأمر رائعاً، حينما ابتكر المغاربة هذا العلم لأول مرة في تاريخ البشرية على يد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون،

(١) ابن الأحرر، روضة السرين، ص ٢٥. ابن الخطيب واللغة البدرية، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) ... شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٤٥.

(٣) ... للذهبي، العبر، ج ٥، ص ٣٥٩. ابن تغري بردي، اللوح الزاهرة، ج ١١، ص ١٣١.

الذي وضع فيه المنجزات العربية العلمية والثقافية، التي عم نفعها الإنسانية برمتها، تبحث في طبيعة العمران، أي الأنشطة البشرية على الأرض. لذا فقد عُدَّ ابن خلدون مبتكر علم الاجتماع بلا منازع. يقول المقرئزي عن مقدمته: (لم يعمل مثلهما وأنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلم ونتاجة العقول السليمة)^(٢).

وقد أسهم المغاربة من جهة أخرى في هذه الفترة في قضايا الدفاع عن الشام على وجه آخر، يختلف عن الوجوه المألوفة أي في ساح المعارك وما إلى ذلك، وقد تجلّى هذا الوجه بالدبلوماسية الفذة، التي نجحت على يد ابن خلدون لدى تيمورلنك، الذي كان جيشه قد احتل مدينة دمشق حتى سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، فقد جاء ابن خلدون من مصر مندفعاً بحسه العربي الصادق، الذي تقجر عنده على أثر الجرائم التي اقترفها تيمورلنك بمدينة دمشق من أعمال قتل وسلب وتدمير منشآت ومنازل، جاء من مصر مع جيش السلطان الناصر فرج، الذي لم يشترك مع جيش تيمورلنك، فقد دخل ابن خلدون في ظلمة الليل من فوق أحد أسوار المدينة مشدوداً بالحبال، فسقط في قبضة الحرس، وتخلص منه وتقدم إلى تيمورلنك والتقى معه، وقد بهر تيمورلنك بحديث ابن خلدون ورأيه السديد وتوجيهاته الغالية، وبخاصة دعوته لتيمورلنك إلى غزو المغرب الكبير والسيطرة عليه، لأن ابن خلدون كان يريد للمغرب الكبير أن يتوحد مع المشرق ولو تحت السلطة الأجنبية، التي كانت ستزول وتنتهي بعد حين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه كان يريد لقوة تيمورلنك أن تضعف وتتبدد من خلال انتشارها على رقعة واسعة من الأرض، فيكون بذلك قد خلص العرب في مصر والشام من خطر، استمر في تهديد المنطقة على مدى منتهي سنة تقريباً، وذاكره بعد ذلك في مسألة التوقف عن استباحة مدينة دمشق وتدميرها، على الرغم من أن معظم أجزائها كانت قد دمرت، فقد أدى تدخل ابن خلدون عند تيمورلنك إلى التخفيف من هذا التدمير^(٣).

(٢) - السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ١٤٧.

(٣) - ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص ٩٨ وما بعدها.

ومن حسن الحظ أن بعض المغاربة، استنطاقوا أن يكسروا الحاجز المملوكي في سبيل دعم دخول العرب أو اشتراكهم في مفاصل القيادة الهامة، من ذلك توصل بعض المغاربة إلى أرفع المناصب البحرية المصرية في البحر المتوسط، مثل شهاب الدين أبو العباس المغربي، الذي شغل منصباً قيادياً رفيعاً، حتى كان يدعى الرئيس. وكذلك الحاج محمد التازي المغربي، الذي تسلم قيادة أسطول مصر سنة ٦٧٩هـ/١٣٦٨م، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة مغربية، عملت بمدينة الإسكندرية بصورة دائمة. وقد دلت الأحداث التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في أعمال البحر، أنه لم يكن في سلاح البحرية المصرية أشجع من أهل المغرب^(١) الذين برهنوا بقوة عن وفائهم لعروبهم وأمتهم.

أما ما ينبغي أن نلفت النظر إليه في مجال التعريب في المغرب الكبير، أنه منذ الفترة الأولى لوصول العرب إلى المغرب الكبير، بدأوا بتعليم الناس ثقافتهم وعلومهم، لأنهم وجدوا فيها أهم الأسباب التي تجعل المغرب الكبير عربياً صريحاً وقوياً. وقد استمرت هذه المسيرة الطيبة طوال العصور الوسطى، فلم تقتصر فيها أية دولة على الإطلاق. ونضرب على ذلك أمثلة من بداية هذه المسيرة المظفرة، ما فعله عقبة بن نافع الفهري بعد انتهائه من بناء مدينة القيروان سنة ٥٥٥هـ/٦٧٥م، حينما أمر بعض أصحابه بتعليم الناس ثقافتهم. وفعل الشيء نفسه موسى بن نصير، حينما أرسل إلى المغرب الأقصى سبعة عشر عالماً، ليعلّموا الناس ما يستطيعون من ثقافة العرب. وكان أعظم الفترات في هذا الشأن فترة حكم الوالي، إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، الذي ركز على مسألة التعليم ونشره الثقافة العربية بين أكبر عدد من المغاربة. واشتهر في عصره عشرة من التابعين، الذين أرسلهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بنفسه^(٢). وقد بذل هؤلاء التابعون جهوداً عظيمة، استنفذت كل إمكانياتهم العلمية

(١) - ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٤ - ٣٥. اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٨٦.

(٢) - انظر تراجم هؤلاء التابعين: المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٦٤ وما بعدها.

والجسدية. وعلى الرغم من أن فترة حكم هذا الوالي كانت قصيرة جداً، فإنها تركت أثراً طيباً بالمغرب الكبير في ميدان الثقافة بعمامة.

وأهم من كل ما تقدم كان دخول القبائل العربية من هلال وسليم إلى المغرب الكبير، ذلك لأن هذه القبائل شكلت أهم عنصر من عناصر حركة التعريب، ابتداء من الربع الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى خروج الفاطميين من المغرب الكبير إلى مصر، حل محلهم مباشرة مجموعة القبائل سابقة الذكر، وهي قبائل حجازية كانت قد انتقلت إلى مصر بفعل تنقلها من منطقة إلى أخرى. وحينما وصل الفاطميون إلى مصر، أمروا هذه القبائل بالتوجه إلى المغرب الكبير، وذلك بعد الاتفاق معهم على خطة معينة^(١).

ومع مرور الأيام استطاعت هذه القبائل أن تنتشر في كل أرجاء المغرب الكبير، وقد أدى هذا الانتشار إلى نتيجة هامة للغاية، تجسدت على أرض الواقع في تعزيز مسيرة التعريب من خلال سيطرة اللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة الوحيدة هناك منذ عدة قرون^(٢). لكن ابن خلدون اتهمهم بالمسؤولية عن الخراب واليباب، الذي حصل في المغرب في فترة دخولهم إليه ثم بعد ذلك بفترة وجيزة، لكن ابن خلدون لم يكن منصفاً في كل ما قاله عنهم، لأنه لا يمكن لأحد أن يحملهم أي شيء مما حدث في المغرب الكبير من تخريب للمعمور أو تخريب للمزروع، ذلك لأنهم لم يكونوا يحملون أية أحقاد سابقة على أي طسرف من الأطراف المغربية المختلفة. وما حدث أن المغاربة أنفسهم، هم الذين أقحموهم في خلافاتهم ومشاكلهم وحروبهم، ودليل ذلك أن هؤلاء العرب، أنهم لم يقيموا لأنفسهم أية دولة أو كيان سياسي خاص، فالذي يستطيع فعل الخراب يكون قوياً ومقرراً في الوقت نفسه، وهذا ما لم يتوفر للهلاليين العرب على الإطلاق. فخراب القيروان كان قد حصل قبل مجيء هذه القبائل إلى المغرب الأدنى، وكان ذلك من قبل الصنهاجيين، الذين نقلوا الحركة الاقتصادية العامة إلى مدينة صسبرة أو

(١) - المقرئزي، اعاظ الحفاء، ص ٢٢٤. ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) - ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦٥. ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢٨.

المنصورية في سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م^(٣). وما نستطيع قوله في هذا المجال، أن القبائل الهلالية شغلت دوراً إيجابياً، أضفى على حواضر المغرب الكبير ثوباً جديداً، تجلّى بأن أعطاها عزماً وقوة لعمل مزيد من التعمق بالتعريب والتطوير والتهديب.

بقي أن نشير إلى أن آثار التعريب، كانت كبيرة في المغرب الكبير وفي المناطق المجاورة، فعروبة المغاربة اليوم هي استمرار لحركة التعريب، التي بدأت منذ وصول الفينيقيين إلى المغرب الكبير حتى نهاية العصور الوسطى. كذلك فقد تركت حركة التعريب آثارها في بعض المناطق الأوروبية حتى اليوم، ولاسيما في جزيرة مالطة وجزيرة صقلية وفي شرق إيطاليا، لكن أكبر أثر هو في جزيرة مالطة، التي دخلها العرب في عصر الأغالبة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، ورغم أن الاستقرار العربي في هذه الجزيرة لم يكن طويلاً كما في المناطق سابقة الذكر، باستثناء مجموعة من العاملين في مجال صناعة السفن ومراكب الصيد البحري، فما تزال لغة أهل مالطة حتى اليوم هي اللغة العربية باللهجة المغربية، مع بعض مفردات من اللغة الإنكليزية^(١).

(٣) - القامضي عياض، المصدر السابق، ج ٣ - ٤، ص ٢٢٦.

(١) - الحميري، الروض المعطار، ص ٥٢. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

أحمد المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٧٥ وما بعدها.



الفصل الرابع عشر

مؤثرات العرب الحضارية في الغرب الأوروبي في

عصر الموحدين

قدر للحضارة العربية الإسلامية أن تنتقل إلى أوروبا خلال عصر الموحدين في القرن السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وكان هذا الانتقال الحضاري الرائع الذي نقل أوروبا إلى عصر نهضتها عن طريق الأندلس، التي خضعت في معظمها لحكم الموحدين.

ففي عصر الموحدين توفرت جميع العناصر والسبل المساعدة للنقل، فلم نتوقف أو تضعف عملية النقل بفعل بعض المواقف التي أثرت على الحياة العامة في جناح العرب الغربي، بل ظلت هذه العملية تسير بزخم وقوة ونشاط. وقد أسهم في هذه العملية منذ بداية عهدها المستعربون الإسبان، الذين كانوا على علاقة وطيدة بدول أوروبا، ساعدتهم على ذلك معرفتهم للغة العربية إلى جانب اللغة الإسبانية^(١).

يضاف إلى كل ذلك أن الأندلس وإلى جانبها المغرب، كانت قد وصلت إلى قمة مجدها الثقافي في هذا العصر، مستفيدة في ذلك من ثروات وإنتاج العصور السابقة كعصر الخلافة وعصر المرابطين، زد على ذلك أن العرب المسلمين كانوا قد وصلوا في اتصالاتهم المختلفة إلى مناطق أوروبية شاسعة،

(١) - سعيد عاشور، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، طبعة بيروت ١٩٧٦، ص ٢٦٠. ١

أحمد بدر، تاريخ الأندلس، طبعة دمشق، ١٩٨٣، ص ٣٩٨.

كمنطقة البروفانس في جنوب شرق فرنسا، وشمال غرب إيطاليا وشرقها، وسهول سويسرا وجبال الألب وغيرها.

كما ويمكن أن نذكر أن أعمال السفارة والتجارة، كانت من الأعمال المهمة في مضمار نقل الحضارة العربية إلى أوروبا، كتجارة العبيد الذين كانوا ينقلون من مختلف أقطار أوروبا الغربية والشرقية إلى جنوب الأندلس ووسطها ويتم تصديرهم إلى جهات أخرى. وكذلك جرت لقاءات عديدة بين رجال فكر من كلا الطرفين، كأعضاء سفارة امبراطور ألمانيا أوتون الكبير الذين اجتمعوا بالخليفة الناصر لدين الله كذلك كان لطلبة العلم الأوربيين دورهم البارز في مسألة نقل الحضارة العربية إلى أوروبا، هؤلاء الطلاب الذين درسوا في الأندلس في مدارس مختلفة، وبخاصة في مدارس طليطلة وقرطبة، ساعدتهم على ذلك أن حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات كانت نشطة في هذه المدارس^(١).

وباختصار يمكن القول إن اختلاط علماء الغرب بالعلماء العرب المسلمين في الأندلس والمغرب عبر كل الوسائل والطرق التي أثينا على ذكرها أدى إلى اقتباسهم قدراً كبيراً من الحضارة العربية الإسلامية في مختلف حقولها وميادينها، مما ساعد أوروبا الغربية برمتها أن تنتقل من مرحلة نومها الطويل، إلى مرحلة اليقظة والبعث والاشراق.

ففي مجال الطب يمكن أن ننوه، أن العرب المسلمين في المغرب والأندلس استطاعوا ببراعة أن يرفعوا كرامة مهنة الطب من مستوى وضع جداً إلى مركز رفيع، فقد كان لعلمائهم القدر المعلى في نشر علم الطب في وقت لم تكن أوروبا تعرف عنه شيئاً، وكشفوا فيه أموراً كثيرة أحدثوها، وهذبوا مسائله

(١) - انظر عن ذلك : كتابنا تاريخ الفكر العربي الإسلامي، طبعة جامعة حلب ١٩٩٧، ص ١٢٩ وما بعدها.

وحسنوا فصوله. وبلغ من رقي ثقافتهم الطبية أن الطبيب العربي المسلم، كان لا بد له علاوة على معرفته من الإلمام بكل فروع العلوم الأخرى^(١).

فالغرب مدين برمته للعرب المسلمين، بأنهم الذين أدخلوا فكرة امتحان الأطباء المتخرجين لمزاولة مهنة الطب، وأيضاً نهضوا بالمستشفيات وأنفقوا عليها بمسءاء عظيم. والعرب كانوا أول من أدخل الرسومات والأشكال المنظمة في كتبهم الطبية، وكل ذلك دخل أوروبا عن طريق التلاقح الحضاري، الذي نحن بصدد البحث بشأنه في هذا المقام^(٢).

وقد انتقل إلى أوروبا في هذا العصر إنجازات بعض الأطباء في المغرب والأندلس، كان منهم أحمد بن إبراهيم القيرواني المعروف بابن الجزار المتوفى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م، الذي أفاد أوروبا من خلال كتابه الهام (زاد المسافر) الذي يحتوي على أوصاف ممتازة لعدد كبير من الأمراض البشرية وهو في مجلدين قام بترجمته قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية، فاشتهر هذا الكتاب وصاحبه فسي كل أنحاء أوروبا خلال العصور الوسطى^(٣).

والزهراوي خلف بن أحمد المتوفى سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م، الذي عاش في عصر الخلافة بالأندلس. وكان من أكبر الأطباء العرب الذين أفادوا أوروبا بعلمهم وإبداعهم، وقد كان ذلك من خلال كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) ولاسيما الجزء السابع والعشرون منه، الذي يحتوي على معجم أبجدي للأدوية المفردة مع إعطاء المرادفات للكثير منها. وكذلك الجزء الأخير، الذي يتحدث فيه الزهراوي عن الجراحة بمستوى جعل بعض الدارسين المختصين،

(١) - زكي بك علي، الطب العربي وتأثيره في أوربة، المجلة العلمية، العدد ١١، بيروت، مطبعة السبيل، ص ٤٢٤.

(٢) - زكي بك علي، المرجع السابق، ص ٤٢٥.

(٣) - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، طبعة مؤسسة المعارف والنشر، بيروت، يلاتا، ص ٧٤.

يعدونه أكبر جراح عربي في العصور الوسطى، إذ يتحدث فيه عن بعض العمليات الجراحية التي قام بها، ويقدم إيضاحات هامة عن الأدوات المستخدمة فيها. وقد قام بترجمة هذا الكتاب جيرارد الكريموني إلى اللاتينية. وظلت مكانته تحاط بالاهتمام الأوربي على صعيد الطب والمداواة أكثر من خمسة قرون متوالية، حتى أن العالم الأوربي براون قال عنه، بأنه أشهر جراح عربي أنجبته العالم العربي على مر العصور^(١).

وهو أول من علم أوروبا والعالم تفتيت الحصى داخل المثانة واستخراجها وكذلك هو الذي أشار إلى استخدام مساعدات وممرضات من النساء في حالة إجراء عملية جراحية لامرأة، لأن ذلك ادعى للطمأنينة والراحة^(٢).

وعبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م الذي علا شأنه العظيم على صعيد التأثير الطبي في أوروبا، فقد انتشر هناك انتشاراً واسعاً، وقامت على أعماله مدرسة كاملة في فرنسا هي مدرسة مونبلييه، وأخذ عنه ديه شوليا سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م في عمليات الختن والعيون. وأخذ عنه الطبيب الميلاني الأصل لانفراشي وسائل ربط الأوعية الدموية^(٣) ونسب له الكثيرون شرف اكتشاف جرثومة الجرب، على الرغم من أن البحث الحديث يقول أن أحمد الطبري الذي اشتهر خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي سبق ابن زهر إلى اكتشاف جرثومة هذا المرض وذكرها في كتابه (المعالجة البقراطية). والحق فقد كان لابن زهر أبلغ التأثير وأعظم النفوذ على أوروبا الطبية والعلمية

(١) - محسن الخير إسهام أبو القاسم الزهراوي في الفكر الإنساني، بحث منشور في كتاب الثقافة العربية الإسبانية دمشق، ١٩٩٠، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢) - سعيد عاشور، المرجع السابق ص ٣٠١.

(٣) - موسوعة العلوم الإسلامية والعطاء المسلمين، ص ١٠٤.

في العصور الوسطى، واستمرت منجزاته العلمية تدرس في الجامعات الأوروبية لمدة قرون عديدة^(٤).

وينبغي أن نتذكر دوماً، أن الأندلس والمغرب في عصر الموحدين، كانتا معبراً نشطاً لنقل مؤلفات الأطباء العرب المشاركة ومبتكراتهم في هذا الشأن إلى أوروبا، فقد ترجمت وأصبحت ملكاً لأبناء الغرب الأوربي، وبذلك تمت حلقات سلسلة الاتصال بين الطب اليوناني القديم والطب العربي المتوسط والطب الأوربي الحديث.

وفي ميدان علم الفلك فقد كان مدعاة للفخر والاعتزاز بما قدمه العرب المسلمون للأوربيين من معارف وفوائد فلكية عمّ نفعها على كثير من وجوه حياتهم العامة، وذلك أن طلاب العلم في غرب أوروبا عرفوا بعض المصطلحات العربية مثل الإسطرلاب وأسماء النجوم ومجاميعها، وصارت هذه المعارف تشتت وتزدهر خلال القرن الثاني عشر الميلادي^(١).

كان في طليعة الفلكيين، الذين أفادوا الغرب الأوربي بعلمهم وإبداعهم أبو القاسم مسلمة المجريطي المتوفى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، الذي قام بتصحيح وضبط زيج الخوارزمي، وانتقل ما أنتجه المجريطي إلى أوروبا عن طريق الأندلس في هذا العصر، بعد أن ترجمه إلى اللاتينية (أديلارد الباثي) في سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م ثم ضاع الأصل العربي، ولم يبق إلا الترجمة اللاتينية، وكان المجريطي هذا يعرف بالحاسب لعلمه في الرياضيات.

تلاه في هذا المجال مواطنه أبو إسحق إبراهيم بن يحيى القرطبي المعروف بالزرقي من علماء القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

(١) - زكي بك علي، المرجع السابق، ص ٤٢٥، انظر كتابنا: معجم أطباء المغرب والأندلس ص ٩٥ وما بعدها.

(١) - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ص ١٦٠. جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة،

الذي اشتهر من خلال أزياجه التي عرفها الأوروبيون باسم (الجدول الزرقالية) أو (جدول طابيلطة). وقد وضعت هذه الجداول على أساس دراسات وملاحظات عملية، اعتمدت على جداول سابقة كجدول بطليموس والخوارزمي. وقام بترجمة هذه الجداول في القرن الثاني عشر الميلادي (جيرارد الكريموني) إلى اللغة اللاتينية، ولم يبق منها سوى هذه الترجمة^(١).

جاء بعد ذلك العالم الفلكي صابر بن أفلح صاحب كتاب (الهيئة) المتوفى سنة ١١٥٠م، الذي ترجمه أيضاً (جيرارد الكريموني) إلى اللاتينية وقد انتقد بطليموس. فضمن كتابه هذا فضلاً هاماً عن المثلثات المسطحة^(٢).

تلاه بعد ذلك في هذا الشأن نور الدين البطروجي المتوفى سنة ١٢٠٤م وهو تلميذ ابن الطفيل. وقد ترجم مؤلفه كتاب (الهيئة) إلى اللغة اللاتينية وفيه وصف الأجرام السماوية وبعض الأنظمة الفلكية، وهو يمثل ذروة الحركة المعاكسة لبطليموس^(٣).

وما يبرهن على أن البوصلة اخترع عربي انتقل إلى أوروبا عن طريق الأندلس ما كان يستعمل من ذي قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الإبرة المغنطة، مثل قولهم (الشارون) للدلالة على الشمال، و (الأفرون) للدلالة على الجنوب وهي ألفاظ اشتقت من العربية^(٤).

في حقل الرياضيات تعلم الأوروبيون من الأندلسيين والمغاربة على ما يبدو نظام الأعداد الهندي، الذي يمثل ثورة شاملة في علم الحساب، ويتضح لنا تسهيل هذا النظام العددي للعمليات الحسابية إذا قارنا بينه وبين النظام العددي

(١) - جورج حداد، المرجع السابق ص ٥٢٣.

(٢) - جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٥٢٣.

(٣) - جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٥٢٣.

(٤) - كشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٢٦٠.

الروماني، فنظام الأعداد الجديد الذي عرفته أوربا عن العرب، يمكن فيسه أن يتغير الرقم الواحد حسب وضعه في خاتمة الآحاد أو العشريين أو الألفوف أو المئتين، في حين أن قيمة الرقم لا تتغير في النظام الروماني بتغير خاتمة.

وهنا لا بد من الاعتراف أن الأعداد الجديدة المستخدمة حالياً في الغرب، ليست من اختراع العرب، إذ من المرجح أنها هندية الأصل، كما أشار العلماء العرب أنفسهم، لكن فضل العرب تجسد بأنهم أوصلوا هذه الطريقة الجديدة إلى أوربا، وخلصوا الأوروبيين من تعقيد النظام العددي الروماني العقيم، وبذلك سهلوا العمليات الحسابية وساعدوا على تقدم الرياضيات^(١).

ولعل في مقدمة الإنجازات العربية على هذا الصعيد، يتجلى بأن العرب علموا الغرب الأوروبي طريقة استخدام الصفر في الأعداد منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وعرف باللفظ الأوربي cipher وهو يعني في اللغات الأوربية (لشيء أو عديم القيمة) فاستخدمه مارتن لوثر للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا فقال، أنهم كالأصفار في القرن السادس عشر، استخدم اللفظ الأوربي للدلالة على الكلمة الغامضة أو الشفرة chiffré في حين استخدم لفظ zero بمعنى لا شيء^(٢). أما عن أثر العرب المسلمين الأندلسيين والمغاربة في التفكير الفلسفي لأوربا، فقد كان عظيماً لدرجة يمكن القول بشأنها، أنه كان من أعز ما خلفه الأندلسيون العرب للفكر الأوربي. ولا بد أن سبب ذلك يعود في معظمه، إلى أن الفلسفة كانت من أهم المسائل الفكرية التي شغل بها العلماء في الأندلس، الذين قاموا بنقل الفلسفة اليونانية كما عرفوها إل الغرب، بعد أن أضافوا إليها ناحية التوفيق بين الإيمان والعقل وبين الدين والعلم^(٣).

(١) - سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٢) - سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٣) - كان الفلاسفة يعتقدون بأن فلسفة أفلاطون وأرسطو هي الحقيقة وأن القرآن هو الحقيقة أيضاً فلذلك وجب التوفيق بينهما.

ومن أهم فلاسفة الأندلس سليمان بن جابرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وكان أول فيلسوف قام بتعليم الأفلاطونية للغرب الأوربي وهو يشبه سلفه ابن مسرة المتوفى سنة ٩٣١م، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لا يفهمها إلا العارفون بالأسرار، وكتاب ابن جابرول المهم هو (نبوع الحياة) وقد تُرجم إلى اللاتينية سنة ١١٥٠م^(١).

وقد ازدهرت الفلسفة بصورة خاصة في عصر الموحسين بالأندلس بظهور عدد من الفلاسفة الكبار، الذين أثرت فلسفتهم في الغرب الأوربي أكثر من تأثيرها في العالم العربي الإسلامي. من هؤلاء الفلاسفة أبو بكر محمد بن باجة المتوفى بمدينة قاس سنة ١١٣٨م، وكان فيلسوفاً وعالمياً وطبيباً ومفسراً لفلسفة أفلاطون، وعاش في غرناطة وسرقسطة، وقد أثر في ابن رشد. وأهم كتبه الباقية (تدبير المتوحد) الذي يقول فيه، أن غرض الفلسفة هو كمال النفس البشرية التدريجي الذي يحصل بالاتحاد مع الكائن الإلهي. وظهر تأثير فلسفة ابن باجة في الغرب الأوربي في بعض نواحي فكر توماس الأكويني وألبرت ماغنو^(٢).

لكن الفيلسوف الأهم على صعيد التأثير الأندلسي المغربي في الغرب الأوربي في ميدان الفلسفة هو ابن رشد، الذي وصف بأنه أكبر شارح لفلسفة أرسطو في ذلك يقول رينان، يكفي ابن رشد فخراً أنه تجرأ على إطلاق حرية الفكر لنفسه ونادى بها للجميع، على الرغم من وجوده في عصر كان مثل هذا الفكر يجلب لصاحبه الذلة والمهانة والتحقيق، وقد عانى من ذلك كثيراً لكنه مضى على طريقته، فأعلن بصراحة وقوة، حتى عدّه الأوروبيون مثلاً خالداً على

(١) - جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٥٢٧.

(٢) - عبد الواحد المراكشي، المعجب في أخبار تلخيص المغرب، ص ١٨٥، معجم أطباء المغرب والأندلس، ص ٥٢ وما بعدها. أحمد بدر، تاريخ الأندلس، ص ٢٦٧.

حرية الفكر^(٢). وقد عبر عن أفكار أرسطو تعبيراً صادقاً، وإعلانه أن العقل العام المطلق أبدي قابلاً للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث، وقال، يجب على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا. كما تعرض للفلسفة الخلقية والاجتماعية، فأعلن كرهه للظلم والاستبداد ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهما في الكم^(٣). ولشدة ما تأثر به الأوروبيون قالوا عنه، إنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي، وبذلك أقدم الأوروبيون على دراسة فلسفة ابن رشد ورحبوا بكتبه ترحيباً كبيراً، فأسهمت بإخراجهم من القسرون المظلمة، بترجمة كتبه إلى اللاتينية.

أما الفيلسوف الآخر فهو أبو بكر محمد بن طفيل المتوفى سنة ١١٨٥م، الذي عمل وزيراً وطبيباً لدى أبي يعقوب يوسف الموحد. وقد اشتهر بمؤلفه (حي ابن يقظان) وهو عبارة عن قصة فلسفية ممتعة، ومن أكثر القصص ابتكاراً في أدب العصور الوسطى. والفكرة الأساسية فيها هي أن القدرة البشرية، يمكن أن تبلغ معرفة العالم الأسمى بدون مساعدة خارجية، وأن نكتشف بالتدريج اعتمادها على الكائن الأعلى. وعلى الرغم من أهمية هذه القصة فلا يبدو تأثيرها الواضح في أوروبا العصور الوسطى، بل نرى ذلك التأثير فيما بعد، حينما ترجمت إلى عدة لغات^(٤).

من ناحية أخرى فقد استفاد الغرب الأوربي من أهل الأندلس والمغرب على صعيد الصناعة، ونقلت عنهم صناعات متعددة إلى أوروبا، كان لها الأثر الطيب في تقدم شعوبها. وإن أهم ما استفادته أوروبا كان صناعة النسيج بأنواعه وصناعة الزجاج وبعض الصناعات المعدنية وإن أهم ما استفادته أوروبا كان صناعة الورق عبر المغرب والأندلس، ففي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر

(٢) - ابن رشد، كتاب الكلبيات، ص ١٢-١٧.

(٣) - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ص ٦٨، وانظر أيضاً معجم أطباء المغرب والأندلس، ص ١٠٠ وما بعدها.

(٤) - جورج حداد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص ٥٢٧. معجم أطباء المغرب والأندلس، ص ١٧٨.

الورق خارج العالم العربي إلى أوروبا، وبذلك انتهى تقريباً احتكار العرب لإنتاج الورق والاتجار به، بعد أن بقي في أيديهم نحو ٥٠٠ سنة^(٢).

وكانت أولى المصانع التي أقامها العرب لصناعة الورق في الأراضي الأوربية في صقلية وإسبانيا، فمن صقلية انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا. ومن إسبانيا انتقلت هذه الصناعة إلى غرب أوروبا. وحينما تعلم الأوربيون صناعة الورق، استخدموه في الكتابة محل الرقائق الجلدية الباهظة الثمن. وبذلك يكون العرب قد أدوا لأوروبا برمتها خدمة جليلة، لأنهم علموا الغربيين طريقة أسهل وأفضل في الكتابة. ودليل أثر العرب في هذا الميدان تعدد المصطلحات العربية المتعلقة بالورق وصناعته، والتي ما زال بعضها مستعملاً بلفظه العربي في اللغات الأوربية مثل لفظة (رزمة rame)^(٣).

ونقل الغرب عن العرب صناعة الخزف، التي انتشرت في إسبانيا منذ القرن العاشر الميلادي، وما زالت المتاحف الأوربية تحوي كثيراً من الأواني الخزفية، التي صنعت تقليداً لأواني عرب الأندلس، ونستدل على هذا التقليد مما عليها من كتابات عربية محرفة. ولم ينكر الأوربيون إعجابهم بالصناعة العربية وتقليدها، إذ يروي عن الكاردينال أكسيميزا أنه قال عن الصناع العرب المسلمين في الأندلس ((ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم))^(٤).

كما استفاد الأوربيون من العرب الأندلسيين على صعيد صناعي آخر، كانت وما تزال له أهميته القصوى في الحياة الاقتصادية، تمثل في صناعة السفن، فعن العرب أخذوا صناعة طراز من السفن سمي (العشاري) وهو طراز متوسط الحجم، كان يستعمل في الأنهار والبحار للرحلات الصغيرة. وقد تلحق بالسفن الكبيرة لتكون قوارب نجاة، وسميت في إيطاليا باسمها العربي

(٢) - لكسندر ستيفنيتش، تاريخ الكتاب، ص ٢٣٦.

(٣) - جورج يعقوب، أثر الشرق في الغرب، ص ٥٥.

(٤) - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص ٦٦٣.

(uscieri أو شيري) وفي إسبانيا (esquire de navc) ويسدو أنها سميت
عشاريات لأنها كانت تتسع لعشرة أشخاص^(١).

وللأندلسيين فضل السبق في تعليم الغربيين صناعة الكريستال والزجاج،
التي ابتكرها ودل عليها العالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس خلال القرن
التاسع الميلادي، الذي أشار إلى إمكان هذه الصناعة من جراء استخدام الحجارة،
إلا أن إنتاج الأوربيين من الزجاج لم يتمكن من أن يصل إلى مستوى الإنتاج
العربي^(٢).

كما تعلم الأوربيون من الأندلسيين طريقة تبليط الدور والشوارع وإنارتها
في الليل، فكان بمقدور السائر في شوارع قرطبة أن يمشي على ضوء السمرج
المتصلة مسافة عشرة أميال^(٣) وكذلك طريقة صناعة السكر، وطريقة استخدام
الريح في تحريك الطواحين الهوائية التي اخترعت في آسيا الصغرى أول مرة،
ونقلت إلى إسبانيا والمغرب ومن هناك إلى أوروبا. وقد أنشئت أول طاحونة
بأوربة سنة ١١٠٥م في مقاطعة نورمنديّة.

ولم يقصر العرب في مجال الزراعة، فمن خلال الأندلس وصقلية، تعلم
الأوربيون منهم كيفية حفر الترع والقنوات وإنشاء المجاري المعقوفة التي كانت
مجهولة قبلهم. كما أدخلوا زراعات جيدة لم تكن معروفة في أوروبا الغربية،
كزراعة القطن وقصب السكر والسمسم والأرز والليمون والبطيخ والنبوم
والبادنجان والسبانخ، وكثير من التوابل والعقاقير النباتية والأصباغ وطوروا إلى
جانب ذلك الدورات الزراعية وفن استخدام الأراضي الزراعية على الوجه
الصحيح من أجل محصول وافر وغزير^(٤).

إلى جانب كل ما تقدم فقد كان الألب العربي في الأندلس، من الآداب
العالمية الهامة التي تأثر بها الأوربيون في العصور الوسطى، واستمر ذلك إلى

(١) - ابن الأثير، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٩٧.

(٢) - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص ٢٣٦.

(٣) - أحمد زكي، رحلة الأندلس، طبعة دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٠، ص ٤١١.

(٤) - جورج يعقوب، أثر الشرق في الغرب، ص ٩٧. سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣١٢.

العصور الحديثة، وكان ذلك التأثير في فروع الأدب الرئيسية كالشعر والنثر، ومن تأثيرات العرب في الأدب الأوربي ظهور شعر (الترويادور)، الذي اقتبس عن الأدب العربي، الذي امتاز بالرومانتيكية البالغة في الغزل الرقيق والرثاء الباكي إلى غير ذلك^(١). وقد ظهر هذا النوع من الشعر في شمال إسبانيا وإقليم البروفانس بجنوب فرنسا، وذلك من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وانتشر بعد ذلك في مختلف الدول الأوربية ولاسيما في إيطاليا، حتى أن العلماء أثبتوا أن غزل الفروسية، الذي انتشر بعد ذلك في ألمانيا متأثراً إلى حد كبير بأشعار الترويادور التي تغنى بها فرسان فرنسا.

وما يبرهن على أن شعر ألثرو بادور متأثر بالشعر العربي، هو أنه يمتاز بالصقل وقوة الخيال، فضلاً عن عفته إلى درجة أن مثله الأعلى في الزوجة الوفية المثالية، وهذه الأمور لم تعرفها أوربا في العصور الوسطى، التي لم تقم وزناً للمرأة، والتي حالت الكنيسة دون التغزل فيها^(٢).

أما في مجال النثر، فقد اهتم الأوربيون بالقصص العربية ذات المغزى الأخلاقي، أو تلك التي تتخذ الحيوان موضوعاً لها.

وكانت قصة (السندباد) من القصص التي وصلت أوربا وهي هندية الأصل، وقد ترجمت إلى الإسبانية سنة ١٢٥٣م بأمر من الأمير (فادريكي) أخي الغونسو الحكيم. ثم ظهرت بعدئذ في آداب أوربا قصص منسوجة على شاكلتها دون الإشارة إليها مثل قصص بوكاشيو الإيطالي بعنوان (الليالي العشر)، لكنها اختلفت من حيث مغزاها وهدفها وطبيعتها، ففي حين كان طابع قصص سندباد نسطياً وأخلاقياً كان طابع بوكاشيو إباحياً.

وربما كان أهم مجالات التأثير في فكرة الكوميديا الإلهية لدافنشي الذي لم يكتشف أمره إلا في مطلع القرن العشرين، حينما ظهرت نظرية آئين بلاثيوس القائلة، بأن الكوميديا الإلهية مقتبسة من الأدب العربي الإسلامي بفروعه الدينية

(١) - أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ١٨٩.

(٢) - أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص ١٨٩.

والمصوفية والأدبية، وقد تأثر دافنشي في هذا الميدان بقصة المعراج الواردة في (الفتوحات المكية) لابن عربي الأندلسي.

وهكذا فقد كان تأثير العرب في الغرب الأوربي معدوماً في ميدان الدين، وضعيفاً إلى حد كبير في ناحيتي اللغة والفن، وهائلاً في نواحي العلم المختلفة من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفلسفة وأدب من قصة وشعر ورواية، وأيضاً في الصناعة والزراعة. وكل ذلك عن طريق الأندلس والمغرب وصقلية، حيث قام فيها باستنباط خلاصة المدنيات القديمة من هندية ويونانية وفارسية وتطويرها باتجاه الوجهة القوية البعيدة عن الخيال والشطط، وبالتالي ترجمتها إلى اللاتينية وغيرها، مما كان له الأثر العظيم في توسيع مدارك الأوربيين وأخذهم بأسباب النهضة في مطلع العصور الحديثة، التي أثمرت ثمرات طيبة، تجسد بما يشهده العالم المتقدم من إنجازات حضارية، لم تعرف البشرية نظيراً لها، وما زالت تتقدم بسرعة مذهلة، بينما تفقر العرب إلى آخر الدرك الحضاري، فأصبحوا على هامش الشعوب المتحضرة.



الملاحق





أعمال الخيانة والعمالة في تاريخ المغرب والأندلس في العصور الوسطى

حرصنا في هذا الفصل أن نتحدث عن أعمال الخيانة في المغرب والأندلس على حد سواء، ذلك لأن المغرب والأندلس في زمن حدوث هذه الأعمال، كانت تشكل دولة واحدة على الرغم من وجود بعض الفترات، التي كانت منفصلة فيها عن بعضها، ولكن هذا الانفصال لم يكن طويلاً وبالتالي فإنه لم يؤثر في العلاقات العامة بينهما على الإطلاق.

كما حرصنا من جهة أخرى أن نقف عند هذه الأعمال الشنيعة، من أجل أن نستفيد منها في تحصين أجيالنا من الوقوع فيها، ذلك لأنها طريق الساقطين على دروب الوطنية والوفاء والانتماء، وهي وصمة عار ونقطة حالكة السواد في جبين أصحابها إلى نهاية الحياة.

قد لا يخلو تاريخ أمة من الأمم القديمة والحديثة حتى يومنا هذا، من وجود أعمال وحوادث خارجة عن القوانين والأعراف الوطنية، التي تحدد في العادة مجموعة من الخطوط الحمراء التي لا يجوز تجاوزها حفاظاً على وحدة التراب الوطني، هذه الأعمال التي كانت في معظمها تصرفات فردية بحتة، صدرت عن شخصيات مختلفة لم تكن تتمتع بقدر كاف من الاتزان يمنعها من الإقدام على مثل هذه الأعمال، التي لا تبررها ولا تسوغها قوانين أو أعراف معينة في أي حال من الأحوال، ذلك لأنها في نهاية الأمر تصب في صالح العدو على حساب المصالح الوطنية العامة الخاصة في بلد الخائن أو العميل.

من حسن الحظ أن هذه الأعمال الشائنة، كانت قليلة بالمقارنة مع الأعمال الوطنية الخالدة، التي كانت جماعية وفردية على حد سواء. وقد حدثت معظم هذه

الأعمال نتيجة شهوة جامحة للاستئثار بشؤون الحكم والسلطة، مما أدى إلى مزيد من الكوارث والانتكاسات، ليس في تاريخ المغرب والأندلس موضوع بحثنا فحسب، بل كان ذلك شيئاً عاماً شمل كل فترات التاريخ العربي الإسلامي، الذي افتقر فيه العرب إلى وجود ضوابط ثابتة، يمكن أن تستند إليها الأغلبية في الدولة العربية، وبخاصة فيما يتعلق بكيفية انتقال السلطة وممارستها، التي كانت بشكل عام تعتمد على مبدأ التوريث من الأب إلى الابن أو من الأخ إلى أخيه أو أي من الأقرباء المقربين، وفي حال غياب مبدأ التوريث هذا، فقد كانت تحدث ممارسات خاطئة للوصول إلى الحكم عن طريق القوة والغلبة وما إلى ذلك من وسائل غير ديمقراطية، ابتليت فيها دول العرب في العصور الوسطى منذ فساد الرسول العربي الكريم، ذلك لأن الذين خلفوه ولفترة غير قصيرة عجزوا عن وضع أسس قاعدة ديمقراطية كان من الممكن الاعتماد عليها. وما مظاهر السشورى التي ظهرت في العصر الراشدي إلا مثالا حياً على هذه المأساة، فالخلافة الراشدية لم تعتمد رأي الأكثرية منذ الوهلة الأولى في قضية انتخاب الخليفة مما شجع الحكام بعد انقضاء الخلافة الراشدية على الإسراف والتطرف في مسألة استبعاد المفهوم الديمقراطي من حياة الأمة، حتى غدا هذا المفهوم وكأنه من المحرمات، الأمر الذي قاد إلى مزيد من المعاناة والاضطراب والقلق.

أضف إلى هذا الإرث الثقيل في حياة المغرب والأندلس، عامل آخر تجسد في واقع هذه البلاد الجغرافي، وهو أن الجبهات المعادية كانت قريبة من مناطق الخونة والعملاء، مما سهل عليهم الوصول إليها في كل وقت أرادوه. أضف إلى ذلك أن عروضهم وتصرفاتهم كانت تلقى على الدوام ترحيباً حاراً من قبل القيادة المعادية، التي فاقت في عدائها للعرب كل القيادات من مختلف الشعوب، التي احتك معها العرب في تاريخ العصور الوسطى. وقد تجلى ذلك

بأوضح صورة في قيادة حركة الاسترداد الإسبانية^(١)، وفي المواقف الفرنسية والألمانية، التي واكبت مسيرة حركة الاسترداد بكل وسائل الدعم العسكرية والمادية والمعنوية، ذلك لأن الأوروبيين الفرنسيون منهم خاصة، كانت قد تكونت لديهم قناعة نهائية، بأن أي نجاح للعرب خارج إسبانيا والبرتغال سيكون خطراً داهماً على أوروبا برمتها.

قابل ذلك على الجبهة العربية في الشرق والغرب حالة من الانهيار والتفكك، هذا بالإضافة إلى عجز العرب نهائياً عن استئثار أماكن الخطر وبؤره النامية، وظلت حالة التوتر نخيم بظلها القاتم على مجموع الحياة العربية، سببتها حالة مستديمة من عدم التوافق بين العرب في كافة المستويات، فقد تباينت وجهات نظرهم حول قضايا كانت أحياناً سياسية وكانت أحياناً دينية وفي أحيان أخرى كانت قبلية وعصبية وعائلية إلى غير ذلك من أمور قبيحة، أدت بأمة العرب إلى مزيد من الاضطراب والهزائم^(٢).

وعلى الرغم من أن الجميع وبخاصة في المغرب والأندلس، كانوا يتظاهرون بالعداء للقوى الأوروبية المجاورة، من منطلق أن هذه القوى غير مؤمنة إضافة إلى تأمرها المستمر ضد العرب، فإن إيمانهم عجز عن تجميع صفوفهم في جبهة واحدة ضد القوى الأوروبية، وبدلاً من أن يفعلوا ذلك هب بعضهم مهزولاً باتجاه الجبهة الأوروبية، ومد لها يد العون بأبخص الأثمان وأقلها، كما هب بعضهم الآخر يقاتل ضد فريق من أبناء جلدته وأخوته تحت شعارات تافهة لا قيمة لها في كل الموازين.

(١) - حركة الاسترداد هي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون اعتماداً على ترجمة الكلمة الإسبانية (الريكونيستا) على مجموعة من العمليات العسكرية التي نفذها الإسبان ضد الوجود العربي بالأندلس منذ بدايات القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن التاسع، وقد نهجت هذه الحركة في إنهاء وجود العرب في أوروبا بعامة.

(٢) - انظر عن ذلك علي أحمد: تاريخ المغرب العربي الإسلامي، طبعة جامعة دمشق، ١٩٩٢، ص ٧٥ وما بعدها.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام، أن هذه الأعمال القبيحة لم تكن حكرًا على العرب في منطقة المغرب والأندلس، بل حدثت أعمال مماثلة في الجبهات المعادية، ولكنها لم تكن في حجم وخطورة الأعمال العربية في هذا الميدان المغرق بكل أشكال الانحطاط، ذلك لأن النتائج التي تمخضت عنها كانت غير مؤثرة أو بالغة الضرر، كذلك النتائج التي تمخضت عن الأعمال العربية، التي ساعدت في العديد من المناسبات على تعزيز الجبهة الإسبانية التي تمثلت بحركة الاسترداد، التي نجحت بعد ثمانية قرون مستمرة من العمل الحربي ضد الوجود العربي بالأندلس، في طرد العرب منها والسيطرة على كل البقاع التي حكموها فيها.

تسلسل هذه الأعمال القبيحة يأتي من خلال تتبع الصفحات الآتية. فقد ظهرت طلائع هذه الأعمال لأول مرة في المغرب الكبير في الفترة المبكرة من عمر عملية الفتح العربي هناك، وقد مثلها بقوة وتصميم المتمرد (كسيلة) الذي كان زعيماً لأكبر تجمع قبلي مغربي في عصره، هو التجمع القبلي المتمثل بقبيلة (أوربة) التي كانت قد دخلت الإسلام بتوجيه كسيلة نفسه، حينما تسلم أبو المهاجر دينار قيادة عملية فتح المغرب الكبير بدلاً من عقبة بن نافع الفهري من سنة ٥٥٥هـ/٦٧٥م حتى سنة ٦٢هـ/٦٨٢م^(١). فقد مثل أبو المهاجر دينار مرحلة متقدمة في حقل تطبيق العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، أثارت إعجاب الجميع. وقد جاءت هذه المرحلة بعد معاناة قاسية كابدها المغاربة في فترة عقبة بن نافع الأولى^(٢) التي اتهم فيها بسوء معاملته للمغاربة ككل، فقد جعلهم في أدنى درجات السلم الاجتماعي والإنساني، في حين عامل المشاركة معاملة كانت غاية في الروعة، وأظهرهم بمظهر المتفوق الذي يستحق كل شيء، فقد أثر عنه قوله في

(١) - ابن عبد الحكيم: فتوح مصر، طبعة الجزائر، ١٩٤٨، ص ١٩٤.

(٢) - فترة حكم عقبة الأولى كانت من سنة ٥٠ إلى سنة ٥٥ هـ.

حق المغاربة: (إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم)^(١). كان من أهم النتائج التي ترتبت على سياسة أبي المهاجر دينار المتوازنة، أن أقدم كسيلة مع قبيلته أوربة على الانخراط في صفوف العرب الفاتحين، وأضاف انخراطه هذا عنصر دعم جديد لعملية الفتح، ساعد إلى حد كبير على تحقيق بعض التقدم في عملية الفتح بالمغرب، حينما انتقل الفاتحون من المغرب الأدنى^(٢) إلى المغرب الأوسط^(٣)، فسيطروا على تلمسان قاعدة هذا المغرب^(٤).

وحينما كان الفاتحون يستعدون إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى تلي مرحلة تلمسان، جاءهم أمر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بإعادة عقبة بن نافع الفهري إلى قيادة عملية الفتح بالمغرب الكبير، مما أثار قلق وخوف كسيلة بشكل خاص، ذلك لأنه كان يكره عقبة بن نافع ويعدّه من ألد أعداء المغاربة بسبب سياسته غير المتوازنة، وبخاصة في مسألة المساواة بين المغاربة والمشاركة، التي ظلت مجانية لتفكيره وظل بعيداً عنها طوال حياته، لأنه كان يؤمن بأن المغاربة لا ينحدرون من أصول عربية، مثلهم في ذلك مثل بقية الشعوب التي دخلت في الإسلام من غير العرب، وهي سياسة عامة طبقت في حكم المغرب الكبير طوال عصر الدولة الأموية. لأن الخلفاء الأمويين باستثناء عمر بن عبد العزيز، كانوا حريصين على سيادة العنصر العربي في القيادة والإدارة. وقد أدت هذه السياسة إلى عدد من الثورات والانفاضات ضد الحكم الأموي بالمغرب أدت

(١) - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) - كان يقال له أيضاً إفريقية وسمي بالأندلس لأنه أقرب مواقع المغرب إلى عاصمة الدولة. وكان يمتد من طرابلس في الشرق إلى بجاية في الغرب وقاعدته القيروان ويتمثل الآن بتونس.

(٣) - سمي بالمغرب الأوسط لأنه يتوسط المغربين الأدنى والأقصى، وكان يمتد من بجاية إلى وادي الملوية وقاعدته تلمسان، ويتمثل اليوم بالجزائر.

(٤) - المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥١، ص ٢٥.

إلى زعزعة أمن واستقرار الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام في العصر الأموي^(١).

استغل كسيلة مسألة انصراف جيش عقبة بن نافع باتجاه القيروان بصورة كيفية بموافقة عقبة نفسه سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٥ م، بعد أن كان هذا الجيش قد نفذ عمليات عسكرية ناجحة في المغرب الأوسط والأقصى، وفي أثناء العودة إلى العاصمة القيروان أحب عقبة بن نافع أن يحرر بعض المواقع على طريقه، وهو موقع تهودة في منطقة جبال الأوراس بجنوب شرق الجزائر، وكان قد استبقى معه من أجل ذلك نحو من خمسة آلاف جندي، ظن أنهم يستطيعون أن يحرروا هذا الموقع بسهولة ويسر، لأنه لم يكن يعرف أن كسيلة الذي ارتد عن الإسلام بعد أن هرب من صفوف جيش عقبة، قد عمل على تجميع قوة كبيرة من قبيلته سابقة الذكر، وتوجه إلى التحالف مع الروم الذين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة من البيزنطيين، الذين وقفوا في الخندق المعادي لعملية الفتح العربي بالمغرب الكبير منذ اللحظات الأولى، كما تحالف مع الفرنجة واللاتين وهم مجموعة هامة من بقايا الأوروبيين القدماء، كانت لهم مصالحهم في العديد من المناطق المغربية، وبخاصة في المناطق الساحلية حيث كانوا يمارسون أعمالاً زراعية وصناعية وتجارية، وكان يعاون كسيلة في القيادة شخص من الروم البيزنطيين اشتهر في المصادر المغربية باسم (سكرويد الرومي)^(٢).

كان كسيلة كما ذكرنا قد عرف عن طريق جواسيسه، أن عقبة بن نافع ترك الحرية لمعظم فرق جيشه بالتوجه إلى القيروان بعد غياب ثلاث سنوات متواصلة، وأنه في صدد تحرير موقع تهودة سابق الذكر بقوة صغيرة لا قيمة لها أمام ما تجمع تحت قيادته من عشرات الآلاف من الروم والفرنجة والمغاربة

(١) - كان من أهم هذه الثورات ثورة عام ١٢٣ هـ بالمغرب وثورة عام ١٢٤ هـ بالأندلس.

(٢) - ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ١، تحقيق كولان وايقي بروفيسال، طبعة ليون،

١٩٤٨ و ١٩٥٠، ص ٣٦.

المعارضين والمستعدين للتضحية في كل شيء، من أجل ضرب حركة الفتح العربي قبل أن تتعزز أسسها وتتوطد أركانها.

فوجئ عقبة بن نافع حين وصل إلى تهودة بضخامة القوة المعادية بقيادة كسيلة، وتأكد له أن الصدام مع هذه القوة لا بد أنه خاسر، ومع ذلك رفض التراجع والهزيمة وأصر على المواجهة غير المتكافئة، وأمر جنوده بإخراج أسياقهم من أعمادهما، وكأنه كان يرى أن هذه السيوف لن تعود مرة أخرى إلى مكانها، وهذا يعني بوضوح تصميمه على المواجهة حتى النهاية التي لم تكن سعيدة على صعيد جبهة الفتح العربية، فقد استشهد عقبة بن نافع ومن معه من مقاتلين. ومنذ ذلك الحين سميت تهودة باسم جديد هو (سيدي عقبة) تيمناً باسم هذا القائد العربي الذي أعطى مثلاً رائعاً على التضحية التي كان أعظم أشكالها هو الجود بالنفس رخيصة من أجل نيل الاستقلال والحرية^(١).

إن ذلك الذي حدث في سيدي عقبة، لم يكن أمراً عادياً يجري ويتكرر في المعارك الحربية بين قوتين متقاتلتين، بل كان أمراً جليلاً يدعو إلى الأسى والأسف، ليس على مقتل عقبة بن نافع ورجاله فحسب، بل على ضياع كل الجهود التي بذلها العرب منذ بداية عملية الفتح حتى لحظة استشهاد عقبة. هذا الحادث الجلل لم يكن سببه كسيلة الذي سقط في مستنقع الخيانة والعمالة والتمرد، بل شاركه فيه وبقوة عقبة بن نافع من خلال ممارسته سياسة غير عادلة، كان هو مقدمة ضحاياها، هذه السياسة التي انتفت معها روح العدالة والمساواة، وأعلنت من شأن جماعة قليلة في المجتمع، واحتفرت شأن جماعة كبيرة في هذا المجتمع.

(١) - الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القبرون، طبعة تونس، ١٩٦١، ص ٥٥.

سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، طبعة القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦٩.

لكن على الرغم مما اقترفه عقبة بن نافع من أخطاء في معاملة المغاربة، فإن ذلك لا يبرر إقدام كسيلة على التآمر معتمداً على القوى الأجنبية، التي هي في نهاية الأمر عدو للجميع، الذين عميت أبصارهم عن رؤية هذه الحقيقة.

بعد حادثة كسيلة لم تحدث حادثة مماثلة في المغرب الكبير، بل كانت مثل هذه الأعمال من نصيب الأندلس، ربما لأنها كانت على تماس مباشر مع الجبهة المعادية، سواء منها الإسبانية أو الأوروبية، وبدأت هذه الأعمال تظهر منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي في أواخر عصر الولاة^(١). هذا العصر الذي تميز بالاضطراب الشديد في الميدان السياسي والاجتماعي، ساعد على ذلك اضطراب الأمور في حاضرة الخلافة الأموية على أثر النشاط الفعال للسدوة العباسية، وكذلك اضطراب الأمور في المغرب الكبير نتيجة قيام الثورات المتلاحقة، الأمر الذي انعكس سلباً على الأندلس، فلم تعد سلطة الوالي فيها ذات قيمة تذكر، مما جعل بعض العملاء يتمردون على أوامر ولائهم ويرتمون في أحضان العدو المشترك. ولعل خير من مثل هذا التمرد هو عثمان بن أبي نسعة، الذي كان قد شغل ولاية الأندلس في سنة ١١٠هـ/٧٣٠م، وشغل بعد ذلك قائداً للمنطقة الحدودية المجاورة للحدود الفرنسية في شمال شرق إسبانيا، وهي المنطقة البرية الوحيدة التي يمكن للأسبان أن يتصلوا من خلالها ببقية القارة الأوروبية براء، مما ساعده على الاتصال بحاكم منطقة أكويتانية الفرنسية المجاورة، ونتج عن هذا الاتصال عقد زواج بينه وبين ابنة أود حاكم أكويتانية الفرنسية، ووقع أسير حبها لجمالها وحسنها كما ذكر المؤرخون وهذا ما أثر على قراره السياسي والوطني، وتجلّى هذا التأثير في أوضح صورة برفض أوامر والي الأندلس آنذاك عبد الرحمن الخافقي، الذي أمر عثمان بن أبي نسعة أن يبدأ بمناوشة الفرنسيين في المنطقة التي يحكمها، وذلك كتمهيد تكتيكي لعملية كبيرة كان الخافقي على وشك البدء في تنفيذها، وقد كانت عملية الرفض هذه من

(١) - امتد عصر الولاة بالأندلس من سنة ٩٧ إلى سنة ١٣٨ هـ.

أصعب الأمور التي واجهت الغافقي في حياته، ذلك لأنها كانت مفاجأة لم يكن يتوقع أن يواجهها في وقت كانت فيه الحمية العربية ما زالت متوقدة في نفوس العرب بالأندلس، هذه الحمية التي ساعدتهم على إنجاز مازال مثار حيرة وإعجاب الكثيرين، وهو إنجاز فتح شبه الجزيرة الأيبيرية في فترة قصيرة كانت قياسية^(١).

رد الغافقي على تمرد عثمان بن أبي نسعة، والذي قرر بصورة نهائية الخروج من الدائرة العربية إلى الدائرة الفرنسية المعادية، رد بتكليف قوة عسكرية بملاحقة عثمان بن أبي نسعة في منطقته الجبلية في شمال شرق الأندلس، وحاول التخفي في هذه المنطقة لكنه فشل في ذلك، ولاحقته القوات العربية حتى تمكنت من قتله وأسر زوجته، التي قيل أنها أرسلت إلى رصافة هشام بن عبد الملك في وسط شمال سورية اليوم، حيث كان يقيم هذا الخليفة منذ أن أصبح في سدة الحكم في سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤م^(٢). وكان أمر إرسال السبايا والهدايا إلى الخليفة من الأمور المعروفة في عصر الولاة بالأندلس والمغرب على حد سواء، من أجل الحصول على رضا الخلفاء وبالتالي إبقاء الولاة في حكم ولاياتهم.

كان من أهم النتائج التي تمخضت عن هذا الحادث الكريه، أن أود حاكم منطقة أكويتانية الفرنسية، تنبه إلى ضرورة إقامة تعاون مشترك مع عدوه الفرنسي شارل مارنل، بعد أن تأكد أنه سيكون الهدف الرئيسي لتحرك الغافقي

(١) - انظر عن ذلك تفاصيل واسعة في: مؤرخ مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق الافوينتي الكتترا، طبعة مدريد ١٨٦٧، ص ٤ وما بعدها.

- المقري التلمساني: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق محمد مجيب الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٣٤.

- الحميري: الروض المعبط في خير الأقطار، تحقيق إسمان عباس، طبعة بيروت، ١٩٧٥، ص ٨ وما بعدها.

(٢) - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص ٢٠١ وما بعدها.

بعد مقتل صهره عثمان بن أبي نسعة، وأن الانتصار عليه سيؤدي إلى مرحلة أكثر خطورة على حياة الأوروبيين بعمامة. وقام بنقل هذه التصورات التي كانت واقعاً حقيقياً في كل توجهات ونشاطات القائد الغافقي إلى شارل مارتل، الذي استشعر خطورة الموقف وتناسى خلافات الماضي مع أود، وقاد جيشاً كبيراً في عدده وإمكاناته الحربية إلى منطقة أكويتانية، وتمكن من إيقاع هزيمة ساحقة في صفوف الجيش الذي كان يقوده الغافقي في معركة فاصلة، سماها الأوروبيون معركة (بواتيه) وسماها العرب معركة (بلاط الشهداء) سنة ١١٤ هـ/٧٣٣م^(١).

في مستهل الإمارة الأموية بالأندلس أيضاً^(٢)، جرت حادثة خيانة كبيرة كانت أشد تأثيراً وعمقاً وخطورة فيما لو قدر لها أن تتجح. جرت هذه الحادثة في فترة حكم الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك المعروف بالداخل، وكانت من أشد الأحداث خطورة في حياة هذا الأمير السياسية، ذلك لأنها جاءت في مرحلة بناء وتكوين الإمارة الأموية بالأندلس، التي كانت تعاني قواتها العسكرية من حالة تعب وإنهاك ظاهرة بسبب انشغالها ولفترة طويلة بقمع عدد من الانتفاضات الداخلية والخارجية، التي هزفت في المقام الأول إلى زلزلة حكم الأمويين قبل أن تتعزز أركانه. هذه الحادثة الخطيرة تجسدت بقيام سليمان بن يقظان حاكم برشلونة وسرقسطة لعبد الرحمن الداخل بالاتصال مع القائد الفرنجي المشهور في ذلك العصر شارلمان، الذي كان يعد من أقوى الحكام في العالم في عصره، واشترك معه في هذا الاتصال عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس، وهو الذي أطيح به من قبل عبد الرحمن الداخل، وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري يعرف بالصقلبي بسبب شقرة شعر رأسه وكان شبيهاً بالصقالبة الأوروبيين. كما

(١) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧ وما بعدها. المقري التلمساني: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٠ وما بعدها.

(٢) - امتد عصر الإمارة الأموية بالأندلس من سنة ١٢٨ حتى سنة ٣١٦ هـ.

اشترك في هذه الحادثة أيضاً ابن يوسف الفهري المعروف بأبي الأسود، وكان قد هرب من السجن الذي زجه فيه عبد الرحمن الداخل بعد أن تظاهر بعلية العمى^(١).

قرر هؤلاء الخونة الثلاثة السفر إلى بلاد شارلمان، وحين وصلوا إلى حاضرة ملكه استقبلهم بكثير من الحفاوة والترحاب، وعرضوا عليه مشروع غزو الأندلس، الذي لاقى قبولاً كبيراً عنده، واتفق مع هؤلاء الخونة على تنفيذ خطة عسكرية محكمة ضد الحكم الأموي بالأندلس، كان من بنود هذه الخطة الفاشلة تسليمه مدينة سرقسطة التي تقع في الشمال الشرقي من الأندلس، وفي الوقت نفسه يوجه قسماً من قواته العسكرية لتخليص بقية المناطق من الحكم الأموي. كما اتفقوا أنه في اللحظة نفسها يقوم الفهري بتنفيذ هجوم مباغت على الساحل الشرقي الأندلسي بأسطول مغربي، يترافق ذلك بإعلان حالة من التمرد العصيان بمدينة سرقسطة بالتعاون مع سليمان بن يقطان سابق الذكر. ويقوم أيضاً الرماحس بن عبد العزيز الكناني بإعلان عصيان مماثل بولايتيه فسي الجزيرة الخضراء بغرب الأندلس^(٢).

تسربت الخطة الذكية إلى مسامع الأمير الأموي المقصود بهذه المؤامرة عبد الرحمن الداخل. فوضع على الفور خطة محكمة للتصدي لها، وذلك بأن يقابل كلا من هؤلاء المتآمرين بشكل إفرادي، لأنه لم يكن يملك قوة عسكرية لمواجهةهم في وقت واحد، خصوصاً أنهم اختاروا الإطباق عليه من ثلاث جهات، من الشمال والغرب والشرق. فبدأ بالتصدي لعبد الرحمن بن حبيب الصقلبي، وتمكن في فترة وجيزة من إلحاق الهزيمة بقواته، ثم أتبعه بالرماحس ابن عبد العزيز الذي لقي المصير نفسه، ثم توجه إلى الشمال الشرقي لمواجهة الخطر الأكبر المتمثل بشارلمان، الذي كان قد خيم بقوات كبيرة بجوار

(١) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٢. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص ١١١.

(٢) - مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص ١١٢ وما بعدها.

سرقسطة، التي صمدت بشموخ أمام الهجوم الفرنجي، ورفض أهلها على الرغم من شدة الحصار عليهم تسليم مدينتهم^(١).

وفي أثناء الحصار على مدينة سرقسطة حدث ما لم يكن في حسابان شارلمان، فقد وصلت إليه أخبار تفيد بوقوع تمرد قوي في حاضرة ملكه، من قبل القبائل السكسونية الجرمانية، وكان لهذه الأخبار وقع الصاعقة في نفسية شارلمان، فقرر الانسحاب من الأندلس نهائياً، وعاد على وجه السرعة إلى بلاده مصطحباً معه الخائن سليمان بن يقطان كأسير لديه لغايات معينة لم تفصح عنها المصادر التي تحدثت عن هذه القضية. وفي طريق العودة تعرضت مؤخرة جيشه التي كان يقودها ابن أخيه (رولاند) لهجوم مباغت نفذه سكان منطقة البيرينيه الذين كانوا يعرفون (بالشكنش)، وتمكنوا من تدمير هذه المؤخرة وقتل جميع جنودها وفي طليعتهم قائدها رولاند الذي أصبح منذ ذلك الحين رمزاً وطنياً خالداً في تاريخ الأوروبيين، وتجسد ذلك في ملحمة كتبت حوله سميت بنشيد رولاند (song of Roland)^(٢).

بذلك نجا عبد الرحمن الداخل والحكم الأموي بالأندلس من خطر مؤامرة كبيرة، كانت في الغالب ستطيح به إلى الأبد، ذلك لاشتراك شارلمان في تنفيذها بنفسه، وهو الذي كان يمتلك كل مقومات الحرب والدمار التي كانت معروفة في عصره في أوروبا، أضف إلى ذلك أنه كان يرغب في تحقيق أمجاد جديدة تسجل في صفحات إنجازاته، ويكون ذلك من خلال تصفية الوجود العربي في القارة الأوروبية، هذا الوجود الذي نظر إليه الأوروبيون نظرة حقذ وعداء، وعملوا بكل الوسائل من أجل تقويضه من الأساس.

(١) - السيد عبد العزيز مغالم: تاريخ المسلمين وأثرهم في الأندلس، ص ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) - مؤلف مجهول: المصدر السابق ص ١١٤. المقري للتلمساني: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٠.

غابت رموز الخيانة والعمالة في عصر الخلافة الأموية بالأندلس^(١)، هذا العصر الميمون الذي كانت فيه دولة العرب بالأندلس من أعظم وأزهى دول العالم. وحينما انتهى هذا العصر بدأت هذه الرموز بالظهور، ساعد على ذلك أن وحدة الأندلس ضربت في الصميم وتمزقت الأندلس شر ممزق فظهرت العديد من الدول المتنافرة والمتعادية في كل الميادين إلا في ميدان واحد، هو ميدان الخضوع المذل للإسبان الذين ظهروا كقوة منوثة للوجود العربي^(٢).

بدأت ملامح ورموز الخيانة والعمالة الرخيصة، تظهر في دول عصر الطوائف الذي جاء بعد عصر الخلافة، وذلك بفعل أحداث داخلية وخارجية من أجل الاستئثار بالحكم والسلطة. فقد أدى الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة بمدينة طليطلة وهي أسرة بني ذي النون إلى لجوء القادر بن ذي النون، وهو آخر العائلة إلى الفونسو السادس صاحب قشتالة، وطلب منه المساعدة الفورية لإعادته إلى حكمه وعرشه الذي أجبر على تركه بالقوة والقهر. وكان لجوء هذا الخائن إلى الفونسو هذا يستغل ما جرى ويسرع الخطى باتجاه استعادة مدينة طليطلة، وقد تم له ذلك في سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٦ م. ولم يتمكن المرابطون ولا الموحدون من بعدهم من استرجاع هذه المدينة، التي صمم الإسبان على الاحتفاظ بما لها في نفوسهم من قدسية كونها كانت عاصمة بلادهم ورمزها غداة فتح العرب للأندلس^(٣).

وفي مدينة سرقسطة في شمال شرق إسبانيا التي كانت من نصيب عائلة بني هود في عصر الطوائف لجأ أحد زعماء هذه العائلة وهو أحمد بن سليمان

(١) - امتد عصر الخلافة الأموية بالأندلس من سنة ٣١٦ .. ٤٢٢ هـ.

(٢) - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٨.

- ابن الأثير: الحلة السيرة ج٢ تحقيق حسين مؤنس، طبعة مدريد، ١٩٦٣، ص ٩٩.

(٣) - ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء (تاريخ الأندلس)، تحقيق أحمد مختار العبادي، طبعة مدريد ١٩٦٥، ص ٨٢. - ابن حزم الأندلسي: جمهرة أساطير العرب تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة للقاهرة ١٩٦٢، ص ٤٣٠ وما بعدها.

الملقب بالمقتدر إلى الإسبان، بعد أن أقصاه أخوه يوسف الملعب بحسام الدولة عن الحكم، وقد أعاده الإسبان إلى حكمه وساعده بعد ذلك على توسيع رقعة دويلته باتجاه المشرق على البحر الأبيض المتوسط وبعض المناطق الأخرى^(١).

وعلى الرغم من الاتزان الذي كان يظهره أكبر زعيم من زعماء دول الطوائف، هو المعتمد بن عباد زعيم دولة إشبيلية بعصر الطوائف، وعلى الرغم من صفات الاعتزاز والشموخ والأنفة التي كانت تميزه عن غيره من زعماء عصره بالأندلس، فإنه سقط في مستنقع الخيانة الأمن، الأمر الذي جعل المؤرخين يعدونه خائناً في نهاية الأمر، بعد أن كان قد ظهر في مرحلة سابقة بمظهر العربي الحريص على عروبه ووطنه وأبناء جلدته، وقد ظهر هذا بشكل واضح وتبلور في كل تصرفاته السياسية والعسكرية منذ الحادثة التي حصلت له بإشبيلية حاضرة ملكه مع سفارة لزعيم الجبهة الإسبانية الفونسو السادس الذي أثار كل ألوان الخوف والقلق في حياة زعماء دويلات الطوائف، كان رئيس هذه السفارة رجل يهودي يدعى ابن شاليب، حضر إلى إشبيلية مع بضعة أفراد لقبض مقدار الجزية المفروضة من قبل الإسبان على دويلة إشبيلية، وحينما قدم مقدار هذه الجزية للسفير اليهودي احتج على عيار الذهب بأسلوب غير لائق من الناحية الدبلوماسية، فقد قال للمعتمد بن عباد بكل صفاقة أن الفونسو السادس لن يقبل بهذا الذهب مرة أخرى وإذا تكررت هذه الحالة فستكون النتيجة إزالة حكم ابن عباد، فأمر هذا الأخير بقتل ابن شاليب اليهودي ومن معه من سفارة الفونسو، ومنذ ذلك الحين اقتنع المعتمد بن عباد بضرورة التوجه إلى المغرب لطلب معونة المرابطين، الذين كانوا في أوج قوتهم واستعدادهم بزعماء يوسف بن تاشفين، وقد نصحه بعض مستشاريه بعدم الإقدام على هذه الخطوة لأنها ستؤدي إلى إثارة أطماع المرابطين في الأندلس، لكن المعتمد بن عباد أصر على متابعة طلبه

(١) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨ وما بعدها.

معونة المغاربة وقال، بأنه يفضل أن يكون راعي جمال في المغرب من أن يصبح راعي خنازير في قشتالة^(١).

يستنتج من قول ابن عباد، أن الأخطار كانت كبيرة للغاية، وأنه كان يتوقع سقوط نوبلته بيد الإسبان، وفصل أن تقع في يد المغاربة إذا كان لابد من ذلك، لكن حين قام يوسف بن تاشفين بإنقاذ الموقف بالأندلس بعد نجاحه في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م، فقد تغير موقف ابن عباد وتلاشى شعوره الوطني الناضج، حينما قرر ابن تاشفين إزالة حكم دول الطوائف، فوقف ضده بكل ما يملك من قوة وزاد في ذلك أن عقد تحالفاً مع عدوه الفونسو السادس، لكن المرابطين نجحوا في ضرب هذا التحالف بقوة وقطعوا عن ابن عباد كل قنوات العون من الجبهة الإسبانية، وحاصروه في قصره بإشبيلية حتى استسلم في نهاية الأمر^(٢)، وعلى الرغم من هذه الخيانة فقد عفا عنه المرابطون وأرسلوه إلى مدينة أغمات بالمغرب الأقصى، وبقي فيها طوال حياته.

وفي أثناء صراع دول الطوائف بعضها مع بعض، كثرت الاستعانة بالجانب الإسباني، وقد تجسد ذلك بصورة خاصة في دولتي بني هود بسرقسطة في الشمال الشرقي وبني النون في طليطلة. فحينما كانت إحدى هاتين الدولتين تهدد الدولة الأخرى، كان حكام الدولة المهددة يلجؤون إلى الإسبان لطلب المعونة، ولم يتأخر الإسبان في هذه المسألة، لأنهم وجدوا فيها وسيلة ناجحة لتحطيم القوة العربية وامتصاصها بسهولة^(٣).

(١) - ابن أبي زرع: روض القرطاس، طبعة الرباط ١٩٧٣، ص ١٦٨. المقرئ التلمساني: المصدر السابق، ج ٦، ص ٩١-٩٢.

(٢) - ابن الأبار: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢. الفتح بن خاقان: قلند العقيان في محاسن الأعيان، طبعة تونس ١٩٦٦، ص ٤ و ٥٢.

(٣) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٨.

وحيثما قام الإسبان بحصار طليطلة من أجل إعادة عميلهم يحيى بن ذي النون إليها قبل سقوطها بأيديهم، قام جميع حكام الطوائف دون استثناء بتقديم العون العسكري والتمويني للجيش الإسباني الذي يحاصر المدينة، وقد طلبوا من الفونسو الزعيم الإسباني أن يبقي هذه الأمور سرّاً، ذلك لأن زعماء دول الطوائف حرصوا على أن يظهرُوا أمام أهل طليطلة المنكوبين بمظهر المتعاطف معهم، لكن الزعيم الإسباني قام بفضح كل هذه الأمور، ليؤثر على صمود أهل طليطلة وينزل فيهم مزيداً من اليأس وخيبة الأمل، وكذلك حتى لا يطلبوا منه هدنة للاتصال بزعماء الطوائف لطلب المساعدة، ففي حال موافقتهم على ذلك يتابعون الحرب، أما إذا حصل العكس فسيسلمون له المدينة وهذا ما حصل بالفعل^(١).

لم تقتصر هذه الأعمال على الجانب العربي في المغرب والأندلس، بل ظهرت أعمال مشابهة في بعض الجبهات المعادية، لكنها لم تكن في حجم الأعمال العربية من حيث كميتها وخطورتها. وتشابهت أسباب هذه الأعمال مع أسباب الأعمال العربية، وكان في مقدمتها الصراع على السلطة والحكم.

من هذه الأعمال ما قام به حاكم جزيرة صقلية في مستهل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، الذي ذكرته المصادر العربية أحياناً (فيموس) وأحياناً (فيمي). كان فيموس هذا قد انفرد بحكم جزيرة صقلية بعيداً عن السلطة البيزنطية المركزية، لكن هذا الانفراد لم يبق وقتاً طويلاً، فقد انقلب عليه معاونوه وأبعدوه عن حكم الجزيرة، فتوجه إلى الأغلبية في المغرب الأدنى (تونس الحالية) في عصر زيادة الله الأول الأغلبي^(٢)، وعرض عليه مسألة غزو صقلية وأبدى استعداداه للإسهام في هذا الغزو من خلال تقديم أكثر من مئة سفينة لنقل

(١) - ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص ٨٨. ابن بسلام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ٤ ج ١، طبعة القاهرة ١٩٤٥، ص ١٢٨.

(٢) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، طبعة القاهرة ١٣٥٧، ص ١٥٥.

الجنود. وقد لاقى هذا العرض قبولاً عظيماً عند الحاكم الأغلب، لأسباب هامة تتعلق بأهمية جزيرة صقلية بالنسبة لدولة الأغالبة، وكذلك بالأوضاع الداخلية للأغلبة أنفسهم، فقد كانت أوضاعهم مضطربة إلى حد أثار عندهم كثيراً من القلق والهواجس. فجزيرة صقلية كانت حتى هذا الوقت تشكل أهم القواعد البيزنطية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ذلك لأن بيزنطة كانت ما تزال تحلم بإعادة سيطرتها على المغرب الأدنى وغيره، فقامت بتحسين جزيرة صقلية تحصيناً قوياً، مما ساعدها على تنفيذ العديد من الهجمات البيزنطية ضد المغرب الأدنى من جهة البحر الشرقية وفي الشمال^(١).

أما بخصوص الأوضاع الداخلية للأغلبة، فقد كانت حرجة للغاية بسبب الثورات والتمردات، التي قام بها الجند الأغلب ضد الحكام، فأراد زبادة الله الأغلب أن يمتص نفمة الجنود بتوجيه حملة عسكرية إلى جزيرة صقلية بقصد فتحها وتحريرها من السيطرة البيزنطية. وبالفعل فقد اعتمد على مساعدة فيموس البيزنطي، التي تجسدت كما وعد بتقديم نحو مئة سفينة، نقل على متنها أكثر من عشرة آلاف جندي بقيادة أسد بن الفرات في سنة ٢١٢ هـ/٨٢٨ م، الذي تمكن من السيطرة على منطقة مزارعة في أقصى جنوب غرب جزيرة صقلية، وإلقاء الحصار على عاصمة الجزيرة مدينة سرقوسة، لكن هذا الحصار سيفشل بعد فترة قصيرة، ولن تتمكن القوات الأغلبية من السيطرة على جزيرة صقلية إلا بعد خمسين عاماً من وصول أسد بن الفرات إليها بقيادة إبراهيم بن الأغلب الثاني^(٢).

وفي عصر المرابطين حدث عمل مشابه كان بطله ابن البربرثير، وهو قائد إسباني مسيحي من قواد برشلونة ومن كبار رجال دولته، وقع في أسر قائد البحر المرابطي علي بن ميمون، وأرسله إلى مراكش فاعتنق الإسلام، ولزم

(١) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٠ وما بعدها. المالكي: المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٢) - الإدريسي: المكتبة الصقلية طبعة ١٨٧٥ ص ٢٨ وما بعدها. المالكي: المصدر السابق، ص ١٨٧.

- أحمد توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٧٢ - ٧٣.

خدمة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، فؤاده قيادة الجيش المسيحي المرتزق، الذي خدم تحت لواء المرابطين في محاولاتهم لإخماد ثورة الموحدين، وكان اسم هذا المنصب (قائد الروم). وقد أبلى البربرتيير في قتال الموحدين بمنطقة السوس بلاءً حسناً حتى قتل في إحدى المعارك، التي خاضها ضد الموحدين في سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٩ م. وقد خلف ولداً اسمه علي، اعتنق فيما بعد دعوة الموحدين، وأصبح من كبار رجال دولتهم، وإليه يرجع الفضل في انتزاع جزيرة ميورقة من بني غالية، وقد قتل في إحدى المعارك سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٨ م.

وبالجملة فإن أعمال الخيانة والارتواء في أحضان العدو والعمل لصالحه، تعد من أخطر وأبشع الجرائم التي تقترب في أي مجتمع من المجتمعات، ذلك لأن خطرها لا يقتصر على مجموعة معينة، بل يعم المجتمع برمته. وما حدث بالأندلس بشكل خاص في هذا الميدان، يدل دلالة واضحة على خطورة مثل هذه الأعمال، التي كانت عاملاً مساعداً في كثير من المناسبات لدفع حركة الاسترداد الإسبانية قدماً إلى الأمام على حساب الوجود العربي بالأندلس، وبالمقابل فإن ما فعله المتعاملون البيزنطيون والأسبان من مؤازرة للعرب وغيرها، أدى إلى نتائج إيجابية بالغة الأهمية أتينا على ذكرها بصقلية والمغرب وميورقة.

اليهود في المغرب الكبير

لا يوجد في تاريخ الإنسانية الطويل، أمة كالأمة العربية الإسلامية في حسن معاملة أبنائها العرب للغرباء، الذين عاشوا على أرضها، وشربوا من مائها، وتغذوا بطبيعتها الوفيرة. وبالمقابل فإنه لا يوجد في تاريخ الإنسانية أمة عوملت بقساوة وجفاء ونكران جميل، وتعتمد إلحاق الأذى بها كالأمة العربية، وبخاصة من قبل الغرباء من غير العرب، الذين عاشوا أجمل أيامهم في كنفها، حينما كانت هذه الأمة في أوج مجدها وعنفوانها ورخائها. فهي قد أعطت الحرية كاملة لجميع الفئات البشرية على كل الصعد، أعطتهم حرية الاعتقاد، وحرية العمل، وحرية التعلم والفكر، وحرية التنقل، وحرية التملك والتوريث، وكأنهم مواطنون من أصل عربي، لا فرق بينهم إلا بمقدار ما يقدم أحدهم من عطاء وتضحية وخير، والتاريخ شاهد حي على ذلك عبر العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة.

يتجسد الدليل على هذا الواقع في حياة اليهود على أرض المغرب الكبير في العصور الوسطى موضوع بحثنا. فقد عاش اليهود في ظل دولة مختلفة، كانت تطبق سياسة التسامح التي عمقها بجلاء ووضوح دولة العرب المسلمين بالأندلس، هذه الدولة التي استطاعت بزخمها وجدها واجتهادها، أن تشغل المرتبة الأولى في عالم العصور الوسطى بلا منازع، فهي التي نقلت إسبانيا ومعها أوروبا الغربية برمتها من دياجير الظلام إلى مواطن النور وبحبوحة الحياة. كان ذلك من خلال تمثلها الحقيقي لأهمية المسؤولية التي وجدت نفسها تحملها بكسل أنقالها وأعبائها وصعوباتها التنفيذية، وكذلك من خلال الإيمان الذي زرع في نفوس العرب، هذا الإيمان الذي تجسدت حقيقته في نشر رسالة العرب الخالدة

في العلم والحضارة والبناء، وفوق ذلك نشر رسالتهم الإنسانية، القائمة على تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع الناس دون تمييز في العرق أو الدين وما شابه ذلك.

عاشت في المغرب الكبير مجموعة كبيرة من اليهود عيشة طيبة رحية، تميزت بالهدوء، وتعززت بالثقة والأمان، ذلك لأن العرب ومنهم المغاربة في كل أيام مجدهم، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة، تقوم على أساس المواطنة، أي أنهم مواطنون في دولة واحدة، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة، تطبق موادها على الجميع، بغض النظر عن الجنس واللسون والدين.

في هذا الجو الإيجابي الممتاز، وجد اليهود بيئة صالحة ومناسبة للعيش الكريم، استغلوها لصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال، مستفيدين من جو الحرية العامة، التي تمتعوا بها تحت مظلة الحكم العربي. وهذا يدل على قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة، تجمع بين الحزم واللين وبين العلم والرحمة. وعلى الرغم من ذلك الواقع الإيجابي الطيب، فإن اليهود لم يقدروا للعرب بالمغرب الكبير ولا في غيره هذا الأمر، بل ظلوا على الدوام في خندق المؤامرة والتربص بمصالح العرب، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن اليهودي لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الإنساني، ذلك لأنه ينظر إلى الآخر نظرة استعلاء واستكبار واحتقار، ويرى من جهة أخرى أن من واجب البشرية أن تبقى تحت السيطرة اليهودية العامة.

قبل الحديث بشيء من التفصيل عن ممارسات اليهود ونشاطاتهم فسي المغرب الكبير، فلا بد من التنويه عن وجودهم هناك من ناحية الفترة الزمنية من جهة ومن ناحية انتشارهم في مناطق معينة دون غيرها. أما فيما يتعلق بتاريخ وجود اليهود بالمغرب الكبير، فلن نذهب به بعيداً، لأن في ثنايا ذلك العديد من

الأوهام والأغلاط والآراء، التي لا طائل منها وبالتالي لا يمكن للمرء أن يبلسور حولها فكرة راسخة. وما يمكن ذكره في هذا المقام، هو أن قسماً مهماً من يهود المغرب الكبير، يعود في أصله إلى العهد الروماني، أما القسم الآخر المتبقي من اليهود فهم من أصل أوروبي شرقي ومن أصل خزري، وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا، ولم يندحروا من كنعان وإنما من القوقاز، وإنهم أوثق انتماء وراثياً إلى قبائل الهون والمجر، منهم إلى ذرية إبراهيم واسحق ويعقوب^(١).

من ذلك نستنتج أن اليهود كانوا طائرين على المغرب الكبير، مثلهم في ذلك مثل اليهود في كل مكان، ولم يكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان المغرب الكبير، وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم وتحت سيطرتهم، يقدمون القروض والأتاوات والإغراءات للطبقات الحاكمة، ويبتزون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفرق بين فقير أو غني أو بين محتاج ومتخم، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد وما يتصل بذلك^(٢). ساعد اليهود على القيام بهذه الأعمال، أن العرب المسلمين أعلنوا في المغرب الكبير بعد إتمام عملية فتحه، أعلنوا سياسة واضحة المعالم في حسن معاملة أهل الذمة من اليهود وغيرهم، مما جعلهم يستقرون ويعملون بزخم كبير من الحرية والاطمئنان.

أما من ناحية انتشار اليهود وتوضعهم في المغرب الكبير، فقد حصل على أساس مراعاة المنفعة الاقتصادية اليهودية في المقام الأول، فاختار اليهود تبعاً لذلك أهم المناطق المغربية، التي تتميز بنشاطها الاقتصادي وموقعها المميز على طرق التجارة والأسفار. فقد سكنوا في منطقة برقة بنغازي الليبية اليوم،

(١) - يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، طبعة أولى، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣، ص ٨٧.

(٢) - عمر فروخ: العرب والإسلام في الموض الغربي من البحر المتوسط، طبعة ثالثة ببسروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨١، ص ١٧٩.

وتوضعوا بشكل خاص في المناطق الساحلية، حتى يمارسوا أعمال التجارة، التي اشتهروا بها عبر تاريخهم، فهذه المناطق كانت في العصور الوسطى ممراً هاماً للتجارة إلى مصر وبالعكس، كما سكنوا سرت وطرابلس ولبدة القريبة من طرابلس وفي جبل نفوسة إلى الجنوب الغربي من طرابلس (محافظة الجبل الغربي اليوم)^(١).

وفي تونس سكنوا في عدة مناطق هامة، مثل جربة وقابس على الساحل الشرقي التونسي، وحينما بنيت القيروان سنة ٥٥٥هـ/٦٧٥م، سكنها اليهود بأعداد كبيرة، ومارسوا فيها طقوسهم الدينية وأعمالهم الاقتصادية والمعاشية بحرية كبيرة^(٢). ولما سيطر الفاطميون على المغرب الكبير، بنوا عاصمة لهم على الساحل الشرقي التونسي، ولما كانت معاملة الفاطميين لليهود معاملة ممتازة، تشجعوا على الاستقرار بالعاصمة الفاطمية الجديدة، التي عرفت باسم المهديسة، ذلك لأنها أصبحت من أهم الموانئ التونسية، التي مارس فيها اليهود أعمال التجارة الداخلية والخارجية^(٣).

وفي المغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، غلب الوجود اليهودي في المدن الساحلية التجارية الهامة، مثل مدينة تنس التي بناها الأندلسيون في سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م، والتي أصبحت من أهم الموانئ التجارية المغربية مع بلدان الشرق والغرب^(٤)، وبناء هذه المدينة شاهد أكيد على التعاون التجاري الكبير بين الأندلس والمغرب الكبير في عصر الإمارة والخلافة الأموية. وحينما أقام الخوارج الإباضية عاصمة دولتهم تاهرت، التي أقيمت في منطقة هامة على طريق تجارة الذهب والمعادن الأخرى الثمينة، بادر اليهود إلى الاستقرار فيها،

(١) - محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٧٦، ص ١٣٦ وما بعدها.

(٢) - لليحقوي: البلدان ص ٣٤٧. النباغ: معالم الإيمان ج ١ ص ٥٥.

(٣) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٣ وما بعدها.

(٤) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٨.

وعملوا بصورة خاصة بالتجارة التي كانت عماد الاقتصاد في الدولة الإباضية^(٥). هذا وقد سكن اليهود في مناطق أخرى متفرقة مثل أشير وقلعة بني حماد وتلمسان وورقلة في الصحراء الجزائرية، وكلها كانت من المراكز التجارية المتميزة، ولا سيما ورقلة التي كانت أهم محطات التجارة بين غرب إفريقيا والمغرب الأوسط.

أما في المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليسوم) فقد كان الوجود اليهودي أكثر انتشاراً من بقية الأقطار المغربية الأخرى، وهذا يعود إلى الموقع القريب للمغرب الأقصى من البلدان الأوروبية، فهذا الموقع القريب يساعد على عملية الانتقال بين أوروبا وسائر أقطار المغرب الكبير، فقد كان اليهود يلجؤون إلى المغرب الأقصى في أيام المحسن، حينما كانوا يتعرضون للاضطهاد الأوروبي، الذي حصل بسبب مواقفهم العنصرية الدينية من الأوروبيين، فكانت سبباً أهم المدن المغربية، التي استوطنها اليهود بسبب موقعها الهام في شمال شرق المغرب الأقصى، وكذلك بسبب قربها من أوروبا مما جعلها من أهم الموانئ التي تتصل بالقارة الأوروبية عن طريق إسبانيا^(٦). كما نزل اليهود في مدينة فاس بكثافة لافتة، لأهمية موقع هذه المدينة من الناحية السياسية والاقتصادية^(٧)، وكذلك كان الأمر بسجلماسة ودرعة لوقوعهما على طريق تجارة الذهب والمعادن الثمينة، فقد شغل اليهود دوراً هاماً في هذه التجارة^(٨). هذا وقد كانت جاليات يهودية متفرقة بمدن أغمات ومراكش وبعض التجمعات الصحراوية.

(٥) - البكري: المغرب، ص ٦٧ وما بعدها.

(٦) - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٣١. السلاوي: الاستقصا، ج ١، ص ١٥٠.

(٧) - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٥.

(٨) - اليعقوبي: البلدان، ص ٣٥٩.

وقد ترافق الوجود اليهودي بالمغرب الكبير بمعاملة طيبة من حكام الدول، التي قامت على التوالي في العصور الوسطى، وهي دول كثيرة حرصت برمتها على إحاطة نفسها بهالة من العظمة والسمعة الجيدة، فتعاملت مع أهل الذمة وغيرهم على أساس من الاحترام المتبادل، وكان اليهود في طليعة من استفاد من هذه المعاملة، فقد عاملهم الأغلبية بتونس معاملة طيبة إلى درجة أنهم كانوا يعتمدون في كثير من الأحيان على أطباء يهود^(١). وفي ظل الدولة الفاطمية وجد اليهود الكثير من الفرص الإيجابية المتاحة، فاستغلوها أحسن استغلال لصالحهم العام، فسمح لهم على سبيل المثال ببناء بعض المدارس الخاصة بهم بمدينة القيروان، كما سمح لهم بالتقاضي بالاعتماد على تعاليمهم وشرائعهم، وكانوا قريبين من الخلفاء الفاطميين أصحاب القرار، ولاسيما الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، الذي اعتمد على عدد من أطبائهم^(٢). وكذلك كان الأمر في ظل الدولة الإباضية بـتاهرت، التي اشتهر اليهود فيها في الميدان التجاري مع غسرب إفريقية من جهة ومع الأندلس وأوروبا من جهة أخرى. ومثل تاهرت كانت مدينة فاس في ظل دولة الأدارسة، هذه الدولة التي سمحت لليهود بالإقامة والعمل بحرية كبيرة، واشتهر اليهود بمدينة فاس في الحقل التجاري، وأصبحوا من الأغنياء وأصحاب الثروات فيها^(٣). وعلى الرغم من التشدد الذي تميزت به دولة الخوارج الصفيرية بسجلماسة بجنوب المغرب الأقصى، فإن وضع اليهود بسجلماسة عاصمة هذه الدولة، كان وضعاً إيجابياً متميزاً، يدل على ذلك دور اليهود في تجارة هذه الدولة، التي كانت في العصور الوسطى من أهم الدول المغربية التجارية، ذلك لأنها كانت تشكل بوابة تجارة الذهب، مما جعلها من

(١) - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٥٨.

(٢) - ابن خلدون: المعيار، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٣) - ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٧٧.

أغنى دول المنطقة على الإطلاق، وكان اليهود من أول المستفيدين من هذا الجو الإيجابي^(١).

ويمكن تلخيص ما حدث لليهود بالمغرب الكبير، بأنهم تمتعوا بحرية الإقامة والانتقال في كل المناطق المغربية منذ الفتح العربي، وازداد استقرارهم تدعياً وقوة في عصر الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، كدولة الأغالية بتونس بالمغرب الأدنى، ودولة الإباضيين بتاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ودولة الخوارج الصفرية بسجلماسة بالمغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم)، وفي هذه المناطق باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه، وبخاصة التجارة التي نشطت بصورة لافتة في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بين مناطق المغرب الكبير وإفريقية من جهة، وبين الأندلس والمغرب الكبير من جهة ثانية، ولا سيما تجارة الذهب، التي اشتهر بها اليهود وعرفوا أسرار نجاحها وطرقها المربحة. وهذا الذي حصل برمته، يدل دلالة واضحة على التسامح العربي الإسلامي مع الجاليات غير العربية وغير الإسلامية على الرغم من الموقف المعادي والمتربص للدعوة الإسلامية والفتح العربي، الذي تمثل في أوضح صورة بموقف الكاهنة دميأ أو دهيأ، التي كانت تنزع قبيلة جراوة اليهودية في جبال الأوراس بالجزائر، وقد استطاعت هذه الكاهنة أن تهزم الجيش العربي بقيادة حسان بن النعمان الغساني هزيمة منكرة، بعد أن قتل عدد كبير من جيشه ووقع عدد آخر في الأسر، كما وقفوا ضد الأدارسة عند توسعهم في المغرب الأقصى، وبخاصة اليهود الذين كانوا يستوطنون منطقة ماسة جنوب مدينة فاس، لكن الأدارسة نجحوا في إخضاعهم لحكمهم وسيطرتهم^(٢).

(١) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٣.

(٢) - ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٨٥.

أما بخصوص أعدادهم في المغرب الكبير، فقط كانت كبيرة إلى حد ما، يدل على ذلك أن أعدادهم كانت أكثر من أعداد المسحيين، فقد فرض إدريس الثاني الجزية على يهود فاس فكان مبلغ جزيئهم في كل سنة ثلاثين ألفاً. وينكر ابن حوقل في حديثه عن عدد من المناطق الفاطمية، أن السلطة الفاطمية كانت تجبي ضريبة هامة تسمى (الجوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها، التي كانت تفرض على غير المسلمين^(٢).

هذا وقد شغل اليهود أدواراً هامة في الحياة العامة بالمغرب الكبير في العصور الوسطى، وللقوف على واقع هذه الأدوار، فلابد من دراسة كل منها بصورة مستقلة عن الآخر. ففي ميدان الإدارة يمكن أن نقول أنه حتى نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، لم يكن هناك وجود لليهود في ميدان الإدارة العامة بالمغرب الكبير، وإن وجد استثناء لذلك فهو نادر جداً، وربما يعود سبب ذلك إلى قوة الوجود العربي على هذا الصعيد فقد كانت الكوادر العربية متوافرة بصورة كافية. أما بعد القرن الثاني الهجري، فلم تتغير الحال كثيراً وبقي اليهود بعيدين إلى حد كبير عن المناصب الإدارية العليا^(٣).

وفي الميدان السياسي برهن اليهود، أنهم مع الجهة القوية والمسيطر، ففي عصر القوة كانوا دوماً مع العرب، أما حينما كان العرب يسطعون فإن اليهود، كانوا يتوجهون إلى الجهة المعادية للعرب، ويعود السبب في ذلك، إلى أن اليهود كانوا يجدون أن ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، التي كانوا ومازالوا يعرفون سبل تحقيقها وتحصيلها.

(٢) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٠.

(٣) - يستثنى من ذلك بعض الشخصيات اليهودية التي شغلت منصب الوزارة لفترة قصيرة في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى.

أما في الفترة التي شغلها المرابطون والموحدون بالمغرب الكبير فقد تغيرت أحوال اليهود إلى حد ما، فقد تميز الحكم المرابطي بخضوعه شبه المطلق إلى مشيئة وهيمنة رجال الدين، وقد أدى هذا الخضوع إلى توجيه المرابطين لمحاربة كل الذين لا يدينون بالدين الإسلامي، بعكس ما كان يجري في الفترات السابقة، حينما كان المحرك العام للسياسة الخارجية والداخلية، هو الحرص على مصلحة الدولة العربية، التي استطاعت بقدرتها المختلفة استيعاب جميع الناس دون الاعتماد على الدين، ودليل ذلك أن العرب تركوا الحرية لغير المسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية.

أدت سيطرة رجال الدين على القرار المرابطي إلى يقظة الحمية الدينية، هذه الحمية التي قادت إلى التخلي عن التنازلات الكثيرة ومخالفة الشرع^(١). وظهر على أثر ذلك تضيق مرابطي كبير على اليهود في المغرب الكبير، ذلك لأن الوجود اليهودي، كان كثيفاً على حاضرتين مغربيتين هما أغمات وسجلماسة الواقعتين في جنوب المغرب الأقصى، لأنهما كانتا كما ذكرنا سابقاً مسن أهم المحطات على طريق تجارة الذهب. وقد عكف يوسف بن تاشفين المرابطي على ممارسة التضيق على اليهود، وكان من أشد مظاهر هذا التضيق، أن أمرهم باعتناق الإسلام، على الرغم من أن ذلك مخالف لتعاليم الشريعة الإسلامية، لكن اليهود قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، فقد حاولوا دفع مبالغ مالية كبيرة مقابل إعفائهم من مسألة اعتناق الإسلام^(٢).

وفي عصر الموحدين بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً بل كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، ذلك لأن الموحدين لا يختلفون عن

(١) - الشرع الإسلامي يوصي خيراً بأهل الذمة من يهود ومسيحيين، لكن الفقهاء في عصر المرابطين، لم يأخذوا بهذه المسألة بل تناسوها تماماً حينما استطاعوا إقناع حكام المرابطين بالضغط على اليهود والتضيق عليهم في حياتهم العامة.

(٢) - مؤلف مجهول: الحال الموشية، ص ٦٥ وما بعدها.

المرابطين في مسألة حشد العقيدة الدينية في قضايا الحكم، التي كانت توجه في أوقات كثيرة من قبل رجال الدين، الذين كانوا يرون عدم التسامح مع غير المسلمين خير وسيلة لتدعيم مكانتهم عند الحكام، على الرغم من أنهم لا يملكون أية وثيقة شرعية، يعتمدون عليها في هذه المسألة الحساسة، لذلك كثيراً ما كانوا يلجؤون إلى اختلاق فتاوى، يقنعون حکامهم بها بوجه أو بأخر، من ذلك على سبيل المثال ما حدث في عصر أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في أواخر أيامه، حينما أمر بتميز اليهود بالمغرب الكبير بلباس خاص بهم، وكان هذا اللباس يتكون من ثياب ذات لون كحلي وأكمام مفرطة الاتساع، تصل إلى هريب من أقدامهم، وبدلاً من العمامات أمرهم بلبس كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تصل إلى تحت آذانهم على غرار ما كان يجري في المشرق العربي في عصر المماليك، الذين كانوا يتظاهرون بطاعة رجال الدين تمشياً معهم لاستغلال ذلك في تثبيت حكمهم وتبريره من الناحية الدينية. وقد شاع هذا الزي بين كل اليهود في المغرب الكبير، ولم يزلوا كذلك بقية أيام أبي يوسف يعقوب وقسماً من أيام ابنه أبي عبد الله إلى أن قام أبو عبد الله هذا بإلغائه، بعد أن توسل إليه اليهود بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم، فأسأجرهم أبو عبد الله على ارتداء ثياب وعمائم ذات لون أصفر، وظلوا كذلك حتى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٥م.

وكان الذي حمل حکام الموحدين سابق الذكر على هذا التصرف غير السليم، هو شكوكهم في مسألة صدق إسلام اليهود، فقد أثر عن الخليفة أبي يوسف يعقوب قوله حول ذلك: ((لو صح عندي إسلامهم لتتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم. ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت نرايهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين، ولكنني متردد في أمرهم، ولم تتعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قيام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد

المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة، إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد، ويقرئون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم))^(١).

كان لهذه النظرة الموحدية تجاه اليهود في المغرب الكبير ردة فعل سلبية ضد الدولة العربية هناك، ذلك لأن اليهود كما هو معروف في كل زمان ومكان، لا يسكتون لأحد من غير دينهم سواء حاربهم أم لم يحاربهم، لأنهم متعصبون دينياً يعتمدون على تعاليم تلمودية متطرفة وعنصرية، فهي تعاليم ترى تفوق اليهود على كل الناس في شرق الدنيا وغربها. ففي العصر الموحدى اضطر اليهود إلى اعتناق الإسلام بالإكراه والتهديد بالقتل، مما أثار حقدهم بشكل كبير ضد الموحدين، وكان من نتيجة ذلك أن بقي اليهود في حالة انتظار لحين قدوم الفرصة المناسبة للانقضاض على مصالح العرب المسلمين للانتقام والتشفي.

وهكذا فقد عومل اليهود في العصر الموحدى معاملة قاسية، نتيجة جهل الموحدين بالمهمة الحضارية السامية، التي أخذ العرب أمر تنفيذها على عاتقهم منذ قديم الزمان، وتجلى ذلك بشكل أوضح بعد انتهاء عمليات الفتح العربي في الشرق والغرب. فبدلاً من استقطاب اليهود إلى جانب العرب بأي شكل من الأشكال، كما حدث في العصور السابقة، قام الموحدون بتهديم دور عباداتهم، وإحراق كتبهم العبرية، ومنعهم من الاحتفال بالأعياد اليهودية والالتزام بالعطلات أيام السبت^(٢).

لقد كانت المعاملة العربية لليهود قبل المرابطين والموحدين معاملة طيبة، عكست بشكل كبير تعاليم الإسلام حول هذه المسألة الحساسة، فقد أعلن العرب

(١) - الونشريسي: المعيار ج ٢، ص ٢٥٤ وما بعدها. الطرطوشي: سراج الملوك، ص ٢٥٣.

(٢) - ج. ف. ب. هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى - ترجمة أمين توفيق الطيبي، طبعة ليبيا وثونس، الدار العربية للكتاب ١٩٨٠، ص ١٢٣.

المسلمون حالة عظيمة من التسامح العام مع اليهود، ففي عصر الأدارسة بالمغرب الأقصى، تجمع في مدينة فاس عاصمة الدولة الإدريسية عدد كبير من اليهود، حتى قال عنها البكري: (فاس بلا ناس) أي دون مسلمين^(٢). وما جرى في عصر الأدارسة تكرر في عصر الدول الأخرى في سائر المغرب الكبير، وذلك انطلاقاً من نظرة العرب الإنسانية الرائعة، وهي نظرة تقوم على قاعدة عدم التفريق بين الناس، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة، وهي نظرة تقوم أيضاً على قاعدة استيعاب القوي للضعيف، أو بالأحرى استيعاب الأمم المتحضرة لغيرها من الأمم الأخرى، وهذا ما طبقه العرب حينما كانوا يحملون راية قيادة العالم من خلال العلم والخلق الكريم والمعاملة الطيبة.

ففي عصر الفاطميين بالمغرب الكبير، تمتع اليهود بحرية كبيرة في ممارسة أعمالهم، مما ساعدهم للوصول إلى مراتب إدارية عالية في الدولة، شغلوها وهم مطمئنون من ثقة الحكام الفاطميين بهم، نضرب على ذلك مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي، الذي دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م، وقد اعتمد عليه إلى عز في أمور خطيرة جداً، منها أنه امتثل لمشورته ورأيه وتشجيعه للهجوم على مصر^(١).

وكان المعز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل بن شفاطيا، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز، ولأسيما تلك التي كان يراها تبشر بالخير، مثال ذلك حينما كانت قوة المعز تحاصر منطقة أوربا ORIE بجنوب إيطاليا، بشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات

(٢) ... ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٥، البكري: المغرب، ص ١١.

(١) ... ولتر. ج. فهدل، يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، للترجمة العربية طبعة بيروت، ١٩٨٨، ص ٩٤ و ٩٥.

في أعمالها الحربية، فاعتمده مستشاراً خاصاً به ووزيراً لمملكته في المغرب الكبير عند إقامته بمدينة القيروان، وكذلك بعد انتقاله إلى القاهرة^(٢).

وفي عصر دولة بني مرين، التي قامت في المغرب الأقصى على أنقاض دولة الموحدين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، اشتهر كثير من اليهود، الذين كانوا يعيشون بمدينة قاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني، ولاسيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حله وترحاله، ويقومون بخدمته من طفولته، وكانوا يتولون إدارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره، ويجالسونه في خلواته، وينادونه في ساعات أزمه ولهوه، وهكذا عظم جاههم عند الحاشية المرينية لإقبال سلاطينهم عليهم، واستتبعوا الوزراء، فمن دونهم من رجال الدولة، وتعدد فيهم الرؤساء والمسؤولون، فكان منهم خليفة بن وقاص وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم. واستمروا على ذلك برهة من الزمن، ثم أن السلطان يوسف استفاق إلى ما هو فيه من حالة الاعتماد عليهم، فراجع بصيرته في شأنهم، فأهمه أمرهم، وشعر كاتبه بذلك، اللقائم بأمر دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم، واعتقلوا سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م، وقتل خليفته الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وأخوته وحاشيتهم وأقاربهم^(٣).

فما سبب قيام المرينين بهذه التصفيات، التي لم تتوضح أسبابها الحقيقية؟ يمكن أن نستنتج من بعض العبارات، أنه لم يكن يقصد من قتلهم على هذه الطريقة مصلحة البلاد، كأن يكون قد انطلق من أنهم اعتدوا على حرمة من حرمتها أو غير ذلك على سبيل المثال، ذلك لأن المرينين وأمثالهم من

(٢) ... للناصري: الاستقصا، ج ٣، ص ٨٠ وما بعدها.

(٣) ... للناصري: الاستقصا، ج ٣، ص ٩٩.

الانفصاليين، الذين مزقوا وحدة الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام، وأنشؤوا دويلات هزيلة على أساس قبلي وعائلي، لم يكونوا يفكرون بأدنى مصلحة لشعوبهم وبلدانهم، وإلا لما كانوا أنشؤوا هذه الدويلات، ومزقوا وحدة البلاد، التي حافظ عليها المرابطون والموحدون مع الأندلس لفترة طويلة من الزمن، وحقيقة الأمر أن قتل هؤلاء اليهود، كان إرضاء لأمزجة متقلبة، كثيراً ما كان أصحابها بعيدين عن الحقيقة والموضوعية.

ولما مات الخليفة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، خلفه أبو الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين، كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصصة اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت بسعاية أبي محمد بن أبي مدين، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من الموت، وتمكن من استلام بعض أعمال السلطان أبي الربيع، فجعل محور عمله التآمر على أبي مدين والانتقام منه، فبلغ السلطان بأن أبا مدين قام بإفشاء بعض خصوصيات السلطان، ولاسيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، وفوق ذلك فهو يدعي باتهام السلطان بابنيه، وصدقه السلطان فأمر بقتل أبي مدين، ولم تمض فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وقاصصة وحاشيته فقتلوه جميعاً^(١).

هذا وكانت الظروف السياسية في بعض الأحيان، تؤدي دورها في مسألة وصول بعض الشخصيات اليهودية إلى مناصب رفيعة عند بني مرين في المغرب الأقصى. فلما قتل السلطان عبد الحق المريني وزيره يحيى بن يحيى اللوطاسي وحاشيته، علم أن هذه الفعلة أثارت حفيظة وحنق أهل فاس. وحتى ينتقم منهم عين على وزارته اليهوديين هارون وشاويل، تأديباً لهم وتشفياً منهم، فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، مستغلين

(١) - للتأصلي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٨.

بذلك غضب وحنق الحاكم المريني على أهل المدينة، وهو أمر غير مستغرب في مسيرة حياة اليهود في كل مكان على وجه الأرض، فصاروا يشددون الحصار من كل نوع على المدينة، فتحكموا في الأشراف والفقهاء، وكان اليهودي هارون قد ولي على شرطته رجلاً يقال له: الحسين، لا يألو جهداً في العسف واستلاب الأموال وظلم الناس، كان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع الهجري في أواخره / الخامس عشر الميلادي^(٢).

وحدث أن قام الوزير اليهودي بضرب امرأة من الأشراف بمدينة فاس ضرباً مبرحاً، فجعلت تتوسل برسول الله (ﷺ) فزاد في عقابها، فانتقل خبر ذلك إلى أعيان مدينة فاس، فاجتمعوا عند خطيب جامع القرويين أبي فارس عبد العزيز بن موسى الوريكلي، وكان شجاعاً صلباً في مواقف الحق وقالوا له: (ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين، والعبت بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت) فأغراهم بالفتك باليهود، وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد، فأجابوه إلى ذلك، وبسابعوا الشريف المذكور، ثم تقدم الوريكلي بهم إلى حارة اليهود بمدينة فاس، فقتلوه واستلبوهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائباً في بعض نواحي المغرب الأقصى، ولما سمع عاد مسرعاً إلى فاس، واضطرب عليه أمر الجند، ولما اقترب من فاس استشار هارون اليهودي فيما نزل به، فقال اليهودي له: (لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها، وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون، لأنها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا وحينئذ يظهر لنا لما يكون) فما أكمل اليهودي كلامه حتى ضربه بالرمح رجل من بني مرين وعبد الحق ينظر وقال: (وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم) ثم تعاورته الرماح من كل جانب فخر صريعاً، واقتيد إلى أن بلغ عين القوانس خارج مدينة فاس، فانتزعوا منه خاتم الملك، وضربت

(٢) - الفاصري: الاستقصا، ج ٣، ص ٩٩.

عنه سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٥ م، وانقرضت بمهالكه دولة بني عبد الحق بالمغرب^(١).

أما في تونس (إفريقية) التي استقلت تحت حكم الحفصيين بعد انهيار دولة الموحدين، فقد استعاد اليهود حياتهم بصورة تكاد تكون طبيعية وخالية من الخوف على أنفسهم وممتلكاتهم، بعد موجة من العنف عمت عصر الموحدين. وقد تمكن كثير من اليهود الذين اعتنقوا الدين الإسلامي من العودة إلى دينهم الأول، وبدأت الأماكن الدينية اليهودية تفتح أبوابها بالتدريج^(٢). وقد بدأت بالإضافة لذلك جميع المدن الواقعة على ساحل إفريقية، تستقبل اليهود من جديد. وعلى الرغم من هذا الجو المريح لليهود إذا ما قورن في عصر الموحدين، الذي وصل إلى حد كبير من القسوة والاحتقار، فإن الحفصيين في تونس ساروا على نهج الموحدين في مسألة تمييز اليهود عن المسلمين، فمنذ سنة ٦٨٤ هـ/١٢٥٠ م قام المستنصر الحفصي بتجديد النظم، التي تميز اليهود، فظهرت من جديد عبارة الشكلة^(٣)، التي كانت تميز اليهود في عصر الموحدين. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي خصص يهود تونس لباس خاص، يختلف عن لباس المسلمين، فكانوا يضعون خرقة من القماش الأصفر على رؤوسهم أو في رقابهم^(٤).

ومن الجدير ذكره في هذا المقام، أن اليهود لم يتقلدوا في الدولة الحفصية مناصب سياسية رفيعة المستوى، كما حصل في المغرب الأقصى في بني مرين المعاصرين للحفصيين، ولكن مقابل ذلك لم تشهد تونس تلك الاضطرابات المعادية لليهود وتلك الحملات الانتقامية، التي اندلعت بمدينة فاس وأسفرت عن

(١) - الناصري: الاستقصا، ج ٤، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) - رحلة إلى شمال إفريقية، ص ١٩٦ وما بعدها.

(٣) - تاريخ الدولتين، ص ٢٥ وما بعدها.

(٤) - الوثائقي: المعيار، ج ٢، ص ١٨٣.

عدة ضحايا في بداية ونهاية دولة بني مرين. ومن المفيد أن نشير إلى أن المفتي التونسي محمد الرصاع في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، استغنى حول وضع اليهود، فأفتى بمزيد من التسامح والاعتدال تجاههم^(٣).

وعلى الرغم من انحطاط الخلق اليهودي بشكل عام، فإن بعض التصرفات الشائنة، التي كانت تصدر عن بعض اليهود بتونس وغيرها، إنما كانت نتيجة للضغط، الذي كان المسلمون يمارسونه على اليهود بتأثير بعض رجال الدين المتعصبين، الذين خضعوا لمشاعرهم وعواطفهم غير المروضة، ونسوا تعاليم الإسلام الصريحة، التي تؤكد على حماية واحترام أهل الذمة من يهود وغيرهم، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله، أن النقائص المنسوبة إلى اليهود ناتجة عن الاضطهاد، الذي كانوا يتعرضون له.

أما شهرة اليهود في المغرب الكبير، فتعود في المقام الأول إلى اشتغالهم في الميدان الاقتصادي من تجارة وصناعة وزراعة، ساعدتهم على ذلك هامش الحرية الكبير، الذي أهدي إليهم من الحكام تطبيقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية في شأن أهل الذمة، فعاشوا تحت المظلة العربية عيشة طيبة هائلة، لم يسبق لهم أن عاشوا مثلها في أي مكان في العالم، أقاموا فيه عبر القرون الطويلة. فعملوا في التجارة والصناعة والزراعة دون قيود أو ضغوط، هذا بالإضافة إلى أن المغرب الكبير كان يمتلك خبرة متقدمة في أساليب الزراعة والتجارة والصناعة، وذلك بحكم اتصاله الوطيد مع المشرق العربي والأندلس، وهي بلدان كانت في العصور الوسطى متقدمة في المجال الاقتصادي العام.

تفوق اليهود في الأعمال التجارية على وجه الخصوص بالمغرب الكبير، فلم يتركوا وسيلة من الوسائل التي كانت تدر الأرباح وتجلب المال، إلا واستخدموها بغض النظر عن أية اعتبارات إنسانية أو أخلاقية، فكانت لهم في

(٣) - مقدمة ابن خلدون، ص ٢٩١.

معظم مدن المغرب الكبير حوانيتهم الخاصة، التي كانت تمثل كل أنواع البضائع والحاجات. ومن اللافت للانتباه أن اليهود في المغرب الكبير كانت تجارتهم مزدهرة، ذلك لأنهم اشتغلوا في تجارة العبيد والرق، وهي تجارة كانت مربحة إلى حد كبير^(١)، وكانت محاور هذه التجارة بين المغرب الكبير والأندلس، ومنهما إلى بقية البلدان المجاورة التي تقبل على استيراد العبيد، السذين كانوا يربون تربية خاصة على أيدي معلمين من اليهود قبل بيعهم^(٢).

من جهة أخرى شغل اليهود دوراً كبيراً في مجال التجارة الخارجية، فمعظم المواد التجارية التي كانت تأتي من مصر وغيرها إلى المغرب الكبير، كان ينقلها اليهود الذين امتلكوا بمرور الزمن وكالات خاصة مهمتها تصدير المواد، التي يمكن أن تروج بسرعة في السوق المغربية والأندلسية، ذلك لأن اليهود لم يكونوا يقتصرون على السوق المغربية، بل كثيراً ما اتصلوا بالأندلس عن طريق اليهود هناك، الذين اشتهروا على صعيد التجارة وبشكل لافت^(٣).

كما اشتهر اليهود في دورهم الكبير في عمليات التجارة، التي كانت تجري باستمرار بين غرب إفريقية وبين المغرب الكبير والأندلس وبقية بلدان أوروبا والمشرق، فقد كان لليهود وجودهم الكبير في أهم محطات التجارة المغربية، وبخاصة في سجلماسة بجنوب المملكة المغربية، وفي تاهرت بالجزائر، وبالقيروان والمهدية بتونس، وبغيرها من الحواضر القريبة من خطوط التجارة المزدهرة. وكان من نتيجة هذا الدور أن تكدست الأموال في أيدي الجالية اليهودية في المغرب الكبير^(٤) مما ساعد العديد من أفراد هذه الجالية، أن يفتحوا وكالات خاصة، وهي أمكنة واسعة تصلح لتخزين كميات كبيرة من السلع

(١) - المغربي: نفح الطيب، ج ١، ص ٧١.

(٢) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٩٥.

(٣) - جواثيان: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٦٩ وما بعدها.

(٤) - ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص ١٠٩ وما بعدها. نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٣٠٩.

التجارية، وقد انتشرت هذه الوكالات بمدن سجلماسة وتاهرت والقيروان وفاس، وبالقاهرة بعد انتقال الفاطميين إلى مصر، ذلك لأن اليهود تمتعوا بحريات كبيرة في عصر الفاطميين بالمغرب الكبير ومصر على حد سواء^(٣).

ولم يتورع اليهود بالمغرب الكبير عن استخدام أية وسيلة، كانوا يأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، ذلك لأن اليهود لا يأبهون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى لو أنها جاءت على حساب غيرهم من فقراء الناس. من هذه الوسائل التي ما زالت تستهويهم، مسألة إقراض المال مقابل الاحتفاظ برهائن معينة، لا يعيدونها إذا لم يسترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهائن، وكانوا إضافة لذلك يقومون بإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقابل فوائد مختلفة^(٤)، وقد جلبت هذه الوسائل القبيحة الكراهية المطلقة لليهود في المغرب الكبير وفي غيره، وتحولت هذه الكراهية إلى عدااء قومي استمر حتى الوقت الحاضر.

وهكذا فإنه يتبين بوضوح، أن الدور الذي شغله اليهود في الميدان التجاري بالمغرب الكبير، لم يكن في يوم من الأيام لصالح الطرف المغربي بقدر ما كان للصالح اليهودي العام، وهو أمر طبيعي في الحياة اليهودية. فقد سيطرت محبة العمل في التجارة على كل اليهود، ولم تقف في وجه ذلك أية موانع أو عقبات مثبتة، فعلى الرغم من مكانة ابن ميمون السياسية والاجتماعية والدينية عند اليهود، فإنه اشتغل في كثير من الأوقات بالمتاجرة بالأحجار الكريمة^(٥).

أما في مجال الزراعة فإننا نفتقر إلى وجود الوثائق والمعلومات، النسبي تؤكد مشاركة اليهود في ميدان الزراعة، لكننا من جهة أخرى نستطيع القول أن

(٣) - واتيان: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢٨١.

(٤) - انظر الحال السندمية، ج ١، ص ٤٠٥ وما بعدها.

(٥) - أنخل جنتالث بالثفا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٩٨.

اليهود بالمغرب الكبير الذين كانوا يشكلون جزءاً هاماً من عدد السكان، لا ينفردون بمزايا خاصة تميزهم عن بقية السكان، فلا بد والجال هذا أن يكونوا قد عملوا في الزراعة كبقية السكان، لأنه ليس في تاريخهم العام ما يشير إلى أنهم امتنعوا عن العمل في هذا المجال^(٢). يضاف إلى ذلك أنهم امتلكوا الأراضي الزراعية في عدد من المناطق المغربية، كما اعتنوا بتربية الماشية كمصدر هام من مصادر الثروة^(٣).

وما ينطبق على الزراعة فإنه ينطبق على الصناعة تماماً، فقد افتقرت المصادر بصورة عامة إلى وجود معلومات حول مشاركة اليهود في الصناعة المغربية بشكل واضح ومباشر، ومع ذلك فإن بعض الإشارات المتفرقة، تشير إلى مشاركة اليهود في عدد من الصناعات بالمغرب الكبير، وبخاصة صناعة الذهب التي تمتاز برواجها ومكاسبها الكبيرة، وكان من أهم المناطق المغربية التي تعنى بهذه الصناعة هي سجلماسة ودرعة، كما اهتموا بصناعة الفضة التي تلي صناعة الذهب^(١). وفي المغرب الأقصى اشتهر اليهود بصناعة النحاس وبخاصة في منطقة تادلا وبمدينة فاس، كما عملوا في صناعة وصباغة الملابس بمدينة فاس^(٢)، وربما عملوا في صناعة الحير بمدينة قابس بتونس^(٣)، وبصباغة الجلود ببرقة وبتلمسان وبقابس ويفاس وبأغمت وبغيرها^(٤)، وبصناعة الخمور والدواء ولكن على نطاق ضيق بالنسبة للدواء، حيث تعرف بعضهم على خواص

(٢) - الجنحاني: نظام ملكية الأرض الزراعية في المغرب، ص ٢٥.

(٣) - موريس لومبارد: الإسلام في مجده الأول، ص ١٤٩.

(١) - المقنمي: أحسن التقاسيم، ص ٢٣١. مجهول: الاستبصار، ص ٢٠٤.

(٢) - الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٣٤١.

(٣) - الجزنائي: زهرة الأس، ص ٣٣ وما بعدها.

(٤) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٢.

بعض الأعشاب الدوائية والعلاجية، بواسطة من أمتهنوا منهم حرفة الطب والصيدلة وهم قليل جداً.

وبالجملة فقد شغل اليهود دوراً لافتاً في الحياة الاقتصادية المغربية في العصور الوسطى، ذلك لأنهم كانوا مضطرين للعمل في هذا الميدان، لأن عملهم في شؤون الإدارة العامة والسياسة لم يكن مأموناً على الدوام، فعملوا كما رأينا بصناعة الذهب والفضة بشكل خاص، وتعاملوا التجارة على نطاق واسع، وبخاصة بين أقطار المغرب الكبير وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا وبين غرب إفريقيا، حيث راجت تجارة سلع مختلفة فكان اليهود وغيرهم من التجار العرب، يصدرون إلى البلدان المذكورة الجلود والحريير والقرنفل والزعفران والأقمشة والملح والشمع، ويستوردون بضائع أهمها الذهب والفضة من غرب إفريقيا، وبعض البضائع المتفرقة من دول أوروبا.

أما في مجال الحياة الاجتماعية، فقد شغل اليهود دوراً ارتبط ارتباطاً مباشراً بمصالحهم ورغباتهم الخاصة، مستفيدين من جو التسامح العربي، الذي مكنهم من تنفيذ كل ما استطاعوا تنفيذه. ففي ميدان العلم والدراسات، يندسني أن نشير أن اليهود استفادوا من موارد الثقافة العربية بصورة مباشرة، وسخروا ذلك في طريق تكوين دراسات يهودية خاصة بهم، كما حدث لأبناء عمومتهم بالأندلس المجاورة^(١).

فعلى الرغم من معاملة اليهود بقساوة إلى حد ما في العصر الموحيدي، فقد كانت المعاهد المغربية في مراكش وفاس وتونس، تضاهي تقريباً معاهد

(١) - بدأت نواة دراسات يهودية بمدينة قرطبة على يد أبي يوسف حسداي بن شيروط، الذي شغل منصب الوزارة في عصر الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله، وكان حسداي بن شيروط يقدم الدعم الممتنع للمدرسة اليهودية التي يشرف على إدارتها موسى بن جافوك، التي تخرج منها أدباء يهود مثل مناحيم بن سروق الطرطوشي، ودكاش بن لبراط وغيرهما، ممن افتتحوا عصر الازدهار للشعر العبري، الذي تأثر تأثراً كبيراً بالشعر العربي (أنخل ثالث بالتثنية تاريخ الفكر الأندلسي: ص ٤٩٨).

الأندلس في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية في ازدهارها وشهرتها العلمية، وكان في هذه المعاهد بعض العلماء اليهود، الذين تميزوا بثقافتهم العربية الواسعة، ذلك لأن الثقافة العربية في العصور الوسطى، كانت الثقافة العالمية الوحيدة، مما جعل اليهود وغيرهم يقبلون عليها.

ومع ذلك فقد كان اليهود، لا يتورعون عن نشر ما يفسد المجتمع المغربي، عن طريق تشجيع إباحة شرب الخمر، أو إشاعة أية عادة اجتماعية أخرى تؤدي إلى ضرب بنية المجتمع الأخلاقية.

ويبدو من بعض الإشارات التي ذكرها الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب، أن يهود المغرب كانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم، ولا سيما في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى، التي حفلت بالنكبات ضد اليهود، الذين شكلوا على الدوام قوة مخالفة غير منضبطة. وكان الحي أو الحارة اليهودية تعرف باسم (الملاح) ولم تظهر هذه التسمية بالمغرب إلى في عصر دولة بني مرين، وتعني كلمة (الملاح) النبع المالح، وهذا يدل على أن اليهود في المغرب الكبير، كانوا مصدر قلق وإزعاج للسكان العرب، وإلا لما أطلق على مكان سكنهم مثل هذه التسمية^(١).

وكان اليهود في المغرب الكبير، يلتزمون بدفع ما يطلب منهم من ضرائب مالية، ففي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، قام إدريس الثاني بفرض الجزية على يهود مدينة فاس، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألف دينار^(٢)، ويذكر ابن حوقل أنه كان يوجد في عدة مواضع من أراضي الفاطميين ضريبة، تعرف باسم ضريبة (الجوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن

(١) - مؤلف مجهول: الحلال الموشية، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) - عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ص ١٨٤.

هذه الضريبة هي نفسها الجزية، التي تفرض على اليهود وغيرهم من أهل الذمة^(٣).

لم يختلف اليهود كثيراً في عاداتهم وثقافتهم عن بقية السكان المغاربية، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على التأثير الإيجابي للسياسة العربية المتسامحة مع أهل الذمة. فقد بقي لباس اليهود مشابهاً تقريباً للباس العرب المسلمين باستثناء أنهم كانوا يضعون على رؤوسهم عمامة ذات لون أسود. من ناحية أخرى قلّد اليهود العرب المسلمين في أعمال النظافة العامة، كالاغتسال والختان وإزالة أشعار العانة والإبط وما شابه ذلك من أمور^(٤).

كان من أهم مميزات المغاربة والأندلسيين، أنهم طبقوا التعاليم الإسلامية خير تطبيق فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة، من ذلك أنهم سمحوا لليهود والمسيحيين بممارسة القضاء بالاعتماد على قوانينهم الدينية وغيرها من قوانين وأعراف، فقد كانت لليهود محاكمهم بالقيروان وفاس وسجلماسة وغيرها، وكانت المحكمة اليهودية تعرف باسم (بيت الدين) ورئيسها يعرف باسم (الديان)^(٥)، وكانت محكمة القيروان أهم المحاكم اليهودية في المغرب الكبير، وهي تشبه إلى حد كبير منصب قاضي القضاة عند المسلمين في عاصمتهم المركزية.

وبصورة عامة فإن اليهود المغاربة في العصور الوسطى، حاولوا على عادة اليهود أن يكونون جماعة متميزة في المجتمع المغربي، فلم ينظروا إلى الأمور كما كان العرب ينظرون إليها، فقد كان اليهود يتصورون أن العمل من أجل المصلحة اليهودية، ربما يمكنهم مع مرور الوقت للفوز باعتبارات معينة،

(٣) - ابن خلدون: المقدمة، ص ٢١٢.

(٤) - أحمد سوسة: اليهود في التاريخ، ص ٥٤ وما بعدها.

(٥) - المارودي: الأحكام السلطانية، ص ٤٥ وما بعدها. إسرائيل دلفسون: تاريخ لليهود والعرب في الجاهلية، ص ٧٤.

تجعلهم في مقدمة الركب الاجتماعي، لكن ذلك لم يتحقق منه شيئاً يمكن الوقوف عنده، ذلك أن سيطرة الحضارة العربية الإسلامية وانتشارها الواسع في المغرب الكبير وفي مناطق عالمية كثيرة، جعل الجميع يذوبون في البونقة العربية الإسلامية، لأن هيمنة أية أمة من الأمم على الأمم الأخرى، لا تكون من خلال الحرب فحسب، بل من خلال العلم والثقافة والحضارة المتقدمة أيضاً^(١).

أما في ميدان العلوم والثقافة، فقد كان لليهود بعض النشاطات، حاولوا من خلالها تقليد العلماء العرب وغيرهم، فقد كان باستطاعة أي شخص بالمغرب الكبير، أن يتعلم وأن يطلب المعرفة في الحقل الذي يشاء. فالعلماء اليهود الذين اشتهروا في عدد من المجالات العلمية والسياسية وغيرها، هم أبناء النظام العربي الإسلامي، الذي وفر التعليم للجميع، ومنهم اليهود موضوع هذا البحث، الذين افتتنوا بالثقافة العربية الإسلامية، فبرعوا في الطب والفلسفة وبعض العلوم الأخرى، التي كتبوا في مجالها باللغة العربية أحياناً وباللغة العبرية أحياناً أخرى^(٢).

فاليهود قبل الفتح العربي الإسلامي للمغرب الكبير والأندلس، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل أية مساهمات علمية مؤثرة في تقدم الحضارة الإنسانية. وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص، التي خلقتها أجدادنا القدماء السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون والكلدانيون، وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد الدكتور اليهودي إسرائيل ولفنسون ذلك بقوله: (إن يهود بلاد العرب، لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً. ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكري)^(٣)، ويؤكد غوستاف لوبون هذه الحقيقة بقوله: (لم يكن لليهود فنون ولا

(١) - انظر كتابنا: اليهود في الأندلس والمغرب، ص ١٥٩.

(٢) - دوزي: ملوك الطوائف، ص ٩.

(٣) - أحمد مومنة: العرب واليهود في التاريخ، ص ٣٩٦.

علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا فقط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ^(١).

وهكذا فإن كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم خلال فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذين انتقلوا بالعالم في العصور الوسطى من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة وما ترجموه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، فإنه حصل من جراء اهتمامهم بعلوم العرب كمواطنين في دولهم، كان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة، وهذا ما حدث على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدنى من غيرهم في حقيقة هذه الأمور. وباختصار فإن المحصلة العلمية اليهودية، هي في نهاية الأمر محصلة عربية خالصة. ذلك لأن اليهود ما كان لهم أن يتعلموا علوم العرب، لولا دخولهم إلى المغرب والأندلس المجاورة، وبقاؤهم هناك لفترة طويلة من الزمن.

كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية التي انتشرت بالمغرب الكبير وغيره عن طريق العرب المسلمين، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب وأفضل وسيلة للحصول على المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً، والأمراض والطواعين متفشية في المجتمع. ومع ذلك فإن الأطباء اليهود، اقتصروا في معظم الأوقات على مسألة المداواة بعكس ما جرى للأطباء العرب الذين جمعوا بجدارة بين ممارسة الطبابة والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة والممارسة واستخدام بعض التقنيات الهامة في ذلك الزمان، فقد كانت هذه التقنيات من أفضل وأرقى ما عرفه العالم في العصور الوسطى.

ومن أشهر أطباء اليهود بالمغرب الكبير، اسحق بن سليمان الإسرائيلي المتوفى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م، وهو أحد الطلبة الذين تخرجوا على يد الطبيب اسحق بن عمران بالقيروان، وقد عمل في قسصر الأمير الأغلبسي زيادة الله

(١) - غومنتاف لويون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، أحمد سوسة، المرجع السابق، ص ٣٩٧.

المتوفى سنة ٢٩١هـ/٩٠٨م، وكذلك في قصر عبيد الله المهدي الفاطمي المتوفى سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م. وقد اهتم في مسألة التأليف، وذكر أنه ألف كتاباً في الحمى أسبابها وعلاجها وكتاباً في التغذية^(١). وموسى بن يعازر الذي عمل عند المعز الفاطمي في المغرب وفي مصر^(٢).

أما بقية العلوم الأخرى، فلم يشتهر بها اليهود في المغرب الكبير، ذلك لأن شهرة اليهود في الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام، كانت في الجزء الثاني من هذا الجناح وهو المتمثل بالأندلس^(٣). هذا بالإضافة إلى أن اليهود في المغرب الكبير، عملوا في المقام الأول في الميدان التجاري لوجود أهم محطات التجارة في العصور الوسطى في هذه المنطقة، ولاسيما في سجلماسة وتاهرت والقيروان وغيرها. يستثنى من ذلك السموأل بن يحيى بن عياش المغربي، الذي هاجر إلى المشرق العربي واعتنق الإسلام، وبرع في الرياضيات ووصل في العدديات إلى مستوى لم يصله أحد من معاصريه، كما اشتهر في علم الجبر والهندسة والفلك والطب والأدب، وله من الكتب كتاب (القوافي في الحساب) وقيل أن مؤلفاته بلغت خمسة وثلاثين مصنفاً في العلوم الرياضية^(٤)، والحاخام اليهودي بلطيل بن شفاطيا، الذي كان يمتلك معرفة فلكية، ساعدته إلى تقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز لدين الله الفاطمي، ولكن معلوماته ومعرفته في الفلك، لا تؤهله لأن يكون في عداد العلماء الفلكيين^(٥).

ويمكن أن نذكر في هذا الباب ظهور فرقة يهودية فكرية سميت فرقة القرائين، التي أسسها رجل الدين اليهودي عدنان بن داود، وهي تدعو إلى احتقار التلمود وعدم الأخذ بمضمونه والاعتماد على التوراة في المقام الأول، لأن القرائين على ما يبدو أحسوا بالضرر الفادح، الذي يسببه لهم التلمود ككتاب قائم

(١) - ابن جليل: المصدر السابق، ص ٨٧. ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) - القفطي: المصدر السابق، ص ٢١١.

(٣) - انظر عن ذلك تفاصيل وافية في كتابنا: اليهود في الأندلس والمغرب، ص ١١٩ وما بعدها.

(٤) - الصفي: الموفى بالوفيات، ج ١٥، ص ٤٥٣ وما بعدها.

(٥) - الناصري: الاستقصا، ص ٨٠ وما بعدها.

على التمييز العنصري وتفوق العنصر اليهودي على كل العناصر الإنسانية الأخرى. وقد ظهرت هذه الفرقة في أواخر القرن الثنائي الهجري/ الثامن الميلادي.

ويبدو أن هذه الحركة كانت قد تأثرت بأفكار المعتزلة، وبخاصة في الجانب القائل بضرورة غربلة الحديث النبوي الشريف للوقوف على الأحاديث الصحيحة واعتمادها، وكذلك اعتمدت هذه الحركة على العقل في الحصول على المعرفة، والابتعاد عن الغيبيات نهائياً. وكان لرجال هذه الحركة، وجود بمدينة القيروان ووارجلان فاس وغيرها من المناطق المغربية^(٣).

وفي الختام نقول، إن كل ما تقدم من معلومات وأخبار عن حياة وأنشطة اليهود في المغرب الكبير في العصور الوسطى، لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة، التي قاموا بها تحت مظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة المطمئنة والحرية والسلامة، وعلى الرغم من ذلك فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا في إزلال الضرر بالعرب، حينما كانت تساعدهم الظروف. وقد احتفظنا ببعض الأمثلة التي تؤكد حقيقة هذا الواقع، فلم نذكرها في سياق الفقرات السابقة لأهميتها المطلقة في هذا المكان. من ذلك أن دخول العرب إلى شمال إفريقية، هو الذي جدد آمال اليهود في استعادة مكانتهم البارزة، التي كانت منهارة في هذا الوقت بالذات، عن طريق تحريض العرب للدخول إلى البلدان الأوروبية، التي كانت مركز ثقل للمسيحية. وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو إطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، وبين الإسلام السذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعيد فيخرج الطرفان بعد النزاع منهكي القوى، فينقض اليهود عليهما بسهولة ويقررون ما يرونه مناسباً لمستقبلهم العام.

(٣) - ابن حزم: الملل والنحل، ج ١، ص ٨٢. عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي، طبعة أولى،

القاهرة، بدون تا، ص ١٥٢.

من أجل هذا عرض اليهود أنفسهم لخدمة العرب، وظهروا بمظهر من يريد تحقيق المصلحة العربية، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفهم، يمدونهم بالأخبار والمعلومات عن المسيحية، فرحب العرب بذلك وقربوهم وعينوهم في كثير من المواقع العامة، فصار اليهود يرغبونهم في فتح إسبانيا التي تزخر بالخيرات والمنافع المختلفة، وقد لاقى هذا الأمر قبولا عند القادة العرب مع مرور الأيام، ذلك لأن غرضهم من الفتوحات، كان يتجسد بنشر مبادئ الإنسانية الرفيعة ومبادئ الإسلام النبيلة.

ولما تحقق للعرب فتح معظم شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) قاموا بإعطاء اليهود أشياء مجزية مقابل المساعدات البسيطة، التي قدموها للعرب هناك، فكافأهم العرب بإطلاق حرية العمل لهم في إسبانيا والمغرب، فقاموا بتطوير أحوال وواقع الجاليات اليهودية، وإنشاء المعابد لهذه الجاليات، والسيطرة على المراكز التجارية الهامة، فأثروا وكثرت أموالهم بشكل كبير، حتى غسدت معظم الثروات الحيوية في أيديهم.

وحتى ينقموا من المسيحيين، امتهنوا تجارة العبيد، فكسبوا يواكبون الجيوش العربية، التي كانت في حركة شبه مستمرة باتجاه الشمال إلى أجزاء من أوروبا، فيقومون بشراء الأسرى المسيحيين ثم يبيعونهم بأسعار مرتفعة للغاية في البلدان الأخرى، أو أنهم يقومون بإعادتهم إلى أهلهم مقابل أموال طائلة. وعلمي الرغم من حبهم للمال أكثر من أي شيء آخر في الحياة، فإنهم يعملون أحياناً على تعذيب هؤلاء الأسرى بشتى الوسائل والطرق، ويقدمون على قتل بعضهم انتقاماً من المسيحية.

وعندما استقرت أمور العرب بالأندلس، تقرب منهم اليهود وتظاهروا بالمحبة والوفاء، مما شجع الحكام العرب على تقديمهم على غيصرهم والاعتماد عليهم في مسائل متعددة، فأسندوا إليهم المناصب الرفيعة ولاسيما الوزارة، التي تولوها على سبيل المثال حمداي بن شبروط في أزهي عصور العرب بالأندلس

على الإطلاق، وهو عصر الخلافة الأموية هناك^(١)، فقد استخدمه الخليفة الناصر لدين الله وزيراً للمالية وعلى الرغم من عنصريته وتعصبه لليهود.

وهناك أقوال كثيرة تعزو إلى اليهود ارتكاب مئات الجرائم في إسبانيا، مما جعل الأسبان يتذمرون من الحكم العربي هناك، هذا الحكم الذي جعل اليهود أحراراً كبقية السكان، لكنهم لم يقدروا حق الحرية، فراحوا يرتكبون الجريمة تلو الجريمة، وحينما شعروا بحقيقة ذلك قاموا بالتقرب من الأسبان منذ زوال الخلافة الأموية بالأندلس^(٢)، وبخاصة حينما تمكنت البرتغال من تحرير نفسها، وكذلك في القرن الرابع عشر اتفقوا مع الإسبان على العرب، فانقضوا على مملكة غرناطة، فقتلوا على آخر معقل عربي في إسبانيا^(٣).

وهنا لابد من التنويه إلى مسألة هامة، هي أن يهود المغرب بشكل عام، لم يلتزموا في حدود أعمالهم التي رسمت لهم، بل كانوا دوماً يتجاوزون هذه الحدود لتحقيق مصالح اليهود، التي كانت تستدعي التآمر على المصالح العربية الاستراتيجية الكبيرة. نضرب على ذلك مثلاً ما قام به حسداي بن شبروط وزير مالية الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي راح يعمل في مجال العلاقات الخارجية، حتى أصبح معنياً بحل المشاكل الدبلوماسية الناشئة بين الخلافة وبيزنطة، وبينها وبين الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وقد وظف هذه الأعمال الدبلوماسية، في جمع معلومات عن اليهود خارج الأندلس، واهتم بصورة خاصة بيهود بيزنطة لأنهم كانوا مضطهدين. وبما أنه كان يشغل وزيراً في حكومة أعظم خليفة في العصور الوسطى بالأندلس، والذي كانت تهتز لسه بيزنطة وتحسب له الحسابات، فإنها أي بيزنطة، كانت تهتم بما يعرضه عليها الوزير اليهودي، الذي كان يهيمه في المقام الأول إصلاح وضع اليهود البيزنطيين، ورفع الضغط عنهم وتحسين معاملتهم وأوضاعهم.

(١) - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٨٥.

(٢) - كان زوال الخلافة الأموية بالأندلس في سنة ٤٢٢ هـ.

(٣) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٠. ج. غاب: هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في العصور الوسطى، ص ٩.

وقام حسداي أيضاً بالاتصال مع مملكة الخزر اليهودية، من أجل توثيق العلاقة بين يهود الخزر ويهود الأندلس. وكذلك توثيق العلاقة بين يهود الخزر والإمبراطورية البيزنطية، لتوفير الحماية ليهود بيزنطة وإعطائهم كامل حرياتهم، وكان يأمل إذا تحقق ذلك من منع الخلافة العربية في بغداد من مد سيطرتها ونفوذها، الأمر الذي يؤدي إلى تقوية بيزنطة ودولة الخزر على كافة الصعد، وهذا بدوره يمنع اللقاء بين خلافة بغداد وخلافة قرطبة، ويمنعهما من التوسع في الشرق والغرب على حد سواء.

هذه هي الصورة الحقيقية البشعة ليهود المغرب خلال العصور الوسطى، هذه الصورة التي لم تتغير حتى يومنا هذا، ولا نظن أنها ستتغير إلى الأفضل في مستقبل الأيام. فقد كان اليهود في المغرب وسيطلون إلى الأبد مجموعة بشرية، لا تعرف الوفاء ولا الأمان ولا الالتزام بالعهد والمواثيق، لأن خداع البشر وخيانتهم ونهب أموالهم وثرواتهم، كلها صفات بارزة في حياة اليهود، تميزهم عن كل شعوب الأرض، والدرس الأندلسي والمغربي خير شاهد على ذلك. فقد قدم العرب لليهود هناك كل وسائل الدعم والحماية، مما ساعدهم على العيش بهدوء واطمئنان وأمان، ومع ذلك فقد وقفوا ضدهم فسي الخندق الإسباني، يقاتلونهم في ميدان الحرب والاقتصاد حتى سقطوا في النهاية إلى غير عودة.

هذا ما يجب أن ندرسه نحن العرب بعناية فائقة، لأن أخطر ما يواجهنا في الحاضر وفي المستقبل أيضاً، أمر الوجود اليهودي قريباً من دولنا العربية، التي استعصى عليها أمر التوحد والاندماج في دولة واحدة قوية، تستطيع مواجهة كل التطورات السلبية في المستقبل، والتي سيكون اليهود السبب الرئيسي فيها، لأنهم استطاعوا أن يستغلوا دولة العرب القوية في الأندلس لصالحهم، في وقت كان العرب فيه سادة العالم فكيف سيكون الأمر في هذا الزمن، والعرب يعسانون من داء التنسنت والتدابير والضعف على كل المستويات. وعلى هذا فإن العرب إذا أرادوا أن يحيوا حياة كريمة طيبة، فلا بد لهم من تحقيق وحدة شاملة، تنصهر في بوتقتها الحدود المصطنعة والعروش الهزيلة، لتولد مرحلة عربية قوية ومزدهرة، تفرض على العالم برمته احترام الإرادة العربية والوجود العربي، وبالتالي تؤدي

إلى زوال الأسطورة اليهودية في المنطقة العربية إلى الأبد، بعد أن استفاد العرب
من دروس الماضي المرة.





المصادر والمراجع

- ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، الحلة السيرة، جزء ١٢، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، طبعة مدريد، ١٩٦٣.
- التكملة لكتاب الصلة. تحقيق كوديرا، طبعة مدريد، ١٩٦٧ المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصديقي. تحقيق كوديرا، طبعة مدريد، ١٨٨٥م.
- ابن الأثير، (علي بن محمد الجزري)، الكامل في التاريخ، ١٢، جزء طبعة، القاهرة ١٣٠٣هـ، وطبعة ١٣٥٧ هـ.
- ابن الأحمر، (أبو الوليد اسماعيل)، روضة النسر في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، طبعة القاهرة ١٢٨٦هـ.
- الإدريسي، (أبو عبد الله محمد الشريف)، وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق دوزي ودي خوية، طبعة لندن، ١٨٦٦م.
- أماري، (ميشيل)، المكتبة العربية الصقلية، طبعة، ١٨٧٥م.
- الباروني، (سليمان بن عبد الله)، مختصر تاريخ الإباضية، طبعة تونس، ١٩٣٨.
- بابا، (أحمد التمكني)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبعة القاهرة، ١٣٢٩هـ.
- بالنتيا (جنثالط)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥٥.
- بدر، (أحمد)، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، طبعة أولى دمشق، ١٩٦٩، وطبعة ثانية، ١٩٧٢.
- تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري (عصر الخلافة)، طبعة دمشق، ١٩٧٤.

- تاريخ المغرب والأندلس، طبعة دمشق ١٩٨٢ .
- البكري، (عبد الله بن عبد العزيز)، المغرب في ذكرى بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دي سالن، طبعة الجزائر، ١٩١١ .
- جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك تحقيق الدكتور عيسى الرحمن علي الحجي طبعة بيروت ١٩٦٨ .
- ابن بسلام، (أبو الحسن الشنتري)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول والثاني، الجزء الأول والقسم الأول للجزء الرابع، طبعة القاهرة، ١٩٤٥ .
- ابن بشكوال، (خلف بن عبد الله)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق كودي، طبعة مدريد، ١٨٨٣م .
- البديق، (أبو بكر الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، طبعة الرباط، ١٩٧١ .
- ابن تومرت، (المهدي محمد بن عبد الله)، أعز ما يطالب تحقيق غولد تسيهر، طبعة الجزائر، ١٩٠٣ .
- التيجاني، (أبو عبد الله بن محمد)، رحلة التيجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، طبعة تونس، ١٩٥٨ .
- ابن جبير، (محمد بن أحمد الأندلسي)، رحلة ابن جبير، طبعة بيروت، ١٩٤٩ م .
- الجيلالي، (عبد الرحمن)، تاريخ الجزائر العام، ج ١ و ٢، الطبعة الثالثة الجزائر، ١٩٧٦ .
- ابن حزم، (علي بن أحمد)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبعة القاهرة، ١٣١٧ هـ .
- الحسني، (جعفر)، محاضرات المجمع العلمي العربي، ج ٣، طبعة دمشق، ١٩٥٤ .
- الحميدي، (محمد بن فتوح)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق محمد بن تلويت الطنجي، طبعة القاهرة، ١٣٧١ هـ .

- الحميري، (عبد المنعم السبتي)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، ١٩٧٥.
- حوراني، (جورج)، العرب والملاحة، طبعة القاهرة، ١٩٥٨م.
- ابن حوقل، (محمد بن علي النصيبي)، صورة الأرض، طبعة بيروت، بلا تاريخ.
- ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في رجال الأندلس، قطعة بعنوان القسم الثالث، تحقيق الأب ملتشور أي أنقونيا ، طبعة باريس، ١٩٣٧م .
- قطعة ثانية بتحقيق عبد الرحمن علي الحجي طبعة بيروت ١٩٦٥.
- ابن حيون، (النعمان بن محمد المغربي)، المجالس والمسائرات، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٦٠٦ .
- رسالة افتتاح الدعوة تحقيق وداد القاضي طبعة بيروت ١٩٧٠.
- ابن خاقان، (الفتح بن محمد الإشبيلي)، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع فهرسه محمد العنابي، طبعة تونس، ١٩٦٦م.
- ابن الخطيب، (لسان الدين محمد بن عبد الله)، أعمال الأعلام فيمن بوسع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة بيروت ١٩٦٦. وهو قسم خاص بالأندلس وطبعة القاهرة ١٩٦٤، أما القسم المتعلق بالمغرب فهو تاريخ المغرب في العصر الوسيط تحقيق إبراهيم العبادي وإبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤. اللوحة البيرية في الدولة النصرية، طبعة القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- الإحاطة في أخبار غرناطة في جزئين تحقيق عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٧٣.
- رقم الحال في نظم الدول طبعة تونس ١٣١٧هـ.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق ١٢٨٤هـ.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً.

- ابن خلكان، (أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٥٠.
- الدباغ، (عبد الرحمن الأنصاري)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبعة تونس، ١٩٠١م.
- دبوز، (محمد علي)، تاريخ المغرب الكبير، ج ٢ و ٣، طبعة القاهرة، ١٩٦٣.
- ث ابن أبي دينار، (محمد بن أبي القاسم الرعيني)، المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكبي، طبعة تونس، ١٩٦٨ .
- الرقيق القيرواني، (ابراهيم)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي، طبعة تونس، ١٩٦٨.
- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة الرباط، ١٩٧٣ .
- الزركشي، (محمد بن ابراهيم اللؤلؤي)، تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية، تحقيق محمد ماضور، طبعة تونس، ١٩٦٦.
- زغلول عبد الحميد، (سعد)، تاريخ المغرب العربي، طبعة القاهرة، ١٩٦٥.
- زيدان، (جرجي)، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، طبعة القاهرة، ١٩٥٨ .
- سالم، (السيد عبد العزيز)، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، طبعة بيروت، ١٩٦٢.
- تاريخ المغرب الكبير، ج ١ و ٢، طبعة الإسكندرية، ١٩٦٠.
- السلوي، (أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، طبعة الدار البيضاء، ١٩٥٤.
- ابن صاحب الصلاة، (عبد الملك)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، طبعة بيروت، ١٩٦٤.

- صفير، (أحمد)، مدينة المغرب العربي في التاريخ، ج ١، طبعة تونس بلاتا.
- طرخان، (ابراهيم علي)، المسلمون في أوروبا، طبعة القاهرة، ١٩٦٦.
- ابن عبد الحكم، (أبو القاسم عبد الرحمن)، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق غاتوا، طبعة الجزائر، ١٩٤٨ وطبعة القاهرة، ١٩٦١ تحقيق عبد المنعم عامر.
- ابن عذاري، (أحمد بن محمد المراكشي)، البيان المغرب فسي أخبار الأندلس والمغرب، ج ١ وج ٢، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، طبعة لندن، ١٩٤٨ و ١٩٥١، وطبعة صاندر بيروت، ١٩٥٠.
- علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، طبعة دمشق، دار طلاس ١٩٨٩.
- الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري - طبعة دمشق دار شمسال ١٩٩٥.
- معجم أطباء المغرب والأندلس في العصور الوسطى طبعة دمشق ١٩٩٣.
- تاريخ الفكر العربي الإسلامي - طبعة جامعة حلب ١٩٩٧.
- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، طبعة بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤.
- ابن القاضي، درر الحجال في غرة أسماء الرجال، طبعة الرباط ١٩٣٤.
- جذوة الاقتباس جزءان، طبعة الرباط، ١٩٧٤.
- ابن القطان، (علي بن محمد الكنائي)، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، طبعة الرباط، ١٩٦٤.
- القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة ليبزغ، ١٩٣٠ م.
- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، طبعة مدريد، ١٩٢٦.

- أبو الفداء، (إسماعيل بن علي)، المختصر في أخبار البشر، طبعة بيروت، ١٩٥٦.
- فشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العربي، طبعة القاهرة، ١٩٥٤م.
- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج ١، طبعة القاهرة، ١٩٢٤.
- فكري، (أحمد)، المسجد الجامع بالقيروان، طبعة القاهرة، ١٩٣٦.
- كرد علي، (محمد)، خطط الشام، طبعة دمشق، ١٩٢٦ - ١٩٢٨.
- ابن الكردبوس، كتاب الاكتفاء في أخبار العلماء، (القسم الخاص بالأندلس)، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، طبعة مدريد، ١٩٦٥م.
- اللواتي الطنجي، (محمد بن عبد الله)، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة باريس، ١٩٢٢.
- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، طبعة القاهرة، ١٩٥٦.
- المالكي، (عبد الله بن أبي عبد الله)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، ج ١، تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥١.
- محمد كامل حسين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، طبعة مصر، ١٩٨٧.
- مجهول، كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، طبعة الجزائر، ١٩٢٠.
- المراكشي، (ابن عبد الملك)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الرابع والخامس، تحقيق الدكتور إحسان عباس.
- المراكشي، (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، طبعة القاهرة، ١٩٤٩.

- المسعودي، (علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة بيروت، ١٩٦٥.
- التنبيه والإشراف تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي ١٩٢٨ .
- المقرئ (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٤٩.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ثلاثة أجزاء بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي طبعة القاهرة ١٩٤٢.
- المقرئ، (أحمد بن علي)، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، تحقيق جمال الدين الشيال، طبعة القاهرة، ١٩٤٨، ج ٢ و ج ٣، تحقيق محمد حلمي أحمد، طبعة القاهرة، ١٩٧١ - ١٩٧٣ .
- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق لافونيتي الكنترا، طبعة مدريد، ١٨٦٧م.
- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، طبعة الرباط، ١٩٣٦.
- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة الرباط، ١٩٣٤.
- مؤنس (حسين)، فتح العرب للمغرب، طبعة القاهرة، ١٩٤٧.
- اليعقوبي، (أحمد بن يعقوب)، كتاب البلدان طبعة ليدن ١٨٨١ م .
- يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين الموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، طبعة القاهرة، ١٩٤١.

المدقق اللغوي:

د. نبيل أبو عمشة

اللجنة العلمية:

د. سميحة أبو الفضل

د. وفاء جوني

د. محمد زيود

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات